قضايا من تاريخ
الحروب الصليبية

دكتور رأفت عبد الحميد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى
١٩٩٨

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : منى العيسوى

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون . ٣٨٥١٢٧٦

- ٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون :٣٨٧١٦٩٣

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St , Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

5, Maryoutia st ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

محتوى الكتاب

صفحة

فاتحة الكتاب

لم تلق فترة من فترات التاريخ الإنسانى ، على امتداد عمر الزمان به ، من الاهتمام والدراسة والتحليل والنقد ، مثلما لقيت فترة الحروب الصليبية ، ولاحظيت مثلها أخرى بهذا الكم الهائل من المؤلفات التى دارت حولها ، أو غاصت فيها ، وليس هذا بقاصر على الكتب الحديثة التى تمتلئ بها دور الكتب فى الشرق والغرب سواء ، بل يشمل بالأحرى تلك المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية المعاصرة لأحداث الحروب الصليبية .

وليس هذا بالأمر المستغرب إذا ما علمنا أن تلك الفترة دار فى طاحونتها عوالم ثلاثة ، عالم الغرب اللاتينى مبتدع فكرة هذه الحروب وحامل صليبها ، والعالم البيزنطى ، الذى ساد الاعتقاد طويلا ولايزال عند عدد من الدارسين كثير ، حول مسئوليته المباشرة عن قيام مثل هذه الحروب ، وهو من هذه الادعاء براء !! لأن مالحق به من الضرار على أيدى "جند الرب" "حملة الصليب" لم يكن يقل كثيرا عما حل بالمسلمين ، والعالم الإسلامى الذى لم يكن له فى هذه الحروب ناقة ولاجمل ، ولكنه حمل أوزارها وعانى من ويلاتها على امتداد مائتى عام ، مما اعتبره المنصفون من حفدة الصليبيين أنفسهم فى الغرب الأوربى ، وصمة عار لطخت جبين الكنيسة الكاثوليكية فى ذلك الزمان .

وكان طبيعيا أن يتنافس المتنافسون من أبناء هذه العوالم الثلاثة فى تسجيل وقائع وحادثات هذه الحركة الصليبية ، كل من وجهة نظره الخاصة ، مابين مبرر ومدافع وشامت ، أو مجرد راو فحسب من جانب اللاتين ، وناقم وساخط ومتربص حذر أو مسجل جيد من جانب البيزنطيين ، ومحدث وحاث على الجهاد وناقد ومفتخر بالظفر وعين ثاقبة من جانب المسلمين ، حتى خلف جميعهم تراثا فكريا هائلا ، وحتى أن أى باحث أو دارس لتاريخ الحركة الصليبية لايعانى مطلقا من نقص المصادر التاريخية ، بل إنه يكابد المشقة من وفرة المعلومات وغزارتها ، وشدة اختلاطها وتنوعها !

وشأنى شأن أى باحث استهوته الحروب الصليبية ببريقها وغبارها ، سرت الطريق مشدودا بوقائعها ، ولأنى بدأت رحلتى العلمية فى عالم العصور الوسطى بشقيه البيزنطى واللاتينى ، واستكملت الدائرة باللبنة التى لابد منها ، العالم الإسلامى ، تمثلت لناظرى نقطة التقاء هذه العوالم الثلاثة بثقافاتها المختلفة ، وخلفياتها المتباعدة ، مع نهاية القرن الحادى عشر الميلادى وحتى أخريات سنى القرن الثالث عشر .

ولم أسمح لغبار المعارك الطاحنة أن يلفني في دياجير ظلمائه ورائحة موتاه وجراحات مصابيه ، ولا دروسها ونتائجها ، ولكنى توقفت عند العوالم الثلاثة ، والتقطت من كل واحد منها قضية ، تبدأ به ولاتنتهى عنده ، تخصه وتتسع لتضم غيره ، فبدت الروافد متفرقات عند البدء ، ولكن مجرى واحدا يضمها إلى حيث المنتهى .

وجاءت أولى مراحل التسيار من لدن اللاتين ، مدخلا طبيعيا تبتدىء به الحروب الصليبية، وأقمت في عقل البابوية ، المحرك الفاعل للحركة منذ ارهاصاتها على عهد جريجورى السابع، الشيطان المقدس ، مرورا بخلفائه أجمعين الذين نفخوا فيها من روحهم ، حتى خمدت منها الأنفاس ، وأنزلت نفسي منزلا مراقبا متحريا مدققا من فكرها ، وتساءلت منذ البداية .. ترى هل كانت البابوية التى نفخت فى كير هذا الآتون ، تسعى جاهدة إلى نجاح هذه الحركة ؟ وإلى أي مدى ؟ وبأية ضمانات ؟ وتساءلت ثانية .. ترى .. هل ساهمت البابوية فى فشل عدد من هذه الحملات ؟ وأعدت التساؤل في دقة أكثر ، ترى .. هل سعت البابوية جاهدة ليلحق الفشل بهذه الحملات ؟! وكيف كان مسعاها ؟ ولم ؟

وتابعت سيرى فإذا بى أمام العالم البيزنطى وقد لفه الاتهام من جانب اللاتين بأن زعماءه وبنيه قد خانوا القضية الصليبية ، وأعطوا ظهورهم لحملة الصليب ، ونقضوا عهدهم من بعد إيمانهم ، فباتوا وقد خندق عليهم الغرب اللاتينى فى أخدود "الهرطقة" و"الخيانة العظمى" وآليت على نفسى إلا أن أسائل الأباطرة البيزنطيين والمؤرخين من هنا وهناك ، ورجال الساسة في مختلف العصور .. ماذا كانت نقطة البدء عند القسطنطينية ؟ أجيوش جرارة ، وملوك وأمراء ، ومغامرون ومرتشون ، وهاربون من الديون ، ومن الضرائب متهربون ، وقطاع طرق ولصوص ، وزناة وخطاؤون ، رعاع القوم وحثالتهم ، وعلية القوم وسادتهم ؟! أم جماعات من الجند مرتزقة ، اعتادت بيزنطة على استقدامهم ، يعملون بأمر قوادها ويتقاضون أجورهم من خزانتها ، ويحققون أغراضها الرئيسية فى استرداد ما فقدته من أراضٍ على يد السلاجقة بعد كارثة مانزكرت عام ١٠٧١ ؟ ووجدت الهوة واسعة بين ما كانت تؤمله بيزنطة من الحرب ، وماخرج اللاتين من أجله ، كل منهم يسعى لمبتغاه ، وإن كانت عيون الصليبيين جميعا وعلى رأسهم البابوية ، قد جمدت عند القسطنطينية ، ولم تزل بها حتى أسقطتها عام ١٢٠٤ ، ليهنىء الغرب اللاتينى نفسه بالانتصار على "كنيسة مارقة ودولة متمردة" !

وسعيت حثيثا لأصل إلى العالم الإسلامى ، ووقفت مشدوها أمام واحد من أعظم ملوكه قدرا ، وأحسنهم كياسة وفطنة ، وأشدهم دهاء وحسن سياسة ، الملك الكامل محمد ، سلطان

مصر الأيوبى ، وهالنى مارأيته من الاتهامات التى رماه بها معاصروه ، وتناولها المحدثون بشىء من الصمت أو الحياء ، وعالجوها فى خفة بالغة تجنبا للحرج ، مع أن التاريخ الصادق لايعرف "المجاملة" ودارت أقوال معاصريه واللاحقين حول "إفراطه" فى التفاوض وطلب الصلح من الصليبيين ، و"تفريطه" فى حق المسلمين و"قضية الجهاد" عندما سلم القدس للإمبراطور فردريك الثانى ، وعكفت على قراءة النصوص كلها من جديد ، وعشت العصر الذى كان يحياه الكامل الأيوبى وفردريك الألمانى النورمانى ، واستنطقت تلك النصوص وناقشتها ، وقطعت شوطا طويلا فى رحله العلاقات المتميزة التى كانت قائمة بين رجلين هما بحق "أعجوبة الدنيا"، تعالى كلاهما بسعة ثقافته واتساع أفقه على عالم طفح بالتعصب ، ودنيا اتشحت بالاصطراع !

وتوقف بى المسير عند قلب العالم الإسلامى النابض ، وشوكة الألم الدامى فى جنب الصليبيين ، مصر ، التى بدت لأعين هؤلاء" رأس الأفعى" التى يجب أن تدق ليبقى للصليبيين فى الشام الوجود ، واخترت واحدا من قوادها العظام ، جمع بين السيف والقلم ، والحرب والدبلوماسية أعنى الأمير فخر الدين بن الشيخ ، مستشار الكامل الأيوبى ، وقائد العسكر على عهد ابنه الصالح نجم الدين أيوب ، وأحد فرسان المناوشات الممهدة لمعركة المنصورة عام ١٢٥٠ التى كانت بداية النهاية الحقيقية للوجود الصليبى ، بل والحركة الصليبية كلها ، بعد أن لقى لويس التاسع ، الملك الفرنسى ، هزيمة مروعة على يد الجيش المصرى ، وسيق أسيراً إلى دار القاضى فخر الدين ابن لقمان .

وساءنى أن الرجل لم يأخذ حقه من الدراسة ، ولم يسع قاض فى محكمة التاريخ أن يرد عنه الاساءات التى لحقت به دون وجه حق ، ولا الاتهامات التى أشيعت حوله ، وهى كفيلة أن تجرده من الشرف العسكرى ، رغم كل مافعله دفاعا عن مصر وحماية لحرمها ، وعشت مع فخر الدين عاما كاملا ، ولازمته ورأيت جراحاته أوسمة معلقة على تاريخه ، وحاولت ولعلى أكون قد وفقت ، ذلك ما أرتجيه ...

رأفت عبد الحميد

الفصلَ الأول

الفكر البابوى الصليبى

الفكر البابوى الصليبى

ماذا لو قلنا مباشرة ودون أية مقدمات ، إن البابوية كانت السبب الرئيسى فى فشل كثير من الحملات الصليبية ؟! بل ما الذى سيكون عليه الأمر لو ذهبنا إلى حد القول إن البابوية سعت بكل ما وسعها الجهد إلى أن يكون الإخفاق حليف هذا العدد من تلك الحملات ؟ !

ولكن ماذا لو كنا أكثر دقة وأشد تثبيتا وقررنا من البداية دون تردد أن البابوية وقفت موقف المناوئ للحملات الصليبية مذ تحولت ريادة الحركة من يد الأمراء إلى يد الملوك ، ولما كان هذا التحول قد حدث مع الحملة الثانية حتى السابعة - مع استثناء الرابعة ، فإن هذا يعنى أن المناوأة بدأت مبكرا منذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى حتى آخر سنى النصف الأول من القرن الثالث عشر . ولم يكن هذا الموقف البابوى العدائى تجاه حملات الملوك، جامدا بلا حراك ، بل كان ديناميكيا مؤثرا إلى حد بعيد جدا ، استخدم فيه الحبر الرومانى كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، وكانت الأخيرة هى الغالبة ، للقضاء على أى أمل فى النجاح قد يداعب ملكا من ملوك أوروبا ، حمل الصليب وخرج متجها إلى الشرق !!

وقد تكون الحملة السابعة - مع التحفظ - هى الاستثناء الوحيد فى العداء البابوى تجاه حملات الملوك ؛ ذلك أن لويس التاسع كان عند البابوية قديسا ، خرج وفاءً لنذر نذره ، وإيمانا بفكرة "الحرب المقدسة" ضد أعداء المسيح ، وهى اللافتة العريضة التى علقتها البابوية ، وفعلت تحت ظلها الأفاعيل ضد المسلمين فى الشرق ، بل والمسيحيين فى الغرب ، والذين كانت عذاباتهم بيد راعيهم ، خليفة بطرس ثم نائب المسيح على الأرض ، أشد وأنكى !!

وحتى لايكون حديثنا هذا ضربا من ضروب التنظير ، أو دربا من دروب الجدل العقيم ومتاهاته ، فمن الأجدى أن نرتد على آثارنا قصصا ، لنجلو حقيقة الأمر ، ونناقش الوقائع من مظانها الأصلية ، ونرى إلى أى مدى تصدق هذه المقدمات .

ففى السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٠٩٥ ، وفى مدينة كليرمونت Clermont بجنوب فرنسا ، وفى الجلسة الأخيرة من جلسات المجمع الذى شهدته المدينة على امتداد تسعة أيام سلفت ، وجه البابا أوربان الثانى Urban II الدعوة للجميع حاضرهم وغائبهم ، كى يحملوا الصليب ويولوا وجوههم شطر الشرق لإنقاذ إخوانهم المسيحيين هناك من ويلات العذاب التى

يتعرضون لها - بزعمه - واستخلاص القبر المقدس من الانتهاكات التى لحقت به - فى تصوره- على يد المسلمين "قال : "ياشعب الفرنجة ، أنتم يامن تعيشون خلف جبال الألب ، يامن اختاركم الرب وأحبكم من خلال أعمالكم الكثيرة ، يامن تميزتم عن سائر الأمم بموقع أرضكم وعقيدتكم الكاثوليكية والشرف الذى أوليتموه للكنيسة .. إليكم نتوجه بخطابنا نستحثكم ، ولتعلموا أن دافعا محزنا جاء بنا إلى بلادكم .. إنها الحاجة إليكم وإلى كل المؤمنين "[١] .

ويدخل البابا بعد ذلك فى حديث طويل عن التعذيب والقمع والإضطهادات الوحشية التى يتعرض لها - على حد قوله - المسيحيون الشرقيون ، فى أسلوب يمس شغاف قلوب سامعيه وينزع بهم إلى القتال ، ثم يتساءل فجأة وهو يرمى إلى ما وراء تساؤله ببعيد : "على من إذن تقع مهمة الانتقام من هذا ، ومهمة الخلاص منه ، إذا لم يكن على عاتقكم أنتم يامن اختاركم الرب دون سائر الأمم ليسبغ عليكم نعمة المجد فى السلاح وجسارة القلب والبسطة فى الجسم ، والقدرة على التحدى ؟ لتكن قصص أسلافكم العظام حافزا لكم يحرك أرواحكم صوب القوة ؛ فها هو شارلمان وابنه لويس وغيرهما من ملوككم وقد دمروا ممالك الوثنيين ومدوا حدود البيعة المقدسة داخلها .. أيها الجنود يامن تتمتعون بالقوة وتنحدرون من صلب آباء لايشق لهم غبار ، لا ترضوا لأنفسكم مظهرا أقل من أسلافكم ، وتذكروا على الدوام قوتهم ، وإذا كان حب الأطفال والوالدين والزوجات سوف يعوقكم ، تذكروا ما يقوله سيدنا فى الانجيل "من أحب أبا وأما أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن أحب إبنا أو إبنة أكثر منى فلا يستحقنى" {متى ١٠/٢٧-٢٨} وكل من ترك بيته أو أباه أو أمه أو زوجه أو أطفاله فى سبيل اسم المسيح سوف ينال قدرها مائة مرة وسوف يستحق الحياة الخالدة"[٢] .

ثم يعرج إليهم حاملا بلسانه طبقا شهيا يسيل له لعاب السامعين الذين يعانون من وطأة نظام اقطاعى قصم ظهور الأقنان ، وأفسد سلام النبلاء بحروب أهلية طاحنة ، ومغامرات تنافسية إقطاعية لانهاية لها ، فشلت معها كل جهود "هدنة الرب" و"سلام الرب" ويعدهم البابا وعدا حسنا فيقول : "... هذى الأرض التى تعيشون عليها يحوطها البحر من كل

---

(١) رواية روبير الراهب عن مجمع كليرمونت ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق ، القاهرة بدون تاريخ ، ص٧٧ .

(٢) نفسه ، ص٧٨ - ٧٩ .

جانب ، وتحفها سلاسل الجبال من كل ناحية ، وتضيق بكثرتكم ، وتشح بالثروة ، ولاتكاد تغل من الطعام ما يكفى الزارعين ، ولذا فأنتم تشنون الحروب ضد بعضكم بعضا ، وتقتلون أنفسكم بأيديكم . الآن أوقفوا هذه الكراهية ، وكفوا عن النزاع ، وأطفئوا نيران الحرب بينكم، وانطلقوا إلى طريق القبر المقدس لتنقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس الذى يثير الرعب فى النفوس ، ولتكن لكم الأرض خالصة من دونهم ، فهى الأرض التى حدثنا عنها الكتاب المقدس بأنها تفيض باللبن والعسل" (٣) .

ورجّع الفضاء الصدى الناجم عن صيحات الجمع المحتشد وهو يصرخ "إنها" إرادة الله" و"الله يريدها" Deus Vult.. Deus Vult وسرت الدعوة مسرى النار فى الهشيم ، وكأنما كان يتلهف المجتمع بأسره لسماع مثلها ، الأمراء والفرسان والأقنان والزناة والخطاة ، واللصوص والسفاكون ، والمتهربون من الضرائب ، والهاربون من الديون ، والفارون من السجون .. المجتمع كله ، عليته وحثالته ، أو أضلاعه الثلاثة التى حدثنا عنها ألفرد العظيم Alfred the Great ملك انجلترا فى القرن التاسع ، ضلعه الذى يصلى .. رجال الاكليروس ، وضلعه الذى يحكم . الأمراء العلمانيون ، وضلعه الذى يقوم بخدمة هذين الضلعين - الفلاحون الأقنان . وتناول الشعراء الدعوة فتغنوا بها وترنموا :

ألا أيها المحبون العاشقون أفيقوا

ودعوا النوم .. وكفى

فالقبّرة المغردة تردد أن النهار

قد جاء .. وصفا

وتشدو بأن السلام آت قريب

يعطيه الرب واسع المغفرة .. المجيب

لأولئك الذين فى حبه يحملون الصليب

يعانون الآلام بالحب .. وصبر عجيب(٤).

---

(٣) نفسه .

(٤) "Vos qui ameis de Vraie amour" An Anonymous poet writes of the love of God expressed by the Crusader (in Riley - Smith, The Crusades, Idea and reality, London, 1981, pp. 89-90 .

أما الملوك فقد وضعوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا نيفا وخمسين سنة بعد الدعوة ، إلى أن قرروا تلبية النداء بحمل الصليب وعلى مسئوليتهم الخاصة ، ووضعوا على كواهلهم عبء الحملات القادمة إلى الشرق ابتداء من الثانية فى أخريات النصف الأول من القرن الثانى عشر ، حتى السابعة فى منتصف القرن الثالث عشر ، باستثناء الحملة الرابعة التى كانت لها ظروفها الخاصة ونتائجها الخاصة أيضا . وهذا الموقف الذى اتخذه ملوك أوروبا آنذاك بلا استثناء ، يثير كثيرا من علامات الاستفهام.. أتراهم لم يكونوا يؤمنون بالفكرة فى حد ذاتها ؟ أم لم يكن لديهم اقتناع بجداوها فى مواجهة عدو لم يكونوا على علم كامل بقوته العسكرية وتعبئة جيوشه ؟ أم تراهم أدركوا المغزى الحقيقى الذى كانت تهدف إليه البابوية من دعوتها هذه ، والهدف الكامن وراء عبارات البابا ودعايته الظاهرة ؟ أم أن البابوية نفسها كانت راغبة عن اشتراكهم كارهة إياه لحاجة فى نفس رعيانها من أوربان الثانى فى آخر سنى القرن الحادى عشر حتى إنوسنت الرابع Innocent IV فى القرن الثالث عشر الميلادى ؟

ولعل التساؤل الأخير يجد إجابته مباشرة فى سلوك أوربان الثانى ، الذى ما أن فرغ من دعوته العامة فى كليرمونت حتى عكف خلال الأشهر التالية التى استغرقتها الاستعدادات العامة لخروج الحملة الأولى باتجاه الشرق ، يكاتب عددا من أمراء أوروبا من وراء ظهر ملوكهم، سادتهم الإقطاعيين ! ويعقد المجامع الكنسية ، ويبعث بقسيسيه إلى مناطق متفرقة من أوروبا - وإن كانت فرنسا مركز نشاطه - حاثا إياهم على دعوة الأمراء والنبلاء والفرسان على التضامن جميعا فى سبيل نجاح دعوته . وقد تضمنت رسائله جميعها النغمة التى عزف على أوتارها فى كليرمونت ، والخاصة بويلات العذاب التى يلقاها اخوانهم مسيحيو الشرق ، وانتهاك الحرمات فى الأراضى المقدسة .

ففى رسالة بعث بها إلى "كل المؤمنين فى الفلاندرز" فى ديسمبر ١٠٩٥ ، أى فى أعقاب مجمع كليرمونت يقول : ".. لقد زرنا بلاد الغال (فرنسا) وحرضنا السادة والرعايا بحمية فى هذا الاقليم على تحرير الكنائس الشرقية .. وفرضنا عليهم التزامات بأن ينجزوا مثل هذا المشروع لمحو كافة خطاياهم ، وعينا نائبا عنا قائدا لهذه الحملة ، هو ابننا العزيز أديمار Ad-hemar أسقف لى بوى Le-Puy ومن ثم فأن كل من يقرر الذهاب فى هذه الرحلة فعليه أن

يطيع أوامره كما لو كانت صادرة منا ، كما يجب أن يخضع لسلطانه تماما فى الحل والعقد فى أية قرارات تتصل بعمله"[٥] .

وواضح من هذه الرسالة أن البابا قد اختار قائدا روحيا للحملة وموجها فى الوقت نفسه هو أسقف لى بوى ، ولم يعقد لواء الزعامة لأى من الأمراء الذين خرجوا بجيوشهم فى هذه الحملة مثل جودفروى دى بوايون Gogfrey de Bouillon دوق اللورين ، وبوهيمند Bohemond النورمانى ، وستفن كونت بلوا Stephen Count Blois ، وريموند Raymond الصنجيلى Saint - Giles أمير تولوز Toulouse ، وإن كان الأخير قد حظى بصحبة المندوب البابوى له مما أوحى بأنه من المقربين !

وفى التاسع عشر من سبتمبر عام ١٠٩٦ كتب إلى أتباعه فى بولونيا Bologna يقول ضمن إجراءات تنظيمية : "... علمنا أن كثيرين منكم قد استبد بهم الشوق للذهاب إلى أورشليم ، وذلك شيء أثلج صدورنا ، وليكن معلوما لديكم أن كل من يمضى إلى هناك ، لا من أجل مكاسب دنيوية ، بل فى سبيل تحرير الكنيسة وخلاص أرواحهم ، فأننا بمقتضى السلطة المخولة لنا وسلطة أساقفتنا الكبار وكل أساقفة الغال ، بفضل رحمة الرب العظيم وصلوات الكنيسة الكاثوليكية ، نعفيهم من التكفير المفروض عليهم بسبب خطاياهم التى اعترفوا بها ، ذلك لأنهم قدموا أموالهم وحياتهم فى حب الرب والجيران ، أما الأساقفة والرهبان فلا يسمح لهم بالرحيل قبل الحصول على موافقة أساقفتهم ومقدمى أديرتهم ، ويجب أن يوضع فى الاعتبار أن الشباب حديثى الزواج لا يفضل أن يقوموا برحلة طويلة كهذه دون موافقة أزواجهم ، وليساعدكم الرب العظيم"[٦] .

وبعد ثلاثة أسابيع من هذا التاريخ ، أى فى السابع من أكتوبر ١٠٩٦ ، أرسل إلى جماعة دير "ڤالومبروسا" Vallombrosa يقول : "لقد نما إلى علمنا أن بعضا منكم يريد الانطلاق مع

---

(٥) URBAN II, to all the Faithful in Flanders, December 1095.

وراجع أيضا الترجمة العربية عند قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ص٩٠ .

(٦)- URBAN II, to his Partisans in Bologna 19 September 1096 ، وراجع الترجمة العربية عند قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص٩١ .

الفرسان الذاهبين إلى أورشليم بنية خالصة لتحرير المسيحية ، وهذا نوع من التضحية الحقة ، غير أنها جاءت من أفراد غير مؤهلين لذلك ، فنحن نستنفر أفئدة الفرسان للقيام بهذه الحملة ، لأنهم هم القادرون على كبح جماح المسلمين بأسلحتهم ، وإعادة الحرية للمسيحيين . ونحن لانريد لأولئك الذين هجروا دنيا الناس ، ونذروا أنفسهم لجهاد الروح ، أن يحملوا السلاح أو يذهبوا فى هذه الحملة"(٧) .

واضح تماما من هذه الرسائل التى جئنا على طرف منها هنا ، وتلك التى أوردتها المصادر ولم نذكرها ، ومن خطاب أوربان الثانى فى كليرمونت ، أن البابوية قد وضعت نفسها من البداية فى موضع الزعامة الروحية والسياسية للحركة الصليبية ، أما الأولى فلا سبيل إلى الشك فيها أو النيل منها ، وأما الثانية - وقد خاطبت البابوية الفرسان دون الملوك - فكانت تعنى صراحة إعلان الحرب على السلطة الزمنية فى أوروبا ودون مواربة . فالأمراء يدينون بولائهم السياسى - ولو من الناحية النظرية فقط ، لملوكهم باعتبارهم أفصالهم الأقطاعيين ، وقد أقسموا لهم بمقتضى أعراف النظام الإقطاعى السائد يمين الولاء والتبعية ، وهو اليمين الذى حاج به زعماء الحملة الأولى الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومننوس Alexius Comnenos وهم مثول فى حضرته قبل عبورهم البسفور فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة . ورغم أن الأمراء وملوكهم يدينون بالتبعية الروحية للبابوية ، إلا أن مخاطبتهم من وراء ظهور سادتهم الإقطاعيين ، حتى ولو كان من جانب خليفة القديس بطرس الآن ، ونائب المسيح Vicarius Christi من بعد ، يعد اعتداءً على حقوق السيادة الزمنية ، وانتهاكاً لفرضيات النظام الاقطاعى الباسط كفيه على أوروبا آنذاك ، والقاضية "برابطة تعاقدية تحت زعامة الملك باعتباره ممثلا لقمة الهرم الإقطاعى" (٨) ، رغم أن هذه "القمة" كانت طيلة العصر الوسيط تمثل المكانة وتخلو من السلطة !!

---

(٧) URBAN II, to the religious of the Congregation of Vallombrosa 7 October 1096
وراجع الترجمة العربية عند ، قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص٩٢ .

(٨) سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جزءان، القاهرة ١٩٨٣ ، الجزء الثانى ١٩٨٦، ص ٢٧٣ ؛ محمد كامل ليلة ، النظم السياسية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص٤٢٢ .

ولما كانت البابوية تدرك ذلك تماما ، فقد سعت حثيثا لتضع نفسها هى الأخرى فى مصاف الملوك الإقطاعيين ، وسعت فى هذا السبيل خطوها حتى أمسى البابا بدوره سيدا إقطاعيا تفوق سلطته الإقطاعية سلطة الملوك ، وبدا هذا الاتجاه واضحا حتى قبل أن تتسع الهوة بين البابوية والسلطة الزمنية ممثلة فى الإمبراطورية . ففى عام ١٠٧٣ كتب جريجورى السابع Gregory VII فى أول عهده بالعرش البابوى ، رسالة "إلى كل الأمراء الراغبين فى الذهاب إلى إسبانيا"[٩] جاء فيها : "هاهو كونت إڤولوس Evolus صاحب روشيو Roceio وصاحب الشهرة الفائقة ، رغب فى مهاجمة تلك الأراضى لاستخلاصها من أيدى الوثنيين (يعنى المسلمين فى الأندلس) ، ومن ثم أعطيناه الحق فى امتلاك كل الأراضى التى يستردها بنفسه أو بمساعدة حلفائه ، وكان ذلك بموافقتنا نحن ممثلى القديس بطرس ، فإذا حذوتم حذوه وسعيتهم سعيه ، كان سعيكم مشكوراً ، أما إذا فكر أحدكم أو خطط لمهاجمة تلك الأراضى منفردا أو لحسابه الخاص .. فليكن معلوما لديكم جميعا أنه من الخطأ البين أن تغضبوا القديس بطرس باستيلائكم لحسابكم على تلك الأراضى ، فتمسون بذلك شأن الوثنيين" .

وإذا كان جريجورى السابع قد استفتح ولاية عهده البابوى بتأكيد سيادته الإقطاعية تجاه الأمراء ، فإنه ثنى ذلك فى العام التالى (١٠٧٤) بدعم هذا الادعاء إزاء الملوك ؛ فقد كتب إلى "سولومون" Solomon ملك المجر[١٠] يقول فى لهجة متغطرسة تنم عن شخصيته ".. تستطيع أن تقف من أمرائك على أن مملكة المجر ترتبط بالكنيسة الرومانية المقدسة ، وهذا يستتبع بالضرورة خضوعها وتبعيتها للقديس بطرس .. غير أنه نما إلى علمنا أنك وافقت على قبول المملكة كإقطاع من الملك الألمانى [لم يكن هنرى الرابع قد توج حتى ذلك الحين امبراطورا]، وهذا يعد انتهاكا لحقوق القديس بطرس ، وهو سلوك لايتفق وأخلاق الملوك وفضائلهم . فإذا أردت أن تنال بركة القديس بطرس ورضانا ، فعليك أن تبادر إلى إصلاح هذه الخطايا التى أثمتها يداك ، ولا شك أنك تعلم جيدا أنه ليس لك أمل فى أن تحظى بالعدالة ، أو تضمن لنفسك على عرشك عمرا مديدا ، إلا إذا تلقيت صولجان سلطانك من يد البابا وليس من الملك . ولما كان الله قد منحنا القوة ، فإنا لن نسمح أبدا تحت أى تهديد أو خوف أو اعتبارات شخصية بتدنيس مجد وكرامة من نحن على خدمته قائمون . وإذا أردت أن

---

(٩) GREGORY VII, to Princes wishing to reconquest Spain, 1073

(١٠) GREGORY VII, to Solomon King of Hungary 1074

تصوب خطى مسارك وأن تسلك سلوك الملوك ، فعليك أن تكتسب محبة الأم .. الكنيسة الرومانية المقدسة .. وصداقتنا فى المسيح" .

والرسالة بكل مافيها من عجرفة دالة على ملامح العصر الجريجورى ، تنبئ عن المكانة الإقطاعية التى عملت البابوية على تحقيقها ، حتى تطاول الملوك مكانتهم فى حربها معهم ، مضافا إليها مكانتها الروحية التى تدل بها على الجميع . وقد يدور بخلد بعض أن جريجورى فعل ذلك ضمن برنامجه الإصلاحى ، وأنه لاعلاقة له بالفكرة الصليبية لدى البابوية ، وأن هذه الرسائل وأشباهها سابقة على مجمع كليرمونت . غير أن الحقيقة التاريخية توقفنا على أن الفكر الصليبى البابوى قد قر فى ذهن جريجورى قبل أوربان الثانى بعشرين سنة كاملة ، وأن الاتجاه إلى الشرق فى حملة صليبية كان من بنات أفكار جريجورى السابع نفسه ؛ ففى عام ١٠٧٤ وجه نداءً عاما "إلى كل الراغبين فى الدفاع عن الايمان المسيحى"(١١) افتتحها بالحديث عن الويلات التى حلت بالمسيحيين فى الشرق ، والاضطهادات التى تعرضوا لها على يد المسلمين ، وما تعانيه الإمبراطورية فى الشرق من خطر داهم من جانبهم ، وهذا هو بعينه ما قاله أوربان الثانى فى كليرمونت ، وصدر بها رسائله التى أوردناها من قبل .

وبعد هذا الحديث الذى يفيض حسرة وأسى ، يوجه جريجورى السابع الدعوة لحملة صليبية لانقاذ مسيحيى الشرق . يقول "نحن نثق فى رحمة الله . كما نثق فى قدرته ، وسوف نبذل كل مافى وسعنا لعمل الاستعدادات اللازمة لتقديم يد العون للامبراطورية المسيحية {يعنى البيزنطية} فى أسرع وقت ممكن ، ومن ثم فنحن نناشدكم بالإيمان الذى ألف بينكم فى المسيح ، وسلطة القديس بطرس أمير الرسل ، أن تتحركوا بكل الحنو إزاء جراحات ودماء اخوانكم، لانقاذهم مما يعانون ، ولتتحملوا الصعاب مهما كانت من أجلهم ، ونبئونى بما سيهديكم الله إلى عمله فى هذا السبيل"(١٢).

كانت هذه الرسالة فى الأول من مارس عام ١٠٧٤ ، وما أن وافى شهر سبتمبر من العام نفسه ، حتى بعث برسالة إلى وليم السابع دوق أكويتين Aquitaine وكونت بواتو Poitou جاء فيها أن التقارير تفيد بهدوء الأحوال فى الشرق ، وأن المسيحيين هناك بدأوا يستردون

---

(١١) GREGORY VII, calls for a Crusade, 1074 .

(١٢) Id. وراجع أيضا Setton (K.) A history of the Crusades, Six Vols, Philadelphia,1955 1989, Vol. I, pp. 222-223 .

ثقتهم فى أنفسهم ثانية ، [١٣] وأن علينا التريث حتى نرى ما يطالعنا به المستقبل[١٤] . ولم تكد تمضى على ذلك أشهر ثلاثة ، حتى كتب إلى هنرى الرابع Henry IV ملك ألمانيا فى الأيام الأخيرة لعام ١٠٧٤ يقول : "أود أن ألفت انتباهكم إلى أن المسيحيين فيما وراء البحار يعانون من اضطهاد وذبح المسلمين لهم كما تذبح الشياه ، وأنهم كتبوا إلى مستجيرين.. وليكن معلوما لديك أن هناك خمسين ألف رجل على أتم الاستعداد للقتال تحت قيادتى .. كما أنى أقترح بعد أن ينفذوا مهمتهم أن يواصلوا تقدمهم حتى قبر المسيح"[١٥] ، ولعل هذا مادعا المؤرخين Oliver J. Thatcher و Edgar H. McNeal إلى الاعتقاد بأن ماحدث فى عام ١٠٩٥ لم يكن يختلف كثيرا عما دعى إليه فى سنة ١٠٧٤ ، وأن البابا أوربان الثانى عندما وجه الدعوة للحملة الصليبية فى كليرمونت ، لم يكن فكره يحتوى على شىء أكثر مما اشتمل عليه فكر جريجورى السابع الذى كشفت عنه رسائله هذه [١٦]. وإذا كان جريجورى السابع لم يستطع أن يمضى فى تنفيذ برنامجه الصليبى إلى حيث يبتغى ، نتيجة للصراع الذى نشب على الفور بينه وبين هنرى الرابع متسترا برداء التقليد العلمانى ، فإنه يعد بلاشك صاحب اللبنة الأولى فى بناء صرح الحركة الصليبية ، والتى تعهدها أوربان الثانى من بعده وبالرعاية الكاملة حتى ليعد بحق هو صاحب الجانب العملى التطبيقى منها دون شك ، ودون أن ينازعه فى ذلك أحد .

---

(١٣) لعل جريجورى يشير هنا إلى التحالف المؤقت الذى جرى فى منتصف عام ١٠٧٤ بين الإمبراطورية البيزنطية وبعض زعماء السلاجقة ، مثل أرتق وسليمان ابن قطلمش ، للقضاء على الحركة التى قام بها "روسل باليل" Roussel of Bailleul لإقامة دولة نورمانية مستقلة عن الإمبراطورية فى آسيا الصغرى ، وأدى هذا التحالف المؤقت إلى هدوء الأمور نسبيا فى المنطقة بين البيزنطيين والسلاجقة . راجع ، أسد رستم ، الروم ، جزءان ، بيروت ١٩٥٦ ، الجزء الثانى ، ص١١٢-١١٣ ؛ سيد أحمد على الناصرى ، الروم ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص٣٧٩-٣٨١ ؛ عبد الغنى محمود عبد العاطى ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور الكسيوس كومننوس ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص٨٢-٨٧ .

(١٤) Setton, Crusades, vol. I, p. 223 .

(١٥) Ibid. p. 224 .

(١٦) Thatcher (O.) & McNeal (E.), A Source book of Mediaeval History, New York, p. 512 .

وأيضا Ullmann (W.), The growth of Papal government in the Middle Ages, London . 1955, p. 307

واستكمالا لمشروعه وجه جريجورى السابع فى السادس عشر من ديسمبر ١٠٧٤ دعوة عامة للمؤمنين عبر الألب للمشاركة فى حملته المقترحة ، وكتب إلى حليفته الكونتيسة ماتيلدا Matilda أميرة تسكانيا Tuscany يدعوها مصاحبة الامبراطورة الأم "آجنى" Agnes التى من المتوقع ذهابها إلى الشرق مع الذاهبين - وضمن رسالته إلى هنرى الرابع التى تحدثنا عنها توا - طلبا بأن يقوم الملك الألمانى بحماية الكنيسة الرومانية المقدسة ومباشرة شئونها ، ويوصيه بها خيرا أثناء غيابه فى الشرق قائدا للحملة ! ويعتبر "فردريك دونكالف" Frederic Duncalf [١٧] ما أقدم عليه جريجورى السابع فى وصيته هذه لهنرى الرابع "نوعا من السذاجة" . بينما لانرى فيها إلا نوعا من خبث "شيطان مقدس" على حد وصف بطرس الدميانى له[١٨]. فهو قد جعل من نفسه داعية لحملة صليبية تتجه إلى الشرق بهدف انقاذ المسيحيين الشرقيين فى الإمبراطورية البيزنطية ، الذين كان هو نفسه يعتبرهم "خارجين عن عقيدة الكنيسة الجامعة" [١٩] ونصب نفسه قائدا عسكريا للحملة إلى جانب كونه زعيما روحيا ، فكأنه بذلك اختص شخصه بجانب من سلطة الملوك ، الحكام الزمنيين ، والايحاء إلى هنرى برعاية شئون الكنيسة الرومانية فى غيابه ، يجعل من هنرى نائبا عنه ، أو بتعبير أشد تحديدا ، فصلا إقطاعيا تابعا له ، وهذا هو جانب "الخبث" فى "الشيطان المقدس" وليس "نوعا من السذاجة" ! ويؤكد قولنا هذا مايذهب إليه "أولمان"[٢٠] Ullmann من أن هذه الحملة المقترحة لجريجورى كان صاحبها يرمى بها من طرف خفى إلى هدف سياسى آخر ، وهو أنه كان يأمل من مجرد إشاعة أن هناك خمسين ألف مقاتل رهن إشارته ، وإظهار هذه القوة العسكرية المزعومة ، أن تخف أو تتوقف حدة هجمات النورمان غير المستقرين فى جنوب إيطاليا على الممتلكات البابوية .

---

(١٧) The Councils of Piacenza and Clermont (in Setton, A history of the Crusades, Vol. I, p. 224) .

(١٨) Tierney (B.), The Crisis of Church and State 1050 - 1300, U.S.A. 1964, p. 46 .

(١٩) Setton, Crusades. I, p. 224 .

(٢٠) Ullmann (W.) A Short history of the Papacy in the Middle Ages, London 1974, p. 150 . .

وتدعم مجريات الأحداث ما ذكرناه ، ففى الثانى والعشرين من يناير ١٠٧٥ ، وبعد أقل من شهر من رسالته إلى هنرى ، كتب إلى هيو Hugh مقدم دير كلونى ورئيسه السابق ، عندما كان راهبا يحمل اسم "هيلد براند" Hildebrand رسالة لم يعرج فيها بشىء أبدا على حملة عسكرية ينوى قيادتها لمساعدة البيزنطيين ، وإن كان قد أظهر فى الوقت نفسه تبرمه "لانسلاخهم عن حظيرة الايمان الكاثوليكى" (٢١) . وفى العام نفسه بدأت أولى حلقات الصراع بينه وبين السلطة الزمنية فى أوروبا عامة وألمانيا خاصة ، عندما أعلن صراحة عن برنامجه الإصلاحى بمحاربة "السيمونية" ، أى بيع الوظائف الكنسية ، وعدم التعامل مع رجال الدين المتزوجين ، ثم أعلن رفضه التام للتقليد العلمانى ، مما نكأ جرحا لم يندمل بين البابوية والملوك حتى نهاية العصور الوسطى ، وتحول بعد حين يسير من بدايته إلى نزيف مستمر بين القوتين حول السيادة العالمية (٢٢) .

ومما بوضح بجلاء نيات جريجورى السابع فى صليبية من نوع خاص إزاء السلطة الزمنية ، أنه ما أن بدأ الصراع مع هنرى ، حتى نحى جانبا السعى لكسب أى صداقة مع بلاط القسطنطينية ، بل على العكس قلب لها ظهر المجن تماما ، فبارك الغزو النورمانى للأراضى الإمبراطورية فى شبه جزيرة البلقان ، فى محاولة لصرف انتباههم بعيدا عن ممتلكات البابوية فى إيطاليا . وأصدر قرار الحرمان الكنسى ضد الامبراطور "نقفور الثالث بوتنياتس Ni-cephorus III Botaniates تحت دعوى أنه عزل صديقه ميخائيل السابع سنة ١٠٧٨ ، وشجع روبرت جويسكارد Robert Guiscard النورمانى عندما أعلن عزمه على إعادة ميخائيل إلى عرشه (٢٣) . وأنعم على أمير زيتا Zeta ، إحدى دويلات البلقان الدائرة فى فلك الامبراطورية البيزنطية ، بالتاج هبة منه ليجذبه إلى صف الكاثوليكية ، ضاربا هو والأمير عرض الحائط بالإدعاءات البيزنطية . ومع أن الكسيوس كومنزس ، فى محاولة منه

---

(٢١) Setton, Crusades, I,p. 224.

(٢٢) لمزيد من التفصيلات عن هذا الصراع ، راجع ، رأفت عبد الحميد ، السمو البابوى بين النظرية والتطبيق (فى مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثالث القاهرة ١٩٨٥ ، ص١٥٧-٢٢٥) .

(٢٣) Setton, Crusades, I, p. 224.

وأيضا . Runciman, (S.), A history of the Crusades, 3 vols.London 1965, vol. I, pp. 69, 99

لإزالة الخلاف بين القسطنطينية وروما ، جدد رغبة ميخائيل السابع في الاستعانة بجند مرتزقة من الغرب الأوروبى ، إلا أنه لم يجد من جريجورى آذانا صاغية ، فأقدم كرد فعل لغيظه على إغلاق الكنائس الكاثوليكية فى العاصمة الإمبراطورية ، وراح أهلوها ينظرون إلى البابا الرومانى باعتباره متواطئا مع النورمان ، وأطلقت النكات الساخرة فى المدينة محدثة باستهزاء عن غطرسة جريجورى وعجرفته [٢٤] .

هذه الفعال التى مارسها جريجورى السابع لايمكن أن تنسب مطلقا إلى زعيم روحى ، بقدر ماترتبط ارتباطا وثيقا بملك اقطاعى يمارس كل شئون السلطة الزمنية ، أو على حد تعبير "ستفن رنسيمان"[٢٥] Steven Runciman فإن البابوية أمسكت دفة الحرب "المقدسة" - فى عرفها - وراحت توجهها كيف تشاء ، فهى التى تدعو إلى هذه الحرب وتطلقها وتعين قادتها، أما الأراضى التى يتم الاستيلاء عليها فهى تحت الحماية الكاملة والسيادة البابوية. ومن هنا لم نكن مبالغين عندما ذكرنا من قبل ، إن دعوة أوربان الثانى فى كليرمونت ، ورسائله العديدة التى وجهها إلى الأمراء ، هى والدعوة العامة للأمراء دون الملوك ، بمثابة إعلان لحرب صليبية تدور رحاها فى أوروبا بين السلطة الزمنية ممثلة فى الملوك والإمبراطور من ناحية ، والسلطة الروحية الزمنية مجتمعة فى البابوية !

لم يكن غريبا إذن أن يطلق جريجورى السابع فكرة القيام بحملة صليبية لانقاذ مسيحيى الشرق طلاقا بائنا لارجعة فيه ، وأن يوجه كل جهده الآن لشن حرب صليبية أخرى فى الغرب الأوروبى ضد الحكام العلمانيين وأصحاب السلطة الزمنية من الملوك ، طيلة عشر سنوات تالية (١٠٧١-١٠٨٥) ، ولم يقلع عنها إلا عندما جاءته رسل الموت تتوفاه . وكان هنرى الرابع ملك ألمانيا الأنموذج الذى اختاره البابا الرومانى ليصب عليه جام غضبه ، بحكم الارتباط الحتمى القائم بين ألمانيا وإيطاليا ، باعتبار الملك الألمانى هو الامبراطور الرومانى الذى يتلقى التاج من البابوية .

وبغض النظر عن قرار الحرمان الشهير الذى أصدره جريجورى السابع ضد هنرى الرابع فى فبراير ١٠٧٦ ، والذى قاد إلى الإذلال الشهير للملك الألمانى فى كانوسا ، وراح يضرب به

---

(٢٤) ANNA COMNENA, The Alexiad, translated from the Greek by E.R.A. Sewter, Penguin book 1969, pp. 61-65 .

(٢٥) Crusades, I, p. 92.

المثل ، فإن القرارات والمراسيم البابوية الصادرة عن جريجورى السابع تباعا ، حتى قبل صدور قرار الحرمان هذا ، كانت تعنى فى جوهرها إعلان الحرب صراحة ضد السلطة الزمنية وممثليها . فقد كان من بين ماتضمنته أن للبابا وحده الحق فى أن يقبل الأمراء منه القدم !! وكان هذا يعنى أمرين : أحدهما أنه لن ينال هذا الشرف إلا أصحاب الحظوة الذين سوف يسمح لهم البابا بذلك من قبيل التبرك . والآخر أن البابا بذلك يوجه ولاء الأمراء له دون الملك ، وهذا هو بيت القصيد . ومن ثم كان لابد أن يتبع هذا المرسوم بآخر يعد تتمة طبيعية له ومقدمة لما هو آت يقول فيه : "من حق البابا عزل الأباطرة" ، ثم يعلن الحرب صراحة على كل مخالفيه تحت دعوى ماقدم به مراسيمه من أن الكنيسة الكاثوليكية لم تخطئ طيلة ما مضى من عمرها ، ولن تخطئ فيما بقى لها من عمر ، يقول : "ليس بكاثوليكى كل من يخالف الكنيسة الرومانية ، ولن ينعم بالسلام" !!

وكان هذا التحول من حرب صليبية باتجاه الشرق يقودها بنفسه ، إلى حرب صليبية أخرى فى الغرب يحركها ويؤجج نيرانها بقداسته ضد الملوك ، هى الركيزة الأساسية التى استندت عليها البابوية فى سياستها الآتية ، واستغلتها استغلالا كاملا لتحقيق أغراضها الأساسية فى الشرق والغرب على السواء .

لقد كانت دعوة الأمراء وحدهم للقيام بهذه المهمة ، تعنى بتعبير دقيق سحب البساط من تحت أقدام الملوك وتجريدهم من أهم دعامتين تعتمد عليهما عروشهم .. أعنى المال والجنود . فالملك - فى ظل النظام الإقطاعى - لم يكن يعدو فى كثير من الأحيان "الأول بين أقرانه" Primus inter Pares يمتلك مساحات من الأرض ، ربما تزيد ممتلكات بعض أفصاله عنها أحيانا ، ويعتمد فى دخل خزانته على ما يقدمه له أمراؤه فى مناسبات بعينها ، دون أن يأخذ فى شكله صفة الضريبة ، بل معنى الهدية . ويرتكز فى جيشه على جيوش الأمراء فى أى حرب يخوضها ، بتعبير آخر ، كان الأمراء هم مصدر قوة الملك أومصدر ضعفه فى الوقت نفسه، تبعا لشخصية الملك فى المقام الأول . ولما كان النظام الاقطاعى ، بمسألة الوراثة فيه ، والقائمة على توريث الابن الاكبر وحرمان بقية الأبناء تجنبا لتفتت الملكية الزراعية ، قد خلق مجموعة من الأمراء المغامرين بلا أرض ، لم يفلح ميدان الاسترداد فى الأندلس فى تعويض خسرانهم ، فقد أصبحوا على استعداد لبيع ولائهم لمن يقدم لهم أرضا أو وعداً بأرض، كما هى الحال مع البابوية ، وأدركت الأخيرة فى الوقت نفسه أنها إذا نجحت فى استقطاب هؤلاء

المغامرين ، وضم غيرهم من الاقطاعيين ، الطامعين أو الطامحين ، لحققت بذلك هدفها المزدوج بضربة واحدة ، السيادة فى أوروبا - بالدفاع عن قضية المسيحيين فى الشرق ، واحياء الحلم القديم الذى يؤرق جفنها منذ القرن الخامس الميلادى ويلح عليها باستعادة سيطرتها على كنيسة القسطنطينية .

ولاشك أن هذا كله كان ماثلا فى ذهن أوربان الثانى ، كما كان ماثلا أيضا فى ذهن جريجورى السابع من قبل . ومع أن أوربان لم يكن له صلف سلفه ، ولم يكن فى الوقت نفسه ضعيفا ، إلا أنه كان يفضل دائما أن يتجنب المواجهة السافرة مع خصومة(٢٦) ومن ثم لم يجد حرجاً فى أن يشارك بكل مايستطيع فى المؤامرة التى دبرها الأمير الألمانى كونراد Conrad ضد أبيه الإمبراطور هنرىَ الرابع (٢٧) . ولم يكن ذلك بدعا ، بل كان سنة وضعها أوربان الثانى وسار عليها خلفاؤه من بعد فى علاقتهم بفردريك الثانى وابنه هنرى {السابع} وابنى فردريك الثانى أيضا كونراد ومانفرد Manfred .

ولم تتنازل البابوية أبدا طيلة صراعها مع السلطة الزمنية عن ادعاءاتها بالسيادة الاقطاعية ، لتشارك الملوك بذلك حقوقهم باعتبارهم قمة الهرم الاجتماعى . ولعل أوضح الأمثلة على ذلك ، تلك المعاهدة التى وقعت بين وليم الأول ملك صقلية والبابا هادريان الرابع، والتى يعترف فيها الملك النورمانى بالتبعية الإقطاعية للبابا ، وحصوله على مملكته كأقطاع من البابوية (٢٨) ، والمحاولة التى قام بها البابا نفسه مع الإمبراطور فردريك الأول Frederick I عندما أعلن فى رسالة بعث بها إليه ، أن امبراطوريته لاتعدو أن تكون "إقطاعا Beneficium بابويا ، وماترتب على ذلك من حادثة "بيزانسون" Besancon الشهيرة عام ١١٥٧ ، والتى عرفت الإمبراطورية منذ ساعتها بـ "الإمبراطورية الرومانية المقدسة"(٢٩)

---

(٢٦) Runciman, Crusades, I, p. 101 .

(٢٧) Brooke (Ch.) Europe in the central Middle Ages,962-1154, Longman - London 1966, pp. 186-187 .

(٢٨) TREATY between ADRIAN IV and WILLIAM I of SICILY 1156 .

(٢٩) ADRIAN IV, Letter to Frederick I, September 1157.

وللوقوف على تفاصيل حادثة بيزانسون ، راجع ، رأفت عبد الحميد ، السمو البابوى بين النظرية والتطبيق (فى مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثالث ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص١٩٦-١٩٨ .

وكانت صقلية فى الجنوب ، وتسكانيا فى الشمال هما حزام الأمن للبابوية ، ومن ثم سعت بكل ما وسعتها الطاقة لتظل المنطقتان تحت سيادتها الإقطاعية ، وقد تحقق هذا بالنسبة لصقلية على النحو الذى قدمنا الآن ، إلى أن تمكن فردريك الأول من توجيه صفعة قوية للبابوية عندما خطب "كونستانزا" "Constance" وريثة عرش النورمان لإبنه هنرى السادس ، الذى خلفه على عرش الإمبراطورية ، وكان ذلك يعنى خنق البابوية ووقوعها بين فكى الكماشة الألمانيتين ، فظلت تتحين الفرص حتى إذا سنحت إحداها لم تتردد مطلقا فى اهتبالها ، فحصلت من فردريك الثانى فى عام ١٢١٣ على اعتراف بسيادتها على صقلية كإقطاعية تابعة لها (٣٠) ، ثم أجبرته على أن يقدم وعدا فى عام ١٢١٦ ، قبل أن يتوج إمبراطور بأربع سنوات ، على أن تنفصل صقلية عن التاج الإمبراطورى ، وتمسى مملكة مستقلة يحكمها إبنه هنرى إقطاعا من البابوية (٣١) . ولما لم يلتزم فردريك بهذه الوعود من بعد ، شنتها البابوية حربا ضروسا عليه وعلى أسرة "الهوهنشتاوفن" Hohenstaufen كلها حتى تم لها إعدام آخر أفرادها "كونرادينو Conradino فى نابولى عام ١٢٦٨ .

أما تسكانيا فكانت أميرتها ماتيلدا صديقة للبابوية ، وساندتها كثيرا فى سبيل إعلاء سيادتها ،إلى الحد الذى تنازلت عن الدوقية و"كل ممتلكاتها فى إيطاليا وألمانيا" للبابوية(٣٢) ، وكان هذا يعنى امتدادا هائلا باتجاه الشمال للسيادة الإقطاعية للبابا ، غير أن الأباطرة رفضوا الاعتراف بهذه الوصية ، محاجين بأنه ليس من حق الأميرة أن تتصرف فيما يخص الإمبراطورية وحدها . ولتنفيذ ذلك أسرع هنرى الخامس بجيشه إلى إيطاليا ، إبان نزاعه مع البابا باسكال الثانى Paschal II ليكره "ماتيلدا" على إلغاء وصيتها السابقة وتعديلها إلى الإمبراطورية بدلا من البابوية ؛ (٣٣) ، وأكد الإمبراطور لوثير الثالث Lothair III هذه المسألة ثانيا بعد مفاوضات مع البابوية ، وليمنحها فردريك الأول بربار وسا إقطاعا لعائلة الولفيين Welfs فى أول عهده بالعرش الألمانى (٣٤) .

---

(٣٠) PROMISE of FREDERICK II to INNOCENT III, 1213 .

(٣١) PROMISE of FREDEICK II to resign Sicily after his Coronation as Emperor 1216

(٣٢) COUNTESS MATILDA gives all her Lands to the Church 1102

(٣٣) Barraclough (G.), The Origins of Modern Germany, Oxford 1947, p. 129.

(٣٤) Thompson (J.) & Johnson (E), An introduction to Medieval Europe, New York 1965, p. 394 .

والذى يلفت النظر أن هذه الرغبة البابوية الجامحة فى إضفاء الصفة الإقطاعية على أنفسهم مزاحمة لأصحاب السلطة الزمنية ، الملوك ، امتدت عدواها بالتالى إلى كل رجال الاكليروس فى الكنيسة الكاثوليكية ، بحيث أصبح المساس بهذه الحقوق الإقطاعية اعتداء يستدعى إعلان حرب صليبية ضد الأمراء العلمانيين ، حتى اكتسب رجال الدين الصفة نفسها ، وأمسوا بالتالى "أمراء اكليروسيين" يفوقون قرناءهم العلمانيين بالاعفاء من الالتزامات الإقطاعية المفروضة على هؤلاء الأخيرين باعتبارهم أفصالا اقطاعيين تابعين للملك. ولم يتعرضوا لمثل هذا الالتزام إلا عندما فرض البابا إنوسنت الثالث Innocent ضريبة على دخولهم بدأت بواحد على أربعين من الدخل عام ١١٩٩ ، غير أن هذه الضريبة لقيت معارضة شديدة من جانبهم ، حتى اضطر فى عام ١٢١٣ إلى الاحجام عن الاستمرار فى فرضها ، غير أنه عاد فى عام ١٢١٥ إلى تجديدها ثانية ، وحددها بواحد على عشرين من دخول رجال الاكليروس عامة[٣٥].

ومن أطرف مايمكن أن يذكر هنا فى هذا المجال ، أن مسودة الأتفاق الذى انتهى إليه أمر المفاوضات التى دارت بين الامبراطور هنرى الخامس والبابا باسكال الثانى سنة ١١١١ تضمنت اعتراف البابا بالتنازل عن الأراضى والحقوق الإقطاعية التى حصلت عليها الكنيسة منذ أيام شارلمان حتى تاريخه[٣٦] ، و"نحرم على أى أسقف أو كاهن ، مقيدين إياه بقيود اللعنة ، أن يمتلك أى شئ من تلك الامتيازات فى المدن والدوقيات والماركيات والكونتيات ، وكذلك دور الضرب والأسواق والمكوس ومكاتب المحاماة والضياع التى تتعلق بالإمبراطورية ، وكل مايتصل بهذه الأمور ، وكذلك امتلاك القلاع وأداء الخدمة العسكرية . ومن الآن فصاعدا لن يتمسك رجال الاكليروس بأى من هذه الأمور ، إلا بناء على رغبة الملك .. ذلك أنه من الضرورى أن يتطهر الأساقفة من كل الأعباء الدنيوية ، وأن يكرسوا كل وقتهم لرعاية شعب الكنيسة ، وأن لايتغيبوا طويلا عن كنائسهم ، أو لم يقل بولس الرسول ".. لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حسابا (الرسالة إلى العبرانيين ١٣/١٧)" .

---

(٣٥) INNOCENT III begins the taxation of the Church for the Crusades, 31 December 1199 ; INNOCENT III Legislates at the fourth Lateran Council for the fifth Crusade, 30 November 1215

(٣٦) PASCHAL II, The first Privilege Which he granted to Henry V, February 12, llll

وأقوال باسكال الثانى هذه اعتراف صريح بالحال الذى وصل إليه رجال الدين فى القرن الثانى عشر الميلادى ، القرن الزاهر للحركة الصليبية وهى فى عنفوانها ، فقد تحولوا من رجال اكليروس إلى رجال أعمال وتجار ومحامين وجنود عسكريين ، ومالكى مناطق جمركية ودور للضرب وأسواقا ، ومصالح وظيفية واقتصادية فى المدن والدوقيات والكونتيات والقلاع . بتعبير آخر أن الرعاية الروحية أمست لديهم فقط مجرد رداء كهنوتى يحمل فى أكمامه كل هذه المصالح الدنيوية . وباسكال الثانى يفتتح اعترافه هذا بقوله ، "الكهان جميعهم ممنوعون- بمقتضى الكتاب المقدس والقوانين الكنسية من أن يشغلوا أنفسهم بالشئون الدنيوية" .

نقول إن الطريف هنا هو أن الأساقفة جميعا رفضوا الموافقة على هذا المشروع ، فقد كان معناه أن يفقدوا كل ما كان لهم من ممتلكات وضياع وثروة وبالتالى الجاه والنفوذ ، ومن ثم يعود بهم الحال حيث أراد بولس الرسول "فإن كان لكم محاكم فى أمور هذه الحياة فأجلسوا المحتقرين فى الكنيسة قضاة" (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ٦/٤) وهو مانبه إليه باسكال الثانى فى هذه الاتفاقية المقترحة . وأعلن الاساقفة الألمان والايطاليون المحتشدون فى كنيسة القديس بطرس بروما عصيانهم وتمردهم على كل ماجاء فى مشروع الاتفاق هذا [٣٧] فقد ولت الكنيسة ظهرها للبساطة منذ قرون طويلة ، وأصبحت الآن والبابا على رأسها ركنا أساسيا من أركان النظام الإقطاعى ، والبابا على قمته مشاركا الملوك فى ذلك . وكان باسكال الثانى يمثل بمشروعه نغمة شاذة وسط هذا اللحن الإقطاعى الذى لابد أن يظل البابا وإكليروسه يعزفون عليه حتى تصفق له السلطة الزمنية وهى كارهة .

من هنا كان أوربان الثانى واعيا تماما لما يفعله عندما وجه خطابه إلى الأمراء فى كليرمونت، وبعث من بعد برسائله العديدة إليهم ، وغض الطرف تماما بشكل عمدى عن الملوك، وجعل من نفسه - كما فعل سلفه . جريجورى السابع - سيدا إقطاعيا ينافس الملوك سلطانهم الزمنى فى ظل النظام الإقطاعى ، واستند بهذه الطريقة إلى قاعدة اقطاعية عريضة من كبار الأمراء ، ليجرد خصومه الزمنيين من سلاحهم الأساسى الذى يعتمدون عليه ، نعنى الأمراء . ومن ثم كانت الدعوة التى وجهت من كليرمونت لحمل الصليب والاتجاه إلى الشرق لحرب المسلمين ، تعنى صراحة - كما أسلفنا إعلانا للحرب على السلطة الزمنية فى أوروبا

---

(٣٧) راجع تفاصيل مادار فى كنيسة القديس بطرس فى ٢٢ فبراير سنة ١١١١ عند ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، ص ٣٦٤-٣٦٥ .

ممثلة في الملوك والإمبراطور الروماني ملك ألمانيا . وكان هذا واضحا تماما في السياسة التي اتبعها أوربان الثاني تجاه ملوك أوروبا المعاصرين لهذه الدعوة .

ففي ألمانيا كان هناك الإمبراطور هنري الرابع ، صاحب الملحمة الشهيرة مع البابوية ، والذي لم يغفر لها أبدا إذلالها له في كانوسا Canossa عام ١٠٧٧ ذلك الإذلال الذي أصبح مضرب الأمثال من بعد فيقال : "أذل من كانوسا" . ولم تغفر له هي مهانتها التي عانتها على يديه طيله ثلاث سنوات سويا (١٠٨١-١٠٨٤) عندما راح يمتع ناظريه وهو يرى البابا جريجوري السابع أسير حصاره داخل روما لايستطيع منها حراكا . فلما ارتحل عنها مع حلفائه النورمان جنوبا لم يكن يعدو أيضا أسير هؤلاء الحلفاء حتى مات عام ١٠٨٥ . ولذا راح أوربان الثاني يؤلب عليه ولده كونراد سنة ١٠٩٣ ، وجاء باسكال الثاني ليثير ضده إبنه هنري (الخامس فيما بعد) سنة ١١٠٤ .

أما انجلترا فكان على عرشها آنذاك وليم الثاني روفوس (الأحمر) William II Rufus (١٠٨٧-١١٠٠) ، ولم تكن علاقته بالكنيسة الرومانية تختلف عن تلك التي وضع قواعدها أبوه وليم الفاتح ، الذي رفض أي صورة في صور التبعية للبابوية ، وخاصة اعتبار انجلترا إقطاعا بابويا ، وضرب عرض الحائط بالمساعدات التي قدمها له جريجوري السابع في أول عهده . وأضاف وليم روفوس (الأحمر) إلى ذلك إثقال الكنيسة في انجلترا بالضرائب الباهظة، ولم يلتفت مطلقا إلى برامج الإصلاح الكنسي التي كانت ترفض التقليد العلماني ، فأخذ يعين الأساقفة ويعزلهم ، وفي نوبة من نوبات المرض والخوف من الموت أقدم على تعيين القديس أنسلم Anselm رئيسا لأساقفة كانتربوري Canterbury ، فلما عادت إليه حيويته اختلف مع أنسلم واضطره إلى الرحيل عن انجلترا [٣٨] .

وعلى الشاطئ المقابل كان العرش الفرنسي يحمل فوق كرسيه الملك فيليب الأول Philip I (١٠٦٠-١١٠٨) ، وخلال عهده الطويل الذي قارب الخمسين عاما سارت العلاقات بين فرنسا والبابوية من سئ إلى أسوأ ، ذلك أن فيليب أصم أذنيه تماما أمام حركة الإصلاح الكلوني ، والاجراءات الجريجورية الخاصة بالسيمونية والتي كان فيليب الأول يمارسها علانية

---

(٣٨) Barlow (F.), The feudal Kingdom of England 1042-1216, London 1974. pp. 156-161.

مصعرا خده لكل التهديدات التى وجهها إليه بابوات عهده الطويل ! [٣٩] ولقد جر عليه ذلك بالإضافة إلى مناوءته المستمرة وتحديه للمراسيم البابوية ، غضب البابا جريجورى السابع، ذلك أن فيليب ، شأنه شأن ملوك زمانه جميعا ، يؤمن أن سيطرة الملك الفرنسى على كل الأساقفة تمثل حجر الزاوية بالنسبة للملكية الفرنسية ، خاصة أن الأساقفة ورؤساء الأساقفة كانوا يسيطرون على مساحات واسعة تفوق أراضى الملك أحيانا ، وقد اعتقد فيليب الأول ، ولم يكن ذلك بعيدا عن الصواب ، كما اعتقد وليم الفاتح وسميه الثانى فى انجلترا ، وملوك ألمانيا جميعا ، أن إذعانه للسيادة البابوية سوف يقضى على مكانته وسيادته بشكل لايمكن معه استعادتهما بعد ذلك مطلقا .

وإزاء هذه السياسة التى كان يمارسها فيليب الأول ، كان المجمع الذى عقد فى بياكنزا Pi-acenza فى مارس ١٠٩٥ فى شمال إيطاليا ، قد اتخذ عدة قرارات ضد السيمونية وزواج رجال الدين ، إلا أن البابا تدخل شخصيا حتى يمنع اتخاذ قرار ضد فيليب الممارس العام لهذه الأمور ، إلى أن يتمكن البابا من زيارة فرنسا من بعد [٤٠] وهو ماحدث بعد ذلك بقليل عند عقد مجمع كليرمونت . ولذا كان على فيليب أن يقف موقف المتفرج الذى ينتظر قراراً بالحرمان الكنسى وهو يشاهد أوربان الثانى يدعو لخروج الحملة الصليبية الأولى من فوق الأرض الفرنسية ، ولا يستطيع المحروم أو من هو فى موقعه أن يحمل الصليب ، ولن تقدم البابوية للملكية أى عون إذا حاول مليكها أن يقلد هنرى الرابع أو أن يحذو حذوه [٤١].

هذه هى الحال التى كانت عليها الملكيات الأوروبية الثلاث عشية الدعوة للحملة الصليبية، وهى الفرصة السانحة التى لن تجد البابوية توقيتا أكثر مناسبة منها لتنفيذ خطتها وتحقيق أهدافها فى الداخل الخارج مجتمعة . فالملوك الثلاثة كانوا ذوى شخصيات غريبة ، فمع عدائهم المشترك للبابوية وقدرتهم على تحدى برنامجها الإصلاحى ، وهى سمة جمعت بينهم فى حينها ، إلا أنهم فى الوقت ذاته لم يكونوا أيضا يحظون بتقدير أمرائهم أو أفصالهم فى الداخل لسياستهم العامة الرامية إلى إحكام سيطرتهم كملوك يمثلون رأس النظام الإقطاعى ،

(٣٩) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 150 .

(٤٠) Runciman, Crusades, I, p. 104 .

(٤١) Scott (M.) Medieval Europe, London 1975, p. 160 .

وهو مايتعارض مع طبيعة ذلك النظام القاضية بضعف السلطة المركزية وازدياد نفوذ الأمراء . ومن ناحية أخرى لم تكن علاقاتهم مع بعضهم البعض توحى بأى نوع من المودة أو التقارب ؛ فالنزاع بين فرنسا وانجلترا قائم على قدم وساق ، يتخذ شكلا قانونيا وأشكالا عسكرية ، منذ أقدم وليم دوق نورماندى ، على غزو انجلترا عام ١٠٦٦ واعلان نفسه ملكا عليها ، مع عدم تخليه عن مقاطعته فى فرنسا ، وأصبحت القضية من يتبع من ؟! فمن الناحية الإقطاعية كان لابد أن يغدو وليم ومملكته فى انجلترا تابعين لملك فرنسا باعتباره فصله الإقطاعى . ومن الناحية الواقعية أصبح وليم ملكا لانجلترا ودانت له الأراضى الفرنسية التى كان يحكمها بالتبعية . ومن ثم كان لابد أن يقوم النزاع بين الدولتين ، وأن يستمر طويلا طويلا خلال العصور الوسطى .

والعلاقة بين فرنسا وألمانيا لم تكن أحسن حالا من قرينتها ، فالعداء التقليدى قائم بين المملكتين منذ انسلخت المناطق الألمانية التى كانت تكون الأجزاء الشرقية من امبراطورية شارلمان عن السيادة الكارولنجية بعد وفاة آخر آفرادها لويس الطفل سنة ٩١١ ، ومنطقة اللورين تعتبرها ألمانيا أراضى ألمانية بينما يدين دوقها بالتبعية الاقطاعية لملك فرنسا .

ولم يكن أوربان الثانى بغافل عن كل هذه الأمور ، فى الوقت الذى ساقت إليه الظروف السياسية فى الإمبراطورية البيزنطية المسوغ الذى يتمناه ليضرب ضربته والحديدة محماة ؛ ذلك أنه فى المجمع الذى عقده فى بياكنزا فى مارس عام ١٠٩٥ ، التقى برسل الإمبراطور الكسيوس كومننوس الذين قدموا لتجنيد مايمكنهم تجنيده من المرتزقة للعمل فى الجيش البيزنطى ، وكانت الإمبراطورية قد لجأت إلى هذه السياسة بعد هزيمة مانزكرت سنة ١٠٧١ ، وراح الكسيوس يجيش جيوشه من أعداد كبيرة من المقاتلين الأوروبيين خاصة الانجليز الذين تم تسريح جيوشهم بعد دخول النورمان إلى انجلترا بقيادة وليم الفاتح ، بالإضافة إلى بعض عناصر البوشناق Petchenegs وقبائل الاستبس الذين عرفوا بـ "الورنك" Varangian ، وعرف الطريق الذى يسلكونه من أقصى شمال غرب أوروبا إلى القسطنطينية بالتسمية نفسها ، وأصبحت هذه القوات تشكل الحرس الإمبراطورى ، القوة الضاربة فى الجيش البيزنطى. وقد لجأ الكسيوس إلى الأسلوب نفسه فى بناء بحريته ، إذ عهد إلى جمهورية البندقية بإنشاء أسطوله فى مقابل امتيازات تجارية هائلة فى الموانىء البيزنطية العاصمة الإمبراطورية .

وقد أحسن البابا أوربان الثانى استقبال الوفد ، وأصغى إليه باهتمام زائد ، بل ودعا مندوبى الإمبراطور للحديث مباشرة إلى حضور المجمع . ومع أن شيئا من حديثهم لم يبق لنا ، إلا أنه من المتوقع أن يكون قد دار حول مايتعرض له المسيحيون الشرقيون فى الشرق من ويلات ، وهو ما استخدمه البابا بعد ذلك فى كليرمونت ، وضرورة دفاعهم عن الإمبراطورية باعتبارها درع المسيحية الشرقى . وقد ترك ذلك الحديث تأثيره البعيد فى نفوس السامعين إلا أن أحدا لم يحرك ساكنا ، وإن كان الأمل يحدوهم فى أن ينفر بعض رعاياهم للإشتراك مع إخوانهم الشرقيين فى حماية المسيحية (٤٢) . غير أن أوربان الثانى أسرها فى نفسه ولم يبدها لهم ، واستدعى من الذاكرة ذلك المشروع الضخم الذى كان قد عزم عليه سلفه جريجورى السابع وذلك بقيادة حملة صليبية ، أو بتعبير آخر القيام بحرب مقدسة باتجاه الشرق ، يقودها بنفسه ، وراح أوربان الثانى يقلب الأمر على كافة وجوهه ، وطوال سبعة أشهر وعدة أيام حتى كليرمونت ، حمل رحم فكره جنين "حرب مقدسة" يشنها على أعداء الكنيسة فى داخل أوروبا وخارجها ، فيتحقق بذلك كل آمال البابوية العراض فى قهر السلطة الزمنية ، والسيادة على الكنيسة الشرقية ، والزعامة فى عالم المسيحية فيضرب بذلك عصافير ثلاثة بحجر واحد .

وكان البابا يعلم جيدا أن فرنسا سوف تكون التربة الصالحة فى أوروبا للتبشير بدعوته ، فالرجل كان فرنسيا ويدرك تماما الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التى يتردى فيها المجتمع الفرنسى ، بالإضافة إلى أن فرنسا تعد أشد الدول الأوروبية تعصبا للكاثوليكية ، باعتبارها أسبق الممالك الجرمانية التى اعتنقتها منذ أواخر القرن الخامس الميلادى والسنوات الأولى من القرن السادس على عهد ملكها كلوفيس Clovis ، لذا أقنع المؤتمرين فى بياكنزا بتأجيل اتخاذ قرار بالحرمان ضد فيليب الأول ملك فرنسا ، حتى لاينتقل الحرمان بالتالى إلى رعيته فلا يستطيع الفرنسيون تلبية دعوته ، هذا من ناحية ، ومن الأخرى كان يريد أن يبقى على خيط رفيع بينه وبين فيليب يمكنه من خلاله أن يستتيبه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وإن لم يفلح فيما كان يبتغيه .

---

(٤٢) Vasiliev (A.A.), A history of the Byzantine Empire, Madison and Milwaukee, 1964 2 vols, v.I, pp. 401-402 .

وأيضا Runciman, Crusades, I, pp. 104-105 .

و Setton, Crusades, I, pp. 228-229 .

وراجع أيضا - سعيد عاشور . الحركة الصليبية ، جزءان . القاهرة ١٩٦٣ ، الجزء الأول ، ص١٣١-١٣٢.

وإذا كانت البابوية قد شهرت سلاح الأمراء في وجه السلطة الزمنية ، ونجحت في ذلك إلى حد كبير جدا طيلة نصف القرن الأول من عمر الحركة الصليبية الذي امتد قرنين من الزمان ، فإنها غيرت خططها من بعد تغييرا جذريا ، وقلبتها رأسا على عقب ، حيث أضحت الحملات الصليبية التالية كلها ، باستثناء الرابعة ، حملات ملوك . ويمثل القدر الذي تحقق للبابوية في الدور الأول من الحروب الصليبية بالاعتماد على الأمراء دون الملوك ، واستخدامهم سلاحا ضد سادتهم الاقطاعيين - الملوك ، أصحاب السلطة الزمنية ، نجحت البابوية في الدور الثاني من أدوار هذه الحرب التي تنعتها بـ "المقدسة" نجاحا منقطع النظير ، بينما فشل الملوك فشلا ذريعا في مواجهة السلطة البابوية المتزايدة على امتداد مايزيد على مائة وخمسين عاما تالية إلى مابعد منتصف القرن الثالث عشر الميلادي .

وهذا الأمر يبدو واضحا حتى من مجرد الاستقراء السريع لحادثات الزمان خلال تلك الفترة؛ فالنجاح الوحيد الذي تحقق للصليبيين في الشرق كان ماتم على يد جنود الحملة الأولى التي تكونت كلها من أمراء أوروبا ، وتمثل ذلك في تكوين الإمارات الصليبية في الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس ، على حين أخذ الفشل يطارد الملوك في كل حملاتهم الآتية من بعد باتجاه الشام أو مصر ! حتى إذا أفلحت إحداها وهي السادسة ، والتي لايمكن أن نعتبرها حملة بالمعنى العسكري الصليبي للحملات ، وحقق قائدها فردريك الثاني بالمفاوضات مافشل فيه الملوك بالحرب ، أعلنت البابوية براءتها مما فعل ، ووصمته بالهرطقة والتجديف ، وحرمته من رحمة الكنيسة ، وقيدته بقيود اللعنة ، وألبت عليه أوروبا كلها ، ولم تزل به وبأبنائه وبأحفاده حتى أودعتهم جميعا بطن الثرى !!

والأدهى والأمر من ذلك فيما يتعلق بالقضية الصليبية في الشرق ، أن البابوية - وقد تملك عليها الفزع كل سبيل - راحت تخاطب ملوك بني أيوب في الشام تنفر إليهم شخص فردريك الثاني ، وتكتب إلى الكامل الأيوبي في مصر تطلب إليه عدم تسليم بيت المقدس إلى الإمبراطور . ويعلق "كانتروفتش" [٤٣] Ernst Kantorowicz على ذلك بقوله : "إن البابا قد انحط إلى هذا الدرك نتيجة اقتناعه أن أي نجاح يحققه ذلك الإمبراطور المحروم سوف يعني أن حكم الله ليس في صالح البابوية !! وهذه الحقيقة لم تفت على المؤرخ الإسلامي

---

(٤٣) Frederick the Second, London 1931, p. 184 .

ابن واصل (٤٤) الذى ذكر أن البابا كان يكن كراهية ومقتاشديدين لفردريك وبنيه ، وإن كان قد علل ذلك بميلهم إلى المسلمين ، ويقول المورخ الألمانى "هانز ابرهارد ماير"H. E. Mayer فى كتابه "تاريخ الحروب الصليبية": "كانت مشاركة فردريك الثانى فى الحركة الصليبية تمثل خطرا جسيما على البابوية .. ومن ثم فقد فعل جريجورى التاسع كل مامن شأنه الحيلولة دون نجاح هذه الحملة الصليبية" .

هذه الأحداث تفرض على الباحث سؤالا لا مندوحة من طرحه ، هل كانت البابوية سعيدة بالإخفاق الذى أصاب الملوك فى حملاتهم الصليبية إلى الشرق ؟ أم تراها كانت تضمر فى نفسها تجاههم أمنيات لهم بالفشل حتى ولو كان ذلك على حساب الحركة نفسها ؟

أما الأخيرة - فهذه لاسبيل إلى الشك مطلقا فى وجودها من واقع موقفها إزاء فردريك الثانى . ولم يكن هذا هو المثال الوحيد الصارخ لسياسة البابوية تجاه السلطة الزمنية ، فسوف نلقى من بعد أمثلة كثيرة على ذلك . ويقول "كانتروفتش" بالحرف الواحد" "لقد كان أى نجاح يحققه الامبراطور يمثل أسوأ كارثة يمكن أن يتوقعها البابا"(٤٥) ، ذلك أن الحركة الصليبية لم تعد سوى مجرد ورقة فى يد البابوية ضمن أوراق اللعبة السياسية التى تلعبها (٤٦) ، بعد أن فقدت صفتها الروحية منذ زمن ليس بالقصير !

أما أن البابوية كانت سعيدة بما حاق بحملات الملوك من فشل ، فذاك شىء يحتاج إلى وقفة طويلة نتدارس فيها كيف سارت العلاقات بين البابوات والملوك منذ منتصف القرن الثانى عشر ، أى منذ تولى الملوك قيادة الحملات الصليبية ، وكيف حرصت البابوية على أن تستغل خروج هذه الحملات لبلوغ كل أهدافها السياسية التى كانت تسعى إلى تحقيقها .

لقد قر فى ذهن البابوية منذ زمان بعيد يعود إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، ودنت قطوفه فى القرن الحادى عشر أيام البابا جريجورى السابع ، أن الله يدبر أمور هذا العالم عن طريق الأقنوم الثانى فى الثالوث ، المسيح ، الذى يتصرف فيه كيف يشاء بواسطة بطرس ،

---

(٤٤) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، الجزء الرابع تحقيق حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص٢٤٨-٢٥١ .

(٤٥) Frederick the Second, p. 187

(٤٦) زابوروف (ميخائيل) ، الصليبيون فى الشرق ، موسكو ١٩٨٦ ، ص٣٠٢ .

الذى يحرك كل شئونه من خلال البابا ، الذى لم يعد منذ عهد انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) مجرد خليفة بطرس ، بل نائب المسيح Vicarius Christi على الأرض ، بمقتضى نظريته عن الشمس والقمر ، البابوية والإمبراطورية . وآمنت البابوية إيمانا لايتطرق إليه شك أنه وفقا لذلك لابد أن يكون هناك سيد واحد لهذا العام لايشرك فى حكمه أحدا ، وأن البابا هو ممثل هذا السيد على الأرض ، وأن الصلاح كل الصلاح فى الخضوع تماما لهذا البابا ، طريقا إلى ملكوت السماوات ورفقة المسيح . ومن ثم فإن أى سلطة أخرى ترى فى نفسها القدرة أو تساورها الرغبة فى أن تنافس البابوية أو تتولى عملا من أعمالها ، تضع نفسها خارج الشرعية وتحل بها اللعنة وتطاردها قرارات الحرمان الكنسى . وبالتالى فأن أى نجاح يمكن أن تحققه هذه السلطة الأخرى ، وهى هنا بالطبع السلطة الزمنية ، يعد تحديا صارخا للسلطة الروحية ، التى هى دون شك البابوية . ولذا كان أمرا منطقيا أن تعلن البابوية رضاءها التام عن حملتى الأمراء ، الأولى والرابعة ، وأن تقف موقفا مغايرا تماما أيضا من حملات الملوك ، بل وأن تضع العراقيل فى وجه بعض منها . وأن تضحك فى كمها سعيدة بما تحقق من فشل لهذه وغيرها !!

كان الأسلوب الذى لجأت إليه البابوية فى هذه المرحلة الجديدة من مراحل الحركة الصليبية ، هو أسلوب الغزل السياسى الذى راحت تلاعب به ملوك أوروبا ، فتتودد إلى هذا وتهجر ذاك ، وتؤثر واحدا بقربها وترى الأخر عين الجفاء !! ففى عام ١١٤٤ تمكن المسلمون بزعامة عماد الدين زنكى أتابك الموصل من استرداد إمارة الرها ، التى كانت رأس جسر غرس فى جسم العالم الإسلامى ، وكان رد الفعل الأوروبى إزاء ذلك عنيفا ، بحكم المكانة الدينية التى تحتلها الرها فى الروايات المسيحية الباكرة [٤٧] . وتولى القديس برنارد St. Bernard مقدم

---

(٤٧) ترتبط مدينة الرها فى ذاكرة المسيحيين دائما بعلاقتها المبكرة مع المسيحية ، وبما فيها من آثار القديسين ، ومن هذه الروايات أن الرجال الأربعة المجوس الذين قدموا على المسيح ليلة مولده مهتدين بنجم فى السماء ، قدموا من الرها ! ومنها أيضا أن أبجار Abgar ملك الرها كتب إلى المسيح يطلب إليه - وقد علم بالمعجزات التى جرت على يديه ، أن يبرئه من مرضه ، فكان من بين مابعث به المسيح إليه - على ماتذكر الأسطورة - منديلا Mandilon طبع عليه وجه المسيح عندما جفف به ذات يوم عرقه ! وقد شاعت الأساطير حول هذا المنديل وقدرته على شفاء المرض واتيان المعجزات . وقد قام القائد البيزنطى يوحنا كوركواس بنقل هذا المنديل فى سنة ٩٤٤ من الرها إلى القسطنطينية فى موكب مهيب . راجع ، هسى (ج.م.) ، العالم البيزنطى ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص١٤٥-١٤٦ ، حاشية رقم ١٥ .

دير كليرڤو Clairvaux الدعوة لحملة صليبية جديدة بتوجيه من البابوية لاسترداد المدينة [٤٨] حتى خلت قرى كثيرة من سكانها ، وهى التى عرفت بالحملة الصليبية الثانية .

وقد وجدت البابوية نفسها عند الدعوة لهذه الحملة فى موقف لاتحسد عليه ، وكان عليها أن توزع أوراق لعبتها السياسية بذكاء شديد حتى لاتخسر شيئا ؛ فانجلترا كانت تطحنها آنذاك الحرب الأهلية التى دارت حول العرش بعد وفاة ملكها هنرى الأول فى عام ١١٣٥ ، ولم يكن هو نفسه على وفاق مع الكنيسة جريا على سياسة سلفيه وليم الأول الفاتح وسميه الثانى، وكان اصرار القديس أنسلم Anselm أسقف كانتربورى على استقلال الكنيسة والأراضى التابعة لها عن سلطان الملكية أمرا يرفضه ملوك انجلترا . وقد استمرت الحرب الأهلية التى أعقبت وفاة هنرى تسعة عشر عاما (١١٣٥-١١٥٤) بين كل من ماتيلدا Matilda إبنة هنرى زوجة كونت أنجو Anjou وأنصارها من ناحية ، وستفن Stephen كونت بلوا Balois ابن أخ هنرى من ناحية أخرى ، وإذا كان ستفن قد تمكن من السيادة على انجلترا طوال فترة الحرب الأهلية ، إلا أن النجاح فى النهاية كان من نصيب هنرى الثانى الذى كان كونتا لأنجو [٤٩] .

أما فى صقلية فإن روجر الثانى Roger II أفلح فى توحيد النورمان جميعا فى جنوب إيطاليا وأعلن نفسه ملكا فى عام ١١٣٠ ، وكان هذا فى حد ذاته سلوكا غير ودى تجاه البابوية التى كانت تعتبر صقلية إقطاعا تابعا لها وملكها فصلا يدين بالولاء للجالس على عرش القديس بطرس ، كما أن روجر نفسه لم يبد أى مظهر من مظاهر الطاعة أو التوقير تجاه البابوية [٥٠] ومن ثم لم تكن البابوية على استعداد لإبداء أى ترحيب به عندما أعلن عزمه على حمل الصليب مشاركا فى الحملة الصليبية الثانية .

وقد وجدت البابوية الفرصة سانحة لتأكيد سيادتها فوق الجميع ، مستغلة ظروف الدعوة لهذه الحملة الجديدة ؛ فبينما نجدها تبدى بصورة ما امتعاضها من تصرفات النورمان فى الجنوب الإيطالى تحت زعامة روجر ، كانت فى الوقت نفسه قد أدخلت فى روع الملك الألمانى

---

(٤٨) Runciman, Crusades, I, pp. 251-256 .

(٤٩) Barlow, Kingdom of England, pp. 201-234.

(٥٠) Haskins (Ch.H.), The Normans in European history, New york 1966, pp. 210-211.

لوثير Lothair (١١٢٥-١١٣٧) وخليفته - الجالس الآن على العرش - كونراد الثالث Conrad III (١١٣٧-١١٥٢) ، عن طريق المتحدث باسمها القديس برنارد ، أن أى شخص يعلن من نفسه ملكا على صقلية ، يكون قد أعلن بذلك هجومه على الإمبراطور ![٥١] وكان هذا فى جوهره يعنى استعداء ملوك ألمانيا - باعتبارهم الأباطرة الرومان - على ملك صقلية روجر الثانى . وهذه قضية لم يكن الاباطرة الرومان فى ألمانيا فى حاجة إلى من يغذيها لديهم. غير أن كونراد الثالث كان عازفا عن الدخول فى المشكلة الإيطالية التى كانت جرحا داميا فى جسم ألمانيا ظل ينزف طيلة العصور الوسطى[٥٢] . هذا بالإضافة إلى أن نفوذ البابا يوجنيوس الثالث Eugenius III (١١٤٥-١١٥٣) لم يكن مستقرا فى روما ، من جراء الثورة التى أشعلها أرنولد البريشى Arnold of Brescia وأعلن بها مدينة روما قومونا مستقلا ، واضطر البابا إلى الهروب من المدينة فى عام ١١٤٧ .

وفى ظل هذه الظروف دعت البابوية كونراد الثالث للقيام بحملة صليبية ، لا إلى الشرق ، بل إلى إيطاليا لاخماد الثورة المشتعلة فيها ، وإعادة البابا إلى كرسيه الأسقفى ، والتصدى لتهديدات النورمان فى الجنوب ، مغازلة كونراد باللقب الامبراطورى ، الذى جرى وراء سحره كل ملوك ألمانيا ، لكن كونراد كان فى شغل عن ذلك بالصراعات الداخلية فى ألمانيا بينه باعتباره أول ملوك أسرة الهوهنشتاوفن ، وبين هنرى الاسد زعيم عائلة الولفيين Welfs المنافسين التقليديين ، وأدرك أن الذهاب إلى إيطاليا يعنى الغرق فى مستنقع كبير لاسبيل إلى الخروج منه، خاصة إذا فتح على نفسه باب الصراع مع النورمان. لذا كان هو الوحيد من بين ملوك ألمانيا منذ أوتو الأول (٩٦٢) حتى وفاة فردريك الثانى (١٢٥٠) الذى لم يحمل لقب الإمبراطور. وآثر ذلك، كما آثر المشاركة فى الحملة الصليبية المتجهة إلى الشرق لاسترداد الرها ، على القيام بحملة صليبية داخلية توجهها البابوية لخدمة مصالحها الخاصة جدا .

واستشعرت البابوية الخطر من قيام حملة صليبية إلى الشرق يتزعمها ملك علمانى دون دعوة منها ودون مباركة لها من جانبها ، فسارع يوجنيوس الثالث إلى مراسلة لويس السابع

---

(٥١) Runciman, Crusades, II, p. 251 .

(٥٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه المشكلة راجع ، رأفت عبد الحميد ، المشكلة الإيطالية فى السياسية الألمانية ، المجلة التاريخية [الجمعية المصرية للدراسات التاريخية] المجلد ٣٠ القاهرة ١٩٨٢ .

Louis VII ملك فرنسا منصبا إياه قائدا عاما للحملة الصليبية المنتظرة ، مذكرا بماضى الأسلاف المجيد ، مثنيا على شجاعة فرسان الفرنجة فى الحملة الأولى ".. إن كثيرين عبر جبال الألب ، خاصة فرسان فرنسا الأشداء وقرنائهم الإيطاليين ، استجابة لنداء سلفنا طيب الذكر أوربان الثانى ، قد التقوا على المحبة وكونوا جيشا ضخما واستردوا تلك المدينة المقدسة .. وبنعمة الله وحماسة آبائك الذين جاهدوا لإعلاء كلمة المسيح على الأرض ، سادت المسيحية على مناطق واسعة بعد أن تم تخليصها من سيطرة الوثنيين"(٥٣).

وقد رحب لويس السابع بهذه الدعوة واعتبرها تكريما له دون بقية ملوك أوروبا ، وكانت نفسه مهيأة لذلك تماما تحت تأثير القديس برنارد ، وشوجر Suger مقدم دير القديس دنى St. Denis ، والذى كان مستشارا للملك ولأبيه من قبل ، واعتبرها أيضا فرصة للتكفير عن الخطيئة التى ارتكبها باحراق كنيسة فترى Vitry فى مقاطعة شمبانى Champagne عام ١١٤٧ وبها جموع كثيرة من المصلين . ومن ثم فإنه ما أن أعلن كونراد الثالث عزمه على قيادة جيشه حاملا الصليب ، حتى قابلت البابوية ذلك ببرود كامل ، ورفض يوجنيوس الثالث طلب كونراد بالسماح له بلقائه فى الثامن عشر من أبريل ١١٤٧ فى ستراسبورج -Strass burg ، وغادر الملك الألمانى بلاده دون الحصول على مباركة البابا له أو لحملته ، بينما التقى مع لويس السابع وباركه خلال الأيام الأولى من أبريل(٥٤) . وهكذا فى وقت واحد قرب إليه ملك فرنسا ، وأعرض عن ملك ألمانيا ، وأظهر استياءه البالغ بل وعداءه للملك النورمانى روجر الثانى فى صقلية . لاغرو إذن أن كانت السياسة البابوية سببا فى زيادة الجفاء بين ملكى فرنسا وألمانيا قبل أن تخرج الحملة من أوروبا ، بالإضافة إلى العداء التقليدى بين الشعبين الفرنسى والألمانى ، على هذا النحو ساهمت البابوية بنصيب كبير جدا فى الفشل الذى لحق بالحملة الثانية فى بلاد الشام ، عن طريق سياستها الصليبية التى بذرت بذور الفرقة والانقسام بين قائدى الحملة منذ اليوم الأول لها ، فخرج كل منهما بمفرده يقود جيشه ، ودب بينهما الخلف فى الشرق ، وعاد كل منهما وحده يجر أذيال الخيبة والانكسار !

---

(٥٣) EUGENIUS III, Letter to King Louis VII of France and his Subjects, proclaims the Second Crusade on God's behalf, 1 March 1146 .

(٥٤) Runciman, Crusades, I, p. 257 .

وتعليقا على ذلك يقول المؤرخ "زابوروف" ، "هكذا قدمت الحملة الصليبية الثانية البرهان الجلى على غياب الوحدة بين الغزاة الإقطاعيين الغربيين ، وأخذت الاعتبارات الدينية .. تفقد أهميتها أكثر فأكثر ، حتى تذمر مدونو الأخبار فى القرن الثانى عشر من ضعف الحماسة الدينية إبان الحملة الصليبية الثانية ، ولم تحمل هذه الحملة أكاليل الغار إلى الكنيسة الكاثوليكية . ثم إن التناقضات التى تفاقمت بين دول أوروبا الغربية بسبب التطلعات والمطامع التوسعية فى منطقة البحر المتوسط ، أخذت تعارض بعضها بعضا .. وأسهم انعدام الوفاق والوئام بين زعماء الحملة وخلافاتهم مع بارونات بلاد الشام بقسط كبير فى فشل الحملة الصليبية الثانية[٥٥] . وإذا كانت البابوية لم تحقق نجاحا سياسيا فى الشرق ، بسبب الفشل العسكرى للحملة ، إلا أنها احتفظت لنفسها بالمكانة فى أوروبا ، بقدرتها على تحريك ملوك أوروبا وجيوشها بأتجاه الشرق فى حرب صليبية كانت هى الوحيدة التى خرجت منها فائزة !

وللمرة الثانية تمارس البابوية الدور نفسه بعد أن روعتها أنباء استرداد المسلمين للقدس على يد صلاح الدين الأيوبى ، فى أعقاب معركة حطين الشهيرة عام ١١٨٧ ، فمات البابا المسن أوربان الثالث كمدا فى ٢٠ أكتوبر من العام نفسه ، ولم يلبث أن لحق به خلفه جريجورى الثامن فى ديسمبر ، بعد أن قام بتوجيه دعوة عامة إلى "كل المؤمنين فى الغرب" يستثير فيهم حماسة مسيحية كانت قد خبت ، ويعدهم وعدا حسنا بالغفران فى الآخرة ، وحماية ما يملكون فى الدنيا أثناء رحلتهم ، غير أن القدر لم يمهله حتى يرى قطوف دعوته .

وكان قد مضى الآن على الحملة الصليبية الثانية أربعون عاما ، شهدت فيها أوروبا تغييرات جذرية فيما يتعلق بالعلاقة بين البابوية والسلطة الزمنية ، إذا أخذت الملكيات الأوروبية تنحوا إلى تدعيم مراكزها فى الداخل ، يساعدها على ذلك خروج الأمراء فى الحرب الصليبية وعدم عودة كثير منهم إلى أوروبا ثانية ، إما نتيجة لموت بعضهم ، أو لتفضيل بعض آخر البقاء فى الشرق ، وكان هذا يعنى تحول مساحات واسعة من الأراضى إلى ملكية التاج ثانية . ورغم أن الكنيسة قد أعلنت بعد الحملة الأولى أنها سوف تضع تحت وصايتها كل مايتعلق بالمحاربين المتجهين إلى الشرق مؤكدة أن "نساء وأطفال وممتلكات أولئك الذين يحملون الصليب دفاعا عن المسيح ، سوف يحظون بحماية الكنيسة الرومانية المقدسة منذ

---

(٥٥) زابوروف : الصليبيون فى الشرق ، ص١٨٦-١٨٧ .

حملهم الصليب وطوال رحلتهم إلى الشرق ومكثهم هناك وعودتهم أو موتهم"(٥٦) فى محاولة منها لطمأنة المحاربين ، وفى الوقت نفسه لمارسة سيادتها الاقطاعية ، إلا أنها لم تستطع أن تتصدى للملوك فى ممارسة حقوقهم الإقطاعية أيضا تجاه الأمراء ، أفصالهم الإقطاعيين .

يضاف إلى ذلك أن هذه الفترة أيضا شهدت ازديادا فى نشأة المدن ونموها وتطورها ، وتجلى هذا بصورة واضحة فى شمالى إيطاليا فيما يعرف بمدن العصبة اللومباردية ، إلى جانب كل من ألمانيا وفرنسا (٥٧) ، حتى أن فيليب الثانى أوغسطس ملك فرنسا عهد إلى ستة من تجار باريس برعاية شئون مملكته أثناء غيابه فى الحملة الصليبية الثالثة ، وأصبحت المدن تمثل سلاحا تتسابق البابوية والسلطة الزمنية فى استخدامه أثناء صراعهما الطويل ، وبينما نجح ملوك فرنسا وانجلترا فى هذا الاستباق فشل ملوك ألمانيا وتركوا هذا السلاح لتستخدمه البابوية ضدهم خاصة مدن الشمال اللومباردى فى إيطاليا .

وبازدهار المدن وازدياد النشاط التجارى وانتشار التعليم والثقافة من جراء الاحتكاك بالمسلمين فى الأندلس وصقلية والشام ، ظهرت الجامعات فى أوروبا ، واستبقت البابوية والملكيات الأوروبية أيضا لاحتضان هذه الجامعة أو تلك(٥٨) ، وحظيت بعض الجامعات برعاية الكنيسة مثل جامعة باريس التى عملت بدورها على تكريس السيادة البابوية ، على حين نمت جامعة بولونيا فى رعاية السلطة الإمبراطورية ودعت بدورها إلى سموها ، ومن

---

(٥٦) EUGENIUS III, Letter to King Louis VII of France ; GREGORY VIII, Summons Christians to repentance and describes the Crusade as a test imposed by God, October - November 1187 ; GREGORY VIII accords the Church's Protection to the Crusader Hinco of Zerotin 21 October, 17 Decenber 1187 .

(٥٧) Pounds (N.J.G.) An economic history of Medieval Europe, London 1974, pp. 223-261 , Pirenne (H.), Economic and Social history of Medieval Europe, pp. 26-39, 50-57 ; Hodgett (G A.J.) A social and Economic history of Medieval Europe, London 1972, pp. 48-58, 88-105 .

(٥٨) لمزيد من التفاصيل عن نشأة الجامعات ودورها ، راجع ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى، الإسكندرية ١٩٧١ .

ثم لعبت الجامعات دورا كبيرا فى التأكيد على مفاهيم معينة فى جانب كل من البابوية أو الإمبراطورية حتى قيل : "إن الجامعة هى إحدى قوى ثلاث سيطرت على الفكر المسيحى ووجهته في العصور الوسطى ، البابوية والإمبراطورية والجامعات"(٥٩) .

ونتيجة لكل ذلك دخل الصراع بين البابوية والإمبراطورية فى طور جديد خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، راح يأخذ صبغة قانونية ، وغدا أبطاله فى المقام الأول من رجال القانون ، ففى الجانب الكنسى نرى الراهب جراتيان Gratian البولونى يجمع شتات المجموعات القانونية الخاصة بالكنيسة كالقرارات المجمعية والمراسيم البابوية وشذرات من مؤلفات الآباء الأولين ومقتطفات من مجموعة قوانين جوستنيان ، وفى هذه الموضوعات أورد جراتيان النصوص المؤيدة والمعارضة على حدة كأن كلا منها دفاع فى حد ذاته ، وعرفت هذه المجموعة بـ "المبادئ" القانونية Decretum وقد صدرت حوالى عام ١١٤٠ (٦٠) وعليه فليس من الغريب أن نجد معظم بابوات هذين القرنين من كبار القانونيين مثل اسكندر الثالث Alexander III (١١٥٩-١١٨١) وإنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦) وجريجورى التاسع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١) وإنوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٣-١٢٥٤) . وقد فسرت هذه المجموعة من بعد من جانب القانونى البولونى باولينوس Paulinus بأن محورها الرئيسى يدور حول وجود امبراطورية سماوية وأخرى أرضية ، واقترح أن تكون الإمبراطورية السماوية هى الاكليروس ، بينما الإمبراطورية الأرضية تضم العلمانيين، مؤكدا أن البابا يمتلك السيادة فوق الإمبراطوريتين معا ، الإكليروس والعلمانيين ، أو بتعبير آخر - الروحية والزمنية (٦١) . وكان هذا تقنينا للنظريات العديدة التى أذاعتها البابوية آنذاك لاثبات سموها وعلو كعبها فوق السلطة الزمنية ، مثل نظرية السيفين الروحى والزمنى ، والنظرية البطرسية ، وما أصر عليه البابا إنوسنت الثالث من نظرية الشمس والقمر .

وفى الوقت نفسه وجدت الإمبراطورية من ينبرى أيضا للدفاع عن مكانتها فى مواجهة البابوية ، وكان من بين هؤلاء رجل القانون الرومانى الأشهر إرنريوس Irnerius الذى ارتبط

---

(٥٩) سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ٢ ص١٧٤ .

(٦٠) كرامب (ج) وجاكوب (إ) تراث العصور الوسطى ، جزءان ، ترجمة مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية بإشراف محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٥ ، الجزء الثانى ، ص٤٦١-٤٦٢ .

(٦١) Tierney, Crisis, pp. 98-117 .

اسمه بجامعة بولونيا والتى اكتسبت شهرة واسعة فى الدراسات القانونية ، وخلف وراءه مجموعة من التلاميذ المشهورين عرفوا باسم "الدكاترة الأربعة" وهم بولجاروس Bulgarus ومارتينوس Martinus وهوجو Hugo ويعقوب Jacobus(٦٢) . وقد حرص الإمبراطور فردريك برباروسا (١١٥٢-١١٩٠) أن يضمهم إلى هيئة مستشاريه للاستعانة بهم فى تدعيم مركز السيادة الإمبراطورية . وقد أولى هذا الإمبراطور وحفيده وسميه الثانى جامعة بولونيا عناية فائقة ، لا باعتبارهم ملوكا لألمانيا بل لكونهم الأباطرة الرومان ، وكان هذا فى المقام الأول - على حد تعبير أولمان (٦٣) من أهم العوامل فى ازدهار جامعة بولونيا .

هكذا أخذ الفكر البابوى الصليبى يتخذ أبعادا جديدة فى مواجهة السلطة الزمنية التى لم تعدم هى الأخرى مثيلا لهذه الأبعاد ، وقرنت البابوية ذلك بأسلوبها العام الذى يقوم على عدم وجود وفاق دائم بين ملوك أوروبا حتى لايشكلوا ضدها جبهة واحدة . وإذا كان لابد من قيام هذه الجبهة الزمنية المتحدة - وهو مالم تسع إلى إيجاده مطلقا - فلتكن وجهتها إلى الخارج فقط ، أى باتجاه الشرق - دون الداخل ، وتسخيرها لتحقيق مصالحها الخاصة كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

وهنا ، عندما ألحت الضرورة على توجيه الدعوة لحملة صليبية جديدة بعد عودة بيت المقدس إلى يد المسلمين، رأينا كيف خاطب جريجورى الثامن "كافة المؤمنين فى الغرب" دون أن يخص بالذكر أحدا من الملوك ، فلما اعتلى خليفته كلمنت الثالث Clement III العرش البابوى ، ولى وجهه مباشرة باتجاه أعظم عواهل أوروبا آنذاك .. الإمبراطور فردريك بربروسا ، بينما ترك لجوسياس Josias أسقف صور مهمة لقاء ملكى فرنسا وانجلترا (٦٤) . والذى يلفت الانتباه للوهلة الأولى أن سلفه الأسبق يوجينوس الثالث أرسل إلى ملك فرنسا لويس السابع لقيادة حملة صليبية باتجاه الشرق - كما علمنا - وأبدى تأففه من مشاركة الملك الألمانى كونراد الثالث . بينما كلمنت هذا يسارع بدعوة الإمبراطور الرومانى فردريك بربروسا ، غاضا الطرف عن كل من ملكى فرنسا وانجلترا ! أليست هذه السياسة البابوية فى التودد إلى واحد

---

(٦٢) Ullmann (W.) , Law and Politics in the Middle Ages, London 1975, pp. 85-98

(٦٣) Idid. 85.

(٦٤) Runciman, Crusades, III, p. 5

دون آخر ، والسعى لدى ملك دون غيره بحسابات دقيقة لمصالحها الخاصة فى عالم المسيحية؟! ولننظر كيف ولم كان ذلك ؟!

ففى فرنسا كان يقوم ملك قوى هو فيليب الثانى أوغسطس Philip II Augustus (١١٨٠-١١٢٣) الذى امتد حكمه لفترة طويلة من الزمن نجح خلالها فى إقامة ملكية قوية[٦٥] كان من أهم جوانب قوتها أنه شدد قبضته على الكنيسة ، وأخذ يعمل جاهدا للحد من تدخل البابوية فى شئون دولته ، وألزم الاكليروس بدفع ما عليهم من ضرائب والتزامات[٦٦]، هذا بالإضافة إلى أنه سعى لإقامة علاقات ودية مع فردريك بربروسا فى عام ١١٨٧ ، أى قبيل الدعوة للحملة الصليبية الثالثة بأشهر قلائل ، وكان الهدف منها توحيد الجهود ضد كبار الأمراء الإقطاعيين . ولم يكن هذا التقارب الألمانى الفرنسى مما يسعد البابوية فى شىء ، رغم أنها سعت بنفسها من بعد إلى إحياء هذا التقارب ووصلت به إلى مرحلة التحالف بين الملك الفرنسى فيليب أوغسطس وسليل أسرة الهوهنشتاوفن ، فردريك الثانى المنافس على العرش بدعم من البابوية ضد أوتو الرابع دوق برنسويك وابن هنرى الأسد الولفى، الذى كان على عداء كامل مع البابوية !

أما انجلترا فكان على عرشها هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩) الذى لم يكن يقل عن فيليب أوغسطس قوة وذكاء وطموحا ، ولذا نجح هو الآخر فى أن يجعل من الملكية الإنجليزية فى عهده الطويل أيضا ملكية قوية ، وتمثل ذلك للوهلة الأولى منذ اقدامه فى أول عهده على هدم ألف ومائة وخمس عشرة قلعة عسكرية مرة واحدة ، كان الأمراء الاقطاعيون قد أقاموها منتهزين فرصة الحرب الأهلية (١١٣٥-١١٥٤) ، مخالفين بذلك النظام الذى كان قد وضعه وليم الأول الفاتح بعدم بناء أى قلعة إلا بإذن خاص من الملك ، حتى غدت القلاع الإقطاعية كلها فى انجلترا قلاعا ملكية . وحاول أيضا أن يستعيد نفوذ الملكية على الكنيسة بعد أن تعرض للانتقاص على عهد ستفن أيام الحرب الأهلية ، وأمل فى أن يكون صديقه الحميم توماس بيكيت Thomas Becket الذى عينه أسقفا لكنيسة كانتربورى ، دعما له فى

---

(٦٥) سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ١ ص٢٥٩-٢٧٢ .

(٦٦) نفسه ، ص٢٦٩-٢٧٠ .

سياسته الكنسية المستقلة الرامية إلى التخلص من النفوذ البابوى ، غير أن "بيكيت" أخذ الاتجاه العكسى تماما وأثبت أنه ابن مخلص للكنيسة وراعيها البابا وليس لسيده الملك الانجليزى ، مما أوجد جفوة واسعة بين الرجلين انتهت فى آخر الأمر بمقتل توماس بيكيت فى مذبح الكنيسة فى التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١١٧٠ على يد أربعة من فرسان هنرى الثانى ، انتدبوا أنفسهم لمهمة اغتياله بعد أن أبدى سيدهم عدم ارتياحه من معارضته المستمرة له [٦٧]. ورغم أن هنرى أقسم على براءته من دم "بيكيت" ، إلا أنه اضطر فى النهاية إلى تقديم تنازلات مهينة للبابوية وإن حاول بعد ذلك فى سنوات حكمه التالية أن يخفف من غلوائها . حتى إذا مات ، خلفه ابنه الباقى على قيد الحياة من بين إخوته الآخرين ، ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩) ، وأعلن على الفور عقب توليه السلطة عزمه على حمل الصليب والاتجاه إلى الشرق على مسئوليته الخاصة دون دعوة أو مباركة من البابوية ، وهذا مالايمكن أن تغفره البابوية أو تسمح به حتى ولو كان فى ظل الصليب ومن أجل استعادة البيت المقدس . ولما كان قد أمضى عمره السابق كله دوقا لأكويتين Aquitaine فقد غدا غريبا عن انجلترا ، ومن ثم لم يمكث فيها من سنوات حكمه العشر إلا سنة واحدة فقط . ولما كان فى حاجة ملحة إلى الأموال للانفاق على مشروعه الصليبى الذى كان متحمسا له تماما ، فقد أمسى على استعداد لبيع كل الوظائف الإدارية والكنسية على السواء لمن يعرض أعلى الاسعار ثمنا للمنصب[٦٨] ومن ثم فإنه رغم جسارته التى خلعت عليه لقب "قلب الأسد" the Lionhearted إلا أنه لم يكن يلق قبولا حسنا من البابوية .

ولم يكن الملك الألمانى فردريك بربروسا (١١٥٢-١١٩٠) ليرضى بأن تكون دولته بأقل من الأخريتين ، فرنسا وانجلترا ، ولم يكن هو أيضا أقل من معاصريه طموحا وقوة ، ولذا سعى ليجعل من ألمانيا فى عهده الطويل أقوى الدول الأوربية ، ولما كان فى الوقت نفسه هو الإمبراطور الرومانى فقد حرص تماما على أن يكون هذا اللقب له مدلوله العملى وليس مجرد تاج يزدان به مفرق الملوك الألمان . وآمن فردريك إيمانا كاملا بأنه ليس فقط خليفة الأتووين والسكسون ، بل قسطنطين وثيودوسيوس وجوستنيان . واتضح ذلك جليا عند

---

(٦٧) راجع تفاصيل هذه الأحداث فى Barlow, Kingdom of England, pp. 290-304 .

(٦٨) Ibid. pp. 353, 355 .

إصداره لقانون تنظيم جامعة بولونيا ، إذا أصر على أن يوضع مرسومه ضمن مجموعة قوانين جوستنيان (٦٩) ، ووجد ضالته في القانون الروماني باعتباره امبراطورا رومانيا ، وعثر في الدايجستا Digesta على الإجابة الفلسفية التي ترد على المزاعم البابوية ، فهي تعطي القانون السيادة الكاملة ، وليس للكهانة أو الروح ، جاء فيها : "القانون هو الملك لكل شئ - لما هو سماوي ولما هو إنساني ، إنه هو الضابط والحاكم والقائد للخير والشر" وتاه عجبا بمركزه الإمبراطوري بعد أن أوحى إليه رئيس أساقفة ميلانو ، أن إرادته هي القانون(٧٠) . بكل هذا لم يكن غريبا أن يوصف فردريك بربروسا بأنه "هيلدبراند" Hildebrand الامبراطورية(٧١) . ودعم اتجاهاته هذه عندما وقف موقفا متشددا إزاء محاولة البابا هادريان الرابع Hadrian IV (١١٥٤-١١٥٩) أن يجعل من الإمبراطورية مجرد "إقطاع" Beneficium بابوي ؛ فلقد كانت البابوية تضع في اعتبارها بكل اليقين أنها لم تقصد مطلقا من إقامة امبراطور في الغرب ، تحقيق هذا بصورة عملية بحيث يصبح الجالس على العرش امبراطورا رومانيا بكل ماتعنيه الكلمة ، وانما مجرد موظف كبير بدرجة "حاكم" يحمل فقط لقب "امبراطور الرومان" وليس "الامبراطور الروماني" ، أي مجرد لقب أجوف لامعنى له . ولم يكن فردريك بالذي يمكن أن يقبل "لعبة" البابوية هذه أو يستسيغها ، وكان هذا من بين ماجعل فردريك يخلع لقب "القداسة" على الإمبراطورية ، شأن البابوية ، لتصبح منذ ذلك التاريخ ١١٥٧ "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" ، كما أسلفنا القول من قبل .

واتساقا مع هذا الفكر الإمبراطوري ، يغدو امبراطور الرومان هو "سيد العالم" (٧٢) Dominus mundi وبالتالي لايمكن أن يستقيم هذا مع الفكر البابوي القائل هو الآخر

---

(٦٩) Davis (R.H.G.) A history of Medieval Europe, From Constantine to St. Louis, London 1957, p. 322;

Bryce (J.), The holy Roman Empire, London 1950, p. 169 .

(٧٠) Davis, op. cit. p. 325 .

(٧١) Tout (T.F.), The Empire and Papacy, London 1924, p 247 وللوقوف على تفاصيل الصراع البابوي الامبراطوري ، راجع ، رأفت عبد الحميد السمر البابوي بين النظرية والتطبيق ، ص١٥٧-٢٢٥ .

(٧٢) Ullmann, A short history of the Popacy, p 194

بالسيادة على العالم ، ولما كان العالم لايتحمل من وجهة نظر كل منهما وجود سيدين ، كان لابد أن تسير العلاقات بين الطرفين من سيء إلى أسوأ ، ولقى الإمبراطور فردريك إذلالا فى عام ١١٧٧ فى ميلانو على يد البابا اسكندر الثالث ، يكاد يقترب إلى حد ما من إذلال كانوسا الذى سبقه بمائة عام . ورد الإمبراطور على الصفعة بأقوى منها عندما خطب إبنه هنرى {السادس} إلى الأميرة كونستانزا Constance وريثة عرش النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية سنة ١١٨٤ ، وتم الزواج فى احتفال مهيب شهدته مدينة ميلانو سنة ١١٨٦ ، ولما رفض البابا أوربان الثالث (١١٨٥-١١٨٧) أن يتوج هنرى ، أعلن فردريك إبنه إمبراطور شريكا وخلع عليه لقب "القيصر" .

وشاء القدر أن يحرم البابوية آنذاك من شخصية قوية تعتلى كرسى القديس بطرس بعد وفاة اسكندر الثالث ، الذى يعد مرحلة وسطى بين جريجورى السابع وإنوسنت الثالث . ولذا لم يكن أمام البابا الضعيف كلمنت الثالث ، إلا أن يخاطب الإمبراطور فردريك فى أمر قيادة حملة صليبية باتجاه الشرق لاسترداد بيت المقدس ثانية ، رغم أن بربروسا كان قد جاوز الآن السبعين من عمره ، بينما قريناه فيليب أوغسطس الفرنسى وريتشارد قلب الأسد الانجليزى فى ريعان شبابهما . ورغم أن الملكين الأخيرين لم يكونا أيضا على وفاق مع البابوية ، إلا أن التهديد الأكبر والخطر الجاثم كان يتمثل لها فى الإمبراطور الرومانى ، ولما كان البابا الواهن كلمنت الثالث عاجزا عن مواجهة تحديات فردريك بربروسا فى أوروبا ، فلا ضير فى اغرائه بالابتعاد عنها والاتجاه إلى الشرق رغم ثقل خطوه فى هرمه هذا . ولذا كان من المفيد جدا للبابوية إبعاده الآن عن الساحة الأوروبية ولو إلى حين . وليس من المبالغة فى القول بأن فرحة البابوية بغرق فردريك وموته فى الشرق ، لم يكن أقل من فرحة المسلمين بذلك ، تلك التى عبر عنها ابن الأثير بعبارة رائعة حين قال ، لو أن جيوش الإمبراطور وصلت إلى الشام "لكنا نقول إن مصر والشام كانتا للمسلمين ، ولكن الله سلم" .

ولم يكن فردريك منتظرا لمثل هذه الدعوة من البابوية ، وإن اعتبرها بادرة طيبة فى سياسة وفاق مستحيلة الحدوث ، وهو مالم يكن يدور بذهن البابوية ، لكن الاثنين رغم العداء الشديد بينهما وجدتا فى هذه الحرب الصليبية فرصة لتحقيق ماتسعى إليه كل منهما ، وكانت هناك أرضية مشتركة بينهما رغم هذه الكراهية ، تمثلت فى فكرة العالمية الرومانية التى كانت تعنى بالنسبة للبابوية وجود كنيسة عالمية واحدة هى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وهذا يقتضى فرض السيادة على كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية ، وكان هذا هدف أساسى للبابوية اشتمل

عليه فكرها الصليبي وسعت إلى تحقيقه منذ الدعوة إلى الحملة الأولى . وفي المقابل كانت العالمية الرومانية بالنسبة لفردريك بربا روسا تعني وجود امبراطور روماني واحد ، وتمثل ذلك في الرسالة شديدة السخرية التي بعث بها إلى الامبراطور البيزنطي مانويل كومننوس Manuel Comnenos (١١٤٣-١١٨٠) على أثر هزيمة الأخير في موقعة ميريوكيفالوم Myriocephalum عام ١١٧٦ على يد سلطان قونية السلجوقي ، تتضمن خضوع "ملك اليونان" Rex Graecorum {يعني الإمبراطور البيزنطي} ومملكته اليونانية Regnum Graeciae للإمبراطور الروماني {يعني شخصه} (٧٣) .

وعلى هذا النحو تبدو العالمية الرومانية عند كل من البابا وفردريك هيَ النقطة التي يمكن أن يكون عندها تناغم بين البابوية والإمبراطورية ، حيث أنها تحتم إجهاض الإمبراطورية البيزنطية ، إن لم يكن تدميرها وإخضاع كنيسة القسطنطينية إن لم يكن القضاء عليها (٧٤) ، غير أن هذا التناغم لم يكن له وجود على الإطلاق في علاقاتهما على الأرض الأوروبية ، انطلاقا من ايمان كل منهما المطلق بضرورة وجود سيد واحد يحكم هذا العالم ، ولم يكن كلاهما أو أي منهما يقبل بغير هذا بديلا !! وليس أدل على ذلك من أنه بعد وفاة فردريك بربا روسا في حملته الصليبية سنة ١١٩٠ ، واعتلاء ابنه هنري السادس العرش ، لم يلق هذا الأخير أي عون أو تشجيع من البابوية في اعداده للحملة الصليبية التي كان ينوي القيام بها ضد القسطنطينية ، لا لشيء إلا أنه كان أعنف من أبيه في سياسته مع البابوية ، ولذا عد موته المفاجئ والمبكر في سبتمبر ١١٩٧ في صالح البابوية تماما (٧٥) ، والتي لم تلبث أن حظيت في العام التالي مباشرة بشخصية من أقوى الشخصيات التي عرفها كرسيها في العصور الوسطى هو البابا إنوسنت الثالث .

وبنفس الشاكلة التي جرى بها خروج الحملة الثانية ، خرجت أيضا الثالثة ، الإمبراطور الألماني سلك الطريق البرى غبر وسط أوروبا ، وليلقى حتفه غرقا في أحد أنهار قيليقية Cilicia بآسيا الصغرى ، وليتفرق جيشه الضخم في غير انتظام ، بينما أمضى ملكا فرنسا

---

(٧٣) هسي ، العالم البيزنطي ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص ١٩٦ .

(٧٤) Ullmann, A short history of the Papacy, pp. 186, 202-203

(٧٥) Ibid. p. 206 .

وانجلترا شتاء ١١٩٠/١١٩١ فى صقلية ، ثم ارتحل كل منهما وحده بجيشه باتجاه عكا ، فيليب أولا وبعده بشهرين قصدها ريتشارد . وهكذا عملت الخلافات السياسية والعسكرية والمصالح الشخصية المتنافرة على عدم التقاء زعماء الحملة على عمل واحد . وكانت عاقبة أمرهم خسرا ، إذا لم تحقق الحملة أى نجاح يذكر فى الشرق . ولم تكن البابوية راغبة ولا حتى قادرة آنذاك على ايجاد الوفاق بين الزعماء الثلاثة . ولسنا مبالغين إذا ذهبنا إلى القول أن البابوية لم يكن لها دور جدير بالاعتبار فى هذه الحملة ؛ فجريجورى الثامن لم يفعل أكثر من إذاعة دعوة عامة واهنة تتناسب ونهاية العمر التى كان يعيشها ، وكلمنت الثالث لم يذهب أبعد من إرسال نداء إلى فردريك بربروسا ، ولم يتيسر للبابوية - رغم أن الحادث جلل ، أعنى ضياع بيت المقدس - شخصية مثل شخصية أوربان الثانى فى الحملة الأولى ، أو يوجينوس الثالث فى الحملة الثانية ، ولم يتوفر لها داعية موهوب مثل بطرس الناسك فى الأولى أو القديس برنارد فى الثانية . ولهذا يمكن وصفها بأنها حملة علمانية بحتة ليس لها من الصبغة الدينية شيء ولا من الرعاية البابوية نصيب ، وهذه الأخيرة جاءت برضى الطرفين ، فلا الملوك كانت عندهم الرغبة فى مثل هذه الرعاية ، ولا البابوية كانت قادرة على أن تهبها !

وهذا الموقف يفسر لنا ماحدث بعد ذلك على عهد البابا إنوسنت الثالث ، الذى شهد عهده (١١٩٨-١٢١٦) الدعوة إلى حملتين صليبيتين هما الرابعة التى حققت حلم البابوية البعيد والعالمية الرومانية الخاصة بها وذلك باسقاط الإمبراطورية البيزنطية واحتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ وتحويل كنيستها إلى كنيسة كاثوليكية . والخامسة التى استهدفت مصر "رأس الأفعى" كما اعتبرها الصليبيون ، والتى لقيت الفشل الذريع ، وإن كان إنوسنت قد مات قبل أن يرى عطب ثمرة دعوته لهذه الحملة .

لقد حرص إنوسنت الثالث على أن يجعل من الفكرة الصليبية سلاحه الفتاك الذى يستخدمه فى الداخل والخارج فى مواجهة السلطة الزمنية لتحقيق أعلى قدر ، بل الأعلى ، للسيادة البابوية ، وأفصح دون مواربة فى رسالة بعث بها إلى نبلاء تسكانيا Tuscany عن مدى سلطانه ، يقول : "كما أن القمر يستمد نوره من الشمس ، كذلك فأن السلطة الزمنية تستمد سلطانها وكرامتها من البابوية"(٧٦) وفى أحدى عظاته وصف نفسه بأنه "أدنى

---

(٧٦) INNOCENT III, Letter to the prefect of Acerbus and the Nobles of Tuscany .

من الله وأعلى من البشر ، قاضى القضاة الذى لايقاضيه أحد" [(٧٧)] ، وفى دعوته للحملة الصليبية الخامسة[(٧٨)] فى ابريل ١٢١٣ قال : "نحن نتكلم باعتبارنا نائب المسيح "Vicarius Christi ، ولم يعد بذلك خليفة بطرس كما كان أسلافه .

كان إنوسنت الثالث على اقتناع كامل بأنه "سيد العالم" Dominus mundi بلا منازع ، ولم يسمح لأى شئ أن يعوقه عن تحقيق هذا الهدف ، ومن ثم أنخرط بشكل عملى فى كل المسائل السياسة والدبلوماسية وكذا الاقطاعية والعائلية فى كل أوروبا ، لقد امتزج الفكر الصليبى عنده بفكرة السمو ، وأصبحت الفكرتان لديه جوهرا واحدا ، وكان هذا واضحا بصورة جلية فى موقفه تجاه الإمبراطورية البيزنطية فى الحملة الصليبية الرابعة عندما هنأ زعماء ها بالانتصار على "دولة متمردة وكنيسة مارقة" ، وكذا سياسته تجاه الألبجنسيين Al-bigensians فى جنوب فرنسا ، والجماعات الهرطقية ، والشعوب الوثنية ، إذ كان ينظر إلى سلوك هؤلاء جميعا باعتباره جرائم تحاك ضد السيادة الإلهية ، وتندرج بذلك تحت تهمة الخيانة العظمى للبابوية ، وكأنه كان يهتدى هنا برشد سلفه الأسبق جريجورى السابع الذى كان يردد دائما : "من ليس مع الكنيسة الرومانية فليس بكاثوليكى" [(٧٩)] .

ولم يقف دوره فى النزاع الذى دار حول العرش الألمانى بعد وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ عند حد كونه حكما فقط ، بل تعداه إلى التدخل السافر بين أطراف هذا النزاع الذى استمر من سنة ١١٩٧ حتى سنة ١٢١٤[(٨٠)] ، متنقلا فى تأييده بين هذا الجانب وذاك دون مراعاة لأية

---

(٧٧) INNOCENT III, Sermon on Consecration of a pope.

(٧٨) INNOCENT III, Proclaims the Fifth Crusade 19-29 April 1213 .

(٧٩) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 220 .

(٨٠) فى عام ١٢٠١ وبعد ثلاث سنوات من اندلاع الحرب الأهلية فى ألمانيا صراعا حول العرش ، أصدر إنوسنت الثالث وثيقة تعد من أخطر الوثائق البابوية فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى للفصل فى هذا النزاع ، ورغم أنه قال فى ديباجتها أنه سوف يفصل فى القضية بمقتضى الشرعية والصلاحية ، إلا أن حكمه فى النهاية جاء بعيدا تماما عن هذين المبدأين ، ومطابقا كلية لمصالح البابوية . للمزيد من التفاصيل راجع ، رأفت عبد الحميد ، السمو البابوى بين النظرية والتطبيق ، ص٢٠٨-٢١٢ وأيضا رأفت عبد الحميد ، الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب (فى ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثانى ١٩٨٣ ، ص١٣٤-١٣٦.

قواعد أخلاقية فى الالتزام بالعهود باعتباره "نائب المسيح" ، بل استخدم هذه المكانة ليفعل مايحلو له تماما ، وحصل من كل طرف من الأطراف الثلاثة ، فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، وأوتو الرابع الولفى دوق برنسويك ، وفردريك الثانى ابن هنرى السادس ، على وعود بحمل الصليب والاتجاه إلى الشرق ، بالإضافة إلى تنازلات كبيرة لصالح الاكليروس على حساب سلطة الملك .

وتدخل إنوسنت الثالث فى السياسة الفرنسية عندما أقدم فيليب أوغسطس على الزواج من آجنى Agnes إبنة الدوق ميران Meran الصديق الصدوق لفيليب السوابى ، وهجر زوجته إنجبورج Ingeborg أخت فلاديمير الثانى Wlademar II ملك الدانمرك الذى كان من القلائل المؤيدين لأوتو الرابع ، ولازال البابا بالملك الفرنسى حتى اضطر فى النهاية إلى العودة إلى زوجته إنجبورج . ونصب من نفسه حكما فوق قمة الهرم الاقطاعى على رأس جميع الملوك عندما تدخل فى النزاع الذى دار بين ملك فرنسا وملك انجلترا جون ؛ وكان ذلك حينما قام فيليب أوغسطس بغزو نورماندى ، ولما حاول البابا التدخل لفض هذا الصراع عن طريق وساطة أساقفة فرنسا ، احتج فيليب بأنه ليس من حق البابا التدخل فى المنازعات الإقطاعية[٨١] ، فأجاب البابا بوثيقة على جانب كبير من الأهمية ، صدرت عنه فى سنة ١٢٠٤ ، جاء فيها أنه لايرغب مطلقا فى انتهاك الحقوق السيادية الشرعية لملك فرنسا ، وليست لديه النية للحكم فى القضايا الاقطاعية ، ولكن فيليب وقع فى الخطيئة ، وللبابا الحق كل الحق فى أن ينظر فى مثل هذه الخطايا !! خاصة إذا كانت الحرب قد اندلعت بسبب هذه الخطيئة ، ومن واجبات البابا الأساسية رعاية السلام والدفاع عنه [٨٢] وكان من بين ما قاله فى هذه الوثيقة : "ليس هناك من لايعلم أن من بين اختصاصات منصبنا "توبيخ" أى ملك مسيحى إذا مازلت فى الخطيئة قدمه ، بل وإخضاعه قهرا للعقوبات الكنسية إذا لم يمتثل لقراراتنا .. وإذا كان يقال إن الملوك يجب أن يعاملوا معاملة تختلف عن الآخرين ، فإننا نعرف أيضا أنه مكتوب فى القانون السماوى : "لاتنظروا للوجوه فى القضاء ، للصغير كالكبير تسمعون ، لاتهابوا وجه إنسان لأن القضاء لله" {تثنية ١٧/١} .

---

(٨١) Tierney, Crisis, pp. 127-129 .

(٨٢) Ibid. pp. 134-135 .

وبلغ سلطانه فى فرنسا أقصاه عندما وجه الدعوة إلى حملة صليبية ضد الألبجنسيين فى جنوب فرنسا ، ورغم أن فيليب أوغسطس رفض الاشتراك فى هذه الحرب ، وأبدى استياءه من التدخل البابوى السافر فى شئون دولته ، إلا أن البابا مضى قدما فى خطته ، ووعد الأمراء الفرنسيين فى الشمال بالحصول على الأراضى الخاصة بالالبجنسيين فى الجنوب ، إقطاعا خاصا لهم (٨٣) ، مما اضطر فيليب فى النهاية إلى المشاركة فى هذه الحملة حتى لايخرج الأمر من بين يديه داخل بلاده ، وحتى لايترك المسألة برمتها للبابوية . وفى عام ١٢١٥ ، فى مجمع اللاتيران الرابع ، الذى دعا فيه لحملة صليبية جديدة ، أعلن البابا توقف الحرب الألبجنسية – وكان قد تحقق النصر له – وانتهاءها لمصلحة الحرب فى الأراضى المقدسة .

وفى انجلترا ، على عهد ملكهاجون (١١٩٩-١٢١٦) أدت المنازعات التى دارت حول اختيار أسقف لكنيسة كانتربورى فى سنة ١٢٠٥ ، واقدام الرهبان على اختيار زعيمهم رينالد Reginald ثم اسقاطه واختيار أسقف بدلا منه بناء على ضغط ملكى ، إلى عدم اعتراف إنوسنت الثالث بالاختيارين معاً ، فلما قدم الرهبان إلى روما أوحى إليهم البابا باختيار أحد زملائه فى جامعة باريس هو "لانجتون Langton سنة ١٢٠٧ . فلما رفض جون هذا التدخل السافر فى شئون مملكته لقنه البابا درسا قاسيا ، إذ أصدر ضده قرار الحرمان الكنسى ووضع شعبه تحت اللعنة عام ١٢٠٨ ، مما دفع كثيرا من الرهبان للهروب إلى روما يتضرعون إلى البابا أن يرفع عن انجلترا هذه اللعنة ، ولكن البابا زاد فى غطرسته حين راح يغرى فيليب أوغسطس بغزو انجلترا ووعده بالاعتراف بسيادته عليها ، وكان هذا كفيلا ، إلى جانب تمرد الشعب والرهبان والاكليروس بأن يدفع جون إلى قبول أن يكون فصلا إقطاعيا تابعا للبابوية فى عام ١٢١٣(٨٤) ، والاعتراف بلانجتون أسقفا لكانتربورى .

---

(٨٣) INNOCENT III, Letter to King Philip II of France, 17 November 1207, on the Proclamation of the Albigensian Crusade ' Letter to the Faithful in the Provinces of Narbone, Arles, Embrum, Aix and Vienne, 10 March 1208 on the Proclamation of the Albigensian Crusade .

وللوقوف على تفاصيل الحركة الألبجنسية راجع ، سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ١ ص ٢٦٤-٢٦٩ .

(٨٤) JOHN KING of ENGLAND, Concession of the Kingdom to the Pope 1213 ' INNOCENT III, Letter to King John of England accepting his Feudal homage, April 1214 .

وراجع تفاصيل هذه الأحداث فى Ullmann, A short history of the Papacy, p. 214

وفى الرسالة التى بعث بها إنوسنت الثالث إلى الملك جون ، يعلن فيها قبوله أن يكون ملك انجلترا فصلا إقطاعيا تابعا للبابوية ، جمع البابا فى كلماته كل ما من شأنه تكريس السلطتين الروحية والزمنية فى يديه ، وأضفى على نفسه من الألقاب والسمو مايجعل الملوك إلى جواره نسيا منسيا ، قال : "يسوع المسيح ، ملك الملوك ، رب كل رب ، الكاهن على رتبة "ملكى صادق" Melchiscdech الذى جمع للكنيسة الكهانة والملكية ، وجعل فوق الجميع رجلا اختاره بنفسه ليكون نائب المسيح على الأرض {يقصد البابا بطبيعة الحال} - ولما كان الجميع قد خروا راكعين فى السماء وعلى الأرض لعظمة المسيح ، كان حتما مقضيا أن يفعلوا ذلك أيضا مع نائبه من أجل أن يكون هناك شعب واحد وراع وحيد . وعلى كل ملوك الدنيا أن يجلوا ويوقروا هذا النائب طاعة له ، مدركين فى الوقت نفسه أن شرعية حكمهم ترتبط كلية بالولاء التام لنائب المسيح على الأرض والسعى إلى مرضاته" .

ولم تكن التبعية الفصلية التى أعلنها ملك انجلترا هى الأولى من نوعها ، بل سبقه إليها ملك بلغاريا جوانينزا Joannitza ، وكذلك أرغونة Aragon التى أمست تحت سيادة ملكها بطرس الثانى إقطاعا بابويا فى عام ١٢٠٤ ، بينما جددت البرتغال وقشتالة العهود الإقطاعية مع البابوية . أما فى شمال أوروبا وشمالها الشرقى ، فمن أجل تأييد الأسقف المبشر ألبرت Albert فى ليفلاند Livland دعا البابا المسيحيين فى سكسونيا ووستفاليا إلى حملة صليبية ضد الوثنيين هناك ، وأصبحت هذه سياسة البابوات من بعد ، وفى كل من السويد والنرويج أضحت السياسة الإنوسنتية عاملا أساسيا فى التدخل فى مسألة اعتلاء العرش والجدل الدائر حوله . وسمح لدوق بوهيميا "أوتوكار" من جانب البابا وموافقة أوتو الرابع ملك ألمانيا ، بحمل لقب ملك بكل امتيازاته [٨٥] وفى المجر تدخلت البابوية فى النزاع الذى دار بين الأخوين "إمريك" Emmeric وأندرو Andrew حول العرش ، ويمكن القول باختصار إن النشاط البابوى شمل أوروبا كلها ، وأصبح البلاط البابوى هو المركز الحكومى المشغول دائما فى العالم آنذاك [٨٦] . وهكذا فإن البابوية فى مطلع القرن الثالث عشر أصبحت تضم تحت سلطانها أكبر عدد من الأفصال الإقطاعيين قل أن تمتعت به أى سلطة زمنية أخرى فى أوروبا .

---

(٨٥) INNOCENT III Grants the title of King to the Duke of Pohemia 1204 .

(٨٦) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 215 .

هكذا ضمنت البابوية أن تكون صاحبة اليد العليا فى أوروبا كلها خلال العقد الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وساهمت الظروف السياسية التى سادت أوروبا آنذاك فى تحقيق هذا السمو البابوى ، ولا نستثنى من ذلك فقط إلا فيليب أوغسطس الملك القوى لفرنسا ، وإن كان الرجل قد آثر عدم الدخول فى مواجهة مع البابوية ، ولم تكن شخصية فردريك الثانى ، الملك الألمانى والإمبراطور ، قد أفسحت لنفسها مكانا على المسرح السياسى آئنذ . وهكذا خلت الساحة تماما لإنوسنت الثالث أن يفعل مايحلو له مع كل ممثلى السلطة الزمنية فى أوروبا ، وأن يندفع بكل قوته الآن ليحرك أوروبا من جديد فى حملة صليبية تحقق له الجزء الباقى من حلمه الكبير فى السيادة العالمية .

لم يكن غريبا إذن أن يكون الشغل الشاغل لإنوسنت الثالث منذ اليوم الأول لاعتلائه كرسى القديس بطرس الحملة الصليبية التى يجب أن تتجه إلى الشرق لاسترداد القدس ، واعتبر ذلك أولى مهامه المقدسة بعد أن فشلت الحملة "العلمانية" التى قادها ملوك أوروبا الثلاثة "العظام" فى تحقيق أى نجاح يمكن أن يكون له تأثير على مسيرة الحركة الصليبية . وكان الصراع الداخلى الذى نشب حول العرش الألمانى عقب وفاة هنرى السادس الفرصة التى اهتبلها دون توان ؛ فبعد أن أصدر وثيقته المشهورة (٨٧) فى عام ١٢٠١ ، واعترف فيها بـ "صلاحية" أوتو الرابع الولفى للعرش ، رغم عدم شرعيته ، عاد بعد عامين من الحرب الأهلية التى كان ينفخ فيها باستمرار ، بل والتى كانت الوثيقة فى جوهرها دعوة لإشعالها ، عاد وقد رأى الكفة تميل إلى صالح الهوهنشتاوفن يبدى رضاه عن فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى ، ولم يكن ذلك إنصافا للحق بل طمعا فى المصلحة البابوية ، ودعما للفكر الصليبى البابوى ، إذ قدم فيليب وعدا قاطعا على نفسه فى وثيقة رسمية (٨٨) صدرت عنه فى عام ١٢٠٣ ، بحمل الصليب دفاعا عن الأراضى المقدسة ، جاء فيها : ".. من أجل السلام مع الكنيسة ، فقد نذرت للرب والقديسين أن أعبر البحر لأحرر الأرض الموعودة من قساوات الوثنيين . ولما جاءنى رسول البابا يعرض على السلام مع الكنيسة فإنى نذرت ثانية ووعدت الله وقديسيه وممثلى البابا بكل الايمان ، ودون أى نفاق ، القيام بحملة صليبية من أجل دعم الكنيسة

---

(٨٧) INNOCENT III, Decision of Innocent III in regard to the disputed election 1201 .

(٨٨) PHILIP of SUABIA, Concessions of Philip to Innocent III 1203 .

والامبراطورية ، وسوف أبذل كل مافى وسعى من أجل تحرير هذه الأرض .. وإذا قدر الله لى السيادة على الإمبراطورية اليونانية {البيزنطية} فإنى سوف أخضع الكنيسة اليونانية للكنيسة الرومانية" .

والوثيقة تكشف عن مدى استخدام البابوية للفكرة الصليبية - كما قدمنا - سلاحا فتاكا ترهب به خصومها أصحاب السلطة الزمنية ، وتلوح لهم به لقاء مساندة عروشهم ! هذا بالإضافة إلى أنها تبين أيضا أن البابوية كانت عازمة تماما على بسط سلطانها على الإمبراطورية البيزنطية والكنيسة الأرثوذكسية وادخالها ضمن حظيرة الكاثوليكية . ولم يكن فيليب السوابى ليعلن عن ذلك فى وثيقته هذه إلا بوحى من رسل البابا ، خاصة وأنه كان مرتبطا بعلاقة مصاهرة مع الكسيوس {الرابع} الذى عزل عن العرش هو وأبوه اسحق الثانى أنجيلوس Isaac II Anglus على يد الكسيوس الثالث Alexius III وحتى لو أدخلنا فى اعتبارنا أن فيليب السوابى قد أعلن ذلك بناء على استنجاد صهره به ، فلم يكن من الحصافة التصريح بأنه سوف يخضع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما . ومن ثم فليس هناك شك فى أن هذه العبارات أملاها عليه رسل البابا بوحى من حبرهم الأعظم ، ولم يكن فيليب ، المتطلع إلى العرش ، وفى مثل هذه الظروف العصيبة ، يملك إلا أن يكتب ما يملى عليه !

هذا مثال واحد من أمثلة أخرى جرى تطبيقها مع أوتو الرابع والشاب فردريك الثانى الذى أخذت عليه العهود والمواثيق مرة عند تتويجه ملكا سنة ١٢١٢ والأخرى عند تتويجه امبراطور عام ١٢٢٠ .

ومن الجدير بالذكر أن البابوية دخلت فى تجربة قاسية نتيجة الظروف التى أحاطت بالحملة الصليبية الرابعة ؛ ذلك أن كل الجهود المضنية التى بذلها إنوسنت الثالث منذ اعتلائه العرش البابوى ، وجهود كلمنت الثالث من قبله ، لم تسفر فى النهاية إلا عن حملة تضم مجموعة من الأمراء يتزعمهم بلدوين التاسع أمير الفلاندرز ، وأخوه هنرى ، وبونيفاس دى مونتفرات ، وثيبوت الثالث أمير شامبنى ، ولويس كونت بلوا . ولم يقم أحد من الملوك بالإشتراك فيها ، فملوك ألمانيا كانوا فى شغل شاغل بنزاعهم الداخلى عن الالتفات إلى الأرض المقدسة ، وفيليب أوغسطس لم يكن راغبا فى إعادة التجربة الصليبية مرة أخرى ، منصرفا إلى تقوية مركز الملكية فى الداخل ، وجون الانجليزى كان يعانى من عداوة أمرائه وأكليروسه ورهبانه والبابوية حتى عام ١٢١٥ ، والبابوية نفسها تدير حربا صليبية خاصة جدا فى ألمانيا بين المتصارعين على العرش ، وتشعر بالقلق فى الوقت نفسه من جراء الثورة التى تسير قدما فى

الجنوب الفرنسى من جانب الألبجنسيين . والبنادقة الذين لجأ إليهم أمراء الحملة لنقلهم بسفن البندقية إلى مصر ، وجهة الحملة ، لم يكن يعنيهم من أمر الصليب إلا مايحقق مصالحهم التجارية بعد أن غدت البندقية من أعظم الجمهوريات التجارية الارستقراطية فى البحر المتوسط عندئذ ، وكان شعار أدواجها .. بنادقة أولا وصليبيون ثانيا .. إذا دعت الضرورة ! ولم يفق البابا من دسائسه إلا وجنود الصليب يدمرون مدينة زارا Zara المسيحية على الشاطئ الأدرياتى المقابل ، وكانت تابعة لملك المجر ، وأرادتها البندقية لنفسها مركزا تجاريا جديدا متميزا . فأنزل اللعنة على من فعلوا ذلك ، ثم أعطاهم دبره مرة أخرى متحرفا إلى مايدور فى ألمانيا !

لقد أمضى جنود الصليب مايزيد على عامين كاملين يقيمون فى البندقية بلا عمل ، لايجدون من الملوك من ينفق عليهم وعلى مشروعهم الصليبى ، ولايجدون فى البابوية نفسها التى دعتهم إلى هذا المصير الرعاية المرجوة . وإن كانت البابوية والبنادقة قد اقتطفوا فى نهاية الأمر الثمرة كلها ، باخضاع الكنيسة الشرقية للكاثوليكية ، وابتلاع الأراضى البيزنطية فى القسطنطينية وشبه جزيرة المورة ومنطقة البلوبونيز[٨٩] . وحققت البابوية حلمها البعيد الذى كانت تهدف إليه ، وتحققت أمنيات فيليب السوابى التى أملتها عليه البابوية .

وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة بالنتيجة التى انتهت إليها من تدمير زارا واسقاط القسطنطينية ، قد جاءت لتؤكد بما يدع مجالا للشك انحراف الفكرة الصليبية عن أهدافها المعلنة على لسان أوربان الثانى ، فأنها فى الوقت نفسه تمثل نقطة فاصلة بين المرحلتين الثانية والثالثة من الحركة الصليبية ، وإذا كانت المرحلة الأولى قد تميزت بالدعوة العامة للحرب والاستجابة العامة أيضا لها من جانب الأمراء ، عصب الحياتين السياسية والإقتصادية فى أوروبا آنذاك ، والرعاية البابوية الكاملة ، وضمت الثانية الدعوة العامة ، والنداءات الخاصة الموجهة لملك بعينه ، والرعاية البابوية المصحوبة بنشاط السلطة الزمنية ، وتمثلت فى الحملتين الثانية والثالثة ، فأن المرحلة الثالثة والأخيرة اختصت بالطابع الفردى للحملات الصليبية ،

---

(٨٩) عن الحملة الصليبية الرابعة وظروفها ودور البابوية والبنادقة والألمان فيها راجع كلارى (روبرت) فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٤ ؛ فيلها ردوان ، مذكرات ، ترجمة حسن حبشى ، جده ١٩٨٢ ، اسحق عبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوش حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ، القاهرة ١٩٧٠ .

فلم تعد أوروبا تخرج عن بكرة أبيها بملوكها وأمرائها وأقنانها ، وانما اقتصرت الحرب على ملك بعينه ، يقود جيشه ، وباتجاه الشرق قاصدا مصر بصفة خاصة . وكان هذا راجعا فى المقام الأول إلى أن أوروبا القرن الثالث عشر لم تعد هى أوروبا القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، فقد آذن النظام الإقطاعى فى انجلترا وفرنسا بصفة خاصة بالرحيل ، وإن بقى فى ألمانيا طويلا من بعد ، ونشطت حركة التجارة الداخلية والخارجية ، وازداد عدد المدن الجديدة ، وأنشئت الجامعات ، وتغيرت الأفكار السائدة فى المجتمع الأوروبى بصفة عامة إلى حد ليس بالقليل . ومع أن هذه الظواهر كلها قد بدأت تلوح فى الأفق منذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، إلا أنها راحت تمكن لنفسها الآن فى الأرض الأوروبية ، ولعل من أدق ماقيل فى التعبير عن ذلك ، ما أورده إرنست باركر فى كتابة "الحروب الصليبية" بقوله : "إن تاريخ الحملة الصليبية الرابعة يعد نموذجا لتسلط النزعة العلمانية ، ومحاولة البابوية فى الوقت نفسه التخلص من ذلك التسلط وتلك السيطرة ، ومواصلة ما اشتهرت به من قبل من توجيه الحروب الصليبية ، وما حاق بهذه المحاولة من الفشل الذريع" .

وإزاء هذا الموقف الجديد الذى بدا واضحا من خلال انعدام الحماسة الدينية ازاء الحرب الصليبية ، إبان الحملة الرابعة ، كان على البابوية أن تغير هى الأخرى من أسلوبها لتضمن بقاء هذه الفكرة الصليبية قائمة ، ولتظل فى الوقت نفسه ممسكة بأوراق اللعبة كلها فى أيديها كما أرادت دائما . بل إن البابوية فى فكرها الصليبى فى هذه المرحلة ، جعلت الحرب الصليبية مسألة شخصية بحتة ، تمس مكانة البابا وقدسية الكنيسة ، وتحولت من حرب مقدسة - كما كانت تسميها - إلى عداء شخصى بين البابا وكل من يجرؤ على عصيان أوامره .

ورغم مابدا للجميع ساعة سقوط مدينة قسطنطين فى يد جند الصليب اللاتين ، من أن هذا يعد انتصارا ساحقا للبابوية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية على الإمبراطورية والكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية ، إلا أن هذا كان سرابا سرعان ماتبدد مع كل اقتراب من أرض الواقع، فوجود امبراطورية لاتينية فى القسطنطينية ومنطقة البلوبونيز ، حرم الممتلكات والإمارات الصليبية فى الشام من توالى الإمدادات المتتابعة من أوروبا ، بعد أن فضل كثير من الصليبيين الذهاب إلى هذه المملكة الجديدة بعيدا عن المحيط الإسلامى المحيط بهم فى الشام ، ومن ثم فقدت هذه الإمارات موردا بشريا متجددا يقدم من أوروبا ، فى الوقت الذى تزايدت فيه قوة المسلمين تحت زعامة مصر فى عصريها الأيوبى والمملوكى ، بينما تكشف للأوروبيين

أن الأرض البيزنطية لم تكن هى أرض الأحلام الموعودة ، وخير دليل على صدق مانذهب إليه هو أن المسلمين استردوا الرها والقدس خلال المائة عام الأولى من مجيء الصليبيين فى الحملة الأولى ، بينما تساقطت باقى الممتلكات الصليبية فى أيديهم خلال أقل من ربع قرن من الزمان، فاسترد الظاهر بيبرس أنطاكية سنة ١٢٦٨م واسترجع المنصور قلاوون طرابلس عام ١٢٨٩ ، وعادت آخر معاقلهم ، عكا ، فى سنة ١٢٩١ على يد الأشرف خليل بن قلاوون ، بينما نجح البيزنطيون فى استرداد القسطنطينية سنة ١٢٦١م . ومن هنا ندرك أن سقوط الإمبراطورية على يد جنود الحملة الصليبية الرابعة لم يكن نعمة بقدر ما كان نقمة على الحركة الصليبية بصفة عامة .

وهاهو إنوسنت الثالث يدعو لحملة صليبية جديدة عدت الخامسة ، يحاول أن يحشد لها كل طاقات أوروبا ، مؤملا أن يعود زمان أوربان الثانى من جديد ، لكن دون جدوى . ويضع أمله كله فى فردريك الثانى ، ولكن عبثا كان يحاول . يقول موجها خطابه "للمؤمنين" (٩٠) إن الأمل ليحدونى أن تكون المساعدة التى تقدم إلى الأراضى المقدسة الآن تفوق بكثير كل ماقدم لها من قبل .. ويجب أن يعلم الجميع أنا نتكلم باعتبارنا "نائب المسيح على الأرض" ، وأن كل من يتقاعس عن خدمة المخلص فى هذه الساعات الحرجة ، يستوجب اللوم كل اللوم .. لاتترددوا فى أن تقدموا أنفسكم وأموالكم فداء لمن قدم روحه لكم فداءً " وأعلن حمايته على كل المشاركين فى الحملة مع التعهد بحماية أسرهم وممتلكاتهم إلى حين عودتهم ، ودعا إلى اسقاط فوائد الديون المتراكمة على المشتركين فى الحملة ، وألزم السلطة الزمنية بأن تتخذ مع اليهود الإجراءات الكفيلة بعدم تحصيل هذه الفوائد ، بل ورد مادفع منها . وكتب إنوسنت الثالث بهذا المعنى رسائل إلى أساقفة كل من "سباير" Spcyer (٩١) وأوجزبرج (٩٢) Augs-burg، وربنزبرج (٩٣) Regensbury ، ووجه الدعوة لعقد مجمع اللاتيران الرابع فى عام ١٢١٥ ، وهيأ له من أسباب النجاح كل مايمكنه ، وحرص على أن يدعو إليه أيضا

---

(٩٠) INNOCENT III, Proclaims the Fifth Crusade, April 1213

(٩١) INNOCNT III, Letter to Conrad, dean of speyer, September 1213 .

(٩٢) INNOCNT III, Letter to the abbot of Salem, the Former abbot of Neuburg, the- dean of Speyer and the Provost of Augsburg, May 1213

(٩٣) INNOCNT III, Letter to Conrad bishob of Regensburg, September 1213 .

العلمانيين تأكيدا لفكره الصليبي في مواجهة السلطة الزمنية ، وكان من بين الحضور يوحنا التورى John of Tours مندوبا عن ملك بيت المقدس جان دى بريين Jean de Berinne ومندوب عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وممثلون لملوك فرنسا وانجلترا وإسبانيا ، ورسول من الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وملك هنغاريا .

وفى المجمع حدد البابا مصادر تمويل الحملة ، حتى لايحدث ماحدث من قبل للحملة الرابعة ، وأوجه الانفاق الضرورية ، وكل مايتعلق باجراءات مسارها ، وضرورة اتجاهها إلى مصر لتحطيم "رأس الأفعى" هذه . ومن بين التعليمات التى أقرها بنفسه أنه "يجب على المشاركين أن يطلعونا على خططهم حتى يتسنى لنا أن نمدهم بمندوب بابوى يقدم المشورة لهم . وعلى البطاركة ورؤساء الأساقفة وجميع الكهنة أن يحثوا الملوك والأدواق والأمراء والماركيزات والكونتات والبارونات وعلية القوم الآخرين ، بالتعاون مع العواصم والمدن والقلاع ، .. أن يوفروا عددا ملائما من الجنود بأسلحتهم وعتادهم ومؤنهم التى يحتاجون إليها طيلة ثلاث سنوات قادمة ، عوضا عن الذين لايستطيعون الذهاب إلى الأراضى المقدسة بأنفسهم" (٩٤) . وهذه كلها تنبئ عن رغبة البابا فى أن يدس أنفه فى كل أمر من أمور الحملة ، بعد أن انتهى من مشاكله في أوروبا ودانت له كلها بالطاعة ، حتى لاتتكرر مأساة المحاربين الصليبيين وماجرى لهم فى البندقية من قبل . وحتى يضمن نجاح الحملة فى الخارج فيكتمل الشق الأخير من سيادته على أراضى الشرق ، بعد أوروبا والقسطنطينية .

ويبدو أن الأقدار كانت رحيمة بأنوسنت الثالث ، فمات فى عام ١٢١٦ ، قبل أن يشهد النهاية المأساوية التى آل إليها أمر الحملة الصليبية الخامسة فى مصر ، والتى يعود الفضل فى جانب منها إلى صلف وغطرسة المندوب البابوى نفسه (٩٥) وكانت حلقة فى سلسلة الفشل المتلاحق لحملات الملوك !

لقد كان "بلاجيوس" المندوب البابوى صورة متجسدة لشخصية وفكر وأهداف وطموحات سيده الراحل إنوسنت الثالث ، فرغم كونه الزعيم الروحى للحملة ، إلا أنه أبى إلا أن يكون

INNOCENT III, Legislates of the Fourth Lateran Council for the fifth Crusade, 30 (٩٤) November 1215 .

(٩٥) عن الحملة الصليبية الخامسة راجع . محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية الخامسة ، القاهرة ١٩٨٥ ، وانظر الفصل الثالث من كتابنا هذا .

القائد العسكرى لها ، ورجل السياسة الذى يدير دفة الأمور أثناء فترة المفاوضات التى جرت بين سلطان مصر الملك الكامل الأيوبى من ناحية وصليبيى الحملة الخامسة من الناحية الأخرى ، وضاعت تماما بفعاله شخصية الملك جان دى برين ، الذى أمسى من الناحية النظرية فقط ، قائد هذه الحملة . ودار الصراع خفيا تارة وسافرا تارات بين بلاجيوس ومؤيديه من التجار الإيطاليين أصحاب المصالح التجارية الكبرى فى الشام ومصر ، ومعهم فرسان الداوية والاسبتارية ، وبين الملك وأنصاره ، كانت الغلبة خلال جولاتها كلها من نصيب المندوب البابوى، مما دفع جان دى برين إلى مغادرة دمياط كارها ، تاركا ساحة القتال والمفاوضات لبلاجيوس ، ولم يعد إلا عندما بدأت الحملة تستعد للزحف جنوبا تجاه القاهرة ، خوفا من أن يناله غضب البابوية !! وكانت عجرفة المندوب البابوى وغروره اللذان فاقا كل وصف سببا رئيسيا فيما لحق الحملة الخامسة من هزيمة مروعة كادت تودى بجنودها أجمعين إلى الهلاك المحقق ، لولا رحمة الملك الكامل الأيوبى .

والآن .. جاء الدور على الإمبراطور فردريك الثانى ليفى بعهوده التى قطعها على نفسه للبابوية ، لكن فردريك كان رافضا لفكرة الحرب الصليبية كلها من البداية ، غير مؤمن بأسبابها ، غير مقتنع بجداوها ، خاصة وأنه قد نشأ فى أول عمره فى صقلية ، ووقف على الحضارة الإسلامية المتميزة التى خلفها المسلمون هناك ، وتضلع فى علوم كثيرة من ميادين المعرفة الإنسانية ، وأجاد الحديث بست لغات ، كانت العربية واحدة منها ، متسامحا فى عصر طفح بالتعصب ، حتى عرف بأنه "أعجوبة الدنيا" أو "محير العالم" Stupor mundi ولم يكن يقارنه فى ذلك فى زمانه إلا سلطان مصر الكامل الأيوبى ، حتى شبههما كانتروفتش [٩٦] بأنهما وجهين لعملة واحدة ، معبرا عن ذلك بقوله " "كان الكامل هو الوجه الشرقى للامبراطور، بينما كان فردريك هو الوجه الغربى للسلطان" .

لهذا ظل فردريك يسوف فى أمر الخروج حاملا الصليب على امتداد خمسة عشر عاماً كاملة (١٢١٢-١٢٢٧) ، رغم ماقدمته له البابوية من إغراءات مثل تزويجه من يولاند Yo-landa وريثة عرش بيت المقدس سنة ١٢٢٥ . حتى إذا أصدر البابا جريجورى التاسع Greg-ory ضده قرار الحرمان الكنسى فى عام ١٢٢٧ لم يجد بدا من الخروج حاملا الصليب بيمينه واللعنة على كتفيه !

---

(٩٦) Frederick the Second, p. 185 ، وراجع . تفصيل ذلك فى الفصل الثالث من كتابنا هذا .

وإذا كان فردريك قد نجح عن طريق المفاوضات مع نظيره الملك الكامل ، فيما فشل فيه ملوك أوروبا عن طريق الحرب ، ورغم الجهود المضنية التى بذلتها البابوية فى أوروبا ولدى ملوك الأيوبيين فى مصر والشام ، لتحول دون تحقيق أى نجاح يمكن أن يحرزه الإمبراطور فردريك الثانى ، إذ أن البابوية اعتبرت نجاحه فى استرداد القدس ثانية "كارثة صليبية" حلت بساحتها ، إذ عادت المدينة على يد امبراطور محروم من رحمة الكنيسة . لقد كانت البابوية تكره تماما أى نجاح يمكن أن يحققه أى من ملوك أوروبا على الجبهة الصليبية ، إذا لم يكن يدين بالولاء الكامل لها والخضوع التام لسيادتها ، بل لم تكن تتورع أو تتردد مطلقا فى أن تضع بنفسها العراقيل فى سبيل نجاح يمكن أن يحققه خارجا عن ظل عرشها حتى ولو كان ذلك ضد المسلمين فى الشرق !! فما بالها الآن وهذا النجاح يتحقق لملك قيدته هى بقيود اللعنة وحرمته من رحمتها . وإذا كانت القدس هى القيثارة التى عزفت عليها لحن الأمانى قبل أن تقع فى أيدى قوات الحملة الصليبية الأولى ، ثم راحت تترنم على أوتارها بأنشودة الأحزان بعد أن ضاعت من يديها بعد أن استردها صلاح الدين ، فإنها كانت على استعداد تام أن تحطم هذه القيثارة تماما إذا كان بقاؤها سوف يحمل لها الخذلان والصغار ؛ فحرمان ملك من رحمة الكنيسة ولعنته يعنى غضب السماء عليه ، ولابد أن شعب الكنيسة كله سوف يتساءل.. كيف يمكن أن تبارك السماء ملكا محروما ملعونا ، وترضى عن أعماله ، فتمنحه- بغير قتال- القدس مدينة المسيح ؟! ومن هنا كانت البابوية تدرك تماما أنها فى موقف لاتحسد عليه، وإلا فبم نفسر مراسلاتها لملوك بنى أيوب ترجوهم ألا يقدموا أى عون لفردريك الثانى طريد رحمتها ؟! .

من هنا ، ودون أى تردد أو حياء ، كان لابد أن تعلنها البابوية حربا صليبية طاحنة ضد فردريك الثانى . لقد تصورت يوم وفاة أبيه هنرى السادس أنها ودعت ذلك الكابوس الإمبراطورى المتمثل فى شخصه بذراعيه المبسوطتين ، إحداهما فى ألمانيا والثانية فى جنوب إيطاليا وصقلية . وتبسمت ضاحكة يوم وقع فردريك على وثيقة انفصال صقلية عن ألمانيا واعطائها لابنه هنرى [السابع] ، وظنت أنها نجحت فى ذلك بعد أن اصطنعت فردريك لنفسها وربته على عينيها . لكن ذلك كله بدا سرابا عندما رأت فكرة العالمية الرومانية التى أرساها فردريك الأول تطل برأسها من جديد فى حفيده وسميه الثانى ، وزادت قناعتها عندما أقدم فردريك على تزويج إبنه "إنزيو" Enzio من وريثة عرش سردينيا .

وكان هذا الزواج لطمة قاسية للبابوية ، أعاد إلى الأذهان زواج هنرى السادس من كونستانزا وريثة عرش النورمان فى صقلية . وكانت البابوية - بغض النظر عن الاعتبارات الاستراتيجية- تنظر إلى سردينيا على أنها جزء من ممتلكاتها ، طبقا لهبة قسطنطين المزعومة، وليست شيئا يخص الإمبراطور (٩٧) ولذلك كله صممت البابوية على تدمير الهوهنشتاوفن جميعا وليس فردريك وحده ، وأعلنتها حربا صليبية ضد كل أفراد هذه الأسرة ومن ينتمى إليها ، حتى لقد شبهت هذه المرحلة من الحرب بين فردريك وابنائه من ناحية والبابوية من الأخرى أنها "حرب إبادة" Guerre a Qutrance لأن المنتصر فيها لن يرحم المهزوم ، وهو ماحدث بالفعل من بعد .

ولم تكن معاهدة سان جرمانو San. Germao التى وقعت بين الطرفين إلا إجراء مؤقتا لالتقاط الأنفاس (٩٨) ففى عام ١٢٣٨ كلفت البابوية أساقفة "فيرزبرج" "Wurzburg" و"وورمز" Worms و"فرسالى" Vercelli و"بارما" Parma بتدبيج اتهامات معينة ضد الإمبراطور ، وامتثل الأساقفة للأمر ، وقدموا ماعهد به إليهم فى أربعة عشر اتهاما تدور كلها حول هرطقة الإمبراطور وفسقة وفجوره وانتهاكه للمقدسات ، وحنثه باليمين ، وتجديفه ، وعدم وفائه بنذره أكثر من مرة . وتناول فردريك كل هذه الاتهامات بالرد والتفنيد (٩٩) ولكن دون جدوى .

وكان مما يزعج روما الآن إلى حد الفزع ، أن الامبراطور أرسل بالأسرى اللومبارديين والمرتزقة التابعين للبابوية إلى روما ، بعد انتصاره عليهم عند كورتنوفو Cortenovo ومعهم أعلامهم وأبواقهم ، باعتباره امبراطوراً رومانيا ، جريا على عادة الأسلاف الأقدمين ، وأعلن فى الوقت نفسه عن مشروعات كانت تعد بعيدة المنال ، وداعبته الآمال حول إعادة مجد الرومان ، وبعث الحياة فى رومولوس Romulus مؤسس روما ، واعتزم تقسيم إيطاليا إلى أقاليم جديدة يديرها حكام رومان يعيدوا لها بهاءها المندثر (١٠٠) ، وصدقت البابوية ، أو لنقل

---

(٩٧) Ullman, A Short history of the Papacy, p. 257 .

(٩٨) TREATY of San. GERMANO, 1230 .

(٩٩) GREGORY IX & FREDERICK II, Papal Charges and Imperial defence 1238 .

(١٠٠) Thompson & Johnson, Medieval Europe p. 423 .

أنها أرادت أن تصدق ذلك خاصة أنها كانت من وجهة النظر القانونية الرومانية العاصمة الفعلية للامبراطورية التى يرأسها امبراطور رومانى ، وكان هذا تصوراً طبيعيا بعد اختفاء الإمبراطورية البيزنطية فى الشرق . وهكذا وجدت البابوية أن الايديولوجية التى صنعتها بنفسها فى خلق امبراطور فى الغرب ، قد ارتدت الآن إلى نحرها ، ولم تكن تملك إلى ذلك دفعا ، فهى التى توجت فردريك بيدها امبراطورا . ولم يكن ليلام إذا ما حاول أن يجعل من هذه الأيديولوجية البابوية حقيقة واقعة (١٠١) .

لذلك ما أن وضع البابا يده على الاتهامات التى طلب من قبل اعدادها ، ورفض السماع لدفاع فردريك عن نفسه ، حتى أصدر على الفور فى عام ١٢٣٩ قرار الحرمان الكنسي من جديد ضد الإمبراطور ، وقرنه باللعنة ، وتضمنت حيثيات القرار ستة عشر بنداً (١٠٢) تناولت كل الاتهامات السابقة ، وكان من بينها أنه استولى على أراضى الداوية والاسبتارية ، وأنه كان عائقا فى سبيل استعادة الأراضى المقدسة ، وهذا الأخير تزييف صريح للحقائق .. ولكن البابوية كانت تنظر للأمور من وجهه نظر شخصية ، وبفكر صليبى خاص بها .

وطفقت البابوية تطلق أساقفتها ورجال أكليروسها فى أوروبا كلها ليحرضوا ناسها وملوكها ضد فردريك ، وكان مجمع ليون المنعقد فى عام ١٢٤٥ مظاهرة لتأييد البابوية ، تقرر فيه التأكيد على حرمان فردريك . ورغم أن الإمبراطور لم يلجأ إلى تعيين بابا منافس ، فقد كان صريحا فى حربه شريفا فى ممارستها ، إلا أن البابوية استخدمت كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للقضاء على فردريك ، فدبرت مؤامرة لاغتياله فى إيطاليا ، ودفع البابا الجديد إنوسنت الرابع خمسة وعشرين ألف مارك من الفضة إلى أحد النبلاء الألمان ، وهو هنرى أمير ثورنجيا ليقبل التاج بدلا من فردريك ، ودفع ستة آلاف مارك أخرى لشراء أصوات الأمراء الناخبين ، إلا أن الموت عاجل هنرى ، فاختار البابا خلفا له وليم كونت هولندا (١٠٣) .

---

(١٠١) Ullmann, A Short history of the Papacy, p. 257 .

(١٠٢) GREGORY IX, Excommunication of Frederick II 1239 .

(١٠٣) Thompson & Johnson, Medieval Europe, pp. 247-248 .

* * كل الوثائق التى ورد ذكرها فى الحواشي السابقة موجودة ضمن مجموعات الوثائق التالية :

- Bettenson (H.), Documents of the Christian Church, London 1956 .

- Cantor (N.), The Medieval World 300-1300, London 1968 . =

وفى عام ١٢٥٠ مات فردريك الثانى ، فتنفست البابوية الصعداء ، لكن الحرب الصليبية ظلت مشتعلة ضد ولديه كونراد فى ألمانيا ومانفرد فى صقلية ، ثم حفيده كونرادينو Con-radino الذى كان صبيا صغيرا لاحول له ولاقوة ، غير أن البابوية رأت أن مجرد بقاء أى فرد من أسرة الهوهنشتاوفن على قيد الحياة يعنى أن الحرب الصليبية التى أعلنتها ضدهم لم تنته بعد . وحتى تصل إلى نهاية لهذه الحرب ، فقد تم القبض على كونرادينو من جانب جيوش البابوية وعملائها فى إيطاليا ، وسيق إلى نابولى حيث تم إعدامه عام ١٢٦٨ .

لقد حققت البابوية فى فكرها الصليبى صعودا واضحا ، لكنها فى الوقت نفسه منيت أيضا بحالة من التخبط بدت جلية فى الفترة التالية . لقد راحت البابوية تبشر بالحرب الصليبية وتدعو لها ضد المسيحيين مثل فلاحى "شتينجر" Stedinger فى ألمانيا ، الذين رفضوا دفع الضرائب لأسقفهم ، ومن قبل ضد الألبجنسيين فى جنوب فرنسا ، وقبلها أغمضت عينيها - إلا من احتجاج واهن عما حدث ضد أهالى مدينة زارا Zara على يد جنود الحملة الصليبية الرابعة . أو فى الأراضى المقدسة نفسها ضاعت القدس من بين يديها إلى غير رجعة سنة ١٢٤٤ لصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر . وفوق هذا وذاك فإن الشعوب الأوروبية نفسها أظهرت نوعا من الضجر الذى لاتخطئه العين تجاه الحركة الصليبية عامة ، بعد أن راحت تتكشف النوايا الحقيقية للفكر البابوى الصليبى . وليس أدل على ذلك كما يقول أولمان Ullmann من أنه على الرغم من أن جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦) ظل يحتفظ ببرنامج صليبى بعد الفشل الذى لحق بحملات لويس التاسع فى الشرق ، وبعد فرض ضريبة

- Care (R.) & Coulson (H.), A Source book for Medieval Economic History, New York 1965 .

- Hinderson (E.F.), Select historical documents of the Middle Ages, London 1925 .

- Riley - Smith, The Crusades, Idea and Reality 1095-1274, Documents of Medieval History, London 1981 .

- Thatcher (O.J.) & McNeal (E.H.), A source book for Medieval history, New York.

- Tierney (B.), The Crisis of Church and State, 1050-1300, U.S.A. 1964;

The Middle Ages, vol. I, Sources of Medieval history, New York 1978 .

صليبية جديدة فى مجمع ليون الثانى سنة ١٢٧٤ ، إلا أن الاستجابة الأوروبية لهذا النداء وتلك الضريبة كانت من الناحية العملية صفرا . ولم تلبث الإمارات الصليبية الباقية فى الشرق أن راحت لصالح المسلمين بعد هذا التاريخ بسبعة عشر عاما . بل إن التنازلات الضخمة التى قدمها الإمبراطوران البيزنطيان يوحنا الخامس ومانويل الثانى على حساب العقيدة والتقاليد البيزنطية العريقة ، وذلك بالتخلى عن الأرثوذكسية والتحول إلى الكاثوليكية قربانا على مذبح البابوية ، واستعطافا لمسيحيى أوروبا ، من أجل مد يد العون للامبراطورية لمواجهة المد العثمانى الهادر ، لم تلق إلا الأمنيات الطيبة وقبض الريح !!

هكذا كان الفكر البابوى الصليبى ركنا هاما من أركان السمو للحبر الأعظم الرومانى فى رحلة السمو الطويلة التى قطعتها البابوية فى العصور الوسطى ، وحرصت البابوية على أن تجعل من الحرب الصليبية أداة طيعة لتحقيق كل ما كانت تصبو إليه من علو شان فى مواجهة السلطة الزمنية . ولعل خير تعبير جرى به قلم كاتب معاصر ، كان هو ماكتبه متى الباريسى تعليقا على ذلك ، يقول : "لقد حاول فردريك جاهدا حتى أخريات أيامه أن يقيم السلام بينه وبين البابا ، لكن البابا أعلن أنه لن يسمح بعودة الإمبراطور إلى مكانته السابقة تحت أى ظرف من الظروف ، ومهما قدم من تنازلات . ويؤكد البعض – والكلام مازال لمتى الباريسى– أن البابا كان يرغب قبل كل شىء فى تحطيم فردريك وتلطيخ سمعته وسحقه ، متهما إياه بأنه التنين الأعظم حتى يتسنى له بعد ذلك تحطيم ملوك انجلترا وفرنسا وكل ملوك المسيحية ، الذين كان يتحدث عنهم باعتبار كل واحد منهم "مليك" {تصغير ملك} ، و"ثعبان صغير" ، وذلك بعد أن يوقع الرعب فى قلوبهم عن طريق مايفعله مع فردريك ، وبذا يصبح قادرا على إنهاك قواهم هم وأساقفتهم .. كل ذلك من أجل سعادته هو وحده ! إن جشعه وحبه الشديد للمال هما السبب فى كل هذه الكوارث .. لقد أغشى المال بصيرته .. إن البابا – وهو الأب الروحى – هو المسئول عن كل هذا القلق والاضطراب الحادث فى العالم ، ولم لا ؟ ! لقد سار على خطى قسطنطين ، وترك درب القديسين" !!

وبعد هذا كله فإن أى باحث فى تاريخ الحركة الصليبية لايستطيع أن ينكر الدور الرئيسى الذى اضطلعت به البابوية على امتداد هذه الحركة ؛ فهى التى دعت لها فى البداية ، وروجت لها ، وكرست جزءا كبيرا من وقتها وجهدها للدعاية لها ، وقام البابوات أوربان الثانى ويوجينيوس الثالث وكلمنت الثالث وإنوسنت الثالث وجريجورى التاسع ، بإطلاق أبواق دعاياتهم لخروج الحملات من الأولى إلى السادسة على التوالى ، ونقل بطرس الناسك الصيحة

التى أطلقها أوربان الثانى يقصد بها الأمراء إلى جموع العامة والدهماء فى الحملة الأولى و"أقفرت قرى من ساكنيها" بفعل جهود برنارد مقدم دير كليرفو فى الحملة الثانية . وأعلنت البابوية الغفران التام لما تقدم من الذنوب وماتأخر لمن يحمل الصليب إلى الشرق ، وأسبغت نعمها وحمايتها على فرق فرسان الداوية والاسبتارية والتيوتون ، وفرضت الضرائب وجمعت الأموال ، وأعلنت رعايتها للضياع التى يقلع عنها أصحابها متجهين إلى الأراضى المقدسة من أجل الصليب . هذا كله لايمكن انكاره . ولكن الذى لايمكن انكاره أيضا أن هذا كله جرى شريطة أن يكون تحت عباءة البابوية الفضفاضة التى أراد لها أصحابها أن تسع العالم كله . ولما كان ملوك أوروبا الذين خرجوا على رأس جيوشهم فى حملات صليبية ، قد فعلوا ذلك خارج هذه العباءة بعيدا عنها ، باستثناء ملكى فرنسا لويس السابع وسميه التاسع ، كان لابد أن يشملهم الغضب البابوى بدلا من العباة البابوية ، فقد وجدت فيهم البابوية منافسا خطيرا يهدد زعامتها لعالم المسيحية ، فالنصر فى ميدان الصليب إذا تحقق على أيديهم ، نسب لهم دون ذكر لها ، وهذا مايرفضه تماما الجالسون على عرش القديس بطرس فى روما ، أو نواب المسيح على الأرض ، إذ يجب أن تكون مقاليد الأمور كلها بأيدى هؤلاء ، وأن تتجمع بين أصابعهم خيوط اللعبة كلها ، ومن هنا كان لابد أن تعلنها البابوية حربا صليبية سافرة ضدهم. وكان الاذلال الذى جرى فى كانوسا لهنرى الرابع والإمبراطورية على يد جريجورى السابع والبابوية ، علامة بارزة فى هذا السبيل قبل أن تبدأ رحلة أول حملة صليبية إلى الشرق الإسلامى بعشرين عاما .

لقد كان الأمراء هم عصب الحياة السياسية والعسكرية فى أوروبا آنذاك فى ظل النظام الإقطاعى ، وكان الملك يستمد قوته فى الناحيتين من وقوف أمرائه إلى جواره ، وفى تخليهم عنه كان الخسران المبين ، ولما كانت فرنسا هى بؤرة هذا النظام ، لذا لانجد غرابة فى أن الحملات كلها انطلقت منها باستثناء السادسة ، وكان أمراؤها وفرسانها هم الدماء التى تجرى فى عروق الحركة الصليبية ، وهكذا كان الامراء فى ألمانيا وانجلترا ، من هنا كانت دعوة أوربان الثانى فى جوهرها موجهة إلى الأمراء ، المحاربين ، وهى دعوة تعنى فى حقيقتها أيضا سحب البساط تماما من تحت أقدام الملوك ، أصحاب السلطة الزمنية ، الذين أدركوا هم الآخرون مدى خطورة ما أقدمت عليه البابوية ، فراحوا بدورهم بدءا من الحملة الثانية يعلنون قيادتهم لأمرائهم فى هذه الحملات الصليبية .

هكذا كانت الحروب الصليبية تسير فى اتجاهين .. أولهما الحرب ضد المسلمين فى الشرق ، ولكل من البابوية والملوك أهدافهم المتباعدة من وراء هذه الحرب ، وثانيهما الحرب التى أعلنتها السلطة الروحية ممثلة فى الكنيسة الرومانية وبابواتها ضد السلطة الزمنية ممثلة فى الإمبراطور والملوك . ولما كانت البابوية قد اعتلت قمة جبل السمو فى كانوسا ، فقد بات مستحيلا بالنسبة لها التخلى عن هذه المكانة ، بل أصبح لزاما عليها أن تسعى بكل ماتملك إلى تكريس هذا السمو ، ومازالت به حتى جعل البابوات من أنفسهم ، ليس فقط خلفاء بطرس ، بل نواب المسيح على الأرض ، وأعلنوها حربا صليبية شرسة لارحمة فيها ولا هوادة ، ودون مواربة ، ضد أصحاب السلطة الزمنية في أوروبا . وهكذا - كما قال متى الباريسى - سارت البابوية على خطى قسطنطين ، وتركت درب القديسين" !!

الفصل الثانى

بيزنطة وخيانة القضية الصليبية

بيزنطة وخيانة القضية الصليبية

"إيه أيتها القسطنطينية .. كم أنت متعالية بثرائك .. غادرة فى سلوكك .. مهرطقة فى إيمانك .. وبينما أنت تخشين على نفسك ممن حولك من الطامعين فى هذا النعيم الذى فيه ترفلين ، إلا أنك تثيرين الجميع ضدك لخيانة تجرى فى عروقك ، وفسوق عليه تعيشين !! آه لو لم تكن لك كل هذه الرذائل ، لغدوت أجمل مكان فى الدنيا كلها" !!

هذا ما فاه به "أودو الدويلى"(١) الذى ترك للتاريخ وقائع الحملة الصليبية الثانية التى قام بها لويس السابع ملك فرنسا ، مشاركا لكونراد الثالث ملك ألمانيا ، وانتهت بالفشل الذريع تحت أسوار دمشق ، معبرا بكلماته هذه عما يعتمل فى صدور اللاتين تجاه الإمبراطورية البيزنطية ومشاعر الغرب عامة نحوها ، مما كان له أكبر الأثر فى العلاقات بين العالمين ، والتى راحت تزداد سوءا يوما بعد يوم منذ القرن الرابع الميلادى ، حتى وصلت إلى الدرك الأسفل عندما أطبق اللاتين على القسطنطينية وأخضعوها لسلطانهم طيلة سبعة وخمسين عاما (١٢٠٤-١٢٦١) ، أى منذ غزاها جنود الحملة الصليبية الرابعة حتى نجح فى استعادتها ميخائيل الثامن باليولوجوس .

ولم تغب هذه المشاعر والنوايا عن فطنة مؤرخى بيزنطة جميعهم ، خاصة أولئك الذين عاصروا فترة الحروب الصليبية ، أو جاءوا فى أعقابها ، ولخص "يوستاتيوس السالونيكى"(٢) إدراكهم جميعا لهذه المسألة فى عبارة مختصرة غاية فى البلاغة حيث قال : "لقد كان اللاتين يعتقدون يقينا أن العالم لايمكن أن يتسع لنا إلى جوارهم" !! وفصلت أنا كومننا"(٣) "ويوحنا كيناموس"(٤) ما أجمله "يوستاتيوس"، فى كلمات تكاد تكون متطابقة: ".. لقد قدم الغربيون

---

(١) ODD of DEUIL, De Profectione Ludovici VII in Orientem, edited with an English translation by V. G Berry, New york, p. 87 .

(٢) EUSTATHIUS of THESSALONIKI, De Thessalonica a Latinis Capta, p. 69 .

(٣) ANNA COMNENA, Alexiad, trans by E. Dawes, London 1967, p. 258

(٤) KINNAMUS, Deads of John and Manuel Comnenus, trans. by ch. M. Brand, New York 1976, p. 58 .

من مختلف البقاع تحت دعوى محاربة الأتراك فى طريقهم إلى القدس ، ولكن أهدافهم الحقيقية تكمن فى الاستيلاء على الأراضى الرومانية" .

على هذا النحو بات واضحاً أن الفريقين تتنازعهما - بفعل إرث بعيد - أحاسيس متنافرة، مابين الشك والارتياب والترقب الحذر من جانب البيزنطيين ، والكراهية والحقد والطمع الشره من جانب اللاتين ، ومن ثم كان حتما مقضيا أن يصطدم العالمان المسيحيان ، وكان حقا علينا أيضا أن نمعن الفكر بحثا عن الحقيقة .

فعندما أطلق سراح ابوهيمند Bohemond النورمانى أمير أنطاكية ، من الأسر الذى كان قد وقع فيه على يد غازى كمشتكين أمير سيواس الدانشمندى ، عاد إلى إمارته الصليبية ليجد أن الأمور بصورة أو بأخرى قد تبدلت فى غير صالحه ؛ فابن أخته تنكرد Tancred كان قد أدار الإمارة بمهارة واقتدار فترة غياب خاله ، ووسع حدودها على حساب جيرانه من المسلمين والبيزنطيين على السواء ، ولم يكن يسعده بالطبع باعتباره أميرا إقطاعيا أن يتخلى عن هذه الممتلكات وذلك الجاه ، وإن اضطر إلى مداراة خاله الذى من عليه باقطاع صغير . والمسلمون ممثلون فى الأتراك حكام الموصل وديار بكر بدأوا يضغطون من ناحية الشرق على تخوم أنطاكية ، وأوقعوا ببوهيمند النورمانى وبلدوين الثانى أمير الرها هزيمة مروعة عند "حران" ، أسر على أثرها بلدوين بينما لاذ بوهيمند بالفرار ، وقد وقعت هذه الواقعة عام ١١٠٤ ، والبيزنطيون لم ينسوا أبدا أن أنطاكية كانت خاضعة لسلطانهم قبل أن يأتى الصليبيون إلى الشرق بعشر سنوات ، وأن اتفاقا جرى بين هؤلاء وأولئك عند قدوم الحملة الأولى ، بأعادة أنطاكية إلى سلطان البيزنطيين ، ومن ثم فقد استغل الإمبراطور ألكسيوس كومننوس Alexius Commenus فرصة هذه النازلة التى حلت بأميرى أنطاكية والرها على يد المسلمين ، واسترد عددا من المدن التى كان الصليبيون قد استولوا عليها فى قيليقية Cil-icia ليوسعوا بها حدود أنطاكية ، بينما قام أسطوله بانتزاع عدد من المدن الساحلية التابعة للإمارة.

هكذا بدا لعينى بوهيمند أن الحال أصبحت غير الحال ، وأن سفين آماله راحت تتكسر على شطآن الواقع الأليم الذى تعيش فيه إمارته ، وجرى فى فمه وحلقه طعم المرارة يتجرعها بصفة خاصة من جراء هذه الهجمات التى يشنها البيزنطيون على أنطاكية ، ولذا فإنه قبل أن ينصرم عام ١١٠٤ ، كان بوهيمند قد أعطى ظهره لإمارته عائدا إلى أوروبا ، ليملأ الدنيا هناك ضجيجا بموقف العداء الذى اتخذه حياله ألكسيوس كومننوس ، وليعلنها حربا صليبية سافرة ضد الإمبراطورية البيزنطية التى خانت القضية الصليبية ، ولم تقدم لـ "جند الرب" العون

اللازم ليشقوا طريقهم في يسر وسهولة إلى الأراضي المقدسة ، بل تعمدت أن تضع في طريقهم العراقيل منذ وصولهم إلى أراضيها واقترابهم من القسطنطينية ، ووجد بوهيمند دعما من البابا "باسكال الثانى" Paschal II (١٠٩٩-١١١٨) ، الذى رحب بدعوة العداء الموجهة ضد بيزنطة ، ويصف مؤرخ معاصر استقبال الجموع لبوهيمند "كما لو كانت قد خرجت لاستقبال المسيح نفسه" [٥]باعتباره البطل العائد من الأراضي المقدسة ، بعد أن حقق النصر - في نظرهم- على "أعداء الصليب" !

وراح بوهيمند يذرع أوروبا منددا بسلوك أباطرة بيزنطة ، مستثيرا حماسة اللاتين الكاثوليك ضد هؤلاء "اليونان" الهراطقة ، وطفق الناس يجتمعون حوله من فرنسا وإيطاليا وغيرهما من البلدان الأوروبية ، فقادهم في حملة صليبية جديدة موجهة ضد الأراضي البيزنطية في أوروبا عام ١١٠٧ ، غير أن هذه الحملة تحطمت عند مدينة ديراخيوم Dyr-rachium (دورازو Durazzo) بفعل المقاومة البيزنطية القوية ، واضطر بوهيمند إلى عقد صلح مهين أصبح بمقتضاه تابعا للإمبراطور ألكسيوس كومننوس ، مما جر عليه حالة من الاكتئاب النفسي لازمته حتى فارق دنياه وهو حسير سنة ١١١١ .

ورغم الهزيمة العسكرية التي مينت بها هذه الحملة الصليبية التي وجهت ضد الأراضي البيزنطية في البلقان ، إلا أن بوهيمند خرج منها بدليل إدانة شهره في وجه أباطرة القسطنطينية ؛ ذلك أنه أسر عددا من الأتراك السلاجقة كانوا يعملون مع القوات البيزنطية في الدفاع عن ديراخيوم ، وأذاع في أنحاء أوروبا أن الإمبراطورية البيزنطية تتحالف مع المسلمين ضد المسيحيين الغربيين ، وأنها تجلب "أعداء الصليب" لقتل "جند الرب" . ولم يكن الغرب اللاتيني ، وعلى رأسه الكنيسة الكاثوليكية ، في حاجة إلى من ينفخ في كير الكراهية تجاه الشرق المسيحي الأرثوذكسي ، فقد كانت أحشاؤه تضطرب بها وببغضاء لاحد لها ، لحادثات سوف نأتي على ذكرها بعد قليل . وقد دفعت جهود بوهيمند هذه مؤرخا مثل "أوستروجورسكي"[٦] Ostrogorsky إلى القول بأنه "كان صاحب الفضل الأول في ذهاب الغرب الأوروبي إلى الإيمان بأن بيزنطة قد خانت القضية الصليبية" .

---

(٥) نقلا عن Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. II, p. 410

(٦) Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 365 .

وقبل أن ندخل فى أضابير هذه القضية ، نقول إن ألكسيوس كومننوس قد استعان فعلا بالأتراك السلاجقة ضد النورمان ، هذه حقيقة لا مراء فيها ، كما استعان بهؤلاء ضد أولئك ، وتلك سياسة الإمبراطورية البيزنطية دوما فى التعامل مع جيرانها ، وتقليب العناصر المناوئة بعضها على بعض ، وألكسيوس كان واحدا من أساتذة الدبلوماسية البيزنطية ، الذين يجيدون استخدام أساليبها المتعددة ، والتى كانت ترتكز على قواعد واضحة تماما [٧] سوف نلمس جانبا منها فى حديثنا عن بعض مواقفه مع زعماء الحملة الصليبية الأولى . وقد أدرك الكسيوس أن خطورة السلاجقة تقلصت تدريجيا بوفاة زعيمهم ملكشاه ووزيره نظام الملك عام ١٠٩٢ ، وانقسام السلاجقة على أنفسهم واقتتالهم فيما بينهم ، أما النورمان فأن طموحاتهم وأطماعهم كانت بعيدة لم تتوقف أو تتقلص باختفاء زعيمهم روبرت جويسكارد Robert Guiscard بل وجدت لها ممثلا فى شخص ولده بوهيمند ، وكان الأب والابن يحملان الكراهية الكاملة للإمبراطورية البيزنطية ، ويحلمان ويسعيان لإقامة امبراطورية نورمانية على أطلالها ، حبذا لو كانت القسطنطينية نفسها هى عاصمتها !! ومن ثم لم يكن شيئا نكرا فى عرف بيزنطة ، وإن بدا "خيانة" فى أعين الغرب الصليبى ، استعانة الكسيوس بالأتراك السلاجقة للدفاع عن إمبراطوريته ضد النورمان .

ويرتبط هذا الجانب الذى ذكرناه بجانب آخر يتمثل فى سؤال يطرح دوما فى أروقة البحث التاريخى مؤداه : هل خرج الغرب اللاتينى بجموعه وفرسانه وملوكه وأكليروسه دفاعا عن المسيحية الشرقية ممثلة فى الإمبراطورية البيزنطية ؟ وبتعبير أدق .. هل كان هذا "الخروج" بناء على استغاثة القسطنطينية واستجابة لنداء بعثت به إلى هناك ؟ ويقف المؤرخون والدارسون إزاء هذا التساؤل المطروح بين مؤيد ومعارض ؛ فمن قائل بأن هناك استغاثة بعث بها الإمبراطور ميخائيل السابع دوكاس Michael VII Ducas (١٠٧١-١٠٧٨) إلى البابا جريجورى السابع Gregory VII (١٠٧٣-١٠٨٥) بعد الهزيمة المروعة التى لحقت بالجيش البيزنطى فى موقعة مانزكرت بآسيا الصغرى عام ١٠٧١ على يد السلطان ألب أرسلان زعيم الأتراك السلاجقة ، وأسر خلالها الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينس Romanus IV Dio-genes (١٠٦٧-١٠٧١) ، ثم تجددت هذه الاستغاثة ثانية من جانب الإمبراطور ألكسيوس كومننوس عندما كتب رسالة إلى روبرت أمير الفلاندر عام ١٠٨٨ يطلب منه سرعة إمداده

---

(٧) راجع كتابنا ، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، الفصل الثالث المعنون "قواعد الدبلوماسية البيزنطية" . القاهرة ١٩٩٧ .

ببعض القوات العسكرية للتصدى لهجمات الأتراك السلاجقة ، مضيفا أن هذه القوات يمكنها بعد ذلك الزحف جنوبا لتخليص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين ! ومن قائل بأن هذه الرسالة لا أساس لها من الصحة ، وأنها لم تكتب فى البلاط البيزنطى على الإطلاق ولم تصدر عن ديوان الخارجية البيزنطية . ويدلل أصحاب هذا الرأى على صدق دعواهم بأنه ليس هناك أصل يونانى لهذا الخطاب المزعوم ، وإنما وردت الرسالة فى نص لاتينى ، كما أن الأسلوب الذى دون به الخطاب لايتفق مع أصول وقواعد الكتابة فى البلاط البيزنطى ، إضافة إلى أن المصادر المعاصرة لم تشر إلى خطاب على هذا النحو ، وكان أول ذكر له فى كتب متأخرة نسبيا مثل مؤلف روبرت الراهب Robert le Moine وجيوبير دى نوجان Guibert de Nogent ، ويخلص أصحاب هذا الرأى إلى أن الخطاب إنما وضع فى الغرب ، وأن كاتبه ربما يكون روبرت الراهب نفسه .[٨]

ولعل مما يدعم هذا الرأى أن المصادر البيزنطية المعاصرة ، وخاصة الأميرة "أنا كومننا" إبنة الإمبراطور ألكسيوس ، ومؤرخة حياة أبيها فيما عرف بـ "ألالكسياد" Alexiad لم تذكر شيئا عن هذه الرسالة أو غيرها ، وكل ماذكرته فى هذا الصدد ، أن روبرت أمير الفلاندر ، أثناء عودته من رحلة الحج إلى الأراضى المقدسة ، إلتقى بأبيها عام ١٠٨٧ ، وأكرم الإمبراطور وفادته أثناء هذه الزيارة ، ورد الأمير على ذلك بأن قدم لألكسيوس يمين الولاء ، الذى اعتاد اللاتين على القيام بتأديته لسادتهم فى الغرب ، على حد قول أناكومننا نفسها ، وهو الأمر الذى كان قائما بالفعل فى ظل النظام الإقطاعى إبان العصور الوسطى فى الغرب الأوروبى ، وتضيف أن الأمير وعد بأن يرسل إلى الإمبراطور قوة عسكرية قوامها خمسمائة فارس بعد عودته مباشرة إلى بلاده ، فما كان من ألكسيوس إلا أن بالغ فى إكرامه وشيعه بكل المودة فى طريق إيابه[٩] .

---

(٨) عن تفصيلات هذه المناقشات ، راجع Vasiliev, Byzantine Empire, II, pp. 386-388 ؛ عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة فيليب صابر سيف ، ص٣٥ - ٣٦ ؛ Setton, A history of the Crusades, I, p 228, N. 14 ؛ جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ، ص ٥٢-٥٤ ؛ إسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص٨٦-٨٧ .

(٩) ANNA COMN Alexiad, pp 179-180

وتخبرنا مؤرختنا فى موضع آخر [١٠] عن وصول هذه القوة الفلمنكية إلى الأراضى البيزنطية ، وأنها أحضرت معها إلى الإمبراطور هدية عبارة عن مائة وخمسين جوادا أصيلا ، كما أنهم باعوه الجياد الزائدة عن حاجتهم والتى كانت فى حوزتهم ، وقد رحب الكسيوس بذلك ترحيبا كبيرا ، وأرسل هذه القوات على الفور للتصدى لأمير نيقية السلجوقى أبى القاسم ، الذى كان قد أخذ فى مهاجمة نيقو ميديا ، وكان ذلك حوالى عام ١٠٨٩ ، أى بعد اللقاء الذى تم بين الإمبراطور البيزنطى والأمير الفلمنكي بقرابة عامين .

وتعود أناكومننا للحديث عن هذه الفرقة التى بعث بها أمير الفلاندر ، فى معرض حديثها عن استعانة والدها بالقوات الأجنبية والجند المرتزقة من الفرسان والمشاة على السواء ، وتقول إن أباها لجأ إلى تجنيد البلغار وعدد من أبناء القبائل البدوية الضارية على حدود الإمبراطورية، وتضيف إن الكسيوس استدعى هؤلاء الفرسان الفلمنكيين من نيقوميديا التى كانوا عليها للتصدى لأمير نيقية ، ووجههم وجهة أخرى[١١] . وكان هذا هو كل ماجرى به قلم المؤرخة البيزنطية المعاصرة والقريبة جدا من البلاط الإمبراطورى ومايجرى بداخله ومايصدر عنه، ولم تكن لتغفل شيئا من مثل هذه الرسالة لو كان ألكسيوس قد كتبها بالفعل، خاصة وأنها تخص أمير الفلاندر - دون غيره من أمراء أوروبا البرابرة فى نظرها - بكل التقدير والثناء .

غير أن ماذكرته أناكومننا فى هذه الفقرة السابقة ، من استعانة أبيها بقوات أجنبية من عناصر مختلفة ، يضع أيدينا على نقطة هامة ، تفتح الطريق أمام مانسعى إليه فى بحثنا هذا؛ فالإمبراطورية البيزنطية كانت قد اتجهت فى تلك الفترة حتى قبل كارثة مانزكرت سنة ١٠٧١ ، وفقدان نبع الجيش البيزنطى فى آسيا الصغرى ، إلى الاعتماد إلى حد كبير على الجند المرتزقة والعناصر الأجنبية فى تجييش جيوشها ، وانطلقت الوفود والسفارات والأدلاء والتجار والسماسرة من بيزنطة إلى الغرب الأوروبى ، ومنطقة اسكندناوة خاصة ، وغير ذلك ، بحثا عن جنود يضمهم الجيش البيزنطى ، وتدفق عدد كبير باتجاه القسطنطينية للانخراط فى جيشها من مناطق شمال غرب أوروبا بصفة خاصة ، وعرف هؤلاء بـ "الورنك" Varangians ، وحمل الطريق الذى سلكوه إلى العاصمة الإمبراطورية الاسم نفسه لكثرة الأعداد التى أقلها ،

---

(١٠) ANNA COMN. Alexiad, p. 182 .

(١١) Ibid. p. 199 .

ووجد الجيش الإنجليزى الذى تم تسريحه بعد موقعة "هاستنجز" Hastings عام ١٠٦٦ وخضوع انجلترا لقوة جديدة متمثلة فى النورمان بزعامة "وليم الفاتح" -William the Con queror طريقه إلى صفوف القوات البيزنطية ، وشكلت هذه الجماعات القوة الضاربة فى الجيش البيزنطى ، نعنى بذلك الحرس الإمبراطورى ، ولم يتردد ألكسيوس كومننوس مطلقا فى أن يعهد إلى البندقية بأحياء الأسطول البيزنطى . لذا لم يكن غريبا ، أو أمرا مستغربا أن نجد عددا من مندوبى الإمبراطور ألكسيوس كومننوس يحضرون مجمع بياكنزا Piacenza الذى دعا إليه البابا أوربان الثانى وتم عقده فى مارس عام ١٠٩٥ ، قبل أن يعقد المجمع الشهير الذى تلاه فى كليرمونت Clermont فى نوفمبر من العام نفسه . وكانت مهمة هذا الوفد البيزنطى واضحة تماما ، وهى الحصول على جند مرتزقة من الغرب الأوروبى للعمل فى صفوف الجيش البيزنطى للتصدى للخطر السلجوقى .

وهذا يدفعنا ثانية لنعود أدراجنا لمناقشة موضوع الرسالة التى قيل إن ألكسيوس كومننوس بعث بها إلى روبرت أمير الفلاندر يطلب عون أوروبا للوقوف فى وجه أعدائه الأتراك السلاجقة ، وسوف نركز فى حديثنا هنا على فحوى الرسالة (١٢) ، والعبارات التى تضمنتها ، وبعض المفاهيم التى جاءت فيها ، ولعل هذا كله هو ما أوحى إلى كثير من الدارسين بالاعتقاد بأن الرسالة كتبت فى الغرب الأوروبى ، وأنها لم تصدر مطلقا عن إدارة الخارجية البيزنطية أو البلاط الإمبراطورى ، وهم فى ذلك محقون .

جاءت ديباجة الرسالة على هذا النحو : "من امبراطور القسطنطينية إلى السيد الأجل لورد روبرت أمير الفلاندر ، وإلى جميع رجال المملكة المؤمنين بالمسيحية ، وإلى رجال الدين والدنيا.. تحية وسلاما" .

والديباجة على هذا النحو تفصح بجلاء عن براءة القسطنطينية من كتابة مثل هذه الرسالة ، فلم يحدث مطلقا طيلة تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، أن خلع امبراطورها على نفسه فى مراسلاته مع الملوك ، ناهيك عن الأمراء ، لقب إمبراطور القسطنطينية ، بل كان حريصا على

---

(١٢) Byzantium, Church, Society and Civilization Seen through Contemporary Eyes, Selected by D. J. Geanakopolos, Chicago 1984, pp. 358-360 وقد أورد الدكتور جوزيف نسيم يوسف ترجمة عربية لهذه الرسالة فى كتابه : العرب والروم واللاتين ، ملحق رقم ١ ص٣٠٧-٣٠٩ وتعليقا عليها ص٥٢-٥٤-٢٩٨-٣٠٠ .

أن يقرن اسمه بعدد من الألقاب التى تضفى عليه وعلى منصبه نوعا من العظمة والفخامة ، فهو دائما "الأوغسطس" "المظفر" Augustus, Invictus وهو "المحب للمسيح" Philochristos ، وهو من ناحية أخرى "نائب المسيح على الأرض" Vicarius Christi ، وهو فى بعض الأحيان "الأرجوانى المولد"(١٣) Porphyrogenitus ويكفى أن نلقى نظرة سريعة على كتاب "المراسم" De Ceremoniis الذى وضعه الإمبراطور قسطنطين السابع فى القرن العاشر الميلادى ، لنتبين حقيقة المكانة التى كان يحتلها الجالس على العرش البيزنطى ، والتقاليد العريقة التى كان يحياها البلاط الإمبراطورى فى القسطنطينية ، وهو مالا يمكن أن يتفق مطلقا مع ماورد فى ديباجة هذه الرسالة التى نحن بصددها .

ولقد أبدى الإمبراطور نيقفور فوقاس Nicephorus Phocas فى عام ٩٦٨م انزعاجه الشديد وغضبه الواضح تجاه "ليوتبراند" Liutprand أسقف كريمونا Cremona ومبعوث أوتو الأول (Otto I) ملك ألمانيا ، والذى كان قد توج إمبراطورا رومانيا فى الغرب الأوروبى منذ ست سنوات مضت فحسب (٩٦٢م) على يد البابا يوحنا الثانى عشر ، وذلك عندما حاول هذا المندوب الذى ذاع صيته بالغطرسة والعجرفة ، أن ينال من المكانة العالية للإمبراطور الرومانى الشرعى ، وأوضح نيقفور فوقاس على الفور لممثل أوتو هذا أن سيده ذاك ليس إلا "ملكا بربريا" ليس له أى حق فى أن يدعى لنفسه لقب "رومانى" أو حتى "امبراطور"(١٤) .

ومن المعروف أن الإمبراطور الرومانى فى ظل المسيحية كان يختار من قبل الله ، ويتوج بيديه ، ويستظل بحمايته ورعايته . وكان شخصه مقدسا ، ويمارس حكمه من القصر المقدس فى أميرة المدائن ، القسطنطينية ، باعتباره "نائب المسيح على الأرض" . لقد كان الإمبراطور هو الوجه الدنيوى لـ"الكلمة" ، "اللوجوس" . ولم يكن حكمه على الأرض إلا انعكاسا لمملكة السماء . والإمبراطورية البيزنطية ليست كسائر الممالك فى العالم القديم ، مجرد وجود زمنى يمكن أن يسير كغيره إلى الفناء ، ولكنها مملكة قائمة فى ناموس الله الخالق منذ الأزل ،

---

(١٣) The Oxford dictionary of Byzantium, vol. I, pp. 692-693 وأنظر أيضا ، هسى ، العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص١٩٧-٢٠٠ ؛ بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس ، ص٧٣-٩٤ ؛ رانسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، ص٦٣-٨٨ .

(١٤) LIUTPRAND De Legatione Constantinopolitana, XLVII, trans. by F. A. Wright, London 1930 .

مكينة فى الغيب المسيحى ، ضاربة جذورها بثبات فى تاريخ الإنسانية منذ كان ، باقية فى الآت إلى رجع المسيح ! هكذا كان يعتقد أهلوها ، بل كانوا يؤمنون . وامبراطورها هوالـ "بازيليوس" Basilius "ملك الملوك" ، "الأوتوقراطور" Autocrator هو ممثل المسيح على الأرض ، وهو "البانتوقراطور" Pantocrator الحاكم الفرد المطلق ، لابد أن يكون واحدا ، بيده مقاليد الأمور كلها لبنى البشر من رعاياه ، وله السلطان على أرواحهم والأجساد (١٥) .

هل يمكن أن يكتب امبراطور بيزنطى ، ناهيك عن ألكسيوس كومننوس ، يشكل هذا المعتقد جزءا من كيانه ، واصفا نفسه بأنه "امبراطور القسطنطينية" أو "امبراطور اليونان" ؟ لقد كان للبيزنطيين فهمهم الخاص لكلمات أمير الرسل "بطرس" حين قال : "خافوا الله . أكرموا الملك" [رسالة بطرس الأولى ١٧/٢] ، إذ أنهم توقفوا عند كلمة "الملك" وأعلنوا أنه لم يقل "الملوك" خشية أن يظن أحد من ملوك الشعوب الأخرى أن بطرس يعينه ، ومن ثم فهو يقصد ملكا عالميا واحدا بعينه ، لأنه إذا كان هناك آخرون فى العالم المسيحى يدعون لأنفسهم لقب الإمبراطور ، أمست الأمور كلها إلى طغيان وباتت غير طبيعية ، وافتقدت الشرعية(١٦).

والذى يلفت الانتباه هنا أيضا أنه فى الوقت الذى ينزل الإمبراطور نفسه منزل الضعة ، فيرضى بلقب "امبراطور القسطنطينية" فقط ، وليس "امبراطور الرومان" أو "الإمبراطور الرومانى" ، نراه يخلع على الأمير الفلمنكى ألقاب التعظيم والإجلال والتقوى والورع على امتداد سطور الرسالة ، وهذا مالا يقبله المنطق السليم ولا الواقع التاريخى ، بل إنه عندما حاول الإمبراطور قسطنطين التاسع فى القرن الحادى عشر ذات مرة أن يوحى إلى مستشاره الفيلسوف ميخائيل بسللوس M. Psellus أن يكتب إلى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله فى صيغة تجعله على مرتبة واحدة مع الإمبراطور ، لم يقبل بسللوس ذلك وأصر على أن يضع سيده قسطنطين التاسع فى مرتبة تفوق بكثير المستنصر بالله الفاطمى !! (١٧)

---

(١٥) Nicol, The Byzantine View of Western Europe (in Greak, Roman and Byzantine Studies, VIII 1967, p. 316, republished in, Byzantium : its ecclesiastical history and relations with the Western World, Collected Studies, Variorum reprints, London 1972.

(١٦) Ibid. p 316 .

(١٧) يقول بسللوس "لقد نفذت المظهر العكسى تماما [لأوامر الإمبراطور] فى تورية ماكرة ، وكان ماكتبته يحمل معنى معينا لقسطنطين ، ومعنى آخر لخليفة مصر ، وحططت من شأن الأخير دون أن فصح عن ذلك . . . وكان دافعى فى ذلك كله حبى للرومان ومجدهم . Cronographia, VI, 191

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى محتوى الرسالة وجدناها تقول على لسان الإمبراطور : "... أود أن أطلعكم على المعاناة التى تعانى منها الإمبراطورية المقدسة للمسيحيين الإغريق" !!

وهذا التعبير الأخير لايرد مطلقا فى المكاتبات الرسمية البيزنطية ، لأن الإمبراطورية البيزنطية فى نظر من يجلسون على عرشها وناسها هى الإمبراطورية الرومانية Imperium Romanum وحاكمها هو "إمبراطور الرومان" Imperator Romanorum حتى القرن الخامس عشر الميلادى عندما سقطت فى يد الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، رغم أنه أصبح يلقب منذ القرن السابع الميلادى ، أو على وجه التحديد منذ عام ٦٢٩م ، بعد هزيمة الفرس على يد هرقل ودخوله المدائن ، بـ "ملك الملوك الرومانى" Basileus Romaion أما تعبير "الإمبراطورية اليونانية" أو "امبراطورية الإغريق" فهو ما كان يستخدمه الغرب الأوروبى مطلقا إياه على الإمبراطورية البيزنطية ، لتجريدها من الصبغة الرومانية والحط من قدرها . وهذا بعينه مافعله وعناه بحذافيره الإمبراطور الألمانى فردريك الأول برباروسا (١١٥٢-١١٩٠) Frederick I Barbarossa فى الرسالة التى بعث بها إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل الأول كومننوس Manuel I Comnenus (١١٤٣-١١٨٠) منتهزا فرصة هزيمة الأخير على يد أمير قونية السلجوقى سنة ١١٧٦ عند "ميريوكيفالوم" Myriocephalum ، وراح يحقر من شأن الإمبراطورية البيزنطية والجالس على عرشها ، حيث سماه "ملك اليونان" Rex Graecorum وطالبه هو و"مملكته اليونانية" Regnum Graeciae - يعنى الإمبراطورية البيزنطية - بالخضوع لسلطانه باعتباره الوريث الوحيد لعرش الرومان !!

وتمضى الرسالة حيث يتكرر فيها ذكر هذه العبارة عن "المسيحيين الإغريق" وعن الفظائع التى تذهب الرسالة إلى إلصاقها بالأتراك السلاجقة الذين أذاقوا هؤلاء "الإغريق المسيحيين" كل صنوفها وألوانها ، فى نوع من الحث والتحريض على قتال هؤلاء القوم من المسلمين .

ثم نأتى بعد ذلك إلى بيت القصيد حيث جاء قول الإمبراطور - كما جرى به قلم كاتب الرسالة : "... أيها السيد العظيم .. أمير الفلمنك ، يامن أنت على حب الإيمان المسيحى قائم، أتوسل إليك من أجل محبة الله ، وإنقاذ "الإغريق المسيحيين" ، أن تمد لنا ولهؤلاء "الأغريق المسيحيين" كل العون والمساعدة ، وذلك عن طريق إمدادنا بكل المحاربين المخلصين للمسيح الذين يمكنك تجنيدهم من أبناء وطنك ، كبيرهم وصغيرهم سواء ، خاصتهم والعامة" !!

وإذا كان من المنطقى دعوة "الخاصة" للاتجاه إلى الشرق للوقوف مع الإمبراطورية ضد أعدائها من الأتراك السلاجقة ، فما الذى يمكن أن يؤديه "العامة" أو يقومون به فى هذا

السبيل ، وقد كان ألكسيوس يعلم تماما أن الحرب لها رجالها فى الغرب الأوروبى فى ظل النظام الإقطاعى الذى سادها آنذاك ، وهؤلاء هم طبقة الفرسان ، وتلك كانت بضاعتها ، أما "العامة" من "الفلاحين الأقنان" فقد كان عالمهم "الضيعة" التى يحيون فيها وفيها يموتون ، لا يغادرونها إلا عندما يحين وقت الرحيل الذى لاعودة بعده ، ولايعرفون من أمر الحرب شيئا إلا أنها تدمر محصولاتهم عندما يجوس الأمراء المتصارعون فى حرب أهلية خلال الديار ، ونحن نعلم جميعا - دون أن نخوض فى أية تفصيلات - تلك المأساة التى عاشتها الجموع الأوروبية التى شكلت طلائع الحملة الأولى منذ خروجهم من أوروبا حتى هلاكهم فى آسيا الصغرى على يد السلاجقة دون أن تكتحل عيونهم بالأرض المقدسة التى "تفيض لبنا وعسلا" كما وعدتهم البابوية . ومن الطريف أن أولاء الجموع - كما حدثتنا المصادر المعاصرة - لم يكونوا يعرفون أين يجدون هذه المدينة ، ولا يعلمون عنها إلا أنها تقع فى الشرق حيث كان المسيح ، وتمثل ذلك فى أنهم كانوا كلما دخلوا مدينة فى أوروبا فى طريقهم إلى الشرق ، سألوا أهلها .. أهذه أورشليم؟! فإذا ما جاءت الإجابة بالنفى قطعا ، اتخذوا سبيلهم فى البر عجبا !!

ترى .. هل كان ألكسيوس كومننوس من السذاجة إلى الحد الذى يدفعه إلى أن يطلب عون "العامة" فى حرب تهدد دولته من ناحية الأتراك السلاجقة فى الشرق أو النورمان فى الغرب؟! أليس من المعقول أن يكون كاتب الرسالة قد وضع هذه العبارة أو الكلمة عمدا حتى يبرر قيام حملة العامة التى ضمت قاع المجتمع الأوروبى ، وسبقت الحملة الأولى التى قادها الأمراء؟

ورغم غرابة كل ماسبق ، إلا أنه يعد شيئا مغفورا إلى جانب هذه العبارات التى يقول فيها كاتب الرسالة على لسان الإمبراطور : "عليكم إذن أن تقدموا على الحرب بكل ما واتتكم الشجاعة قبل أن تسقط القسطنطينية ، ولن يضيع فى السماء أجركم . ألستم معى فى أن وقوع القسطنطينية تحت سلطانكم أحب وأفضل من استيلاء الأتراك عليها ؟ ولم لا وبها أعظم آثار الرب ، صليب الصلبوت ، والسوط الذى ضرب به ، والرداء القرمزى الذى ألبسوه إياه وتاج الشوك الذى توج به ، وملابسه التى نزعت عنه ساعة صلبه ، ورأس يوحنا المعمدان وخصلات شعره ولحيته ، هذا كله إلى جوار رفات كثير من القديسين ، فإذا لم يكن هذا كله كافيا لحثهم على الحرب ، فهناك الذهب الذى يسيل له لعابهم ، وهذى كنائس القسطنطينية تفيض بكنوز الذهب والفضة والأحجار الكريمة والحرير ، وهذا كله يمكن أن يغطى كنائس الدنيا بأسرها" .

هذه دعوة صريحة لاحتلال القسطنطينية !! بل هو إلحاف فى الدعوة من أجل استيلاء اللاتين عليها قبل أن يسقطها الأتراك . والغريب أن تأتى هذه الدعوة على لسان الإمبراطور البيزنطى الجالس على عرش القسطنطينية ، المنوط به الدفاع عنها وحمايتها ، فهل يمكن أن يتفق هذا مع منطق الأمور ؟!

لقد ظلت القسطنطينية على امتداد ماينيف على ألف ومائة من السنين ، أى منذ تدشينها فى عام ٣٣٠ وحتى سقوطها سنة ١٤٥٣ فى يد العثمانيين هى الدرع الحصين للإمبراطورية ، رغم ماتهددها من أخطار وهجمات متلاحقة كالفرس والجرمان والمسلمين زمن الأمويين ، والصقالية والبلغار والسلاجقة البشناق والنورمان ، ولم تسقط طوال هذه الفترة إلا مرة واحده على يد اللاتين جنود الحملة الصليبية الرابعة ، ولم يستمر هذا السقوط أكثر من سبعة وخمسين عاما ، عادت بعدها القسطنطينية إلى أحضان البيزنطيين ، وليس هناك إمبراطور واحد من الذين تعاقبوا على عرشها ، حتى فى أشد حالات الإمبراطورية ضنكا ، فكر ولو للحظة فى دعوة جنس من الأجناس التى أحاطت بها للسيطرة عليها لإنقاذها من خطر آخر محتمل أو قائم ، بل إن المرات التى تعرضت فيها هذه العاصمة الإمبراطورية لخطر السقوط فعلا ، وكان أباطرتها خارجها يواجهون القوات الغازية ، تزعمت الكنيسة وعلية القوم الموقف داخلها تعضدهم جموعها ، وليس أدل على ذلك على سبيل المثال فقط ، مما حدث فى عام ٦٢٦ عندما فرض الآفار حصارهم عليها ، وسنة ١٠٨٢ حينما لقى الجيش البيزنطى هزيمة مروعة عند دورازو على يد النورمان وأصبح الطريق مفتوحا أمام روبرت جويسكارد R. Guis-card زعيم النورمان إلى القسطنطينية ، فما كان من الكنيسة فى الحالتين إلا أن قدمت كنوزها الذهبية لتسك نقودا لاستخدامها فى الأغراض العسكرية ، وتولى أهالى المدينة الدفاع عنها فى الأولى والآخرة .

ويشهد تاريخ الكسيوس كومننوس بصفة خاصة منذ ارتقائه العرش عام ١٠٨١ فى ظروف بالغة الصعوبة فى الداخل والخارج ، ومن جميع النواحى السياسية والعسكرية والاقتصادية ، أن الرجل لم يدخر وسعا بكل ما وسعه الجهد فى سبيل إقالة الإمبراطورية من عثراتها ، ومحاولة التصدى لخطرين داهمين لم يمهلاه من الوقت شيئا ، نعنى الأتراك السلاجقة فى الشرق والنورمان فى الغرب ، واستخدم كل أسلحته ومهارته الدبلوماسية والحربية للخروج من هذه الهاوية التى تردت فيها دولته على امتداد نصف قرن خلا منذ وفاة الإمبراطور باسل الثانى سنة ١٠٢٥ وحتى آلت إليه مقاليد الأمور . فهل يعقل بعد كل هذا ، وبعد تخلصه من هذه

الأخطار ، ووفاة خصميه اللدودين روبرت جويسكارد النورمانى وملكشاه السلجوقى ، أن يدعو اللاتين ، أشد خلق الله مقتا إلى البيزنطيين جميعا ، لاحتلال القسطنطينية ؟!! ألم يكن أحد أساقفة القسطنطينية هو الذى قال إنه يفضل أن يرى عمائم المسلمين فى المدينة على أن يرى قلنسوات اللاتين ! ولم تكن هذه بالطبع أمنية الرجل بقدر ما كانت تجسيداً لمشاعر الكراهية التى يحملها البيزنطيون للاتين .

وبعد كل ماتقدم ، يختتم الكاتب رسالته بقوله على لسان ألكسيوس كومنزس : .. ولهذه الأسباب جميعها ، أقبلوا على وجه السرعة قبل أن تضيع من أيديكم هذه المملكة المسيحية ، وماهو أجل وأعلى ، ألا وهو القبر المقدس" .

وهنا يصل الكاتب إلى ركن أساسى من أركان الحرب الصليبية ، نعنى الاستيلاء على الأراضى المقدسة المسيحية فى فلسطين ، وهو ماسعت إليه الحركة الصليبية منذ البداية ، وهو ما أبرزته العبارات التى قيل إنها جرت على لسان البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت ، حسب الروايات التى تركها لنا مؤرخو الحروب الصليبية الأوائل .

على هذا النحو ، ومن خلال المناقشة التى أسلفنا الآن حول محتويات الرسالة ، إلى جانب ماذكره جمهرة المؤرخين فى هذا الصدد ، يتضح جليازيف هذه الرسالة ، وعدم صدورها عن البلاط البيزنطى ، وهو بعينه ما ارتآه نفر ليس بالقليل من الدارسين والباحثين[(١٨)] . لكن شيئا مايبقى يلفت الانتباه ؛ فالدعوة إلى تحرير القبر المقدس والأماكن المقدسة المسيحية لم يستغرق من كاتب هذه الرسالة سوى جملة واحدة مقتضبة ، لاتتفق مطلقا وطبيعة هذا الأمر الجليل ، وماتمثله المنطقة من أهمية قصوى لدى المسيحيين ، كما أن الفكرة التى قامت عليها الدعوة أصلا لهذه الحرب ، ارتكزت على السعى بكل السبل الممكنة لـ "تطهير" قبر المسيح و"تخليص" الأثار المقدسة هناك من سيطرة هؤلاء "الوثنيين" ، وهى التسمية التى كان يطلقها الغرب الأوروبى على المسلمين إبان العصور الوسطى ، ومنذ صاح أوربان الثانى صيحته المشهورة فى كليرمونت ، وحمل بطرس الناسك والدعاة الشعبيون لواءها فى الحملة الأولى ، والقديس برنارد فى الحملة الثانية ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا على رأس الثالثة ، وحتى لويس التاسع فى الصليبية السابعة ، والفرسان التيوتون والداوية والاسبتارية خلال القرن الأول لهذه الحركة ، والقدس - بصورة مباشرة أو غير مباشرة - قرينة الصليب الذى

---

(١٨) راجع حاشية رقم ٨ .

خاطه أولئك اللاتين جميعا على أرديتهم ، وعاملا فاعلا واردا بين دوافعهم الأساسية والرئيسية الأخرى فى هذا "الخروج" باتجاه الشرق ، حتى ولو كان ذلك كله مجرد "لافتة" فقط يرفعها هؤلاء الزاحفون ، ويخفون وراءها مقاصدهم وأهدافهم الحقيقية ، فكيف إذن يستقيم هذا مع ورودها الآن فى جملة واحدة مقتضبة ضمن رسالة ليست بالقصيرة ، ظلت ومازالت تمثل عند كثيرين من الباحثين المحرك الأساسى لقدوم الصليبيين إلى الشرق !

وإذا كان نصيب القدس من الرسالة جملة واحدة ، فإن مدينة قسطنطين قد حظيت بالنصيب الأعظم منها ، سواء بالدعوة إلى الإسراع فى احتلالها ، أو الإغراء بكنوزها ومقدساتها التى تحتفظ بها ، وهذا يدفعنا إلى القول إن هذه الرسالة ، ربما كتبت بعد الحملة الصليبية الرابعة ووقوع القسطنطينية فى أيدى اللاتين ، ولم تكتب بعد الحملة الأولى كما يذهب الكثيرون ، يقود خطونا فى ترجيح مانذهب إليه أمران ، أولهما أن القدس تتوارى تماما فى الرسالة إذا ماقورنت بما جاء فيها عن القسطنطينية ، وثانيهما أن كل ماجاء ذكره عن كنوز القسطنطينية والآثار المقدسة التى تحتفظ بها ، وكميات الذهب والفضة والأحجار الكريمة والحرير وكل ماتزدان به كنائسها هو وصف من عاينها وشاهدها ، وهو بعينه كل ما أقدم اللاتين على الاستيلاء عليه وتقسيمه فيما بينهم بعد أن استولوا على العاصمة الإمبراطورية ، وسوف أدع القلم هنا لأحد شهود العيان وهو روبرت كلارى[١٩] ليصف لنا هذه الثروة الطائلة وكيف تم تقسيمها بين كبار القادة دون صغارهم ، يقول : ".. صدر الأمر بجمع كل الغنائم فى كنيسة معينة من كنائس المدينة ، فجىء بها إليها وكانت عظيمة جدا ، فكان بها كثير من الأوعية الذهبية والفضية الغالية الثمن ، والملابس المطرزة بالذهب وكثير من المجوهرات الثمينة ، فكان ماجمع هناك منظرا رائعا عجيبا ، ولم يحدث قط - منذ بداية العالم - أن رأت العين أوغنم القوم مثل هذه الغنيمة الضخمة الغالية العظيمة ، بل لم يحدث ذلك زمن الإسكندر أو شارلمان ولا قبلهما ولابعدهما ، ولا أظن أنا شخصيا أنه توفر فى أغنى المدن الأربعين فى العالم من الثروة الهائلة ماتوفر بالقسطنطينية وماعثروا عليه بها ، إذ يقول اليونان {يعنى البيزنطيين} إن تلثى كنوز العالم موجودة فى القسطنطينية ، أما الثلث الباقى فموزع فى بقية الدنيا ، حتى أن نفس الأشخاص الذين عهد إليهم بالحراسة أخذوا كل ماطعموا فيه من الحلى الذهبية ، وامتدت أيديهم بالسرقة إلى هذه الثروة وإلى كل ما وجدوه ، وأخذ كل رجل غنى ماطمع فيه من الحلى الذهبية والأقمشة الحريرية والمذهبة وغيرها وانطلق به ، وبهذه الطريقة شرع الكبار

---

(١٩) كلارى ، فتح القسطنطينية ترجمة حسن جبشى ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص١٢٢ ومابعدها .

في سرقة الغنائم حتى لم يبق شيء يتقاسمونه مع عامة الجيش من الحجاج أو الفرسان أو العسكر الذين عاونوا في كسب هذه الغنائم" .

هذا شاهد عيان آخر هو "فيلهاردوان"(٢٠) يقول في مواضع متعددة من كتابه : ".. إن المرء ليعجز عن وصف ماضمه قصر فم الأسد من ثروة بلغت من ضخامتها حدا جاوزت معه الحصر وفاقت العد .. أما قصر بلاشرناي فقد عثر فيه على ثروة لاتقل في ضخامتها عن مثيلتها في قصر فم الأسد .. كما وقع في أيدي الجماعات الأخرى التي انتشرت عبر المدينة غنيمة كبيرة بلغ من وفرتها أنه ليس في استطاعة أحد ما أن ينبئك بها كلها ، فهي مابين ذهب وفضة وأوان وأحجار كريمة وزمرد وحرير وأثواب فائحة وداكنة وعطور وكل مفضض غال على ظهر البسيطة ، وأشهد عن معرفة وصدق أنه لم يتهيأ الحصول على مثل هذه الغنيمة الضخمة من أية مدينة في العالم منذ أن خلق الله هذا العالم" .

وشاهدا العيان هذان ، روبرت كلاري وجيوفري فيلهاردوان ، من اللاتين ، وقد صحبا الحملة ورافقا خطوها ، وكتب كل منهما بطريقته الخاصة ومن واقع طبقته التي ينتمي إليها ، ولكنهما اتفقا تماما فيما روياه عن غنائم وأسلاب المدينة الإمبراطورية ، وبمقارنة بسيطة بين ماجرى به قلماهما ، وما ورد في الرسالة المزعومة ، يتضح جليا عدم وجود أي اختلاف بين أي منهم جميعا ، وهذا مادعانا إلى القول إن الرسالة تضمنت وصفا لما استولوا عليه بالفعل ، وليس حديثا مسبقا للإغراء بالقدوم .

يضاف إلى الأمرين السابقين ثالث ، فأسماء المدن والمناطق التي جاء ذكرها في الرسالة إياها مقرونا بما أنزله الأتراك السلاجقة بأهلها من الضر ، وما ارتكبوه - على حد قول كاتبها- من الفظائع والآثام ، هي بعينها المدن والمناطق التي احتلها جنود الحملة الصليبية الرابعة بعد سقوط القسطنطينية (٢١) ، فإذا علمنا أن الكاتب ذكر من بين هذه المناطق مايقع

---

(٢٠) فيلهاردوان ، من مذكرات فيلهاردوان : فتح القسطنطينية ، ترجمة حسن حبشي ، جدة ١٤٠٣هـ ، ص١٢٧ ومابعدها .

(٢١) جاء في الرسالة : "لقد استولى أولئك القوم على كل البلاد الواقعة بين بيت المقدس وبلاد الإغريق، إذا امتلكوا بلاد اليونان كلها بما في ذلك الأجزاء العليا منها ، نعني كبادوكيا الصغرى وكبادوكيا الكبرى وفريجيا وبيثينيا وفريجيا الصغرى أي طروادة ، وكذلك بنطس وغلاطية وليديا وبامفيليا وإيزوريا وليكيا وجزائر خيوس وميتيلينا الرئيسية ، كما وضعوا أيديهم على مناطق وأجزاء أخرى حتى تراقية ، وغير هذا وذاك مما لايقع تحت عد أو حصر ولم يبق تقريبا سوى القسطنطينية .

فى بلاد اليونان أو مانعرفه الآن بمنطقة البلقان ، وأن الأتراك السلاجقة لم يذهبوا مطلقا إلى هذه المناطق إلا باعتبارهم جنودا قدموا العون للإمبراطور البيزنطى فى حروبه ضد النورمان، أدركنا على الفور أن الرسالة أوردت ماتم بالفعل الاستيلاء عليه من جانب اللاتين ، وما أقاموا عليه إماراتهم الإقطاعية ومملكتهم اللاتينية .

هذه إذن رسالة تبريرية كتبت فى الغرب اللاتينى ، ربما بفعل الدوائر الكنسية ، لتبرر قيام جنود الحملة الصليبية الرابعة ، الذين حملوا الصليب دفاعا عن المسيح وقدسه ، بانتهاك حرمة مدينة مسيحية ، بل هى درع المسيحية فى الشرق ، والتى تصدت للموجات المتتالية من هجمات الدول والدويلات والقبائل المحيطة بها على امتداد ألف ومائة من السنين . ورغم النشوة العارمة والفرحة الظاهرة التى عمت الدوائر اللاتينية كلها من الاكليروس والعلمانيين ، إلا أن ما أحدثه جند الصليب من فظائع وحماقات وانتهاكات فى القسطنطينية ، واعتداء على الحرمات والمقدسات بصورة مفزعة حدثنا عنها بكل الحسرة "نيقتاس الخونياتى"[٢٢] كان يستدعى عملا تبريريا يفسر هذا الذى أقدموا عليه ، ومن ثم فإنا لانستبعد مطلقا أن تكون هذه الرسالة قد كتبت بعد الحملة الصليبية الرابعة التى انتهت باحتلال القسطنطينية والاستيلاء على مساحات واسعة من الأراضى الإمبراطورية والكنوز البيزنطية ، لتقدم للعالم المسيحى فى زمانها ومن بعد تفسيرا ظاهريا لما حدث فى عام ١٢٠٤ ، وأنه جاء استجابة لدعوة قديمة كان قد وجهها الإمبراطور البيزنطى نفسه إلى اللاتين لاحتلال القسطنطينية كما تزعم الرسالة !

ويفسر هذا إرسال تلك الرسالة إلى روبرت أمير الفلاندر وحده دون غيره من أمراء وملوك أوروبا آنذاك ، ناهيك عن البابوية ، على الرغم من أنه لم يكن لروبرت هذا أى نوع من التميز أو التفوق على غيره من أقرانه أمراء أوروبا ، لكن كاتب الرسالة اختاره بالذات لسبق لقائه مع الإمبراطور الكسيوس كومننوس أثناء عودته من رحلة الحج ، وللمودة والحفاوة التى قوبل بها من جانب الإمبراطور البيزنطى ، وللعون الفعلى الذى قدمه روبرت متمثلا فى الخمسمائة فارس الذين بعث بهم إلى بيزنطة ، وماحدث به روبرت نفسه عن هذه اللقاء بعد عودته ثانية إلى بلاده ، وكان وضع هذه الرسالة فى مصدر من المصادر الأولى للحروب الصليبية مسألة

---

(٢٢) NICETAS CHONIATES, Annales, trans. by H. Magoulias, Detroit 1984, pp. 314-317 .

تتفق وطبيعة الأمور ، حتى تصبح أمرا متمشيا مع مجريات الأحداث وتتابع الوقائع التاريخية، وليس هذا بالأمر العسير .

وإذا كان المؤرخون الذين تصدوا لدراسة هذه الرسالة قد اتفقوا جميعهم على زيفها ، وأنها كتبت في الغرب الأوروبي بعد الحملة الصليبية الأولى ، إما في عام ١٠٩٨ أو عام ١١٠١ لشحذ الهمم الأوروبية لدعم الحركة الصليبية ، أو في عام ١١٠٥ لتأييد الدعوة إلى الحملة الجديدة التي راح يمهد لها بوهيمند النورماني بعد عودته من الشرق ، فإنا نتساءل .. هل كانت الحملة الأولى بعد النجاح الذي تحقق لها في الشام ، والذي لم يكن متوقعا حتى من جانب أكثر زعماء هذه الحملة تفاؤلا ، في حاجة إلى مثل هذه الرسالة لتحفز الناس في الغرب على الخروج إلى الشرق تحت دعوى الدفاع عن "القبر المقدس" ولمؤازرة إخوانهم الذين سبقوهم؟! لقد كان هذا النجاح نفسه هو المحرك الأساسي لكل طبقات المجتمع الأوروبي ، خاصة عنصريه الرئيسيين ، الفرسان والأقنان ، للاتجاه إلى الأراضي المقدسة للحصول على ماحصل عليه جند الحملة الأولى ، بعد أن وصلت أنباء هذا النجاح الساحق للصليبيين في الشرق إلى أسماع جميع من بالغرب ، وكان هذا في حد ذاته هو الذي أدى إلى أن تتجمع على الفور حملة صليبية جديدة سنة ١١٠١ فاقت في أعدادها قرينتها الأولى ، وقدمت إلى آسيا الصغرى ، إلا أن سوء التدبير الذي لازمها ، وافتقادها القيادة الحصيفة ، أدى إلى فشلها الذريع . هذا كله بالإضافة إلى الجهود الكبيرة التي بذلتها البابوية وعملاؤها من الاكليروس والعلمانيين على السواء للترويج للحركة الصليبية والتصفيق لما تحقق للحملة الأولى ، والارتياح النفسي الذي قوبلت به الدعوة الأولى للحرب الصليبية التي أطلقها أوربان الثاني من كليرمونت ، نتيجة لما كان يسود المجتمع الأوروبي في ظل نظامه الإقطاعي من جميع جوانبه السياسية والعسكرية والاقتصادية والإجتماعية . ومن ثم لم تكن أوروبا في إطار كل هذا الشحن المعنوي لهذه الحرب في حاجة لمثل هذه الرسالة التي تصرفها عن القدس إلى القسطنطينية .

بل إن هذا لايمكن قبوله على علاته ، لأن الأنباء التي تواترت إلى أوروبا حاملة قصة النجاح الذي تحقق على سواحل بلاد الشام ، صاحبها في الوقت نفسه أخبار المواقف التي اتخذتها القسطنطينية تجاه زعماء الحملة الأولى ومافعلته إزاء حملة الرعاع التي سبقتها بقيادة بطرس الناسك ، ولم تلبث أصداء الكارثة التي حلت بحملة سنة ١١٠١ أن راحت هي الأخرى تتردد مؤكدة نوايا البيزنطيين كما يراها اللاتين ، ولم يمض على ذلك ثلاث سنوات إلا وكان بوهيمند النورماني قد قدم إلى أوروبا وراح يذرعها محرضا إياها على تكوين حملة

جديدة هدفها القسطنطينية التى تقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق أى تقدم للمشروع الصليبى فى الشرق ، وباركت البابوية هذه الدعوة ، وتشكلت فعلا هذه الحملة التى قادها ذلك الأمير النورمانى لمهاجمة الأراضى البيزنطية ، فكيف إذن يمكن القول إن هذه الرسالة كتبت آنذاك لحث أوروبا على المشاركة فى حملة بوهيمند لإنقاذ القسطنطينية والترويج للقضية الصليبية ، وحملة بوهيمند موجهة أصلا ضد القسطنطينية ؟!

بناء على كل ماأسلفنا ، فإننا نميل إلى القول بأنه من المرجح أن تكون هذه الرسالة المزعومة، المنسوبة إلى الكسيوس كومننوس ، والتى كتبت فى الغرب الأوروبى وليس البلاط البيزنطى ، قد وضعت فى أعقاب الحملة الصليبية الرابعة ، وبعد ما أحدثه جنود الصليب بدرع المسيحية فى الشرق من تخريب وانتهاكات وفظائع ، لتبرر أن هذا السقوط للعاصمة الإمبراطورية كان نتيجة حتمية للإستغاثة التى وجهت قبل قرن ونصف من الزمان من جانب الإمبراطور البيزنطى نفسه ، وأن ذلك كان ضرورة لانقاذها من الوقوع فى أيدى أعدائها من غير اللاتين !!

والآن .. هل يمكن القول إن الغرب الأوروبى خرج بقضه وقضيضه دفاعا عن الإمبراطورية البيزنطية ، واستجابة لاستغاثة قيل إن الجالس على عرش القسطنطينية قد وجهها إلى زعماء ذلك الغرب ؟ ويتبع ذلك ويترتب عليه سؤال آخر مؤداه .. هل كانت العلاقات بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى تشجع الأخير على تقديم هذا العون الكثيف وبالشكل الذى جرى به من أجل حماية درع المسيحية الأرثوذكسية ؟ والسؤال الأخير هذا ، رغم كونه يترتب على سابقه ، إلا أن إجابته تعد مقدمة تلقائية له ومدخلا طبيعيا إليه .

تنبئنا السطور الأخيرة من صفحة العلاقات الطويلة بين روما والقسطنطينية ، والتى تمتد فى الزمان عدد قرون ، أن عام١٠٥٤ كان حاسما حيث شهد دق المسمار الأخير فى نعش هذه العلاقة ، حين حدث ماذهب فى التاريخ باسم "الانشقاق الأعظم" بين كنيستى روما والقسطنطينية ، بعد أن أقدم الكاردينال همبرت Humbert المندوب البابوى ومعه زميلاه فردريك Frederick اللورينى مستشار البابا ليو التاسع Leo IX وبطرس رئيس أساقفة أمالفى ، على وضع قرار الحرمان واللعنة لبطريرك القسطنطينية ميخائيل كربولاريوس Mi-chael Cerularius فى مذبح كنيسة أيا صوفيا ، ثم راحوا ينفضون الغبار عن أحذيتهم أثناء خروجهم من الكنيسة ، وكأنهم بذلك يزيلون كل دنس علق بهم من جراء دخولهم معقل المسيحية الأرثوذكسية !

ولم يكن "الانشقاق الأعظم" وليد الساعة أو حدثا فجائيا ، ولكنه كان النتيجة الطبيعية لصراع طويل بين كنيستى روما والقسطنطينية ، يجسد فى حقيقته اصطراع عالمين أعطى كل منهما ظهره للآخر منذ القرن الرابع الميلادى ، وراح كلاهما يبنى لنفسه عالما مغايرا ، عمقت الظروف والأحوال الخاصة لكل منهما من هوة التباعد بينهما ، وكلما مرت القرون ازداد هذا التباعد وأمسى العداء والكراهية لبعضها البعض لحمته وسداه .

ففى عام ٣٢٤ راح قسطنطين يخط بحربته حدود مدينته الجديدة التى انتوى بناءها على أطلال مدينة بيزنطة القديمة ، وفى الحادى عشر من مايو سنة ٣٣٠م تم تدشين هذه المدينة الجديدة التى حملت اسم مؤسسها ، لتغدو القسطنطينية منذ ذلك التاريخ عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، مطلة على شطآن البسفور ، عوضا عن العاصمة القديمة دوما الرابضة على ضفاف التيبر . واستمرت حاضرة الرومان ، الذين عرفناهم بالبيزنطيين ، طيلة أحد عشر قرنا من الزمان حتى أتاها العثمانيون فى القرن الخامس عشر الميلادى ، باستثناء السنوات السبع والخمسين التى خضعت فيها لسيادة اللاتين جند الحملة الصليبية الرابعة . وهكذا تخلت روما القديمة ، مدينة الخلود ، عن بهائها ورونقها كارهة لصالح القسطنطينية ، وانحطت إلى الدرك الأسفل عندما باتت مجرد مدينة من الدرجة الثالثة ، باعتبارها عاصمة لولاية إيطاليا ، وليست عاصمة للنصف الغربى من الإمبراطورية ، ففقدت بذلك زعامة لعالم اللاتين لازمتها منذ كانت أسطورة رومولوس وعقبانه الاثنى عشر !

ولم تكن روما لتقبل أن يستمر هذا الوضع "المأساوى" بالنسبة لها إلى مالا نهاية ، فراحت تبحث عن عوض يدخلها ثانية دائرة الضوء التى خرجت منها بيد أباطرتها ! ووجدت فى الديانة الجديدة ، المسيحية ، التى ناصبتها العداء طويلا ، بابا ولجت منه دون تردد ، لتصل من خلاله إلى عرش كنسى يعوضها عن فقدان العرش الإمبراطورى ، وشاء قدرها أن يكون بطرس أمير الرسل مؤسس كنيستها ، وأن يعتلى سدة كرسيها الأسقفى فى فترات معينة خلال القرون الثلاثة ، من الرابع إلى أوائل السابع ، بابوات ساهموا بشخصياتهم وآرائهم وطموحاتهم فى وضع الأسس الأولى لنظرية السمو البابوى فى العصور الوسطى ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء ، ليبريوس الأول Liberius I (٣٥٢-٣٦٦) ، وليو الأول Leo I (٤٤٠-٤٦١) ، وجلازيوس الأول Gelasius I (٤٩٢-٤٩٦) ، وجريجورى الأول Gregory I (٥٩٠-٦٠٤) . كما أن خلو الغرب من أسقفيات رسولية تنافس روما المكانة ، أو كنائسها لها شهرتها وصيتها آنذاك ، باستثناء كنيسة ميلانو على عهد راعيها أمبروز Am-

brosius (٣٧٣-٣٩٧) تزاحمها السلطان فى النصف الغربى من الإمبراطورية ، يسر لها سبل الزحف إلى القمة فى ميدان الصراع استباقا إليها إبان القرون من الخامس إلى السابع .

وكان اكتساح الجرمان لولايات شطر الإمبراطورية الغربى ، وما تبع ذلك من انهيار النظام السياسى الرومانى هناك ، وتدهور النواحى الاقتصادية ، واختلاط الحياة الإجتماعية ، وتهرؤ المجتمع الرومانى بصفة عامة ، عاملا فاعلا كذلك فى أن تحقق روما لنفسها من خلاله مكانة مرموقة ، إذ لم يجد الرومان فى الغرب من كيان يلتفون حوله بعد تلك النازلة إلا الكنيسة الرومانية ، فاتخذوا منها ملجأ وملاذا ، واستغل أساقفتها هذا الوضع إلى الدرجة القصوى فأضافوا إلى سلطانهم الرعوى روحيا ، سلطانا زمنيا آخر ظلوا لايبغون عنه حولا حتى نهاية العصور الوسطى . وراحوا يفاوضون زعماء الجرمان ، ألاريك Alaric القوطى الغربى ، وجيزريك أو (جنصريك) (Geiseric (Genseric الوندالى للإبتعاد عن روما ، وهم يفعلون ذلك تحت سمع الإمبراطور الرومانى وبصره ، وهو بعد جالس على عرش مابقى من النصف الغربى فى راڤنا Ravenna دون أن يحرك ساكنا ، عجزا وترهلا !! قبل أن يضيع هذا النصف عن آخره .

لاعجب أن وجدت روما فى هذا كله سندا يدعم موقفها فى مواجهة سميتها وغريمتها روما الجديدة ، القسطنطينية ، لا فى الميدان السياسى ولكن فى مجال العقيدة ، وأصبح كلاهما فرسى رهان يستبقان لإحراز قصب السباق . فلم يكن من السهل على العاصمة الجديدة أن تتزحزح قيد أنملة عن مكانة دانت لها الآن ، وعزمت على ألا تدع الفرصة لروما التيبر للإنتقاص من قدرها ، ووجدت فى تعضيد الأباطرة عن طريق المجامع المسكونية التى عقدتها ، فرصتها لتدعيم هذه المكانة ، وجاءت قرارات مجامع القسطنطينية ٣٨١ وإفسوس ٤٣١ وخلقيدونية ٤٥١ مصدقة لما بين يديها من وضع متميز لكنيسة القسطنطينية ، رغم الاعتراف بـ "سبق" روما من النواحى التاريخية ! وشهد القرن الخامس بصفة خاصة ومالحقه مباشرة ، صراعا كنسيا رهيبا من أجل الزعامة[٢٣] شاركت فيه الكنائس الخمس الرسولية ، روما والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية وأورشليم . فلما امتدت واحة المسلمين لتضم الكنائس الثلاث الأخيرة ، أصبح الصراع سافرا بين الروميتين !!

---

(٢٣) ناقشنا هذه القضية تفصيلا فى كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الخامس .

وكان كر القرون وتواليها يزيد عمق جب العداء بين مدينة رومولوس ومدينة قسطنطين ، ويسطر "قصة مدينتين" راحت كنيستاهما تصطرعان وتزيدان النار ضراما بين شطرى الإمبراطورية اللذين ولى كل منهما دبره متحرفا عن الآخر . فعند مشارف النهاية للقرن السادس الميلادى أقدم بطريرك القسطنطينية "يوحنا الرابع الصوام John IV the Faster (٥٨٢-٥٩٥) على اتخاذ لقب "مسكونى" Ecumenical مما عد فى نظر بابا روما تعاليا وعجرفة وتطاولا على مقام السدة الرومانية . وكان البابا آنذاك هو جريجورى الأول العظيم أحد أقطاب نظرية السمو البابوى كما أسلفنا ، فأمسك بقلمه وخط رسالة إلى الإمبراطور البيزنطى موريس Maurice (٥٨٢-٦٠٢) تفيض بالسخرية والازدراء ليوحنا والزجر والتوبيخ لزعماء القسطنطينية ، قال :

"واحسرتاه على الأزمان .. بها يتعالى صراخى .. ويالضيعة الأخلاق ! هاهى أوروبا وقد طواها نير البرابرة ، ومادت المدائن ، وتهاوت الحصون ، وأقفرت الأرض ، وهجر الفلاحون الزروع . والمشركون يعيشون فى البلاد الفساد ، ويذبحون المؤمنين ، ويروعون الآمنين . ورجال الرب بدلا من أن يخروا سجدا يدعون الله تضرعا ، راحوا يبحثون لأنفسهم عن خيلاء وغرور فى لقب هو الزيف بعينه . أواه صاحب الجلالة والعلا .. أترانى أدفع فى أمر يخصنى ؟ وهل آسى على ظلامتى ؟ كلا ثم كلا . أنا إنما أحارب من أجل ربى ، رب الكنيسة الجامعة القدير. فلتجزينه ياألله عاقبة أمره ، ذاك الذى صعر خده للكنيسة ، وبغى ، وخلع على نفسه لقبا متميزا يستعلى به حتى على امبراطوريتك أيها الأمير"(٢٤)

غير أن هذه الرسالة لم تفلح فى تحريض الإمبراطور موريس على أسقفه يوحنا ، بل زاد الأمر سوءا إقدام الأخير على إغلاق عدد كبير من الأديرة فى الإمبراطورية ومصادرة ممتلكاتها ، بعد أن أمست مهربا للفارين من الجندية ، فى وقت كانت الإمبراطورية فى أشد الحاجة إلى القادرين على حمل السلاح من أجل إنهاء الحرب الدائرة عند الدانوب ضد الآقار ، فازداد البابا حنقا على حنقه . حتى إذا قام أحد ضباط الصف ويدعى فوقاس Phocas بالتمرد على الإمبراطور ، وقاد قوات الدانوب ضده ، وتمكن من اعدامه وأبنائه الخمسة ، واعتلاء العرش ، لم يخف البابا جريجورى فرحته بذلك ، وعبر عنها فى رسالة بعث بها إلى فوقاس ، حملت كل الشماتة لما حل بموريس ، وخلع على المتمرد كل أنواع التبجيل والإطراء ،

---

(٢٤) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp 173-174 .

رغم أن سنوات حكمه الثمان (٦٠٢-٦١٠) كانت أشد عهود الإمبراطورية اضطرابا ، حتى أن الأعمال المنسوبة إلى أثناسيوس Athanasius تذكر حوارا يسأل فيه الأسقف الرب .. لماذا اخترت فوقاس لاعتلاء عرش الإمبراطورية رغم علمك أنه إنسان سيء ، فيجيب الرب .. لأنى لم أجد من هو أسوأ منه" !!

يقول البابا فى رسالته : "المجد لله فى الأعالى ، فلتفرح السماوات ، ولتزدد الأرض حبورا ، ولتسر الرعية بفعلك الكريم !! وليرفل الناس فى حلل الحرية فى ظل الإمبراطورية الورعة الظليل . أليس ثمة فارق كبير بين ملوك سائر الأمم وأباطرة الرومان ؟ إن الملوك ليسوا إلا سادة العبيد ، أما أباطرة دولتنا الرومان فهم للأحرار أرباب" (٢٥) .

وشهد قدوم القرنين الثامن والتاسع الميلاديين وحتى مابعد منتهاهما نذر شر مستطير باعدت كثيرا بين روما والقسطنطينية ، وعمقت أخدود العداء والكراهية إلى حد بات من الصعب على أى منهما اجتيازه ؛ فقد اندلعت فى الإمبراطورية البيزنطية نيران حرب غريبة عرفت بحرب الأيقونات Icons استمرت ثمانين عاما ، خمسون منها فى عصر الأسرة الإيزورية، وثلاثون على زمن العموريين ، وكان أبرز زعمائها الأباطرة ليو الثالث Leo III وقسطنطين الخامس Constantine V من الأسرة الأولى ، وثيوفيلوس Theophilus من الثانية ، وشن هؤلاء وغيرهم هجوما عنيفا على الصور المقدسة التى امتلأت بها كنائس الإمبراطورية وأديرتها ، مما أدى إلى تحطيم مجموعة كبيرة من هذه الكنوز الفنية ، بينما نجت مجموعة أخرى من الدمار على يد الرهبان الذين فروا بها إلى الغرب الأوروبى . وأذاع محطمو الأيقونات أن المسألة لم تعد قاصرة على احترام هذه الصور المقدسة ، بل تخطتها إلى حد العبادة ، مما يعد ضربا من الوثنية جديد ، وأن هدفهم الرئيسى من ذلك تطهير العقيدة المسيحية من شوائب الشرك التى علقت بها . وألف قسطنطين الخامس بصفة خاصة رسائل وعظات فى هذه المجال ، وقد أطلق عليهم المؤرخ أومان Ch. Oman "محطمى الأصنام" .

غير أن روما كان لها رأى مغاير تماما ، فقد أعلن باباواتها أن الصورة إنجيل العامة ، يرون فيها مالا يقدرون على فهمه من الانجيل ، وأن ما أقدم عليه أباطرة القسطنطينية محض بدعة وضلال ، بل هو الهرطقة بعينها ، وعليه فقد أصدر البابا جريجورى الثالث Gregory III (٧٣١-٧٤١) قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور البيزنطى ليو الثالث .

---

(٢٥) Vasiliev, Byzantine Empire, p. 174 .

وكان طبيعيا أن ترد الإمبراطورية البيزنطية الصاع صاعين ، فأعلن ليو الثالث فصل مناطق جنوب إيطاليا وصقلية عن السيادة البابوية ، وجعل تبعيتها لأسقف القسطنطينية ، وبغض النظر عن فقدان النفوذ الرعوى الروحى لكنيسة روما على هذه المناطق وانحساره عنها ، إلا أنه كان يعنى نازلة اقتصادية بالخزانة البابوية ، حيث تم تحويل مايجبى من الضرائب من هذه المنطقة إلى القسطنطينية ، وهذا ما آلم البابوية كثيرا . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل كتب الامبراطور ليو الثالث إلى البابا الرومانى يقول له إنه [أى الإمبراطور] "قيصر وأسقف" ، وكانت هذه العبارة تعنى فى جوهرها تدعيم السلطة الزمنية فى الإمبراطورية البيزنطية فوق السلطة الروحية ، وتأكيد ماجرى به التقليد الإمبراطورى منذ أيام قسطنطين العظيم فى بواكير القرن الرابع الميلادى ، ومرورا بجوستنيان العظيم فى القرن السادس الميلادى ، ووصولا إلى ليو الثالث الإيزورى ، من أن كنيسة القسطنطينية لاتعدو كونها ديوانا من دواوين الحكومة ، وأن أسقفها موظف كبير عند الإمبراطور بمقدوره تعيينه وعزله أنى شاء . ومن ثم جاءت هذه العبارة تتويجا لرحلة "القيصرية البابوية" Caesaropapism التى عمل الأباطرة البيزنطيون على التأكيد عليها فى مراسيمهم ، حتى أن حوستنيان العظيم كان يرفع شعارا مؤداه "دولة واحدة أنا قيصرها ، قانون واحد أنا مشرعه ، كنيسة واحدة أنا أسقفها" !! وعلى هذا النحو أضحى الإمبراطور البيزنطى هو "نائب المسيح" Vicarius Christi على الأرض ، وعبر الفن البيزنطى عن ذلك أبرع تعبير عندما صممت قاعة العرش بحيث يوجد بها كرسيان للعرش ، أحدهما شاغر يحتله المسيح فى الاحتفالات العامة واستقبال السفراء والآخر عن يمينه يجلس عليه الإمبراطور باعتباره نائبا عنه !

ولم يكن هذا بالطبع ليرضى أساقفة روما الذين رأوا فيه منافسا خطيرا وتهديدا بالغا لسلطانهم السياسى الذى اكتسبوه ونفوذهم الروحى ، ولذا فقد وصموا أباطرة القسطنطينية هراطقة مارقين ، وراحوا يتحينون الفرص للانسلاخ عن هذا السلطان الدنيوى ، ولاحت لهم واحدة لم يترددوا لحظة واحدة فى اهتبالها ، وتمثلت فى اقدام البابا ليو الثالث على تتويج شارل العظيم (شارلمان) Carolus magnus (Charlemagne) ملك الفرنجة امبراطورا على الرومان فى كنيسة القديس بطرس بروما ليلة عيد الميلاد لعام ٨٠٠ (٢٥ ديسمبر ٧٩٩) وكان هذا الإجراء فى حد ذاته يعنى إعلانا سافرا للحرب على الإمبراطورية البيزنطية من قبل بابوات روما ، ظلت مشتعلة بينهما مابقى للعصور الوسطى من عمر ، إذ لم يلبث أن تجدد إحياء الإمبراطورية فى الغرب ثانية عام ٩٦٢ بعد سقوط امبراطورية شارلمان ، وذلك عندما

قام البابا يوحنا الثانى عشر بتتويج ملك ألمانيا أوتو الأول Otto I إمبراطور رومانيا ، ورغم أن شارلمان وأوتو الأول حاولا من ناحيتهما الابقاء على نوع واهن من المودة الظاهرة بين الإمبراطورية الغربية والإمبراطورية البيزنطية ، إلا أن أباطرة القسطنطينية لم يغفروا للبابوية أبدا أنها خلقت وضعا شائكا يمثل فى جوهره افتئاتا على الحق الشرعى للأباطرة الرومان فى القسطنطينية ، واعتداءً سافرا على وضعهم التاريخى ، وخرقا لقانون الرومان وعالمية الإمبراطورية ، خاصة عندما تخلى أباطرة الغرب عن سياسة سلفيهما شارلمان وأوتو الأول ، وراحوا يحقرون من شأن هذه الإمبراطورية "اليونانية" على حد وصفهم إياها . ويشهد التقرير الذى كتبه ليوتبراند أسقف كريمونا ومبعوث أوتو الأول إلى الإمبراطور البيزنطى نقفور فوقاس، على مدى الكراهية الشديدة التى يحملها الجانبان ، البيزنطيون واللاتين ،تجاه بعضهما البعض ، ومدى الازدراء الذى يكنه كل منهما للآخر . ولاشك أن الصورة المشوهة التى أذاعها هذا المبعوث عن الإمبراطورية البيزنطية بعد عودته إلى الغرب اللاتينى ، مشفوعة بمقته الشخصى الشديد لكل ماهو بيزنطى ، قد ترك أثره الواضح فى تعميق هوة التباعد بين القسطنطينية واللاتين ، مما كان له عواقبه الوخيمة ، وبلغت نغمة العداء مداها على عهد أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen الألمانية وملكيها فردريك الأول برباروسا وابنه هنرى السادس ، وتجلى ذلك بصورة واضحة إبان الحملة الصليبية الثالثة ، والاستعدادات التى قام بها هنرى السادس للخروج فى حملة جديدة لم يقف حائلا دون إتمامها سوى موته المبكر .

وتظهر منطقة البلقان ، الساخنة دائما عبر العصور ، لتزيد النار ضراما بين روما والقسطنطينية ؛ فقد شهدت هذه المنطقة منذ القرن السابع الميلادى وماتلاه من القرون تدفق عدد كبير من القبائل الصقلبية والتركية التى راحت تبحث لها عن مكان تأوى إليه بعد هجراتها المتتالية ، وشكلت هذه القبائل فى مجموعها - دون الدخول فى التفاصيل - الخريطة الحالية لبلقان اليوم إلى حد كبير . ولما كانت هذه الزحوف مازالت على بداوتها ووثنيتها ، فقد أصبحت حقلا خصيبا لتلقى التيارات العقيدية وبالتالى الثقافية فى يسر وسهولة ، وأضحت تلقائيا ميدانا رحبا للصراع السافر بين روما والقسطنطينية من أجل نشر المسيحية الكاثوليكية أو الأرثوذكسية ، وأدت الإرساليات التبشيرية البيزنطية دورا فعالا فى هذا المجال خاصة على يد كل من القديسين كيرلس Cyrillus ومثوديوس Methodius ، وكان التفوق بطبيعة الحال من نصيب الكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية ، مما أوغر صدر الدوائر البابوية الكاثوليكية فى روما ، ولم تجد أمامها إلا أن تضع ثقلها كله فى هنغاريا لتكسب موضع قدم فى الأرض البلقانية ، وأن تفتعل تلك الأزمة البلغارية التى دارت حول

رغبة القيصر البلغارى بوريس Boris فى استقلال كنيسة مملكته ، ورفض القسطنطينية ذلك ، ومغازلته لروما التى قبلت ذلك على الفور إثر تحوله إلى الكاثوليكية ، وإن كانت القضية قد حسمت لصالح القسطنطينية فى نهاية الأمر .

وتزامنت هذه الأحداث مع المشكلة التى نشبت بين الكنيستين فى القرن التاسع أيضا وعرفت بمشكلة أو قضية "فوطيوس" Photius[٢٦] بطريرك القسطنطينية وأبرز علماء عصره، وذلك من جراء النزاع الذى دب بينه وبين إجناتيوس Ignatius ، الأسقف الذى تم خلعه على يد ميخائيل الثالث Michael III (٨٤٢-٨٦٧) وذلك فى عام ٨٥٧ ، فوجدت روما فى هذا النزاع فرصة لتدس أنفها فى شئون الكنيسة البيزنطية تحت دعوى الدفاع عن حق البطريرك المخلوع فى العرش الأسقفى . وتبودلت الرسائل بين الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث وأسقفه فوطيوس من ناحية ، والبابا نيقولا الأول Nicholas I الرومانى من الناحية الأخرى ، وخرجت هذه الرسائل فى كثير من الأحيان عن حدود اللياقة ، وتراشق الجانبان بالاتهامات ، وعلى حين وصف ميخائيل اللسان اللاتينى ومن ينطقون به - فى إشارة واضحة إلى البابا ، بـ "البربرية" ، ونعت فوطيوس الكنيسة الكاثوليكية بالابتداع فى العقيدة والخروج على ما أقره الآباء فى المجامع المسكونية السابقة ، رد نيقولا الأول التهمة بمثلها وأقذع منها حيث خلع على الإمبراطورية البيزنطية كلها ، شعبا وحكومة وكنيسة صفات "الهرطقة" والمروق عن الدين!!

وواكب هذا السعير المتأجج ما أذاعته روما حول الروح القدس ، حين أضافت إلى قانون الإيمان كلمة "والإبن" Filioque ليصبح الروح القدس بذلك منبثقا عن "الآب والابن" ، خلافا لما اتفق عليه الآباء فى المجمع المسكونى الثانى المنعقد فى القسطنطينية عام ٣٨١ على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩-٣٩٥) للرد على آراء مقدونيوس Macedonius ، وقد أقر المجمع آنذاك انبثاق الروح القدس عن "الآب" فقط [٢٧] ، وأمست هذه الإضافة الجديدة التى أدخلتها روما بابا جديدا نفذ منه لهيب الصراع المستعر دوما بين روما القسطنطينية .

---

(٢٦) للوقوف على تفصيلات هذه القضية بكل أبعادها ، راجع Dvornik, Photian Schism, history and legend, Cambridge 1948 .

(٢٧) لمزيد من التفصيلات راجع ، رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع ، ص٦٥-٧٤ .

ولم تكن هذه المحطات الثلاث ، المشكلة البلقانية ، وقضية فوطيوس ، وانبثاق الروح القدس من "الابن" إلى جانب "الأب" إلا غلالات رقيقة كانت تخفى ورا ءها الأسباب الجوهرية لهذا الصراع بين "الروميتين" ، فروما التيبر كانت تعتبر نفسها دائما مدينة الخلود ومركز الإمبراطورية المتميز ، وكنيستها سيدة الكنائس ومؤسسها أمير الرسل ، بينما قرينتها وسميتها الجديدة ، مجرد بدعة مستحدثة ليس لها من الأصالة شيء ولا من القداسة نصيب ، وقد ظهر ذلك واضحا فى الرسالة التى بعث بها البابا نيقولا الأول إلى بوريس الملك البلغارى "مؤكدا له أن بيزنطة لم تشرف بأصل رسولى لأسقفيتها ، فليس من حقها إذن أن تتلقب بلقب "البطريركية"[٢٨] . ومن ثم كان الكرسى الأسقفى الرومانى يسعى ما وسعه الجهد والوقت والسبل لإظهار نوع من السمو البابوى تجاه كنيسة القسطنطينية ، وراحت هذه النغمة تزداد علوا إبان القرن الحادى عشر وتمثلت فى اتجاهين رئيسيين ؛ أولهما إنطلاق حركة الإصلاح الكنسى التى تزعمها رهبان دير كلونى منذ منتصف القرن العاشر وما تلاه ، وماساهمت به هذه الحركة من اعتلاء عدد من هؤلاء الرهبان الكلونيين للكرسى الأسقفى فى روما ، وحرصهم جميعا وعلى رأسهم الراهب "هيلدبراند" Hildebrand الذى غدا "البابا جريجورى السابع" Gregory VII (١٠٧٣-١٠٨٥) على وضع نظرية "السمو البابوى" Papal Supremacy موضع التنفيذ ، ولم يكن هذا "التنفيذ" قاصرا على الغرب اللاتينى وحده ، بل كان يعنى فى جوهر النظرية الشرق البيزنطى أيضا ، وهو ماسعى إليه البابوات منذ القرن الحادى عشر بصورة عملية ، حتى تحقق لهم ما أرادوا فى بواكير القرن الثالث عشر (١٢٠٤) على عهد أشهرهم "انوسنت الثالث" Innocent III . وثانيهما نجاح البابوية فى السيطرة على الجموح النورمانى الجديد الذى هدد روما وكنيستها أحيانا ، وتحويل ملك صقلية إلى فصل إقطاعى تابع للبابوية ، وتوجيه هذه الحماسة النورمانية المقترنة بالطموحات البعيدة لديهم تجاه أراضى الإمبراطورية البيزنطية بل العاصمة نفسها .

أما روما البسفور ، نعنى القسطنطينية فلم تكن لتفرط مطلقا فى المكانة العلية التى احتلتها باعتبارها مستقر الأباطرة منذ بناها قسطنطين ، وأسقفيتها سيدة الكراسى الرسولية فى الشرق بفعل قرارات المجامع المسكونية الثلاثة فى القسطنطينية ٣٨١ وإفسوس ٤٣١ وخلقيدونية ٤٥١ ، وقرينة روما فى "التقدمة" على الكنائس بمقتضى قوانين هذه المجامع ، ولذا كان طبيعيا ان تتصدى بكل الحزم لأى محاولة من جانب البابوية للانتقاص من قدرها عن طريق التدخل فى شئونها أو منافستها فيما تعتبره امتدادا حيويا لنفوذها ، أو ابتداعا

---

(٢٨) اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص١٠ .

في عقيدة تؤمن يقينا أنها هي وحدها صاحبة الحق في نفسير أصولها باعتبارها صاحبة "الإيمان القويم" ، لما تضمه من مدارس فكرية لاهوتية فلسفية صاغت هذه العقيدة من خلال المجامع الدينية ، وهو ماحرمت منه روما والغرب اللاتيني .

لاشك إذن أن كل هذه الأحداث التي مرت بنا عبر القرون الطويلة من الرابع إلى الحادي عشر ، كانت الطريق البعيد الذي سارته رحلة العلاقات السيئة بين روما والقسطنطينية ، والتي كانت المقدمة الطبيعية للنتيجة الحتمية التي انتهت إليها ، نعني وقوع الشقاق الأعظم بين الكنيستين في عام ١٠٥٤ [٢٩] وأعلن البابا ليو التاسع في رسالة إلى ميخائيل كريولاريوس بطريرك القسطنطينية أن الكنيسة الشرقية كانت منذ قيامها بؤرة الهرطقة والبدع الدينية والآراء المضللة ، وأنه لولا تصدى الكنيسة الرومانية لمثل هذه الأمور التي تشين العقيدة لما ثبت الإيمان المسيحي على حال ! وراح يردد من جديد في رسالته النغمة البابوية الدائمة حول علو كعب كنيسة روما على سائر الكنائس الرسولية . ورغم أن رد الإمبراطور قسطنطين التاسع والبطريرك كريولاريوس جاء هادئا ومتزنا مطالبا بتوطيد أو اصر المودة بين الكنيستين ، إلا أن الدوائر البابوية وعلى رأسها الأسقف همبرت ، مستشار البابا وساعده الأيمن ، سعت إلى أن يعلن البابا رفضه لأي نوع من التقارب ، وأكدت على أن استخدام كريولاريوس لقب "البطريرك المسكوني" ، ومخاطبة البابا بلقب "الأخ ليو" دون التسمية التقليدية "الأب الطوباوي" يعد انتهاكا صارخا للتقاليد الكنسية ، وإثمامبينا ، لايمكن أن يغفره خليفة بطرس .

وشرع ليو التاسع في الرد على كريولاريوس بقلم همبرت الذي يقطر حقدا وكراهية تجاه الكنيسة البيزنطية ، فوصف بطريرك القسطنطينية "بأقذع الشتائم بسبب سلوكه الوقح وتعاليمه المغلوطة التي أدت إلى ظهور كثير من الهرطقات ، وعجرفته التي لاحدود لها وخلع لقب "المسكوني" على نفسه" ، ثم تنتهي الرسالة بحرمان ولعن ميخائيل كريولاريوس ، وكان هذا يعني بالضرورة أن ينسحب الحرمان واللعنة على سائر الكنيسة البيزنطية"[٣٠] ، ثم كان

---

(٢٩) راجع تفصيلات هذا النزاع في Runciman, The Eastern Schism, a study of the Papacy and the Eastern Churches during the XI and XII Centuries, Oxford 1956, pp 1-77

(٣٠) اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص٢٥-٣٣ ولمزيد من التفصيلات حول العلاقة بين البابوية وبيزنطة في القرن الحادي عشر الميلادي ، راجع Nicol, Byzantium and the Papacy in the Eleventh Century, (in Journal of ecclesiastical history, XIII 1962, pp 1-20, republished in Byzantium its ecclesiastical history and relations with the Western world, Collected studies, Variorum reprints, London 1972 .

ما كان من أمر قدوم همبرت إلى القسطنطينية حاملا هذه الرسالة ومثلها إلى قسطنطين التاسع، ودخوله كنيسة أيا صوفيا وإلقائه بقرار الحرمان هذا على مذبحها ، ثم خروجه بطريقة مشينة تحمل كل معانى التحقير والإزدراء للكنيسة الأرثوذكسية ، على النحو الذى بينا من قبل [٣١] .

ولم تكن السنوات التى أعقبت حادثة الانشقاق الأعظم عام ١٠٥٤ وحتى قرب بداية التسعينيات من القرن الحادى عشر ، إلا طريقا مليئا بالأشواك والجمرات راحت العلاقات السيئة جدا بين روما والقسطنطينية تسير فوقها ، فقد حرص البابا جريجورى السابع صاحب السمعة العريضة فى العجرفة والصلف ، حتى وصف من جانب بنى جنسه بـ "الشيطان المقدس" على أن يستغل سلاح النورمان ومطامعهم وطموحاتهم ، سهما يصوبه إلى الأراضى البيزنطية، فقد كان يؤمن إيمانا يقينيا بنظرية السمو البابوى ، وأن الطريق الوحيد إلى صلاح العالم بأسره، فى الشرق والغرب ، وخلاصه من آثامه ، هو الخضوع لله ، وهذه لاسبيل إليها ، إلا بالخضوع المطلق للبابا[٣٢] ، ومن ثم وجد فى أطماع النورمان فى أراضى الإمبراطورية البيزنطية ، الفرصة التى يمكن أن يهتبلها لتحقيق أغراضه ، فأعطى كل تأييده لروبرت جويسكارد فى هجماته على منطقة البلقان البيزنطية ، وزاد على ذلك أن أصدر فى عام ١٠٨١ قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور الجديد الكسيوس كومننوس ، وظلت العلاقات تزداد سوءا حتى ودع جريجورى السابع دنياه منفيا فى عام ١٠٨٥ .

ترى .. هل يمكن أن تكون عشر سنوات فقط (١٠٨٥-١٠٩٥) فاصلة بين وفاة جريجورى السابع وعقد مجمع كليرمونت بدعوة من البابا أوربان الثانى ، كافية بأن تمحو دفعة واحدة عداء سبعة قرون كاملة بين روما والقسطنطينية ؟! وهل يمكن أن تكون المحاولات التى بذلها الكسيوس كومننوس لفتح باب المفاوضات لإحلال السلام بين الروميتين ، كفيلة بأن ينسى العالمان ، اللاتينى واليونانى الرومانى كل الأحقاد والضغائن التى خلفتها تلك القرون السبعة؟! وهل يمكن أن تتحول أوروبا مرة واحدة من النقيض إلى النقيض ، لتخرج عن بكرة أبيها ، دفاعا عن "امبراطورية متمردة وكنيسة مارقة" فى عالم كان لتعصب الدينى لحمته وسداه ؟!

---

(٣١) راجع ص ٨٦ .

(٣٢) Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, New York 1965, p. 378 .

ومن الناحية الأخرى . هل يمكن أن تطرح بيزنطة عن كاهلها عبء هذه القرون الطوال المليئة بالتوجس والقلق من نيات الغرب اللاتينى تجاه أراضيها ؟! وهل يمكن أن تنفض بيزنطة عن ذاكرتها كل ماحوته على امتداد مئات السنين من الشكوك والريب إزاء بابوية كان همها الدائم تحقيق السمو والسيادة على كل كنائس المسكونة وفى مقدمتها القسطنطينية ؟!

بتعبير آخر أكثر دقة وتحديدا ، هل من المنطقى فى ظل كل ماعرضنا له الآن ، أن يشن الغرب اللاتينى تحت زعامة البابوية حربا مقدسة من أجل إنقاذ الإمبراطورية البيزنطية من أعدائها ؟

هذا بعينه ماقصدنا إليه من خلال هذا العرض الطويل ، فليس بخاف على أحد من دارسى تاريخ الحركة الصليبية ، أن أوروبا فى القرن الحادى عشر الميلادى كانت قد وصلت إلى حال من التردى الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، يصاحبها نوع من الهوس الدينى فى محاولة للبحث عن متنفس لهذه المعاناة الكاملة ، وناء المجتمع الأوروبى بكلكل النظام الإقطاعى ، فالفرسان هم أصحاب السلطة المطلقة والنفوذ ، لاينقصهم سوى التاج يزينون به مفارقهم ، والملوك لاحول لهم ولاقوة إلا بأمرائهم ، إن شاءوا أبقوا عليهم ، وإن شاءوا أطاحوا بهم . والأقنان لايعرفون من عالمهم إلا الضياع التى يقيمون فيها ، والضياع الذى يحيون فيه ! يقومون بخدمة الأمراء العلمانيين وقرنائهم من رجال الإكليروس ، وهؤلاء الأخيرون غدوا هم الآخرون ينافسون الأمراء ثرواتهم ، بل زادوا عليهم فى بعض الأحيان بحكم الاعفاءات والامتيازات التى كانت ممنوحة لهم ، ليكتمل بذلك أضلاع المثلث الإقطاعى الذى حدد زواياه الملك ألفرد العظيم منذ القرن التاسع الميلادى ، ضلع يحكم ، وضلع يصلى ، وضلع يعمل لخدمة الضلعين الآخرين ! والحروب الأهلية فى ظل نظام يورث الابن الأكبر فقط اقطاع أبيه ، تطحن الآلة العسكرية المتمثلة فى الفرسان ، وحرب الاسترداد الأسبانية لاتحقق مطامح ومطامع هؤلاء الفرسان ولاتشبع شهوتهم القتالية ولا شرههم الاقطاعى . والبابوية تصطرع فى الغرب والإمبراطور الجرمانو - رومانى من أجل السيادة ، وركوب موجة الفروسية والسيطرة عليها وتوجيهها لدى الأمراء يسحب البساط من تحت أقدام امبراطور الغرب ويجعله يقف حافى القدمين عارى الرأس أمام خليفة بطرس فى روما . والمدن التجارية الإيطالية تنظر بعيون الحسرة والحقد يأكل قلوبها وهى ترى الإمبراطورية البيزنطية تبسط سيادتها البحرية على الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، مركز الثقل التجارى آنذاك ، وتزدهر تجارتها ، وتنتعش موانيها ، ويثرى تجارها ، فلم لاتزاحم هى الأخرى فى هذا الصخب "المقدس" تحت دعوى نقل الحجاج حاملى الصليب ، خدام الرب إلى الأراضى المقدسة ؟! والملوك أفاقوا بعد النجاح الذى

تحقق للأمراء فى الحملة الأولى ، فهبوا مشاركين يتحملون عبء مابقى من حملات ، لكن البابوية كانت لهم بالمرصاد لتحول دون نجاح الجانب الأكبر منهم ، فخاضوا حربا صليبية فى الشرق ضد المسلمين وبيزنطة ، بينما شنت البابوية ضدهم فى أوروبا صليبية أخرى !!

لقد كان لكل لاتينى خرج حاملا الصليب باتجاه الشرق دوافعه الأساسية التى تحركه ، وأهدافه التى سعى وراء تحقيقها ، مهما تعددت الطبقات الإجتماعية واختلفت الدرجات . وتنوء أرفف المكتبات العلمية فى الشرق والغرب سواء بمئات الكتب التى تناولت دوافع الحركة الصليبية ، ومن ثم فلن نقف عندها هنا بأكثر مما قدمناه فى هذه السطور السابقة ، ولكنا نقفز دفعة واحدة إلى حقيقة مؤكدة لايمارى فيها أحد ، مؤداها أن من أراد أن يضع يده على هذه الدوافع فعليه بالغرب الأوروبى من قمة رأسه عند البابوية إلى أخمص قدمه عند الأقنان وحثالة المجتمع الأوروبى ، فليس فيها للشرق ، بيزنطة أو المسلمين ، ناقة ولاجمل .

ولاشك أن الحروب الصليبية كانت كارثة حلت بالشرق الإسلامى وبصفة خاصة الشام ومصر، كما كانت مفاجأة أذهلت البيزنطيين وأنزلت بهم أيضا الضرار ، وقلبت موازين السياسة البيزنطية رأسا على عقب ، وليس هناك أبرع فى التعبير مما كتبه المؤرخ إرنست باركر E. Barker (٣٣) يصف حالة بيزنطة وامبراطورها بقوله : "ما أشبه الكسيوس كومننوس بالساحر ، الذى ما كاد يردد إسم شيطان يأتمر بأمره ، حتى أحاط به حشود من الشياطين " لقى الإمبراطور وخلفاؤه الأمرين فى سبيل صرفهم ! .

لقد كان البون شاسعا بين الفكر البيزنطى والفكر اللاتينى حول قيام هذه الحرب منذ البداية؛ فلم تكن بيزنطة تسعى إلى أكثر من الحصول - كما جرت العادة - على أعداد من الجند المرتزقة ، يعملون تحت إمرة الجيش البيزنطى وقائده الرومانى ، وبتمويل من الخزانة البيزنطية ، لتحقيق أغراض بيزنطية بحتة واضحة ومحددة ، تنحصر فى استرداد الأراضى التى استولى عليها الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى فى أعقاب موقعة مانزكرت عام ١٠٧١ ، إضافة إلى أنطاكية ، وليس أبعد من ذلك . أما اللاتين فلم يكن ذلك كله يعينهم فى شىء ، قد يأتى عرضا أثناء الزحف ، لكن أصحاب النزعة الدينية من الأمراء كانت عيونهم على بيت المقدس ، وهؤلاء قليل ، والآخرون جميعهم ، كانت تسبقهم أطماعهم الرامية إلى تكوين إمارات اقطاعية فى الشرق ، فبين الأمراء كان هناك مغامرون كثيرون ،

---

(٣٣) الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، ص ٢٠ .

أى لا أرض لهم فى أوروبا ، ومن كانت لديه كان يسعى إلى المزيد . والحروب التى دارت بين بلدوين Baldwin وتنكرد Tancred فى آسيا الصغرى فى بداية زحف الجيوش الصليبية ، وبين بوهيمند النورمانى وريموند الصنجيلى Raymand of S. Gilles أمير تولوز عند أنطاكية، وبين هذا الأخير وبلدوين أمير الرها بعد وفاة جودفرى دى بوايون Godfrey de Bouillon ، حول السيادة على بيت المقدس ، خير شاهد على ماجاء من أجله الصليبيون .

لم يخرج الغرب اللاتينى إذن فى أخريات سنى القرن الحادى عشر الميلادى حاملا الصليب دفاعا عن "الشرق اليونانى" كما كان يحلو له أن يصمه ، ولم يتحمل ملوك أوروبا وفرسانها والأقنان كل هذه الصعاب التى واجهتهم خلال ارتحالهم باتجاه الشرق من أجل عيون بيزنطة ودموع أهليها ، ولم تنتفض البابوية صارخة فى البرية انتقاما لما زعمته حل بالمسيحيين الأرثوذكس فى الشرق وهم فى نظر الكنيسة الكاثوليكية بربهم كافرون ! ولم تتجشم المدن التجارية الإيطالية عناء الرحلات الملاحية ناقلة حاملى الصليب باتجاه الأراضى المقدسة المسيحية مساعدة لبيزنطة على الخروج من عثراتها ، أو إيمانا بشعار فقد جوهره كان يرفعه الصليبيون ، بل عملا بشعار واقعى كان يجهر به أهالى تلك الجمهوريات الأرستقراطية ، وعبر عنه أهل البندقية بصراحة منقطعة النظير "بنادقة أولا وصليبيون ثانيا" !

لكل من هؤلاء جميعهم إذن هدفه ومبتغاه ، وهو أمر لم يكن بخاف على ساسه بيزنطة ومؤرخيها ، ولو عدنا إلى الصفحة الأولى من هذا الفصل لوجدناها مصدقة لما بين يدينا الآن ، شاهدة عليه ، دالة على أن لعاب الغرب اللاتينى كان يسيل للأرض التى تفيض "لبنا وعسلا" كما ردد البابا فى كليرمونت ناقلا عن التوراة ، ولثروات القسطنطينية التى لم ير مثلها فى البلاد ، والتى وصفتها الرسالة التى زيفها الغرب بعد الاستيلاء على المدينة - كما ذهبنا ، وليجد متنفسا لطاقة قتالية مكبوتة ، وشرها سافرا لتكوين إمارات اقطاعية وكراهية كامنة تجاه الشرق البيزنطى وديار الاسلام ، مسطرا بذلك سفرا للخروج جديدا .

لقد كان الكسيوس كومننوس على علم تام بالإعلان الأجوف الذى كان قد أطلقه البابا جريجورى السابع ، والمتضمن عزمه على قيادة جيش كبير باتجاه القسطنطينية لحمايتها من مطامع أعدائها[٣٤] ولم يلبث جريجورى أن صدق على علم الكسيوس ، وكشف عن العداء الدفين الذى تكنه البابوية لكنيسة القسطنطينية خاصة والإمبراطورية البيزنطية عامة ،

---

(٣٤) Angold, The Byzantine Empire 1025-1204, London 1984, p. 138 .

حين ذكر فى إحدى رسائله إنه يفضل أن تظل الأماكن المقدسة المسيحية فى أيدى الوثنيين على أن تخضع لأبناء متمردين على الكنيسة (٣٥) ، وهو بهذا يعنى البيزنطيين ، وفاته أن هؤلاء لم يكونوا يمدون أبصارهم الآن خارج الممتلكات البيزنطية التى استولى عليها الأتراك السلاجقة بعد مانزكرت .

لم يكن الإمبراطور البيزنطى يريد من الغرب وعلى رأسه البابوية ، إلا مجرد جند مرتزقة - كما اعتادت الإدارة العسكرية البيزنطية أن تفعل مؤخرا - لتحقيق الأهداف التى ترسمها إدارة الخارجية فى القسطنطينية . بل إن الأهم من ذلك كله ، والذى لم يستطع الغرب أن يدرك أبعاده ، أو لعله تغافل عنها ، أن بيزنطة كانت تعتبر "مسألة الأراضى المقدسة" جزءا من سياستها الخاصة ، وأنها وحدها المسئولة عن هذه المنطقة ، فقد كانت ضمن ممتلكاتها حتى مطلع القرن السابع الميلادى ، ووصلت جيوشها إلى تخومها فى منتصف القرن العاشر الميلادى زمن الأسرة المقدونية . ومن ثم اعتبرت هذه القضية مسئوليتها وحدها وليست مسئولية العالم المسيحى كله . ومن هنا كانت بيزنطة تطلب جندا مرتزقة فقط وليس حملات صليبية ، ولم يدر ذلك بخلدها ، ومن هنا أيضا نظرت إلى مجيء الصليبيين على أنه اغتصاب لحقها فى حماية المسيحية الشرقية (٣٦) .

ولعل الاتجاه البيزنطى من هذه القضية كلها يبدو واضحا من صيغة قسم الولاء الذى طالب الأباطرة البيزنطيون الأمراء والملوك اللاتين بأدائه قبل السماح لهم بعبور البسفور إلى آسيا الصغرى ، وقد احتفظت بها أنا كومننا عند حديثها عن "جودفرى دى بوايون" دوق اللورين ، حين أقسم بها أمام الإمبراطور ألكسيوس ، وجاء فيها أنه "يتعهد برد وتسليم كل المدن والأقاليم والقلاع التى يستولى عليها ، والتى كانت فى حوزة الإمبراطورية قبلا إليها" (٣٧). وقد خلت صيغة القسم من أية إشارة إلى الأراضى المقدسة ، وهذا يوضح بجلاء الهوة الواسعة بين البيزنطيين والصليبيين . وتذهب أنا كومننا إلى تأكيد ذلك عندما تقول إن أباها قد روع لدى تلقيه عددا من التقارير تفيد بوصول قوات فرنجية بأعداد لاحصر لها ، لما يعلمه عن

---

(٣٥) Vasiliev, Byzantine Empire, II, p. 396.

(٣٦) Ostrogorsky, Byzantine State, p. 362

(٣٧) ANNA COMN. Alexiad, p. 261 .

عدم انضباطهم وسلوكهم الهمجي ونهمهم وحبهم الشره للأموال ، وإن كان لم يفقد ثباته واتزانه، على حد قولها [٣٨] ، فهل هذا "الارتياع" سلوك من بعث فى طلب مثل هذه القوات وأرسل يلح فى وصولها ؟!

هكذا .. وقبل أن تبدأ الحروب الصليبية بصورة عملية ، راحت كل من القوتين تتربص بالأخرى ، وتتحين الفرص للإيقاع بها ، وبينما وضعت أوروبا نصب عينيها أن تصل إلى الأراضى المقدسة ، قافزة بذلك فوق بيزنطة وأراضيها ومن خلالها ، ضاربة عرض الحائط بكل الأهداف البيزنطية التى تنحصر فى استعادة ممتلكاتها التى فقدتها بعد كارثة عام ١٠٧١ ، عملت بيزنطة بكل ما وسعها الجهد على الحفاظ على أراضيها وتحقيق مصالحها السياسية ، والتصدى لأية محاولة من جانب اللاتين للانتقاص من سيادتها على أراضيها .

وكانت حملة الرعاع أول مسمار صليبى دق فى نعش العلاقات اللاتينية البيزنطية ، ذلك أن الغرب الأوروبى سارع إلى اتهام الإدارة البيزنطية بأنها هى التى استحثت خطى بطرس الناسك لعبور البسفور إلى آسيا الصغرى ، وكان ما كان من تمزيق هذه الجموع الصليبية وحثالة المجتمع الأوروبى التى ضمتها طلائع الحملة الأولى على يد الأتراك السلاجقة . وكان المؤرخ المجهول فى كتابة "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس"[٣٩] Gesta Francorum et Aliorum Hierosolımitanorum من أوائل المؤرخين اللاتين الذين أذاعوا ذلك ضد الإمبراطور الكسيوس ، وإن كان قد أشار إلى أن هذا التصرف من جانب العاهل البيزنطى يعود إلى سلوك اللاتين أنفسهم حيث يقول : "أما بطرس المشار إليه فكان أول الذاهبين إلى القسطنطينية[٤٠] وبصحبته الفريق الأعظم من الألمان ، وهناك إنضم إليهم اللومبارديون وكثيرون سواهم .. فسار المسيحيون أسوأ سيرة ، إذ خربوا قصور المدينة وأضرموا فيها النيران، وخلعوا الرصاص الذى كانت تغطى به الكنائس وباعوه للإغريق ، فتلظى الإمبراطور غضبا عليهم ، وأمر وهو فى سورة حنقه بأبعادهم عن البسفور" ، ويضيف "لم يتورع الصليبيون - بعد كل ما ارتكبوه - عن اقتراف شتى ضروب المساوئ كإضرام النار فى البيوت والكنائس وتخريبهم إياها" .

---

(٣٨) Ibid. p. 251 .

(٣٩) الترجمة العربية للدكتور حسن حبشى ، ص١٩ .

(٤٠) راجع المصدر السابق ، حاشية ١ ص١٩ حيث يذكر الدكتور حسن حبشى فى تعليقه على ذلك أن بطرس لم يكن أول الذاهبين إلى القسطنطينية ، بل سبقه إليها جوتييه سانز أفوار .

وبعد أن حلت الكارثة بقوات بطرس وجوتيبيه على يد السلاجقة ، يعلق المؤرخ المجهول على ذلك بقوله : "لم يكتم الإمبراطور فرحه العظيم حين ذاع خبر تشتيت الترك لرجالنا ، وكان قد أصدر أوامره بنقلهم عبر البسفور بعد أن جردهم من كل سلاح يحملونه"(٤١) .

والذى يدعو للدهشة حقا أن هذا المؤرخ المجهول الذى سجل بقلمه مثل هذه الإتهامات ضد الكسيوس ، كان قد سجل بقلمه نفسه فى موضع آخر أن الإمبراطور عند دخول هذه القوات إلى القسطنطينية "أمر بتزويدهم بالميرة بقدر ماتسمح به طاقة البلد" ، ثم يقول بالحرف الواحد" وقال لهم ، لاتعبروا البسفور قبل وصول بقية الجيش المسيحى لأنكم لستم بالكثرة التى تمكنكم من محاربة الترك"(٤٢) . وهذه الحقيقة تؤكدها المؤرخة البيزنطية أنا كومننا (٤٣) عندما ذكرت أن بطرس الناسك وقواته ضربوا عرض الحائط بنصح الإمبراطور لهم بالبقاء وعدم عبور البسفور إلى الضفة الشرقية حتى يكتمل قدوم القوات الأخرى ، لأنهم غير قادرين على مواجهة الأتراك . ويقدم لنا مؤرخ صليبى هو ألبرت دى إكس Albert d' Aix الدليل العملى على دحض هذا الاتهام حين يؤكد أن الإمبراطور قد وافق على كل الالتماسات التى تقدم بها والتر المفلس بالبقاء فى مملكته حتى تنضم إليه قوات بطرس الناسك ، ووصلت رسالة ثانية من الإمبراطور تستحثه على أن يسرع بالمسير إلى القسطنطينية .. وعندما وصلوا إليها صدرت الأوامر إلى جيش بطرس بأن يعسكر على مسافة من المدينة ، وتم منحهم تصريحا بالتجارة" ولما أصرت القوات الصليبية على عبور البسفور ، نصحهم ألكسيوس بالتحصن فى قلعة كيفيتوت Civetot (Kibotos) ، ووافتهم هناك رسل الإمبراطور لتحول دون تقدمهم باتجاه الأتراك حرصا عليهم ، وحتى تصل القوات النظامية ، "ومكثوا هناك [يعنى الصليبيين] شهرين يعيشون فى سلام ومرح وينامون آمنين من كل الهجمات المعادية ، وهكذا بعد شهرين، وقد أصبحوا طائشين جامحين بسبب الراحة ووفرة الطعام الهائلة .. دخلوا إقليم مدينة نيقية" ثم يقول مختتما حديثه عن الفاجعة التى حلت بالصليبيين على يد السلاجقة : "وتحرك الإمبراطور بالشفقة عندما سمع من بطرس ، وكان قد تمكن من الهرب عائدا إلى القسطنطينية، عن حصار رجاله وسقوطهم ، فاستدعى بعضا من قواته وكل الناس فى مملكته، وأمرهم

---

(٤١) المصدر السابق ، الترجمة العربية ص٢٢ .

(٤٢) نفسه ، ص١٩ .

(٤٣) ANNA COMN. Alexiad, p 251

بالذهاب فى سرعة عبر المضيق لنجدة المسيحيين المحاصرين والهاربين ، وأن يصدوا الأتراك المهاجمين ، وعندما عرف الأتراك بمرسوم الإمبراطورية تركوا القلعة فى منتصف الليل ومعهم أسراهم المسيحيين وكما هائلا من الغنائم . وهكذا تم تحرير جنود الحجاج الذين كان الأتراك الكفار يحاصرونهم"(٤٤)

وجاء المسمار الثانى عندما أصر الإمبراطور الكسيوس كومننوس على أن يقسم له أمراء الحملة الأولى يمين الولاء الإقطاعى المعمول به أوروبا . والذى قدمنا صيغته منذ قليل . وكان يمين الولاء فى النظام الإقطاعى الأوروبى يمثل عصب هذا النظام وجوهره ، فهو يجعل الأمراء أفصالا لسادتهم الملوك ، ويجعل الأمراء الأدنى مرتبة أفصالا اقطاعيين بدورهم للسادة من كبار الأمراء ، وتتمثل أهميته فى الولاء المباشر من الفصل للسيد ، بحيث يمسى هذا الفصل ومايملك تابعا للأمير السيد أو الملك . ومن هنا كان امتعاض أمراء الحملة الصليبية الأولى فى بادئ الأمر واحجامهم عن قسم هذا اليمين ، لأنهم يعرفون جوهره وحقيقته وأبعاده معرفة تامة، ولكنهم اضطروا بعد ذلك إلى التسابق فى أدائه خاصة بوهيمند النورمانى ، العدو اللدود للإمبراطور ، وإن لم يكن صادقا بالطبع فيما أقسم عليه أو تعهد به ، ولم يعرض عن ذلك بصورة رسمية إلا ريموند الصنجيلى أمير تولوز ، وإن توصل إلى صياغة مرضية مع الإمبراطور فيما بعد . ويمكن الرجوع إلى تفصيلات هذه الأحداث كلها فى الكتب الكثيرة جدا التى تناولت الحملة الصليبية الأولى ، فليس هنا مقام الخوض فى مثل هذه الأمور .

والذى يعنينا من هذا كله أن الكسيوس كان حريصا على أن يتعهد الأمراء الصليبيون برد المناطق التى يستولون عليها - وهم فى طريقهم إلى الأماكن المقدسة - والواقعة فى منطقة آسيا الصغرى ، إضافة إلى أنطاكية ، إلى حوزة الإمبراطورية البيزنطية ثانية ، وهى الأراضى التى كانت تحت سيطرة بيزنطة حتى عام ١٠٧١ ، وإذا كانت هذه التفصيلات لم ترد فى صيغة القسم ، إلا أن جوهره كان دالا عليها ، وأكدتها ما جاءت به الأحداث من بعد . وإن شئنا الدقة فلنقل إن هذه الصيغة هى الترجمة الحقيقية للأهداف البيزنطية من هذه الحرب التى قام بها الغرب الأوروبى .

---

(٤٤) ألبرت الأيكسى ، نصوص مختارة من كتابه فى كتاب "الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق" اختيار دكتور قاسم عبده قاسم ، ص١٠٦ ، ١٠٩ ، ١٢٧- ١٢٨، ١٣١ .

ولم يكن هذا القسم أو يمين الولاء قاصرا على أمراء الحملة الصليبية الأولى فقط ، بل امتد ليشمل أيضا الملوك الذين قادوا الحملات التالية ، فيخبرنا يوحنا كيناموس أن الإمبراطور مانويل كومنين طلب عن طريق مبعوثيه إلى كل من لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا اللذين قادا الحملة الصليبية الثانية أن يكونا على استعداد لتأدية يمين الولاء للإمبراطور إذا مثلوا فى حضرته ، حتى يسمح لهما وجيوشهما بعبور أراضيه إلى آسيا الصغرى (٤٥) ويؤكد نيقتاس الخونياتى هذا المعنى بقوله إن الألمان أرسلوا رسلا يطلبون إلى مانويل السماح لهم بعبور أراضى الإمبراطورية ، وتأمين الأسواق والمواد الغذائية لهم ولدوابهم أثناء عبورهم ، فوافق على ذلك شريطة أن يقسم زعماؤهم يمين الولاء له ، وأن يبتعدوا عن أى عمل من شأنه إيقاع الأذي أو الضرر بأراضى الإمبراطورية (٤٦) ولم يشفع لكونراد الثالث ملك ألمانيا أنه كان زوجا لأخت زوجة مانويل التى هى برتا Bertha من سولزباخ Sulzbach والتى عرفت فى البلاط البيزنطى باسم "ايرين" Irene . وفى رسالة بعث بها مانويل إلى البابا يوجينيوس الثالث Eugenius III ١١٤٦ ، أوضح له أنه على استعداد لتقديم العون والمساعدة للحملة القادمة [الثانية] التى دعا البابا إليها ، إذا ماسلك زعماؤها المسلك الذى اتبعه زعماء الحملة الأولى ، وأوضح أن على جنود الحملة وملكاها أن يعيدوا إليه ويسلموه كل الأراضى التى يستولون عليها ، والتى كانت فى حوزة الإمبراطورية من قبل ، يعنى قبل واقعة مانزكرت . وفى الوقت نفسه رد على لويس السابع واعدا إياه بالمساعدة إذا ما حافظ على ماكان مرعيا أيام جده ألكسيوس الأول ، وهو يعنى بذلك يمين الولاء (٤٧) .

هكذا راحت بيزنطة تضع من البداية من القواعد والتنظيمات مايضمن لها حقها الكامل فى السيادة على أراضيها واستعادة مافقد منها . ومادام الغرب الأوروبى قد رفع لافتة أنه قدم لحماية المسيحية الشرقية من أعدائها واسترداد الأماكن المقدسة المسيحية من أيدى الوثنيين [يعنى المسلمين] ، فلا ضير مطلقا من توجيه هذه القوة القادمة لتحقيق الأهداف البيزنطية المعلنة ، فى مقابل تقديم العون المادى والدعم المتمثل فى المواد التموينية والامدادات والأدلاء والنصح العسكرى أحيانا . ومن هنا لم يكن يمين الولاء من وجهة

---

(٤٥) KINNAMUS, Deads of John & Manuel Comnenus, p. 60

(٤٦) NICETAS CHONIATES, Annales, p. 36 .

(٤٧) Angold, Byzantine Empire, p 164 .

النظر البيزنطية عراقيل تضعها القسطنطينية فى طريق هذه الحملات الصليبية كما فسرها الغرب اللاتينى ، بل كانت مبادئ تنظمية تتفق والمصلحة السياسية البيزنطية فى المقام الأول. وتمثل الذكاء السياسى البيزنطى فى أن يمين الولاء هذا لم يكن يمينا بيزنطيا ، بل كان يمينا اقطاعيا أوروبيا بحتا !

وكان دافع بيزنطة الأساسى للإصرار على يمين الولاء هذا ، أن أباطرتها وساستها وعسكرييها والناس أجمعين ، كانوا على يقين كامل أن الغرب اللاتينى الكاثوليكى يضمر الشر والكراهية تجاه الشرق اليونانى الأرثوذكسي ، ويتربص بالقسطنطينية الدوائر ، حتى قبل أن تقوم للحرب الصليبية قائمة ، وما أسفرت عنه الأحداث طوال هذه الحرب ، وامتلأت صفحات المؤرخين البيزنطيين المعاصرين بهذه المشاعر ، بل إن اللاتين أنفسهم كانوا يدركون تماما هذه الأحاسيس وهذا التخوف لدى البيزنطيين ، ووجد لذلك صداه حتى فى كتابات نفر من المؤرخين اللاتين أنفسهم . ولم يغفر اللاتين للبيزنطيين أبدا أنهم أنزلوا أمراءهم وملوكهم منزلة الأفصال الإقطاعيين التابعين لإمبراطور لايعدو فى نظرهم هرطوقا مارقا عن الدين .

وجاءت ثالثة الأسافى متمثلة فيما وقع عند مدينة نيقية عام ١٠٩٧ ، فقد ألقى الصليبيون الحصار على المدينة ، العاصمة السلجوقية ، تظاهرهم قوات بيزنطية تنفيذا لإتفاقية القسطنطينية الموقعة بين الطرفين فى مايو من العام نفسه ، ولما أوشكت المدينة على السقوط فى أيدى القوات المحاصرة ، أدرك زعماؤها أن السبيل الوحيد للإبقاء على حياة الحامية السلجوقية والأهلين بها ، وكان من بينهم زوجة السلطان السلجوقى قلج أرسلان ، أن يسلموا المدينة للإمبراطور البيزنطى دون الصليبيين . وتمت المفاوضات السرية بنجاح بين الطرفين ، وفوجىء الصليبيون فى صبيحة أحد أيام العشر الأواخر من يونية ١٠٩٧ بالأعلام البيزنطية ترفرف فوق أسوار المدينة ، ومالبثت عيونهم أن جحظت وهم يرون الحامية السلجوقية ومن بالمدينة من الأتراك يخرجون فى حماية القوات البيزنطية باتجاه الشرق !

ورغم أن الكسيوس كومننوس قد قام بتوزيع الغنائم الكثيرة التى وجدها بالمدينة على زعماء الصليبيين ليأتلف قلوبهم ، إلا أن الرجل عد فى نظرهم خائنا للقضية الصليبية متواطئا مع أعداء المسيح ، وكان هذا دافعا لهم إلى العمل وحدهم بعد ذلك فى آسيا الصغرى لتحقيق المكاسب والمطامح التى جاءوا من أجلها . ولعل فيما فعله كل من بلدوين وتنكرد فى هذه المنطقة بعد نيقية وصولا إلى أعالى الشام ، يفسر بجلاء فكر الصليبيين واتجاهاتهم .

ولم يكن الكسيوس يصدر فى عمله هذا إلا بدافع مصلحة دولته التى وضعها دائما فى المقام الأول ، فبالإضافة إلى أن نيقية كانت منذ سنوات قلائل مضت أرضا بيزنطية ، فهى تمثل ذكريات غالية لدى البيزنطيين ، ففيها عقد أول مجمع مسكونى عرفته الكنيسة عام ٣٢٥ ، وصدر عنه قانون الإيمان النيقى الذى يعد الركيزة الأولى لقوانين الإيمان المسيحية كلها من بعد فى مختلف الكنائس ، كما شهدت نيقية أيضا المجمع المسكونى السابع فى سنة ٧٨٧، والذى أنهى فترة قاسية من حرب ضروس شهدتها الإمبراطورية عرفت بحرب الأيقونات. وهى إلى جانب هذا كله مفتاح الإمبراطورية من الناحية العسكرية إلى داخل آسيا الصغرى ، وقاعدتها الأمامية فيها دفاعا عن القسطنطينية . ومهما تكن وجهة نظر الغرب الأوروبى والدوائر الصليبية ، إلا أن أى منصف لايستطيع أن يوجه اللوم إلى حاكم واتته الفرصة سانحة لاسترداد جزء من ممتلكات دولته سليما دون تخريب ، ثم يتقاعس عن ذلك مجاملة لعناصر لاتكن له أو لدولته أى تقدير أو حتى مودة ظاهرة ، ولو فعل الأخيرة لاستحق كل التأنيب من مواطنيه والتاريخ !!

وجاءت المشكلة الأنطاكية لتزيد الخرق على الراتق ، فبيزنطة كانت تضع فى اعتبارها تماما أن تكون أنطاكية على رأس المناطق التى على الصليبيين أن يعيدوها إليها ، فقد كانت فى حوزتها حتى عام ١٠٨٥ ، وهى القلعة البيزنطية المتقدمة فى أقصى جنوب شرقى آسيا الصغرى ، دفاعا عن الإمبراطورية ، وبداية الطريق إلى الشام ومفتاحه من ناحية الشمال ، ومن ثم صحب القائد البيزنطى تاتيكيوس Taticius بقواته الجيوش الصليبية الزاحفة إليها تنفيذا لاتفاقية القسطنطينية . غير أن هذه السياسة البيزنطية اصطدمت بطموحات ومطامع الأمير النورمانى بوهيمند الذى كان حريصا على تكوين إمارة اقطاعية له فى الشرق ، وسال لعابه من البداية إلى أنطاكية ، ومن ثم حرص بدهاء شديد على أن لا يفلت منه هذا الصيد الثمين ، وسلك فى ذلك اتجاهين رئيسيين ، أولهما أن يبطل مفعول الاتفاقية البيزنطية الصليبية ويجعلها غير ذات موضوع ، والثانى أن يوقع فى روع الأمراء الصليبيين أنه وحده القادر بقواته على انتزاع أنطاكية من يد السلاجقة . وقد نجح فى الاتجاهين نجاحا منقطع النظير ، فبايعه القادة الصليبيون على أن تكون أنطاكية من نصيبه إذا تم الإستيلاء عليها . وتمكن هو بصيغة تآمرية من أن يحمل القائد البيزنطى تاتيكيوس على أن ينسحب بقواته عائدا إلى العاصمة الإمبراطورية ، ومن ثم لايجد الإمبراطور مبررا للمطالبة بأنطاكية لأن قواته لم تشترك مع الصليبيين فى الاستيلاء عليها . وهذا ماحدث بالفعل .

وليس هنا مجال الخوض فى تفصيلات ماحدث عند أنطاكية وحولها وداخلها[٤٨] . ولكن الذى يعنينا هو النتائج التى ترتبت عليها . فما أن علم الإمبراطور بالصعوبات العسكرية التى تواجه الصليبيين عند أنطاكية ، حتى قاد قواته شاخصا بنفسه إلى هناك لمساعدتهم ، غير أن الأقدار قدمت لبوهيمند خدمة كبيرة لم يكن يطمع بأكثر منها ؛ ذلك أن الكسيوس التقى فى أثناء زحفه باتجاه الجنوب بعدد من الأمراء الفارين من أنطاكية بعد أن سمعوا أن كربوغا الموصلى يقود قوات كبيرة لفك الحصار عن المدينة ، ولم تكن المدينة قد سقطت بعد ، وعلى رأس هؤلاء الأمير ستفن Steven كونت بلوا Blois الذى أدخل فى روع الإمبراطور أن قوات كربوغا لابد أن تكون قد قضت قضاء مبرما على القوات الصليبية . وكان ستفن قد غادر المعسكر الصليبى فى الثانى من يونيو ١٠٩٨ ، أى قبل أن تسقط أنطاكية فى يد بوهيمند - عن طريق الخيانة - بليلة واحدة . ومن ثم كانت معلوماته التى نقلها إلى الكسيوس - عن غير قصد - غير صحيحة ولاتتفق مع الواقع ، ولم يلبث كربوغا نفسه أن حلت به الهزيمة تحت أسوار أنطاكية ، وارتحل تاركا إياها لمصيرها الصليبى . وهنا أدرك الإمبراطور - بعد سماع أقوال ستفن ورفاقه - أنه ليس هناك جدوى من زحفه باتجاه الجنوب لمساعدة الصليبيين والدخول فى معركة مع سلاجقة الموصل ، ومن ثم آثر العودة إلى العاصمة لحماية حاضرته ومدنه فى آسيا الصغرى من هجمات قد يشنها سلاجقة آسيا الصغرى .

ورغم أن مكر بوهيمند ودهاءه ، وقصر نظر القائد البيزنطى تاتيكيوس ، ووقوف الأقدار إلى جانب بوهيمند من خلال أقوال ستفن كونت بلوا للإمبراطور ، وتصديق هذا له ، أدى كله مجتمعا إلى عدم اشتراك القوات البيزنطية فى الاستيلاء على أنطاكية ، إلا أن الصليبيين استخدموا هذه الوقائع لإثارة الغرب اللاتينى كله والصليبيين مرددين أن بيزنطة خانت القضية الصليبية عندما تخلت عن تنفيذ اتفاقية القسطنطينية ، وأن انتصار الصليبيين مسألة ليست واردة فى حساب البيزنطيين ، وأنهم يصلون صفوفهم بصفوف السلاجقة أملا فى تشكيل جبهة واحدة ضد جند الرب حملة الصليب !! وكانت مسألة تسليم نيقية إلى البيزنطيين من وراء ظهر الصليبيين دليلا دامغا على اتهام بيزنطة بخيانة القضية الصليبية . ولقيت هذه الأقوال آذانا صاغية وأبواقا ترددها ، تصاعدت بعد عودة بوهيمند إلى أوروبا ، مما كان عاملا حاسما فى

---

(٤٨) للوقوف على تفصيلات هذه الأحداث ، راجع ، حسين عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالدول الإسلامية المجاورة ، رسالة ماجستير لم تنشر ، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٩٨١ .

قيام البابوية بمباركة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة وجهتها القسطنطينية ، وهى الحملة التى تكونت سنة ١١٠٧ وقادها بوهيمند بنفسه ، وتحدثنا عنها آنفا . وقد ظلت أنطاكية جرحا داميا فى جسم العلاقات البيزنطية الصليبية ، راح ينزف بغزاره على عهدى يوحنا ومانويل كومنن ، أى حتى قرب نهاية القرن الثانى عشر الميلادى .

ومع توالى الحملات الصليبية وتتابع خروجها من أوروبا إلى الشرق ، راح الخرق بين اللاتين والبيزنطيين يزداد اتساعا ، ومع تولى الملوك زعامة هذه الحملات بدلا من الأمراء ، نمت إلى حد كبير وتأكدت الشكوك التى ساورت البيزنطيين منذ البداية فى نيات اللاتين ، وجاءت فعال هؤلاء الملوك الأوروبيين مصدقة لما بين يدى القسطنطينية من هذه الشكوك والهواجس ، والغريب فى الأمر أن أوروبا لم تعد تخفى أهدافها الحقيقية وأطماعها فى الإمبراطورية البيزنطية ونياتها العدائية ضدها ، بل أخذوا يعلنون ذلك فى صراحة ودون مواربة حتى انتهى الأمر باحتلال القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ على يد جنود الرب فى الحملة الصليبية الرابعة !! وأسقط الصليبيون الكاثوليك درع المسيحية الأرثوذكسية !

فعلى الرغم من العداء التقليدى بين الفرنسيين والألمان الذى عبر عنه أودو الدويلى(٤٩) بقوله إن "الألمان كانوا غير محتملين بالنسبة لنا" إلا أن الحركة الصليبية جمعت بينهم فى الحملة الثانية وكذا الثالثة . وكانت الأحاديث التى تدور فى بلاطى ملكى فرنسا وألمانيا ، لويس السابع وكونراد الثالث على التوالى ، تشير إلى أنه من الضرورى الاستيلاء على القسطنطينية ، كنوع من فتح الشهية فى الطريق إلى الشرق ، قبل تناول الوجبة الدسمة فى بلاد الشام !! فقد كان النجاح الذى تحقق فى الحملة الأولى على يد الأمراء ، مشجعا قويا للملوك للخروج لتحقيق مزيد من النجاح والنفوذ والسيادة خارج أراضيهم .

وتخبرنا المصادر اللاتينية المعاصرة أن بعضا من قادة الجيش الفرنسى قدم النصح للملك لويس السابع بأهمية فرض الحصار على الأقاليم الغنية المحيطة بالقسطنطينية ، والاستيلاء على قلاعها ومدنها ، وأضافوا إلى ذلك ضرورة الكتابة فورا إلى روجر الثانى Roger II ملك صقلية ، وكان أسطوله قد هاجم خليج كورنثة فى عام ١١٤٧ واستولى على طيبة وكورنثة(٥٠) وطلب عون أسطوله لمهاجمة القسطنطينية نفسها . ولم يكن الأمر قاصرا على

---

(٤٩) ODO of DEUIL, De Profectione Ludovici VII, pp 43-47

(٥٠) OTTO of FREISING, The deeds of Frederick Barbarossa, trans. by Mierow, Toronto 1966, I, XXXIV, 53 ; NICETAS CHON Annales, p 43 . وأيضا Ibid. p. 59

القادة العسكريين بل تعداه إلى رجال الدين بطبيعة الحال وكذا الرهبان ، فيخبرنا أودو الدويلى[٥١] أن جودفرى دى لاروش Godfrey de la Roche وهو أحد رهبان دير كليرفو Clairvaux وواحد من أشد المقربين إلى القديس برنارد St. Bernard والمتحمسين لآرائه ، أخذ يستحث الملك لويس السابع والأمراء على الاستيلاء على القسطنطينية ، قائلا إنه إذا تم الاستيلاء على المدينة فليس هناك داع لغيرها ، فإنه بتداعى العاصمة تتداعى كل المدن الأخرى ، وبرر ذلك بأن القسطنطينية مدينة ليس لها من المسيحية إلا اسمها فقط ، فإذا سقطت لن تكون عقبة فى سبيل تقديم العون للمسيحيين بعد ذلك [يعنى الصليبيين] ، وأضاف أن امبراطورها تجرأ وهاجم أنطاكية منذ فترة قليلة مضت ، واستولى على طرسوس وما مسترا وعددا من القلاع والحصون القوية والمساحات الواسعة من الأراضى ، وطرد الأساقفة الكاثوليك ووضع بدلا منهم أساقفة هراطقة [يعنى الأرثوذكس][٥٢] بينما كان الواجب - على حد تعبير جودفرى دى لاروش - يقتضيه أن يوحد العالم المسيحى للوقوف فى وجه الوثنيين ، إلا أننا نراه يتحالف مع هؤلاء لتحطيم العالم المسيحى" .

واضح تماما من عبارات جودفرى دى لاروش والتى جرى بها قلم أودو الدويلى أن الغرب اللاتينى كان قد وضع بالفعل بيزنطة فى قفص الاتهام بالخيانة لقضية الصليب ، وأن الدعوة إلى اسقاطها باتت سافرة يرددها اللاتين على اختلاف طوائفهم ، ومن المعروف أن القديس برنارد هو الذى تحمل بحماسة منقطعة النظير الدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية بتكليف من البابا يوجينيوس الثالث ، ولما كان جودفرى دى لاروش من أشد المقربين إلى برنارد ، فإنه كان يحمل بالتالى رأى سيده ووجهة نظر الجالس على الكرسى الرسولى الرومانى ، وهكذا باتت الإمبراطورية البيزنطية خائنة فى نظر كل الدوائر اللاتينية ، وكتب أودو الدويلى يقول صراحة: "إن الاتراك والبيزنطيين هم العدو المشترك بالنسبة لنا" ، ويبدى أسفه الشديد وحزنه لعدم استجابة لويس السابع لما قدمه له قواده والرهبان من نصح بشأن القسطنطينية ، ويقول :

---

(٥١) De Profectione Ludivici VII, p 69 .

(٥٢) لعله يشير بذلك إلى ماحدث عام ١١٣٧ عندما اتجه الإمبراطور يوحنا والد مانويل إلى أنطاكية وألقى حصاره عليها وأكره أميرها على توقيع اتفاقية غدا بمقتضاها الأمير الأنطاكى تابعا للإمبراطور البيزنطى ، وقد قام الإمبراطور يوحنا مرة أخرى بمهاجمة المناطق المجاورة الأنطاكية عام ١١٤٢ أى قبل موته بعام واحد .

"واحسرتاه .. لأن هذه النصيحة لم تلق أذنا صاغية ، مما كان خسارة فادحة ليس لنا فقط بل لكل رعايا القديس بطرس" !!(٥٣) .

ورغم هذه النغمة العدائية البادية على صفحات كتاب أودو الدويلى ، والتى تعكس مشاعر اللاتين عامة تجاه بيزنطة ، إلا أن صاحبنا لم يستطع أن ينكر مطلقا الترحاب والحفاوة البالغة التى قوبل بها لويس السابع من جانب الأمراء البيزنطيين والإمبراطور مانويل ، ولم يستطع أيضا أن ينكر المعونات والإمدادات والتسهيلات التى قدمها الجانب البيزنطى للقوات الفرنسية أثناء عبورها الأراضى الإمبراطورية إلى الشرق ، ويصب فى الوقت نفسه جام غضبه على الجيش الألمانى الذى قدم قبلا ، وقضى على الأخضر واليابس أثناء عبوره ، وارتكب من الآثام والتخريب والتدمير ماترك بصماته واضحة فى العلاقات البيزنطية الألمانية خاصة واللاتينية عامة . ويتحدث أودو الدويلى بالتفصيل عن الاحتفال الذى أقامته القوات الفرنسية بعيد القديس "دنى" St. Denis الذى يعد حاميا للفرنجة ، وعن المشاركة الإيجابية والدور الفعال الذى قام به الإمبراطور مانويل كومننوس فى هذا الاحتفال ، تعبيرا عن مودة ظاهرة أراد لها مانويل أن تكون سائدة آنذاك ، ويعلق كاتبنا على ذلك بعبارة بليغة حين يقول : "لايمكن الحكم على البيزنطيين قبل معايشتهم والاختلاط بهم"(٥٤) .

ولم يلبث أودو الدويلى إلا قليلا إذ غلبته على أمره ثانية الطبيعة اللاتينية ، فنراه يقول بعد هذا كله بالحرف الواحد" ومع كل ذلك فإننى اعتقد يقينا أن البيزنطيين لو كانت لديهم نوايا طيبة تجاهنا ، لما أظهروا كل هذه الحفاوة ، ولما قدموا لنا كل هذه الأعمال التى تصل إلى حد العقوبة .. ولقد كان الإمبراطور يظهر ذلك كله تجاهنا بينما كان يضمر فى نفسه الغدر والخيانة" !! (٥٥)

هذه العبارات لاتحتاج إلى تعليق .. وإن كنت سوف أترك لفطنة القارئ أن يفعل ذلك بنفسه !!

هذا ما كان من أمر الجيش الفرنسي ومليكه لويس السابع ، فماذا كان من أمر الألمان وزعيمهم كونراد الثالث ؟

---

(٥٣) ODO of DEUIL, De Profectione Ludovici VII, pp. 59, 113.

(٥٤) Ibid. pp. 59-61, 69.

(٥٥) Ibid. pp. 67-69.

علمنا منذ قليل ما قاله أودو الدويلى عن الجيش الألمانى أثناء زحفه باتجاه القسطنطينية ، وما أحدثه أفراده أثناء تلك الرحلة من انتهاك لحرمات القرى التى عبروها ، وتخريب وتدمير للمدن التى مروا بها ، حتى أن الجيش الفرنسى الذى سار الطريق نفسه بعدهم ، كان فى بعض الأحيان لايجد ما يأكله . ويؤكد المؤرخ البيزنطى يوحنا كيناموس ، الذى يتعجب من جيشين خرجا لهدف واحد ويسير كل منهما مغاضبا للآخر ، هذه الحقيقة ، ويلقى باللوم على كونراد الثالث الذى لم يستطع ، بل لم يحاول أن يردعهم ويردهم إلى جادة الصواب ، ويعلق على ذلك بقوله "إنهم كشفوا بسلوكهم هذا عن طبيعتهم البربرية"(٥٦) ومن ثم وجد مانويل نفسه مضطرا لاتخاذ الاحتياطات الأمنية والعسكرية اللازمة للتصدى لمثل هذه الأمور ، والحفاظ على الأراضى الزراعية بصفة خاصة من أن تمتد إليها أيدى هؤلاء العابثين .

ويبدو أن هذه الإجراءات التى أقدم عليها الإمبراطور البيزنطى حفاظا على دولته وسلامة شعبه ، لم ترق لملك الألمان كونراد الثالث ، فكتب إلى مانويل رسالة تقطر سخرية وتفيض بالاستهزاء مما أقدم عليه العاهل البيزنطى !! جاء فيها :

"أيها الإمبراطور .. إن من يمتلك قدرا من الذكاء لايجب أن يقيم اعتبارا لأية مشكلة فى حد ذاتها ، بل عليه أن يبحث عن الأسباب التى دعت إليها ، كما أن من يعتمد على حكم مسبق يخفق فى معرفة ماهو الصواب . وعلى العكس من الفكرة الشائعة فإن الإنسان أحيانا مايلقى الخير من أعدائه ، ويكابد الشر من أصدقائه ، ومن ثم فلا تحاول أن تلصق بنا أسباب ذلك الخراب والدمار الذى حدث مؤخرا لأراضيك أثناء مرور جيشنا بها ، ولا تغضب لذلك مادمنا لم نتسبب نحن فى ذلك ، لأن اندفاع الدهماء الطائش قدما ، كان لابد أن ينتج عنه مثل ماحدث دون إرادة ، لأنه عندما يقوم جيش أجنبى بالتجول فى منطقة ما للوقوف على طبيعة الأرض فى هذه المنطقة من ناحية ، وتأمين احتياجاته الضرورية من ناحية أخرى ، أعتقد أنه من المنطقى أن تحدث مثل هذه الأمور على يد بعض الجنود" !!(٥٧) .

والواضح من عبارات الرسالة أن الملك الألمانى يتهم الإمبراطور البيزنطى فى ذكائه ، ويعيب عليه قصور فهمه فيما يبدو - من وجهة نظره - منطقيا ، من قيام "الدهماء" من الجنود بالتخريب والتدمير فى أراضى الغير ، لأن القيادة العسكرية - حسبما يفترض - تفقد

---

(٥٦) KINNAMUS, John & Manuel Comn. p 62

(٥٧) Ibid. p. 64.

السيطرة على هذه الجموع ! ولاشك أن هذا يبدو تبريرا غريبا يصدر عن ملك يقود جيشا مسيحيا ، ويسمح لجيشه أن يعتدى على أرض مسيحية تحت دعوى اكتشاف طبيعة المنطقة وتوفير الاحتياجات الضرورية لهذا الجيش !

غير أن ذكاء مانويل ، الذى لامه كونراد فيه ، التقط هذا الخيط ورد على الملك الألمانى بما يليق .. قال :

".. ان خروج الغوغاء عن جادة الصواب ، وهم غالبا لايخضعون لأى نظام أو سيطرة - كما تقول - لايمكن أن يمر هكذا من جانب امبراطوريتا . وكان الذى يعنينا ، أيها الأجانب الغرباء [لاحظ هذه العبارة] أن تمروا عبر أراضينا دون أن تسببوا لنا أى أذى أو ضرار ، خشية أن يتولد لدينا شعور أو انطباع سئ تجاه أناس يسلكون سلوكا معيبا . ومن ثم ، فمع أن هذه الأشياء لم تبد لك شيئا يستحق اللوم ، ولما كنت ماهرا فى الوقوف على طبيعة الأمور ومعرفة أسرارها كما تزعم ، فإننا مدينون لك بالثناء ، لأننا لن نستطيع بالتالى أن نكبح جماح جموعنا ، بل إننا ننسب ذلك إلى حماقاتهم ، كما علمتنا ذلك فى خطابك ، وعليه فلم يعد مناسبا لك أن تتجول فى أرض أجنبية ، أو أن تسير فى كوكبة ، ومادام هذا المنطق قد بدا لناظريك صائبا ، ومادام قد أصبح من حق الجموع أن تفعل مايحلو لها ، فلا تعجب إذن إذا قاسى الغرباء من أهل البلاد" (٥٨).

ولم تلبث المعارك أن دارت بين الجيشين البيزنطى والألمانى ، ولقى الألمان الهزيمة تلو الأخرى، ومنوا بخسارة كبيرة فى صفوفهم ، وأمسوا تحت رحمة الإمبراطور البيزنطى الذى أمسك بقلمه ليكتب رسالة إلى الملك الألمانى يخبره فيها أن العامة الذين لا سلطان لأحد عليهم ، هم الذين فعلوا ذلك ، وأضاف أنهم لابد قد علموا برسالة كونراد إلى الإمبراطور ، وأن كونراد قد رفع الحرج عنهم إذا ما أقدموا على مثل هذه الأمور ، فاستجابوا له ، فكان ما كان !! ولاشك أن مانويل كان يتعمد السخرية بكونراد والإزدراء به (٥٩) ، مما جعل الغضب يستبد بالملك الألمانى ، فيكتب إلى مانويل مهددا إياه بأنه سوف يهاجم القسطنطينية بجيش لاقبل لبيزنطة به ، فيجعل عاليها سافلها وتصبح كلها صعيدا زلقا !!(٦٠) .

---

(٥٨) KINNAMUS, John & Manuel Comn .p 65.

(٥٩) Ibid. p. 66.

(٦٠) Id.

هكذا تصاعدت الحرب النفسية بين المعسكرين البيزنطى والصليبى ، وراح كل منهما يحاول النيل من قرينه ، فهل يمكن أن نصدق أن هذا سلوك من خرج دفاعا عن الإمبراطورية البيزنطية والمسيحية الشرقية ؟! وهل هذا رد من بعث فى طلب النجدة الكبرى من هؤلاء القوم منجاة لأرضه من المتربصين ؟! ولنسر الشوط إلى نهايته ، فإذا نحن أمام رسالة أخرى كتبها مانويل ردا على تهديدات كونراد ، جاء فيها :

".. هؤلاء الذين يقدرون الأمور حق قدرها ، يعرفون جيدا أن المسائل لاتحسم بالكم ولكن بالكيف ، وفى حالة الحرب لاتقاس قوة الجيش بأعدادها ولكن بالمهارة العسكرية والقدرة القتالية والتفوق الظاهر فيها ، لذا .. لايغرنك كثرة قواتك ، إن هى إلا قطيع لايدرى من أمر الحرب شيئا ، وسرعان مايتبدد شملهم إذا هاجمهم من جيشنا أسد واحد . أو لا تدرى أنك قد أمسيت كالعصفور فى قبضتنا ؟! إن شئنا قدرنا فلا نبقى لك على أثر . وليكن معلوما لديك أنك لست بقادر على أن تنال من امبراطوريتنا حبة خردل ، ولن تجد عندنا ضالتك ، بل سوف تحملك أرجل جيادك - إن استطاعت - عائدة بك القهقرى من حيث أتيت"(٦١) .

والقارئ لسطور هذه الرسالة يدرك للوهلة الأولى أن هناك حالة حرب قائمة بالفعل بين قطبى العالم المسيحى آنذاك ، فالتهديدات المتبادلة بين الجانبين تكشف دون مواربة أن الغرب اللاتينى الكاثوليكى لم يأت لنجدة الشرق البيزنطى الأرثوذكسى ، وانما جاء ليستولى على أراضى الإمبراطورية البيزنطية نفسها ، وقد رأينا من قبل مافعله بوهيمند النورمانى ، وماحث به الزعماء الفرنسيون مليكهم لويس السابع أثناء زحفه باتجاه القسطنطينية ، وتحالف هذا مع روجر الصقلى العدو الدود للإمبراطورية البيزنطية ، ثم ما كان من أمر كونراد الثالث ، وماسيكون من أمر فردريك الأول بربروسا وابنه وخليفته هنرى السادس ، ولم ينته الأمر إلا عندما حقق اللاتين وعلى رأسهم البابوية بغيتهم الحقيقية ، وذلك بالاستيلاء على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ على يد جنود الصليب فى الحملة الرابعة .

ترى .. هل يمكن أن يلام الحاكم البيزنطى ، وشأنه فى ذلك شأن أى حاكم فى أى عصر ، يسعى بكل ماوسعته السبل لحماية دولته من الأخطار التى تتهددها ؟! وهاهو المؤرخ نيقتاس الخونياتى يجيب عن ذلك صراحة ويقول : "لقد كان الإمبراطور مانويل فى كل تصرفاته مع ملك ألمانيا ، حريصا فى المقام الأول على مصلحة أقاليمه من التعرض لأى خطر يهددها من

---

(٦١) KINNAMUS, John & Manuel Comn. pp. 66-67 .

جانب هؤلاء الألمان"(٦٢) . فهل تصبح بيزنطة بذلك ، أعنى بتمسكها بحقها فى الدفاع عن نفسها وتأمين أراضيها ، خائنة للقضية الصليبية؟!

ولنوسع دائرة البحث قليلا لنلقى الضوء على جانب آخر يعطى للقضية كلها بعدا جديدا . فلعلنا مازلنا نذكر ماقرأناه فى الفصل الأول ، عن مخاطبة البابا يوجينيوس الثالث للملك لويس السابع فى شأن الحملة الصليبية الجديدة (الثانية) فى أعقاب سقوط الرها فى يد عماد الدين زنكى أمير الموصل سنة ١١٤٤ ، وما كان من تحمس الملك الفرنسى لذلك تحت وطأة احساس بأثم اقترفته يداه ، غذاه لديه القديس برنارد مقدم دير كليرڤو ، الذى أخذ على عاتقه مهمة الدعوة لهذه الحرب ، حتى خلت قرى كثيرة من ساكنيها على حد قول أودو الدويلى . ولم يبد مانويل انزعاجا لذلك إلا تخوفه من التحالف الفرنسى النورمانى ومايمكن أن تفيد منه أنطاكية من قدوم هذه الحملة ، على اعتبار أن أنطاكية كانت تمثل أهمية خاصة للقيادة السياسية لبيزنطة ، ولم يتوان عن مخاطبة يوجينيوس مباركا خطواته على النحو الذى أسلفنا. لكن المفاجأة حدثت عندما أعلن كونراد الثالث عزمه على حمل الصليب مشاركا لويس السابع.

فقد لقى هذا الإعلان الامتعاض الكامل من جانب الملك الفرنسى الذى كان يود الانفراد بشرف حمل الصليب باتجاه الشرق ، باعتباره أول ملك يقدم على ذلك بعد نجاح الأمراء فى حملتهم الأولى ، ومن ثم ساءه تماما أن يشاركه كونراد الثالث هذا الشرف ، إضافة إلى العداء التقليدى القائم بين الشعبين الفرنسى والألمانى . كما أن هذا الإعلان لم يلق قبولا حسنا لدى الأوساط البابوية ، وعبريوجينيوس الثالث عن ذلك بتجاهله ورفضه لقاء الملك الألمانى عندما رغب فى ذلك ، كما أنه لم يبارك خروجه ولم يبسط رعايته الروحية على جيشه كما فعل مع الملك الفرنسى ، وقد بسطنا ذلك فى الفصل الأول . أما الإمبراطور البيزنطى فقد أبدى انزعاجه الواضح إزاء مشاركة الملك الألمانى فى هذه الحملة ، فملك ألمانيا كان معروفا فى الدوائر السياسية الأوروبية بأنه الإمبراطور الرومانى منذ وضع البابا يوحنا الثانى عشر التاج على رأس أوتو الأول Otto I السكسونى عام ٩٦٢ ، ناقلا التاج بذلك من الفرنجة إلى الألمان. ورغم أن كونراد الثالث كان هو الملك الألمانى الوحيد خلال القرون الثلاثة الممتدة من ٩٦٢ حتى ١٢٥٠ ، أى منذ تتويج أوتو الأول حتى وفاة فردريك الثانى Frederick II ،

---

(٦٢) MICETAS CHON. Annales, p 38

نقول كان الملك الوحيد الذى لم يحمل لقب الإمبراطور الرومانى ولم يتلق التاج من البابوية ، إلا أنه كان يصر على استخدامه فى القابه ومكاتباته الرسمية ، حتى أنه فى رده على مانويل عندما خطب إليه هذا الأخير "برتا" Bertha من "سولزباخ" Sulzbach أخت زوجة كونراد ، أصر على أن يخلع على نفسه لقب "الأوغسطس إمبراطور الرومان" ، بينما خاطب مانويل باعتباره ملكا لـ "اليونان" ذا مركز مرموق فحسب(٦٣) ولما لم تكن الإمبراطورية البيزنطية تعترف بهذا الوضع غير القانونى الذى خلقته البابوية عامدة مع سبق الإصرار ، فإن قدوم ذلك الملك الألمانى ، امبراطور الرومان فى الغرب ، يعد أمرا غير مرغوب فيه على الإطلاق .

ولعل هذا هو الذى أضفى ذلك الجو المتوتر الذى ظهر للوهلة الأولى منذ وطأت قدم كونراد الأراضى البيزنطية ، وحاول مانويل أن يجد للألمان طريقا بعيدا عن القسطنطينية عبر "غاليبولى" ليتجنب أذاهم فى طريقهم إلى آسيا الصغرى ، إلا أن هذا لم يتحقق لصلف الملك الألمانى الذى يتهمه المؤرخ البيزنطى نيقتاس الخونياتى(٦٤) بأنه كان يتمتع بقدر عال من الغباء ! ومن ثم كان ماكان من أمر الصدام الذى وقع بين الجيشين البيزنطى والألمان .

وإذا كان هذا هو موقف كونراد الثالث ، وهو واحد من أضعف الشخصيات التى حكمت ألمانيا خلال تلك الفترة ، وهو فى الوقت نفسه صهر مانويل ، فإن الموقف راح يزداد سوءا على عهد خلفه فردريك الأول برباروسا Frederick I Barbarossa الذى امتد حكمه إلى مايقرب من أربعين عاما (١١٥٢-- ١١٩٠) رفع خلالها شعار العداء الكامل للإمبراطورية البيزنطية ، مصحوبا بالإزدراء والسخرية من كل ماهو بيزنطى .

انطلق فردريك الأول فى سياسته العدائية هذه من إيمانه الراسخ بأنه ليس مجرد امتداد لشارلمان وأوتو الأول ، امبراطورا الرومان ، بل باعتباره خليفه قيصر وأوكتافيانوس

---

(٦٣) Angold, Byzantine Empire, p. 164 ، وراجع أيضا Magdalino, The Phenomenon of Manuel I Comnonus (in Tradition and transformation in Medieval Byzantium, Variorum, Hampshire 1991) p. 182

حيث يقول : "وكان أشد مايزعج بيزنطة ويسبب لها كربا وضيقا ، أن الملك الألمانى باعتباره امبراطور الرومان كان يعد من ناحية معينة سيد الإمارات الصليبية ، وهذا ما كان يحرص على التأكيد عليه دوما كونراد الثالث ومستشاروه" .

(٦٤) NICETAS CHON. Annales, p. 38 .

وقسطنطين وجوستنبان ، وأنه الإمبراطور الرومانى الحق فى مقابل ملك المملكة اليونانية ، يعنى الإمبراطور البيزنطى ، وأن الأوان قد آن ليودع هذا "الكيان الشرقى" الفاسد دنياه ليفسح الطريق أمام هذه "الإمبراطورية العالمية" الرومانية التى يتربع هو على عرشها . ولقد راح يوما يخاطب نبلاء الرومان بقوله : "فلنقلب أذهاننا جيدا فى أعمال أباطرة هذا الزمان ، واضعين فى اعتبارنا بكل العناية ما أقدم عليه أسلافنا العظام ، شارل وأوتو ، لقد انتزعا مدينتكم هذه والأراضى الإيطالية من يد اليونان [يعنى البيزنطيين] واللومبارد ، وجعلاها ضمن حدود مملكتنا ، ليس هبة من يد أجنبى ، بل عنوة وكسبا بانتصاراتهما .. أنا إذن الملك الشرعى"(٦٥) .

ولم يأل فردريك بربروسا جهدا فى سبيل شد أوتار هذه النغمة ليعلو رنينها دوما ، وأخذ يدعم فكرته عن "الإمبراطورية العالمية" وكونه الإمبراطور الرومانى" بكل ماوسعته السبل ، فعندما أصدر قرار تنظيم جامعة بولونيا ، أصر على أن يوضع مرسومه ضمن مجموعة قوانين جوستنيان(٦٦) ووجد ضالته فى القانون الرومانى باعتباره امبراطورا رومانيا ، وتاه عجبا بمركزه الإمبراطورى بعد أن أوحى إليه رئيس أساقفة ميلانو ، أن إرادته هى القانون(٦٧) . ومن واقع إيمانه هذا الذى ملأ عليه كل جوانب فكره ، دون أن يلقى بالا إلى الأباطرة الرومان الشرعيين فى القسطنطينية ، متناسيا عن عمد أنه ملك جرمانى ، لم تحظ قبيلته السوابية [الألمانى] Alemanni يوما بـ"فخار" الانتماء إلى الحضارة الرومانية ، نقول إنه من هذا المنطلق كتب إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل كومننوس على إثر هزيمة الأخير أمام سلطان قونية السلجوقى عام ١١٧٦ فى موقعة "ميريوكيفالوم" رسالة تقطر ازدراء وسخرية ، تتضمن خضوع "ملك اليونان" Rex Graecorum [يقصد مانويل] للإمبراطور الرومانى [يعنى نفسه] ، وانتهز الفرصة ليعلن له أنه وريث الأباطرة الرومان ، وأن ذلك يتضمن السيادة على "المملكة اليونانية" Regnum Graeciae"(٦٨) .

---

(٦٥) Barraclough, The Origins of Modern Germany, Oxford 1947, pp. 170-171, n.1

(٦٦) Davis, A history of Medieval Europe, London 1957, p. 322 وراجع أيضا Bryce, The Holy Roman Empire, London 1950, p. 169 .

(٦٧) Davis, op. cit p. 325 .

(٦٨) لمزيد من التفصيلات ، راجع ، رأفت عبد الحميد ، السمو البابوى بين النظرية والتطبيق ، بحث منشور فى مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثالث ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص١٩٣-١٩٥ .

وكان من البدهى أن يرفض أباطرة بيزنطة هذا الفكر رفضا مطلقا ، وكان موقفهم فى هذه القضية واضحا وحاسما منذ توج شارلمان امبراطوراً فى ليلة عيد ميلاد عام ٨٠٠ (٢٥ ديسمبر ٧٩٩) على يد البابا ليو الثالث . ولم يكن اعتراف ميخائيل رانجابيه Michael I Rangabé فى عام ٨١٢ بشارلمان إلا اعترافا واهنا لم يتعد حدود لقب "امبراطور" دون أن يقرن بـ "الرومان" . وكانت القسطنطينية تنظر إلى ما أقدمت عليه البابوية على أنه خرق لكل التقاليد والأعراف الرومانية الأصيلة ، وخروج على الشرعية الإمبراطورية . وإذا كان هذا هو حال كل الأباطرة الرومان فى القسطنطينية ، فإن مانويل كان التجسيد الحقيقى لكل ذلك ، ذلك أن مانويل الأول كومننوس كان الإمبراطور الذى جاء بعيدا بعد جوستنيان (حوالى ستة قرون) وحمل فكره فى محاولة إعادة احياء الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وإذكاء روح "الإمبراطورية العالمية" من جديد ، وظهرت عليه بوضوح تام أعراض اللاتينية ومجد الرومان الأقدمين ، وإذا كان جوستنيان قد لجأ إلى العمليات العسكرية فى استعادة الغرب اللاتينى الذى ضاع على يد الجرمان ، فإن مانويل استخدم أساليب الدبلوماسية التى كانت علما على بيزنطة وإدارة الخارجية بها ، فوصل صفوفه مع الثائرين النورمان فى صقلية وجنوب إيطاليا ، وبعث بسفرائه إلى أسرة الولفيين وزعيمهم هنرى الأسد فى ألمانيا ، دوق سكسونيا والعدو التقليدى لفردريك بربروسا وأسرة الهوهنشتاوفن ، وسعى إلى احلال السلام وإقامة جسور التقارب مع البابا اسكندر الثالث أثناء نزاعه مع فردريك ، وسايره الأسقف الرومانى فى ذلك إلى حد بعيد وكتب إليه موضحا أن "مابنى على باطل فهو باطل" ، وهو يشير بذلك إلى وضع التاج على رأس ملوك الجرمان وجعلهم أباطرة .

وتمشيا مع هذه النغمة بعث أحد الكرادلة الرومان إلى الإمبراطور مانويل فى لهجة ودية ، مبينا - بإيعاز من البابا - أن مانويل يحتل مكانة مرموقة عند روما ، مؤكدا أن البابوية ترغب فى حمايته ضد ذلك "الطاغية" الألمانى الذى أوقع الضرار بالكنيسة منذ تلك اللحظة التى اغتصب فيها أولئك البرابرة اللقب الإمبراطورى[٦٩] . ولم يكن هذا كله بالطبع من جانب اسكندر وكرادلته إلا نكاية فى فردريك بربروسا فحسب ، ومناورة تكتيكية من البابوية ، بعيدا تماما عن السياسة الاستراتيجية الثابتة للكرسى البطرسى فى روما ، تجاه "الأرثوذكس" الهراطقة فى بيزنطة ، وليس أدل على ذلك من أن المفاوضات التى بدأت بين الطرفين حول الاعتراف بأسبقية الكرسى الرسولى الرومانى فى التقدمة الكنسية مع عدم المساس بمركز

---

(٦٩) Angold, Byzantine Empire, p. 181

القسطنطينية باعتبارها "روما الجديدة" وحاضرة الإمبراطورية ، والاعتراف بالإمبراطور مانويل فى الغرب اللاتينى ، وصلت إلى طريق مسدود عندما رفض البابا اسكندر مسودة هذه الاتفاقية ، وكان ذلك راجعا إلى أن الظروف واتته بانسحاب جيوش فردريك من إيطاليا عام ١١٦٧ بعد إصابتها بالطاعون(٧٠) وعلى الرغم من أن الإمبراطور البيزنطى لم يقطع خطوط المفاوضات هذه ، وظل يحاول من جديد ، إلا أن شيئا من طموحاته لم يتحقق بعد أن لقى فردريك بربااروسا هزيمة مروعة عند ليناانو Legnaño سنة ١١٧٦ ، وتم على أثرها توقيع معاهدة البندقية فى العام التالى (١١٧٧) ، ولقى فردريك الإذلال فى السنة نفسها فى ميلانو بصورة أعادت إلى الأذهان ما كان قد وقع لسلفه البعيد هنرى الرابع عند كانوسا عام ١٠٧٧ ، أى منذ مائة سنة مضت بالتحديد ، على يد البابا جريجورى السابع .

هذان امبراطوران اعتنق كلاهما فكرة "عالمية" الإمبراطورية ، ولكن بصورة تسير كل منهما فى اتجاه مضاد للأخرى ، ولم يكن لهما أبدا أن يلتقيا إلا فى طريق الصدام ، ومن ثم فبينما اعتبر مانويل أن خصوم فردريك من مدن العصبة اللومباردية حلفاء له ، حرص فردريك على إقامة علاقات طيبة مع أعداء مانويل السياسيين ، ودخل فى مفاوضات مع الصرب وسلطان قونيه وبلغاريا . وكان طبيعيا أن تكون إيطاليا بصفة خاصة هى بيت القصيد فى هذا الاصطراع ، فالملك الألمانى لايتصور كونه امبراطورا رومانيا دون السيادة على إيطاليا وروم، وبدونهما تزول عنه هذه الصفة ، ومن هنا قاد الملوك الألمان جيوشهم فى حملات متتابعة عبر ثلاثة قرون وينيف باتجاه إيطاليا ، لتأكيد هذا الزعم وتلقى التاج الإمبراطورى(٧١). والإمبراطور البيزنطى ينظر إلى روما باعتبارها مدينة المجد الرومانى القديم ، وحاضره الإمبراطورية ثلاثة قرون ونصف قبل أن تنتقل إلى "روما الجديدة" على شطآن البسفور ، وأن عودتها إلى الإمبراطورية أو عودة الإمبراطورية إليها أمر لا مندوحة عنه فى ظل "العالمية" التى يسعى إليها ، ومن هنا كان إقدام مانويل على التفاوض مع كونراد الثالث أثناء عبوره القسطنطينية ، على أن يقدم الملك الألمانى "جنوب إيطاليا" إلى الإمبراطور البيزنطى "صداقا" لـ "برتا" التى اقترن بها مانويل !

---

(٧٠) Angold, Byzantine Empire, pp. 182-183.

(٧١) ناقشت هذه القضية تفصيلا فى بحثى المعنون "المشكلة الإيطالية فى السياسة الألمانية" بحث منشور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ٣٠ سنة ١٩٨٣ . ص٢٦٣-٣٢٦ .

ويتساءل "ماجدالينو" P. Magdalino [٧٢] حول ما إذا كان مانويل محقا فيما ذهب إليه في سياسته الإيطالية ، وعدائه مع فردريك بربااروسا ، ويجيب على ذلك بقوله إن مانويل اتبع في السنوات الأولى من عهده سياسة أبيه يوحنا الثاني ، الرامية إلى الضغط العسكري والمعنوي على الإمارات الصليبية وأنطاكية بصفة خاصة ، والهجوم في آسيا الصغرى ، إلى أن كانت الحملة الصليبية الثانية التي قلبت هذه الموازين والاتجاهات السياسية لديه ، فقد كان مجيء هذه الحملة صدمة قاسية للسياسة التقليدية لأسرة كومننوس ، وأثبتت أن الحملة الصليبية الأولى لم تكن ظاهرة استثنائية ، ولكنها كانت بداية لنموذج يحمل في داخله خطرا مدلهما لبيزنطة يتمثل في تهديد مبادئها الخاصة بسياسة "ماوراء البحار" ، وفوق هذا فإن الحملة الصليبية الثانية كانت من وجهة النظر البيزنطية أشد خطرا من سابقتها ، فقد كانت استجابة غربية محضة لسقوط الرها في يد المسلمين ، وليس لنجدة بيزنطة من يد أعدائها ، ولم يكن يقودها الأمراء بل يتزعمها الملوك - الذين رأوا فيها امتدادا طبيعيا لسلطة كل من ملكي فرنسا وألمانيا وهذا ما أشرنا إليه قبلا ويضيف "ماجدالينو" أن اشتراك الملكين على هذا النحو كان مؤشر شؤم لبيزنطة حول فكرة الدفاع "عما وراء البحار" حيث أمست المسئولية الجماعية لعالم المسيحية اللاتيني ، ولم تعد مسئولية بيزنطة وحدها . ولما كان فردريك بربااروسا هو الإمبراطور الروماني - من وجهة نظره - لإمبراطورية عالمية ، رومانية مقدسة ، كما أسماها هو بنفسه منذ عام ١١٥٧ في رسالة بعث بها إلى البابا هادريان الرابع ، فإن ذلك يستدعي حتما السيادة على كل ملوك أوروبا والقدس وامبراطور بيزنطة ، وعلى الجميع أن يظهروا الولاء للسيد الروماني ، باعتبار العالم كله قد أصبح "دائرة رومانية" Fiscus Romanus ، وليس هذا إلا مقدمة للعمل الرئيسي ، وهو أن يسير الإمبراطور إلى القدس، ويهزم الملك الوثني في مصر [يعني سلاطين بني أيوب] ، وأن يعود إلى بلاده ثانية وهو يحمل لقب "ملك التيوتون" Rex Teutonicorum بكل جدارة حيث سيحقق النصر على أعداء المسيح ، والنجاح الأبدي للكنيسة[٧٣] .

وإذا كان هذا لايعني بالضرورة أن يكون بربااروسا ينظر إلى نفسه باعتباره آخر الأباطرة الرومان ، إلا أنه من المؤكد أنه هو وأنصاره كانوا ينظرون إلى إعادة إحياء الإمبراطورية على

---

(٧٢) The Phenomenon of Manuel I Comnenus, p. 182.

(٧٣) Ibid. p. 189 .

يديه ، باعتباره مقدمة ضرورية تقود أيضا على يديه إلى حملة صليبية خاتمة تنجح فيما فشلت فيه الحملة الثانية ، لأن الوقت قد حان لكى يتولى القيادة الصليبية الإمبراطور الذى يعد دون مناقشة ، الرأس الحقيقى لعالم مسيحى واحد ، ومن ثم فإن المثال الإمبراطورى لدى بربا روسا كان إلهاما ووحيا من المثال الصليبى ، وكان هذا فى حد ذاته فى ضوء التجربة البيزنطية أثناء الحملة الصليبية الثانية ، يجعل منه فى أعين البيزنطيين خطرا داهما على دولتهم(٧٤) .

هكذا بات من المستحيل أن يلتقى العالمان إلا على طريق الصدام كما قلنا ، ولم يخفف موت مانويل كومننوس عام ١١٨٠ من حدة العداء بين الإمبراطور الألمانى والإمبراطور الرومانى ، وكانت الحملة الصليبية الثالثة بملوكها الثلاثة ، فردريك بربا روسا ، وريتشارد الأول قلب الأسد ، وفيليب أوغسطس ، تجسيدا للفكر الصليبى تجاه بيزنطة ، وبينما سلك الملكان الانجليزى والفرنسى طريق البحر ، اتخذ فردريك طريقه على البر عجبا باتجاه القسطنطينية ، وقوبل من جانب "ستفن نمانيا" Steven Nemanja ملك الصرب بكل الحفاوة والترحاب ، ودخلا معا فى مفاوضات انضم إليهما فيها سفراء بلغاريا ، وكان هذا كله فى جوهره يعنى إظهار العداء تجاه بيزنطة ، وتمثل ذلك فى قيام فردريك أثناء زحفه باحتلال مدينة "فيليبوبوليس" Philippopolis كما لو كانت بلدة فى يد أعدائه - على حد تعبير أوستروجورسكى (٧٥) . وبلغ الحال إلى حد تبادل الإهانات بين بربا روسا والإمبراطور البيزنطى اسحق أنجلوس Isaac Angelus ، وتهديد فردريك بربا روسا باحتلال القسطنطينية ، ولم يلبث أن استولى على أدريا نوبل فى طريقه إلى مدينة قسطنطين ، وترجم تهديداته إلى واقع عملى عندما كتب إلى ابنه هنرى السادس يأمره بأعداد حملة جديدة .

ولم يجد الإمبراطور البيزنطى من سبيل أمامه إلا أن يجدد ثانية المعاهدة التى كان الإمبراطور أندرونيكوس Andronicus قد عقدها مع السلطان صلاح الدين الأيوبى والتى تقضى بالتصدى سويا لوقف هذا الزحف الألمانى . ورغم أن هذا كان أبسط قواعد الدفاع عن النفس الذى يمكن أن تتبعها دولة تسعى للحفاظ على أراضيها ، إلا أنه عد من وجهة الغرب

---

(٧٤) Ibid. p. 189 وراجع أيضا Brand, Byzantium Confronts the West, Harvard university Press, 1968, p. 15.

(٧٥) Ostrogorsky, Byzantune State, p. 406.

اللاتينى والدوائر البابوية دليل اتهام جديد ضد بيزنطة على خيانتها للقضية الصليبية بتحالفها مع أعداء المسيح !!

وشق فردريك برباروسا طريقه عبر البسفور إلى آسيا الصغرى وسط مظاهر العجرفة والكبرياء والتعالى على البيزنطيين ومليكهم ، ولم يلبث أن قاده حتفه إلى الموت غرقا فى أحد أنهار قيليقية عام ١١٩٠ ، وتفرق جيشه الضخم أيدى سبأ ، ومزق شر ممزق ، ولم يحقق زميلاه ريتشارد وفيليب أى نصر حقيقى فى الشام أمام الجهاد العنيد الذى قاده سلطان مصر والشام صلاح الدين الأيوبى ضدهما ، وليس هنا مجال التفصيل فى هذه الأحداث ، وانما نقول فى عبارة واحدة إن الحملة الصليبية الثالثة فشلتِ فشلا ذريعا فيما خرجت من أجل تحقيقه .

على أن الغرب الصليبى خرج من هذه الحرب وسابقتها بنتيجة مؤداها ، أنه إذا أريد للفكر الصليبى النجاح فلابد من القضاء على بيزنطة ، وإذا أريد للوجود الصليبى الدوام فلابد من تدمير مصر تماما باعتبارهما "رأس الأفعى" ومن ثم كانت الحملة الصليبية الرابعة قد خرجت تستهدف مصر ، فأسقطت القسطنطينية عام ١٢٠٤ ، وتحقق الحلم البابوى والفكر الصليبى بالإنتصار على "كنيسة مارقة ودولة متمردة" ! وخرجت الحملتان الصليبيتان الخامسة والسابعة تبتغى مصر ، إلا أنهما عادتا وقد ابتليتا بلدغ "الأفعى" ، وليموت من جراء ذلك تدريجيا المشروع الصليبى فى العصور الوسطى .

وبعد .. ترى هل كانت بيزنطة فعلا خائنة للقضية الصليبية ؟ وهل يمكن أن يفسر حقها فى التمسك بسياسة "صالح الإمبراطورية" أولا وقبل كل شىء بأنه عداء تجاه الجيوش الصليبية ؟ وكيف يمكن أن يسوغ هذا وهذه الجيوش تتحين الفرص للإنقضاض عليها ؟ لقد كانت الهوة الواسعة التى فصلت بين الفكر البيزنطى عن هذه الحرب ، والفكر الصليبى الذى أشعل نيرانها ، هى حجر الزاوية فى موقف كل من بيزنطة والغرب تجاه بعضهما ، فى ظل إطار من ماض بعيد لحمته وسداه العداء والكراهية ، والترقب والحذر ، وليس هناك أدق من عبارات نيقتاس الخونياتى التى يصف بها هذه الحال ، يقول : ".. هؤلاء اللاتين الملاعين شرهون تماما وطامعون فى ممتلكاتنا ، راغبون فى تدميرنا والقضاء علينا وإبادتنا ، يفصل بيننا وبينهم بحر من الكراهية . إن نظرتنا للأمور على طرفى نقيض ، واتجاهاتنا تسير فى إتجاه متضاد" .

الفصل الثالث

الملك الكامل بين «الإفراط» و«التفريط» فى مواجهة الصليبيين

الملك الكامل بين «الإفراط» و«التفريط»
فى مواجهة الصليبيين

لم يتعرض أحد من ملوك بنى أيوب للنقد والتجريح من جانب معاصريه واللاحقين ، مثلما تعرض له الملك محمد الكامل بن العادل سيف الدين أيوب . ولم يحظ واحد من سلاطين هذه الدولة بالثناء والتقريظ، باستثناء مؤسسها الناصر صلاح الدين ، كما حظى الملك الكامل محمد !! والغريب فى الأمر أن جانبا كبيرا مما امتُدح به الكامل ، كان فى الوقت نفسه عاملا أساسيا فى قدحه !

رثاه ابن خلكان بقوله ، «كان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر محبا للعلماء متمسكا بالسنة النبوية ، حسن الاعتقاد معاشراً لأرباب الفضائل ، حازما فى أموره لايضع الشئ إلا فى موضعه من غير إسراف ولاإقتار ». وحدثنا عنه سبط بن الجوزى فقال ، «... كان شجاعا ذكيا مهابا ... يثبت بين يدى العدو ، ولما نزل الفرنج على دمياط ما أبقى قلما فى خزائنه وذخائره . أما عدله فإليه المنتهى وفضله فهو المشتهى» . ويضيف إلى ذلك أبو الفدا، «... وكان الملك الكامل ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير ، أمنت الطرق فى أيامه ، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه ... وينظر فى أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها ، فعمرت فى أيامه ديار مصر أتم العمارة». ولم يبعد ابن كثير عن هذا كثيرا عندما قال : «أوصى إليه أبوه (العادل سيف الدين أبوبكر) لعلمه بشأنه وكمال عقله ، وتوفر معرفته ... وكان ذكيا مهيبا ذا بأس شديد ، عادلا منصفًا له حرمة وافرة ، وسطوة قوية ... والطرقات فى زمانه آمنة ، والرعاية متناصفة لايتجاسر أحد أن يظلم أحدا» . ويشرح المقريزى ذلك بقوله : «كان (الكامل) حازما سديد الآراء ، حسن التدبير لممالكه، عفيفا عن الدماء ويلغ من مهابته أن الرمل- فيما بين العريش ومصر- كان يمر فيه الواحد ، بالذهب الكثير والأحمال من الثياب ، من غير خوف ... وكان يباشر أمور الملك بنفسه». ويزيد ابن أيبك الدواداري المسألة هذه وضوحا حين يقول : «وكان (الكامل) إذا سافر لايجسر أحد أن يتناول من فلاح بيضة ولاعليقة بغير حقها ، وربما شنق من الجند على شئ من ذلك!» .

أما المؤرخ المعاصر ابن واصل ، والذى كان قريبا دائما من دوائر القصر السلطانى ، خاصة زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، فإنه جمع ذلك كله فى عبارات بليغة ظلت

المعين الذى نهل منه كل من كتبوا عن الكامل ، وفى مقدمتهم بالطبع من قدمنا الآن ذكرهم وأقوالهم ، قال ابن واصل «كان (الملك الكامل) ملكا جليلا ، حازما مهيبا ، سديد الآراء ، حسن التدبير لممالكه ، عفيفا عن سفك الدماء ، حليما ، ومع هذا الحلم العظيم ، كان عظيم الهيبة ... يباشر الأمور بنفسه ... ويخرج فى زيادة النيل، وينظر فى الجسور وإصلاحها ، ويرتب على كل جسر من الأمراء من يتولاه ، ويجمع الرجال لإصلاحه وعمله ، ثم يشرف على الجسور بنفسه، فأى جسر منها اضطرب بتفريط من يتولاه عاقب المتولى له أشد العقوبة ، فعمرت فى أيامه ديار مصر عمارة كثيرة» وقال مؤرخنا فى رثائه شعرا كان من بين أبيات قصيده :

ولو خلد الملك العظيم جلاجلاً ... حوى الملك وانقادت إلى أمره الأمم

لخلد فينا الكامل الملك الذى ... له خضعت غُلب الممالك والقمم

ولكن قضاء الله ما عنه مَعْدِل ... ولا موئلُ مما به اللهُ قد حكم

فمن بعده حار الدليل وأظلمت ... صباح المعالى وانقضت دول الكرم

أما ما كان يتصف به الملك الكامل من حب للعلم والعلماء ، وسعة الاطلاع ، وإلمام كبير بفروع المعرفة الإنسانية ، وتنوع الثقافة ، فحدث عنه ولاحرج ، كما حدث عنه معاصروه ، وسوف يكون لنا معه من بعد لقاء حول هذا الجانب ، والأثر الكبير الذى تركه ذلك فى تشكيل فكره وتكوين شخصيته . وأما ما كان من أمر جهاده ضد الصليبيين ، فهذا هو بيت القصيد ، والمحور الذى من حوله يدور الجدل وتكثر الأقاويل حول ما الذى فعله الكامل ؟ . وهل كان مخطئا أم حالفه الصواب ؟

ولم يشفع للملك الكامل كل ما خلعه المؤرخون عليه من صفات سقناها ، وتحلى بها ، ولأن كثيرا منهم ومن اللاحقين عاملوه فى مواقفه من الصليبيين بمعزل عن سياسته وإدارته لشئون دولته بصفة عامة، وكان اللوم الذى وجه إليه هو «الافراط» فى عرض الصلح على الصليبيين إبان الحملة الصليبية الخامسة ، و«التفريط» فى القضية برمتها لصالح الإمبراطور فردريك الثانى الذى قاد ما يسمى بالحملة الصليبية السادسة . وهنا سوف نحاول جاهدين بكل ما وسعنا الطاقة مؤملين فى التوفيق، أن نجلو حقيقة الأمر فيما يتعلق بـ «الإفراط» و«التفريط» اللذين اتهم بهما الكامل ، وذلك من خلال قراءة نقدية جديدة للمصادر التاريخية المعاصرة واللاحقة، والمراجع الحديثة ، آملين أن نقترب ولو بقدر ما من الحقيقة التاريخية .

ولن نخوض فى تفصيلات الأحداث العسكرية التى جرت بها وقائع الحملتين الصليبيتين ، الخامسة والسادسة ، فهى مبسوطة كل البسط على صفحات الكتب التى تناولتها ، ولكنا سنقفز فوقها لنصل مباشرة إلى ما كان من أمر الملك الكامل مع الصليبيين .

فقد نجحت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دى بريين Jean de Brienne ملك بيت المقدس (فى عكا) ، والمندوب البابوى المتعجرف بلاجيوس Pelagius من الاستيلاء على مدينة دمياط فى الخامس والعشرين من شعبان عام ٦١٦ هـ / الخامس من نوفمبر سنة ١٢١٩م بعد أن ظلوا على حصارها تسعة أشهر كاملة ، وبعد وصول سفنهم إلى الشواطئ المصرية بخمسة عشر شهرا وينيف ، حيث كانوا قد ألقوا مراسيهم على الشاطئ الغربى للنيل قبالة دمياط فى أخريات مايو سنة ١٢١٨م وكان قطع المآصر الحديدية القائمة بين شاطئ النيل عند دمياط ، وما تبع ذلك من سقوط برج السلسلة فى أيدى الصليبيين ، كارثة أحدقت بالمسلمين ، إذ البرج هو «قفل الديار المصرية» ، ولم يكن غريبا أن يموت الملك العادل سيف الدين أبوبكر كمدا على أثر هذه النازلة .

وهكذا قدر للحملة الصليبية الخامسة أن تواجه منذ مطلع غزوها لمصر الدولة الأيوبية وقد انقسمت على نفسها بين أبناء العادل، الملك الكامل محمد فى مصر، والمعظم عيسى فى الجزء الجنوبى من الشام ، والأشرف موسى فى جزئه الشمالى. ولو هيئ لهذه الحملة قيادة عسكرية واعية تحت إمرة قائد واحد كفء، لتبدل الحال غير الحال، ولمّا كانت حادثات التاريخ لاتخضع لـ «لو» ، فقد أمضى الصليبيون على أرض مصر ، عند دمياط ، ثلاث سنين سويا ، ثم عادوا أدراجهم دون أن يحملوا معهم حتى خفى حنين !!

وخلال هذه السنوات الثلاث لم يتردد الملك الكامل فى عرض الصلح على الصليبيين ، مقدما ما يبدو فى ظاهره للوهلة الأولى عرضا سخيا يصعب رفضه، يتضمن التنازل عن كل «الفتوح الصلاحى» بما فيه القدس بطبيعة الحال فى مقابل التخلى عن دمياط والنزوح عن الأراضى المصرية . ورغم ميل الملك جان دى بريين إلى الموافقة على هذا الاقتراح ، إلا أن هذا الميل لم يجد آذانا صاغية أمام شراسة الرفض الذى أبداه المندوب البابوى بلاجيوس ومؤيدوه من تجار المدن الإيطالية وكذا فرسان الداوية والاسبتارية . فأضاع رجل الكنيسة بهذا من بين يديه فرصة العمر، التى لاشك ظل يندم عليها ما بقى له من العمر؛ وكذا كان الحال البابوية،

وصدق عليه قول المؤرخ الألمانى «ماير»[١] Hans Eberhard Mayer إنه كان رجلا «متطرفا عجيبا ، جبارا عنيدا ، مغترا بنفسه إلى حد بعيد جدا ، شكل لنفسه حزبا من الجدد ومن رجال الهيئات الدينية ، ومن التجار الإيطاليين ، واستطاع بدعم منهم أن يخرج الأمر من يد الملك جان دى بريين ... ومن ثم انقسم الجيش الصليبى إلى معسكرين متعاديين، وراح بلاجيوس يتدخل فى الشئون العسكرية دون أى اكتراث بالقانون الكنسى، حتى آل إليه أمر قيادة الجيش، ولكنه لم ينجح فى شئ إلا فى تحقيق الفشل الذريع للحملة» !! مما دفع شاعرا معاصرا هو «وليم كليريك، إلى التهكم والسخرية من هذا الذى كان يفعله بلاجيوس ، قائلا : «ميدان القتال والحرب للفرسان ، وللكهان القداس والمزامير»! [٢].

ارتحل الصليبيون عن دمياط دون قيد أو شرط ، بعد أن أحيط بهم من جانب المصريين ومياه النيل وأوحال الدلتا التى غاصوا فيها إلى ركبهم، وعاد بعضهم منهم إلى الشام وثان إلى أوروبا يمجدون الرب أن أنجاهم من هذه الكارثة التى ساقهم إليها صلف أسقفهم بلاجيوس، وغض المسلمون الطرف عن العروض التى كان الكامل قد تقدم بها إلى الصليبيين، حيث أن شيئا منها لم يتحقق ، غير أنه لم يمض على ذلك سوى ثمانى حجج (١٢٢١-١٢٢٩) ، إلا وبُعث المشروع برمته من رقدة لم تطل به ، حين أقدم الملك الكامل على تسليم القدس- عدا الأماكن المقدسة الإسلامية بها- إلى فردريك الثانى ملك المانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة !!

وهنا قامت الدنيا فى حينه على الكامل ولم تقعد ، بعد أن خرجت البلد- أعنى القدس- من «قبضة» المسلمين وانتقلت إلى سيادة أولئك الصليبيين «الملاعين» ، وعادت الذكرى بالأذهان إلى أن ما كان «إفراطا» فى عرض تقديم «القدس» إلى الصليبيين على طبق من فضة ، غدا «تفريطا» حقيقيا بشأنها وحق المسلمين فيها ، على آنية من ذهب !! ذلك أن الكامل قد سلم لفردريك بمقتضى اتفاقية يافا ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م، القدس وبعض «الفتوح الصلاحى» ، مع إقرار للصلح بين الطرفين مدته عشر سنوات .

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ، نقله إلى العربية عماد الدين غانم ، منشورات مجمع الفاتح للجامعات ، ليبيا ، ١٩٩٠ ص٣١٦ .

(٢) بتصرف عن زابوروف ، الصليبيون فى الشرق ، دار التقدم ، موسكو ، ص٣٠٠ .

وكان طبيعيا أن يتعرض الملك الكامل لموجة ضارية من النقد والتجريح لهذا الذى أقدم عليه، فيروى لنا المؤرخ المعاصر «ابن واصل» نقلا عن أبيه ، أنه «لما نودى بالقدس بخروج المسلمين ، وتسليم القدس إلى الفرنج ، وقع فى أهل القدس الضجيج والبكاء ، وعظم ذلك على المسلمين، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم ، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل، واستشنعوه منه» [٣] ، ثم يقص علينا ما شاهده بعينى رأسه فى دمشق ، حيث كان يقيم ، فيقول : «ولما ورد الخبر إلى دمشق بتسليم القدس إلى الفرنج ، أخذ الملك الناصر داود (ابن المعظم عيسى) فى التشنيع على عمه الملك الكامل، وتقدم إلى الشيخ شمس الدين يوسف ... وكان له قبول عند الناس فى الوعظ ، أن يجلس بجامع دمشق للوعظ ، ويذكر فضائل القدس وما ورد فيه من الأخبار والآثار ، وأن يحزن الناس ويذكر ما فى تسليمه إلى (الصليبيين) من الصغار للمسلمين والعار ، وقصد بذلك تنفير الناس من عمه ليناصحوه فى قتاله . فجلس شمس الدين للوعظ كما أمره، وحضر الناس لاستماع وعظه ، وكان يوما مشهودا ، وعلا يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم ، وحضرت أنا هذا المجلس ... فلم يُر فى ذلك اليوم إلا باكٍ أو باكية» [٤]. أما المقريزى[٥] فقد ذكر أنه لما «نودى بالقدس بخروج المسلمين منه ، وتسليمه إلى الفرنج ، فاشتد البكاء ، وعظم الصراخ والعويل ، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل ، وأذّنوا على بابه فى غير وقت الآذان ... وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الانكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار» .

والذى يلفت الانتباه ويدعو فى الوقت نفسه للدهشة التامة حقا، أن الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، قام فى عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١م بتسليم القدس وطبرية وعسقلان ، وقلعة الشقيف أرنون وأعمالها ، وقلعة صفد وبلادها إلى الصليبيين ، وزاد على ذلك ما قدمه من وعود لهؤلاء بإعطائهم جزءا من مصر إذا تم له بعونهم فتحها ، والاستيلاء عليها من يد الصالح نجم الدين أيوب بن أخيه الملك الكامل ، وهذا يعنى أن الصالح اسماعيل كان أشد من الملك الكامل «تفريطا» ، بل إنه عاقب حامية الشقيف أرنون التى أبت أن تطيع أوامره

---

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ٤ ، ص٢٤٣ .

(٤) المصدر السابق ، جـ٤ ص٢٤٥ .

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ ص٢٣١ .

بتسليم القلعة إلى الصليبيين !! فحاصرها واستولى عليها وسلمها للصليبيين وأنزل بالحامية عقابه الأليم . ومع كل ذلك فإن المؤرخين المعاصرين الذين ذكروا لنا الصفحات عن الشناعات التي ثارت ضد الكامل من جانب الرأى العام الإسلامى آنذاك . لم يذكروا شيئا عن مثل ذلك تجاه الصالح اسماعيل ، إلا ما قام به شيخ الإسلام العز بن عبد السلام من استنكار بيع السلاح للصليبيين علانية فى دمشق، بعد أن أذن لهم الصالح اسماعيل بذلك [٦] ، وما كتبه على استحياء فى هذا الخصوص المؤرخ أبو الفدا [٧]. أما ابن واصل فكان صمته محيرا !![٨].

ورغم ما فى هذا الأمر من غرابة ، إلا أنه يفسر لنا كثيرا من الجوانب التى يدور حولها هذا البحث، والتى تتعلق بالأهمية الكبرى التى يمثلها موقف مصر ودورها فى التصدى للحركة الصليبية ، ويضع النقاط على الحروف كذلك فى ذكاء السياسة التى اتبعها الملك الكامل، والتى جلبت عليه كل ما كيل له من اتهامات وما قام ضده من «الشناعات» ، ويؤكد فى الوقت نفسه من جديد ما ذكرناه فى صدر حديثنا من أن المؤرخين تناولوا سياسة الكامل تجاه الصليبيين بمعزل عن سياسة الكامل عامة وشخصيته بصفة خاصة، وأن الرأى العام الإسلامى كان ينظر إلى ما تفعله مصر فى قضية الجهاد المقدس ضد الصليبيين بعين غير التى ينظر بها إلى ما تقوم به القوى الأخرى فى المنطقة ، وهذه النقطة الأخيرة فى حد ذاتها تضيف بعدا جديدا لما نحن بصدده من موقف الملك الكامل من الصليبيين، سوف نعالجه تفصيلا بعد قليل .

ومن المعروف أن الامبراطور فردريك الثانى كان قد قدم إلى الشرق فى فئة قليلة لايتجاوز عددها خمسمائة فارس ، وحظيت هذه الشرذمة بترتيب «السادسة» فى عداد الحملات الصليبية ، مع أنها افتقرت إلى أى من سمات هذه الحركة ، ولم يكن لها من الأهمية مكان إلا بقدر ما كان لقائدها وما حققه بـ «شخصه» فقط وليس بـ «قواته» من نتائج .

ما سبق يفضى إلى الاعتقاد للوهلة الأولى أن الملك الكامل كان يمسك «القدس» بيديه ورقة رابحة ، يلوح بها فى وجه الصليبيين كى يسيل لعابهم ، غير أن لعاب الصليبيين كان قد جرى بالفعل أبعد من «القدس» تطلعا إلى مصر ، ولم يكن الكامل مخطئا ، فيما يذهب

---

(٦) المصدر السابق ، جـ٢ ص٣٠٥ .

(٧) المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ص١٧٧ .

(٨) مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣٣ .

إليه، بل كانت الحركة الصليبية نفسها هى التى انحرفت تماما منذ مطلع القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى ، عن أهدافها الأولى «المعلنة» ، وكشفت فى سفور عن أهدافها «الحقيقية» التى قامت فى البدء من أجل تحقيقها . وكان فشل الحملة الصليبية الثالثة التى قادها أعظم ملوك أوروبا آنذاك فى أخريات القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى ، فردريك الأول برباروسا Frederick I Barbarossa امبراطور ألمانيا ، وريتشارد الأول قلب الأسد Richard I the Lion- Hearted ملك انجلترا، وفيليب أوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا ، الحد الفاصل بين مرحلتين أساسيتين فى تاريخ الحركة الصليبية ، اتسمت ثانيتهما باعتقاد راسخ ساد أوروبا كلها ، مؤداه أنه إذا أريد تحقيق «النجاح» للحركة الصليبية فلابد من القضاء على الامبراطورية البيزنطية ، وإذا أريد «البقاء» للوجود الصليبى فى الشرق فلابد من القضاء على مصر وتحطيم قوتها العسكرية ، أو بمعنى أدق ضرب «الأفعى» على رأسها .

ولم يكن الملك الكامل بغافل عن حقائق هذه السياسة التى كانت قائمة لدى الأوساط الصليبية فى الغرب اللاتينى، أو ما يتردد بقوة فى الدوائر السياسية الصليبية أيضا فى بلاد الشام ، ولم يكن هذا أيضا مستغربا على الكامل وقد وصفه المؤرخ القاضى جمال الدين ابن واصل[٩] بأنه كان رجل سياسة من الطراز الأول، أو بكلماته نفسها : «لم أجد فى شئ من التواريخ أن ثلاثة إخوة من الملوك اجتمع لهم من الشجاعة والنجابة والفضائل ما اجتمع فى أولاد الملك العادل الثلاثة ، وهم الملك الكامل ، والملك المعظم ، والملك الأشرف، وكان الملك الكامل أحزمهم وأسوسهم». أما المقريزى[١٠] فيقول فى جملة وصفه أنه كان ملكا «كثير السياسة» ، وهو تعبير يعنى بلغة أهل الزمان على ايجازه « الدهاء السياسى» . بينما جمع ابن أيبك الدواداري[١١] ذلك كله فى عبارة بليغة حين حدث عن الكامل بأنه كان يتمتع بعقل متقد وتدبير حسن ورأى سديد ، ولهذا عهد إليه أبوه .

---

(٩) مفرج الكروب جـ٤ ص١٧٠ .

(١٠) السلوك ، جـ١ ص٢٦٠ .

(١١) الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب، ص٣٢٦ ، وهو الجزء السابع من موسوعة ابن أيبك الدوادارى «كنز الدرر وجامع الغرر» .

ولقد أفاض عدد من المؤرخين المحدثين[١٢] كثيرا فى عرض الظروف والملابسات التى أحاطت بالملك الكامل ، ودفعته إلى تكرار عرضه أكثر من مرة بتسليم القدس والفتوح الصلاحى إلى الصليبيين إبان الحملة الخامسة ، ثم تسليمها بالفعل إلى فردريك الثانى فيما عرف بين الدارسين بالحملة الصليبية السادسة ، وجاءت هذه التبريرات فى معظمها استنتاجا طبيعيا ومنطقيا لما قدمته المصادر التاريخية المعاصرة فى هذ الشأن .

وتتلخص هذه الظروف جملة في عدد من النقاط من بينها - ودون الدخول فى التفصيلات الدقيقة التى امتلأت بها المصادر المعاصرة والمراجع الحديثة، تلك المؤامرة الشهيرة التى دبرها الأمير عماد الدين بن المشطوب أحد قواد الكامل وأشهرهم ، ويسميه ابن أيبك[١٣] «ملك الأكراد» ، وهو يقصد طبعا الأكراد العاملين فى جيش ملك مصر حيث يقول : «وكان عسكر الديار المصرية فى ذلك الوقت أكثره أكراد (هكذا) ، وابن المشطوب ملكهم » أى زعيمهم ، بينما يصفه المقريزى[١٤] بقوله : « ... كان أجل الأمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد الهكارية ، ينقادون إليه ويطيعونه ... فاتفق معهم على خلع الملك الكامل وتمليك أخيه الفائز ابراهيم ، ليصير لهم التحكم فى المملكة» وأدت هذه المؤامرة فى هذا الوقت الحرج ، إلى إخلاء الملك الكامل لمعسكر العادلية الذى كان يقيم فيه، والارتداد إلى أشموم طناح ، خوفا على حياته من غدر بعض أمرائه ! وكان هذا التقهقر فرصة ذهبية وافت الصليبيين للاستيلاء على معسكر العادلية ، بعد أن ولوه الجنود دبرهم متحرفين إلى حيث السلطان . ومن ثم بدأ الحصار الصليبى لمدينة دمياط . وقد تركت هذه الأحداث أثرها البالغ فى الحالة المعنوية لدى العسكريين والمدنيين على السواء .

وزاد الأمر سوءا بالنسبة للكامل أن جماعات البدو والعربان انتهزت فرصة هذه الفوضى ، وأغارت على المناطق المحيطة بدمياط وخاصة قرى الدلتا ومدنها ، أو على حد تعبير ابن

---

(١٢) يأتى فى مقدمة هؤلاء المؤرخين أستاذنا الدكتور سعيد عاشور ، وقد فصل ذلك فى موسوعته «الحركة الصليبية» جـ٢ ص٩٧١-٩٧٣ ؛ والدكتور محمود سعيد عمران الذى بسط هذه الملابسات بوضوح كامل فى كتابه «الحملة الصليبية الخامسة» ، ص٢٢١-٢٣٦ .

(١٣) الدر المطلوب ، ص١٩٨-١٩٩ .

(١٤) السلوك ، جـ١ ص١٩٦ .

[illegible] نير[١٥] [illegible] على اختلاف قبائلهم ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الإفساد ، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج» !!

يضاف إلى ذلك أن الملك الكامل كان قد بعث إلى أخويه المعظم والأشرف يستدعيهما لنجدته ، وكذا فعل مع كل ملوك بنى أيوب فى الشام، ونقف من المصادر المعاصرة للأحداث أو القريبة منها كابن واصل[١٦] وابن العديم[١٧] وابن العماد الحنبلى[١٨] أن كتب الكامل ورسله كانت متواصلة إلى إخوته وغيرهم من الملوك فى طلب النجدة ، وحثهم على سرعة القدوم إلى مصر للوقوف إلى جواره دفاعا عن مصر ضد الصليبيين . ويبدو أن هذه النُّجد لم تصل إلى المعسكر الكاملى بالسرعة المطلوبة ، مما حدا بالكامل إلى سلوك مثل هذه السبيل ، أعنى عرض الصلح على الصليبيين أكثر من مرة ، والإلحاح على إخوته بضرورة القدوم إلى مصر للتصدى لهؤلاء الغزاة .

كانت هذه هى الحجج والأسانيد التى قدمها المؤرخون تبريرا لما أقدم عليه الملك الكامل فى المرة الأولى إبان الحملة الصليبية الخامسة ، وفى المرة الثانية عندما تم تسليم بيت المقدس إلى فردريك الثانى كان هناك أيضا الكثير من الظروف التى أحاطت بالملك الكامل ودفعته إلى توقيع اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩م ، وساق المؤرخون هذه الملابسات فى كتبهم[١٩] وبسطوها كل البسط ، وكان من أهم مظاهرها ذلك الخلاف العنيف الذى دب بين الكامل وأخويه الأشرف موسى والمعظم عيسى، والأخير بصفة خاصة ، وظهور خطر الخوارزمية نتيجة طبيعية لحركة المد المغولى فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى ، واقدام المعظم عيسى على الاستعانة بهؤلاء الخوارزمية للوقوف معه فى وجه أخيه الملك الكامل ، إضافة إلى ما بثه الامبراطور فردريك الثانى نفسه من توسلات واستعطاف لسلطان مصر لينعم عليه

---

(١٥) الكامل فى التاريخ جـ٩ حوادث سنة ٦١٤هـ .

(١٦) مفرج الكروب ، جـ٤ ص٢٣ ، ٣٣ .

(١٧) زبدة الحلب فى تاريخ حلب، جـ٣ ص١٨٦ .

(١٨) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ٥ ص٧٩ .

(١٩) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ص٩٩٧-١٠٠٠ ؛ وله أيضا ، الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى، المجلة التاريخية المصرية ، العدد الحادى عشر ١٩٦٣ ، ص٢٠٠-٢٠٢ .

بـ « قبضة البلد » يعنى القدس. ولم يجد فردريك حرجا مطلقا فى أن يصل بتوسلاته إلى حد الضراعة حين كتب إلى الكامل يقول : « أنا مملوكك وعتيقك ، وليس لى عما تأمره خروج، وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى، فإن رجعت خايبا انكسرت حرمتى بينهم ، وهذه القدس هى أصل اعتقادهم وضجرهم ، والمسلمون قد أخربوها ، فليس لها دخل طائل ، فإن رأى السلطان أن ينعم علىّ بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر »[٢٠].

وليس من الصعب أن ندرك للوهلة الأولى أن هذه المبررات التى قدمها المؤرخون المعاصرون والمحدثون للأحداث ، تدور فى إطار معالجة هذه الوقائع فى حد ذاتها بصورة جزئية ، أى تتناول كلا منها منفصلة عن الأخرى بعيدة عنها، وليس من خلال السياسة العامة للدولة الأيوبية من ناحية ، والصفات الشخصية للملك الكامل نفسه، وتلك المعالجة تهدف إلى البحث عن عذر أو تفسير لما أقدم عليه الملك الكامل ، انطلاقا من قاعدة أساسية فى هذه النظرة ، هى أن القدس كانت محور الأحداث كلها ، مع أن الدراسة المتأنية للنصوص المعاصرة ، تكشف بجلاء أن مصر فى المقام الأول كانت هى المحرك الأساسى والباعث الحق لكل ما أتاه الكامل من تصرفات مع الصليبيين، وأنها هى بالذات كانت بيت القصيد فى كل أعماله ، انطلاقا أيضا من إيمان يقينى رسخ عند سلاطين مصر جميعا والصليبيين أيضا ، يرتكز على بديهية لاشية فيها، لحمتها وسداها أن الطريق إلى القدس يبدأ من القاهرة ، وهذه النقطة بالذات هى جوهر ما نذهب إليه هنا فى هذا البحث . ولايعنى هذا أن المؤرخين لم يعرجوا على ما توقفنا نحن عنده، بل فعلوا ، ولكن من خلال تبيان الأطماع الصليبية فى مصر منذ الأيام الأولى لهذه الحملات .

لقد وجد الملك الكامل نفسه وقد ورث كرسى السلطنة الأيوبية وملك الديار المصرية فى ظروف بالغة التعقيد ؛ فالصليبيون يحتلون جيزة دمياط على الضفة الغربية للنيل قبالة

---

(٢٠) أورد ابن العماد الحنبلى (شذرات الذهب ، جـ٥ ص١١٨) هذه الرسالة مختصرة قليلا واختلاف يسير فى بعض العبارات ، مثل «إنى أكبر مغول الفرنج» بدلا من «أكبر ملوك البحر» ، و«هذه القدس هى أصل دين النصرانية» بدلا من «أصل اعتقادهم وضجوهم»، و«أنتم قد خربتموها» بدلا من «والمسلمون قد أخربوها» .

المدينة، وقد نجحوا فى الاستيلاء على برج السلسلة ، قفل الديار المصرية ، وهو ما كان له وقع الصاعقة على الملك العادل سيف الدين توفى على أثره ، وأخوا الكامل ، المعظم عيسى والأشرف موسى مشغولان بنفسيهما وملكهما عمن سواهما ، ويغبطان فى الوقت نفسه ، أخاهما على انفراده بحكم مصر ، والجبهة الداخلية فى مصر لم تكن آنذاك فى أحسن أحوالها من جراء تلك الأحداث ، زادها سوءا تآمر الهكارية الأكراد بزعامة عماد الدين بن المشطوب ، والملك الكامل بفطنة سياسية يتمتع بها ، كان يدرك تماما أن القدس وإن كانت لدى الصليبيين محط آمالهم وقبلة صلواتهم ، إلا أن مصر باتت لديهم منذ نهايات القرن الثانى عشر الميلادى وبواكير الثالث عشر، أكبر همهم وغاية سعيهم ، وما الحملة الصليبية الرابعة عن ذلك ببعيد ، فقد تشكلت منذ اليوم الأول لها بهدف القدوم إلى مصر ، وما كان توجهها تلقاء القسطنطينية إلا نتاج عوامل متنافرة لم يجمع بينها إلا العداء للعاصمة الإمبراطورية ، وشارك فى تحريكها البابوية والملكية الألمانية والأحوال السياسية الداخلية فى بيزنطة نفسها ولكن المحرك الأساسى والفاعل لما انتهت إليه كان البندقية ، الجمهورية التجارية الإيطالية ، التى رأت فى الاستيلاء على القسطنطينية تخلصا حقيقيا من منافس تجارى قوى لها فى حوض البحر المتوسط الشرقى، وحفاظا فى الوقت نفسه- إلى حين- على الامتيازات التجارية الواسعة التى كانت قد حصلت عليها فى مصر على عهد الملك العادل الأيوبى ، وتلك كانت مرحلة تكتيكية فى خطة البندقية الاستراتيجية للسيطرة التجارية الكاملة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط منفردة دون قرينتيها ، جنوه والقسطنطينية . لذا كان طبيعيا أن تكون البندقية على رأس الذين ظاهروا المندوب البابوى بلاجيوس فى رفض عروض الملك الكامل بالجلاء عن دمياط مقابل إعادة مملكة بيت المقدس القديمة إلى الوجود ، إذ كانت مصر هى المحطة التالية للبنادقة والصليبيين بعد القسطنطينية .

ويجب أن لايغيب عن أذهاننا أن فكرة الاستيلاء على مصر ، كانت هدفا سعى إليه الصليبيون منذ وطأت أقدامهم أرض الشام فى الحملة الأولى، وما فتئوا يعملون على تحقيقه على يد كل من بلدوين الأول البولونى Baldwin I of Boulogne وسميه الثانى ، وفولك الأنجوى Fulk of Anjou وعمورى الأول Amalaric I ملوك بيت المقدس على التوالى . ثم ازداد هذا الهدف رسوخا بعد أن تحطمت آمال الصليبيين فى حطين . وضاعت أحلامهم العراض مع فشل الحملة الصليبية الثالثة التى قادها أعظم ملوك أوروبا فى القرن الثانى عشر

الميلادى/ السادس الهجرى : فردريك الأول برباروسا Frederick I Barbarossa إمبراطور ألمانيا ، وريتشارد الأول- قلب الأسد- Richard I the Lion - Hearted ملك انجلترا ، وفيليب أوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا ، وكان ذلك كله بفضل جهود مصر العسكرية وامكاناتها الاقتصادية ، وقيادتها السياسية .

وهذه الحقيقة أدركها ملك انجلترا ، ريتشارد الأول ، بعد أن مكث فى بلاد الشام عامين بعد وفاة فردريك بربروسا ، ورحيل فيليب أوغسطس عائدا إلى بلاده ، ظل خلالهما فى صراع دائم أو مفاوضات متقطعة مع السلطان صلاح الدين الأيوبى، مما جعله يوقن أن مصر هى العدو الأساسى الخطر للمتلكات الصليبية فى بلاد الشام . ثم أبحر ريتشارد من عكا يريد بلاده فى الشهر التالى لعقد صلح الرملة الذى أبرمه مع صلاح الدين سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م ، وفى رأسه أن الطريق لاسترداد مملكة بيت المقدس المفقودة يبدأ أولا بمصر ، وقال بضرورة تنفيذ هذه الفكرة أكثر من واحد من رجاله قبل رحيلهم عن الشرق [٢١]. وشيئا فشيئا اتضحت صحة الفكرة التى تقدم بها ريتشارد ورجاله ، حتى نودى صراحة بضرورة ضرب مصر أولا، وأن هذه هى الطريقة الوحيدة لتخليص الأراضى المقدسة من هذا التهديد الدائم [٢٢].

ولم تغب هذه الأفكار التى دارت فى رءوس زعماء الصليبيين عن فطنة مؤرخ مثل ابن واصل الذى ذكر أن الصليبيين تشاوروا سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨م ، فأشار أصحاب الرأى والمشورة فيهم بضرورة مهاجمة مصر أولا ، حيث «إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك، وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها ؛ فالمصلحة أن نقصد مصر أولا ونملكها ، وحينئذ فلايبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد»[٢٣] إذا جاز لنا أن نقفز عبر أسوار الزمن لنصل فجأة إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، السابع الهجرى ، فإننا سوف نجد هذا المؤرخ النابه ابن واصل ، يردد هذه العبارات نفسها، أو هذا المعنى بحذافيره ، عند حديثه عن حوادث سنة ٦٤٧ والتى شهدت مقدم حملة

---

(٢١) محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر، القاهرة بدون تاريخ ، ص٣٥ .

(٢٢) هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا محمد، فى ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٨٥- ١٩٩٤ ، جـ٢ ص٣٧-٣٨ .

(٢٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ص٢٥٨ .

لويس التاسع ملك فرنسا إلى مصر ، قائدا للحملة الصليبية السابعة ، يقول : «فحدثته نفسه (يقصد لويس التاسع) بأن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج ... وعلم أن ذلك لايتم إلا بملك الديار المصرية» . وهذا القول وسابقه يذكرنا بما قاله صلاح الدين الأيوبى نفسه قبل ذلك بسنوات : «لما يسر الله لى الديار المصرية ، علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك فى نفسى» [٢٤]. ولعل ابن واصل يشير بعباراته هذه إلى تلك المناقشات التى دارت فى عكا بعد تكامل وصول القوات الصليبية من أوروبا ، وتمخضت هذه المشاورات عن ضرورة مهاجمة مصر للتخلص من هذا الصداع المستمر الذى يؤرق جفون الصليبيين فى الشرق وأوربا . ولم تكن هذه المناقشات سوى صدى لما دار فى مجمع اللاتيران الرابع الذى عقد فى عام ١٢١٥م تحت زعامة الباب إنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦) الذى يعد واحدا من أقوى بابوات العصور الوسطى جميعهم ، والذى تقرر فيه الاجماع على حتمية غزو مصر مباشرة ودون إبطاء ، للحفاظ على ما بقى من ممتلكات للصليبيين فى الشام، ولضرورة استرداد القدس ثانية ، وصدرت فيه المراسيم البابوية الشهيرة الخاصة بتوفير الموارد المالية اللازمة لتمويل هذه الحملة المقترحة إلى مصر [٢٥].

ولم يكن ريتشارد وأضرابه ، وإنوسنت الثالث وأمثاله ، وبلاجيوس وأشباهه ، وجان بريين وقرناؤه ، هم أول من تراءى لأعينهم تلك الأهمية الاستراتيجية لمصر ، بل إن ذلك كان ماثلا فى أذهان الصليبيين منذ الحملة الأولى ؛ فقد جرت عدة محاولات من جانب ملوك بيت المقدس مثل بلدوين الأول، وفولك الأنجوى، وبلدوين الثالث للاستيلاء على مصر ، سواء كان ذلك فى صورة حملات استطلاعية أو تهديدات سياسية ، مما يعنى أن مشروع غزو مصر كان قائما فى أذهان الصليبيين منذ قدومهم إلى الشام ، وربما قبل ذلك ، وليس أدل على هذا من أن «جودفرى دى بويون» Godfrey de Bouillon الذى كان أول من تولى حكم مملكة بيت المقدس الصليبية تحت اسم «حامى البيعة المقدسة» Advocatus Sancti Sepulchri كانت لديه أفكاره الطموحة وخططه التى وضعها لغزو مصر ضمن مشروعاته لتأمين مملكته ، إلا أن الأجل لم يمهله ، إذ لم يلبث أن توفى بعد أقل من عامين فقط من بداية عهده. وقد حمل

---

(٢٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، طبعة دار الكتب ، ص٤١ .

(٢٥) راجع الفصل الأول .

أفكاره هذه إلى حيز التنفيذ أخوه «بلدوين الأول» الذى خلفه على عرش المملكة ، فقام بحملة استطلاعية على حدود مصر الشرقية ، وتوغل فى بعض مناطقها ، إذ وصل إلى دير سانت كاترين فى سيناء ، ثم رحل عنه بعد رفض رهبان الدير استضافته ، حرصا على علاقتهم بخلفاء الفاطميين، وانتهى به المطاف إلى مدينة «تنيس» على بحيرة المنزلة ، بعد أن استولى على «الفرما» وأحرقها ودمر مساجدها على حد وصف المؤرخ «أبو المحاسن بن تغرى بردى»[٢٦] . وفى تنيس وقبل أن يصل إلى العريش، ألم به المرض ، ولم يلبث أن وافته المنية سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م ، وحمله أصحابه ليدفن فى بيت المقدس بعد أن أخرجوا أحشاءه ودفنوها فى تلك المنطقة التى مازالت تحمل اسم «البردويل» نسبة إليه، وتعرف بـ «سبخة البردويل» أو «السبخة» ، ويقال لها أيضا بحيرة البردويل [٢٧]. لتبقى عنوانا على هذه المحاولة الصليبية .

ولم يكن بلدوين الثالث أقل من سميه الأول تطلعا لضم مصر إلى حظيرة الصليبيين واستخدم فى ذلك وسائل الحصار الاقتصادى باتفاقه مع البيزاوية حوالى سنة ١١٥٦م على عدم نقل الأخشاب اللازمة لصناعة السفن، وكذا بعض الآلات الحربية إلى مصر . وفى عام ١١٦٠م انتهز فرصة مقتل الخليفة الفائز وما أعقب ذلك من اضطرابات داخلية ، إلى جانب الاصطراع بين الوزراء على السلطة ، فتقدم بقواته إلى العريش معتزما غزو مصر ، لكن الوزير طلائع بن رزيك تعهد له بدفع جزية سنوية مقدارها مائة وستون ألف دينار[٢٨] وهو مبلغ كبير كان كفيلا بإثقال كواهل المصريين من أجل سداده ، لولا أن شاءت العناية الإلهية موته فى العام التالى ١١٦٢م .

وحمل خليفته أملريك Amalaric أو «عمورى» كما يناديه المسلمون ، مهمة تحويل آمال الصليبيين وسعيهم لغزو مصر إلى حقيقة عملية ترجمها فى حملات عسكرية متتالية بين

---

(٢٦) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٥ ص١٧١ .

(٢٧) وتقع هذه المنطقة على شاطئ البحر المتوسط شرقى بورسعيد بحوالى تسعين كيلو مترا ، وتمتد فى المنطقة الواقعة شمال سكة حديد القنطرة والعريش ، بين محطتى بئر العبد والمزار. رابع أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص١٧١، حاشية ٤ .

(٢٨) السيد الباز العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ص٦٢٢ .

عامى ١١٦٣م و١١٦٩م وراح هو ونور الدين محمود أتابك دمشق يستبقان للسيادة على مصر ، فقد كان كل من الرجلين يدرك تماما أن مفتاح النصر أو النجاح لأى من القوتين ، الإسلامية أو الصليبية ، يوجد فى مصر، وأن وقوعها فى يد أحدهما فيه القضاء على الآخر .

وقد سجلت أقلام المؤرخين ، المسلمين واللاتين على السواء، هذه الناحية بكل الصراحة ؛ فهذا ابن الأثير[٢٩] يعبر عما يدور فى نفس عمورى بقول : «إنه خاف أن يملكها (يعنى مصر) أسد الدين (شيركوه قائد نور الدين محمود فى حملاته إلى مصر) فلايبقى للفرنج فى بلادهم مقام» ! ولم يهمل ابن الأثير كذلك هذه المشاعر عند أسد الدين شيركوه ، إذ يذكر أنه «بعد عوده منها (فى الحملة الأولى) لايزال يتحدث بها ويقصدها (أى الخروج إليها ثانية) ، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير» . ويؤكد أبو المحاسن هذا المعنى بقوله إن أسد الدين شيركوه قد رحل عن مصر «وهو فى غاية من القهر» [٣٠]، ولم يكن نور الدين محمود بأقل من الرجلين حرصا على امتلاك مصر . أما أبو شامة فيقول إن أسد الدين شيركوه ظل بعد عودته من مصر فى المرة الأولى « يحدث نفسه بقصدها ، حريصا على الدخول إليها والتشوق إلى ملكها »[٣١].

وبعد الخروج من مصر لكل من الجيشين الإسلامى والصليبى وعودتهما إلى الشام ، واعتزامهما بالطبع القدوم للمرة الثالثة ، راح أمراء الملك عمورى يتداولون الأمر بينهم ، وكان من بين ما جرى على ألسنتهم فى مجلس مشورتهم : «دعونا ننهض إلى مصر ، فنقوى بتلك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام » [٣٢]، ويلتقط عمورى الخيط من أمرائه ليضيف إلى قولهم هذا قوله : « ولئن تسلم نور الدين مصر ، ولئن صار فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنة وإجلاؤهم من أرض الشام »[٣٣] . وهذه العبارات التى فاه بها عمورى وشاركه فيها

---

(٢٩) الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٥٦٢هـ، ويقول فى كتابه «التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، ص١٤٣» ، «كان إفرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر، قد حاروا وأيقنوا بالهلاك ، وكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس».

(٣٠) النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص٣٤٨ .

(٣١) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ١ ص١٤٢ .

(٣٢) الأثير، الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين جـ١ ص١٥٤ .

(٣٣) ابن الأثير ، الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤هـ .

أمراؤه ، هى شهادة حق تدعم ما ذهبنا إليه منذ البداية من الأهمية الاسمى بالنسبة لمصر ، ولذا كانت دون أى تردد محور اهتمام الكامل وبؤرة فكره وخططه السياسية والعسكرية

ولم يكن غريبا أن نجد العبارات التى رددها المؤتمرون فى مجلس مشورة عموري، يقولها نور الدين محمود بالحرف الواحد لقائده اسد الدين شيركوه ، مع اختلاف المقصد ، يقول : «إننا إن أهملنا أمر مصر ملكها الفرنج، ولايبقى معهم مقام بالشام ولاغيره » [٣٤]. ولندع القلم الآن للمؤرخ الصليبى وليم الصورى ليحدثنا عما انتاب الصليبيين من غم وحزن بعد ضياع مصر من أيديهم ، يقول « اننى حيثما قلبت ناظرىّ لم أر إلا ما يدعوا للفزع والاضطراب ، لقد أصبح باستطاعة نور الدين أن يخرج من مصر بأسطول ضخم وأن يحاصرنا بصورة فعلية ، بل ويفرض حصاره على جميع مدننا الساحلية ... لقد أمسى موقفنا من الناحية العملية غاية فى السوء ، لقد انقلب الحال رأسا على عقب وتغير كل شئ إلى ما هو أسوأ » ، ثم راح وليم الصورى يردد ما قاله إرميا فى مراثيه «كيف اكْدَرَّ الذهب ، تغير الابريز الجيد» ، ويعيد نجوى أيوب : «صار عودى للنواح ، ومزمارى صوت الباكين»[٣٥].

لم يكن الكامل بغافل إذن عن كل ما يدور حوله - على هذا النحو - فى الداخل أو الخارج، ومن ثم بنى خططه السياسية والعسكرية فى ضوء هذه الاعتبارات ، واضعا نصب عينيه الحفاظ على مصر من الوقوع فى أيدى الصليبيين ، وإذا ما ضاعت الأطراف وبقى القلب سليما معافى ، أمكن للقلب استعادة هذه الأطراف ، أما إذا حدث عكس ذلك فهو بعينه الخسران المبين للمركز والدائرة ، يقول ابن واصل معبرا عن ذلك بكلمات دقيقة فى موضعها : «لما مات والده (يعنى العادل) خشى (الكامل) أن يتخلى عنه إخوته ولايطيق دفع الفرنج عن الديار المصرية، وفى ملكهم لها بوار الإسلام بالكلية» ، ويضيف فى موضع آخر بعد أن تمكن الصليبيون من الاستيلاء على دمياط : «واشتد طمع الفرنج حينئذ فى ملك الديار المصرية ، وظنوا أنهم يملكون بملكها البيت المقدس وسائر بلاد الشام » [٣٦].

---

(٣٤) ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ص١٦٠ .

(٣٥) وليم الصورى ، أعمال الفرنجة فيما وراء البحر، نقله إلى العربية فى أربعة أجزاء دكتور حسن حبشى ، تحت عنوان الحروب الصليبية، جـ٤ ص١١٢-١١٣؛ مراثى إرميا ٤ / ١ ؛ أيوب ٣٠ / ٣١ .

(٣٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ص١٥ ، ٣٣ .

وليس الكامل وحده هو الذى آمن بهذه الحقيقة، بل شاركه إيمانه هذا الناس أجمعون وفى مقدمتهم ملوك وأمراء بنى أيوب فى الشام، وعبّر عن ذلك سلوك الأشرف موسى حين اعتذر إلى الخليفة العباسى عن عدم استجابته لطلبه بالقدوم إليه بعساكره للمشاركة فى التصدى للمغول، لأنه فى شغل بمصر عن غيرها، وأنه ذاهب لنجدة أخيه الكامل حتى لاتقع مصر فى أيدى الصليبيين (٣٧)، بل إن الأشرف رفض الاستماع إلى نصيحة بعض خواصه بالاكتفاء بأرسال العساكر إلى مصر والبقاء هو فى دياره خوفا من حدوث الفتن والاضطرابات أثناء غيابه، وكان جوابه أنه خرج إلى مصر «بنية الجهاد ولابد من إتمام هذا العزم» (٣٨)، ويتكرر موقف الأشرف بعينه تجاه الخليفة العباسى مع جماعات الكرج عندما كتبوا إليه ليعينهم على التصدى للمغول، ولانجد هنا أفضل من ترك القلم للمؤرخ المعاصر ابن واصل ليؤكد كل ما ذهبنا إليه، يقول: «... فوصلت رسلهم (أى الكرج) إلى الملك الأشرف وهو يتجهز للمسير إلى نجدة أخيه السلطان الملك الكامل، ليدفع الفرنج عن الديار المصرية، وكان ذلك عنده من أهم الوجوه، لأمور: أحدها أن الفرنج ملكوا ثغر دمياط، وقد أشرفت الديار المصرية على أن تُملك، ولو مُلكت لم يبق بالشام ولاغيره معهم مُلك لأحد. وثانيها، أن الفرنج أشد شكيمة من التتار، وطالبوا مُلكٍ وإقامة ملة (لاحظ هذه الملاحظة الذكية لابن واصل)، وإذا ملكوا قرية لايفارقونها إلا بعد العجز عن حفظها يوما واحدا. وثالثها، أن الفرنج قد طمعوا فى كرسى مملكة البيت الأيوبى؛ وهو مصر، والتتار لم يجاوزوا بلاد العجم، وليس غرضهم إلا النهب والقتل وتخريب البلاد، والانتقال من بلد إلى آخر» (٣٩) (لاحظ هنا أيضا استكمال الملاحظة السابقة)، وما يقوله ابن واصل هنا لايحتاج لأى تعليق سوى التركيز على عبارته «إن دفع الفرنجة عن الديار المصرية هو من أهم الوجوه». ويؤكد المقريزى (٤٠) هذا المعنى عندما يحدثنا عن الرسائل التى بعث بها السلطان إلى الآفاق «تستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج، وتستحثهم على إنقاذ المسلمين وإغاثتهم، وتخوفهم من تغلب الفرنج على مصر، فأنه متى ملكوها لايمتنع عليهم شئ من الممالك بعدها».

---

(٣٧) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٦١٧هـ.

(٣٨) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤ ص٩٣.

(٣٩) المصدر السابق، ص٩٠.

(٤٠) السلوك، جـ١ ص١٩٥.

وإذا كانت تلك مشاعر الأشرف موسى وجهوده التى لم تقف عند هذا الحد ، بل تعدتها إلى قدومه بنفسه إلى مصر بقواته للوقوف إلى جوار أخيه جهادا ضد الصليبيين ، فإن المعظم عيسى لم يكن أقل منه حماسة فى هذا المجال ، فقد شخص إلى مصر وقبض على عماد الدين ابن المشطوب ، ونفاه إلى أعالى الشام، وخلص أخاه من شر تآمره ، ووقف يؤازر الكامل بقواته لطرد الصليبيين ، خاصة وقد راحت أعداد هؤلاء تزداد بصورة واضحة بعد سقوط مدينة دمياط فى أيديهم ، إذ يخبرنا ابن واصل[٤١] أن «الفرنج الذين هم داخل البحر لما بلغهم مُلك إخوانهم ثغر دمياط وتمكنهم من الديار المصرية ، ساروا إلى مصر مجدّين واتخذوا مصر دار هجرتهم ، وقدم منهم إلى دمياط أمم لاتحصى». هذا إضافة إلى أن المعظم كان قد أقدم من قبل على هدم أسوار بيت المقدس مخافة أن يستولى الصليبيون على المدينة فيتحصنوا بهذه الأسوار [٤٢].

هكذا بنى الكامل استراتيجيته على أساس أن تظل مصر آمنة بمنأى عن الوقوع فى أيدى هؤلاء الصليبيين، محتفظة بقدرتها العسكرية وقوتها السياسية حتى يمكنها أن تستمر زعيمة لحركة الجهاد ، ولم يكن التلويح بتسليم القدس للصليبيين واحياء مملكة بيت المقدس لتعود إلى ما كانت عليه حدودها قبل حطين ، إلا مناورة تكتيكية فقط لاتذهب أبعد من ذلك مطلقا، وكان هذا واضحا تماما لأعين أخوى الكامل وأمراء البيت الأيوبى فى الشام، وماثلا بصورة لاتقبل الشك لدى المؤرخين المعاصرين آنذاك. يقول ابن واصل : «**كان الملك الكامل رحمه الله يعلم أن الفرنج لايمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره ، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له ، كان متمكنا من تطهيره من الفرنج واخراجهم منه**» !! ويضيف «**رأى الكامل أن يرضى الفرنج بمدينة القدس خرابا ويهادنهم مرة ، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء**»!! [٤٣]. ولابد لمن يقرأ هذه العبارات أن يتوقف طويلا عند الثقة المطلقة التى يتحدث بها ابن واصل معبرا عن سياسة السلطان ، والعبارة الأخيرة بصفة خاصة تدعم تماما الرأى الذى نذهب إليه .

---

(٤١) مفرج الكروب ، جـ٤ ص٩٣ ؛ راجع أيضا ، إبن الأثير ، الكامل ، حوادث سنة ٦١٤هـ.

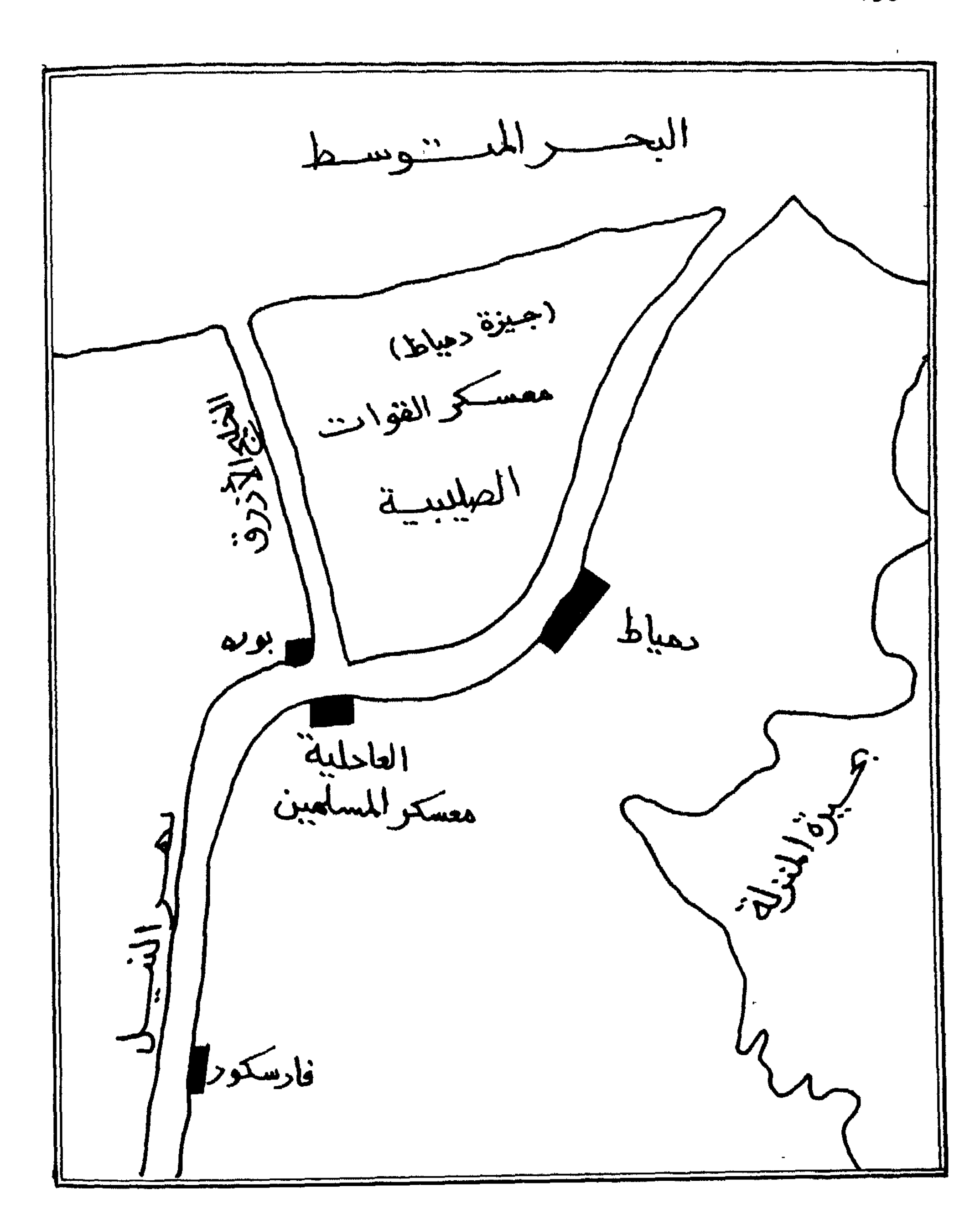
(٤٢) ابن أيبك ، الدر المطلوب ، ص٢٠٢ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب، جـ٥ ص٦٥-٦٦ .

(٤٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ص٢٤٣ . وهذا النص الذى أوردناه هنا عن ابن واصل ، جاء =

ويشئ من التدبر للخطوات التى خطاها الكامل فى المجالين العسكرى والدبلوماسى ، ندرك أن الرجل كان يحسب للأمر حساباته بدقة متناهية ، تنم فعلا عن دهاء سياسى كما حدّث عنه ابن واصل ومعاصروه ، وأن عروضه المتكررة للصلح لم تكن خبط عشواء ، بل كانت بقدرٍ معلوم : فما أن وقع برج السلسلة فى أيدى الصليبيين ، وقطعت المآصر الحديدية التى تعترض مجرى النيل عند فمه ، حتى بادر الكامل بأقامة جسر كبير يمتد بعرض النيل جنوبى برج السلسلة ، عوضا عن البرج والمآصر ليحول دون دخول مراكب الصليبيين فى مجرى النهر ، غير أن الصليبيين لم يزالوا بهذا الجسر حتى قطعوه وحطموه رغم المقاومة العنيفة والقتال الشديد الذى أبداه الكامل للحفاظ عليه ، فلما تم للصليبيين ذلك عمد السلطان إلى مجموعة من السفن فأغرقها حتى تعترض طريق سفنهم ، بديلا عن السلاسل التى قُطعت والجسر الذى تحطم ، وليس أدل على حرص الكامل على الجهاد من هذا الذى أقدم عليه لمنع زحف الصليبيين جنوبا باتجاه القاهرة ، بل إن المقريزى(٤٤) يذكر أن الأموال التى أنفقها السلطان على تحصين البرج قبل سقوطه ، والجسر الذى أقامه ، بلغت سبعين ألف دينار، وهذا مبلغ ضخم جدا إذا قيس بمعايير تلك الفترة ، وللمرة الثالثة تحايل الصليبيون على ما دبره الكامل، فاتجهوا إلى الخليج الأزرق الذى كان واحدا من فروع النيل القديمة ، ويصل بين النيل والبحر المتوسط، وكان قد طُمر بعض الشئ ، فأقدموا على حفره وتعميقه حتى يمكنهم تسيير دفة سفنهم فيه بين البحر والنيل. تفاديا للحواجز والعوائق التى أقامها السلطان فى مجرى النهر ، وقد نجحوا فى ذلك فعلا، وواصلوا حفرهم إلى بداية الخليج القديمة عند قرية «بورة» على رأس المثلث الذى تشكله جيزة دمياط ، فأصبحوا بذلك فى مواجهة معسكر العادلية الذى يعسكر فيه الكامل قبل ارتداده عنه فى أعقاب مؤامرة ابن المشطوب . ولم يقف الأمر بالسلطان عند هذه الجهود الدفاعية فقط، بل أقدم فى أكتوبر ١٢١٨م / ٦١٥هـ ، أى بعد أربعة شهور فقط من عبور النهر وشن هجوم مباغت على المعسكر الصليبى فى جيزة دمياط ، وإذا كان هذا

= ذكره لديه عندما قامت الدنيا ولم تقعد بسبب تسليم الكامل القدس لفردريك الثانى بعد ذلك ، بمقتضى اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩م ، وهو ينسحب بالطبع ، دون أى افتعال ، على ما نحن بصدده الآن، ما دمنا نناقش قضية واحدة هى التلويح بتسليم القدس أو تسليمها بالفعل للصليبيين.

(٤٤) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ١ ص٢١٦ .



مواقع قوات الجيش المصرى والصليبى قبل سقوط دمياط نقلا عن

«محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية الخامسة»

الهجوم لم يحقق نجاحا معينا ، إلا أنه كان محاولة لشغل الصليبيين عن التمكين لأنفسهم فى المنطقة التى نزلوا بها غربى النيل، وتكرر هذا الهجوم ثانية من جانب سلطان مصر فى أغسطس ١٢١٩م / ٦١٦هـ ، وكان فى هذه المرة أقسى من سابقه .

ووسط هذه الجهود الدفاعية والمناوشات الهجومية ، سلك الملك الكامل الطريق الآخر، نعنى فتح باب المفاوضات مع الصليبيين، فى محاولة للتوصل إلى حل عن طريق الدبلوماسية ، فتقدم بعرضه الأول خلال الأسبوعين الأولين من مارس ١٢١٩م / ٦١٦هـ وبعد شهر واحد فقط من استيلاء الصليبيين على معسكر العادلية ، بعد انسحاب الكامل منه على إثر التآمر الذى دبره عماد الدين بن المشطوب . ومن الجدير بالذكر أيضا التأكيد على أن المعظم عيسى كان قد وصل لتوه إلى مصر آنذاك استجابة لنداءات أخيه المتتالية لمؤازرته فى هذا الموقف العصيب ، ومن ثم فليس هناك شك فى أن الكامل قد أطلع أخاه المعظم على نيته بعرض الصلح وأهم بنود هذا العرض .

ومن الخطأ القول إن العرض تضمن تسليم الصليبيين مدينة بيت المقدس وكل «الفتوح الصلاحى» فى مقابل الجلاء عن دمياط ، فلم يكن الصليبيون قد استولوا بعد على دمياط، وإنما كانوا فقط قد بدأوا فى تطويقها وفرض الحصار عليها ، ومن المعلوم أن المدينة ظلت صامدة لهذا الحصار على امتداد تسعة أشهر كاملة ، ومن ثم لابد أن تكون شروط الصلح قد تضمنت دعوة الصليبيين للجلاء عن الديار المصرية، بتعبير أدق، عن المناطق التى احتلوها بالفعل وهى جيزة دمياط والعادلية ، ورفع الحصار عن دمياط . وتجدد عرض هذا الصلح مرة ثانية فى أغسطس من العام نفسه (١٢١٩م) ، فى أعقاب هجوم الكامل على المعسكر الصليبى، وأضيف إلى شروط هذا العرض هذه المرة ، طلب الصليبيين دفع مبلغ ثلاثمائة ألف دينار لأصلاح أسوار بيت المقدس التى كان الملك المعظم عيسى قد أقدم على هدمها حتى لايفيد منها الصليبيون إذا وقعت المدينة فى أيديهم ، وهو ما أشرنا إليه قبلا [٤٥].

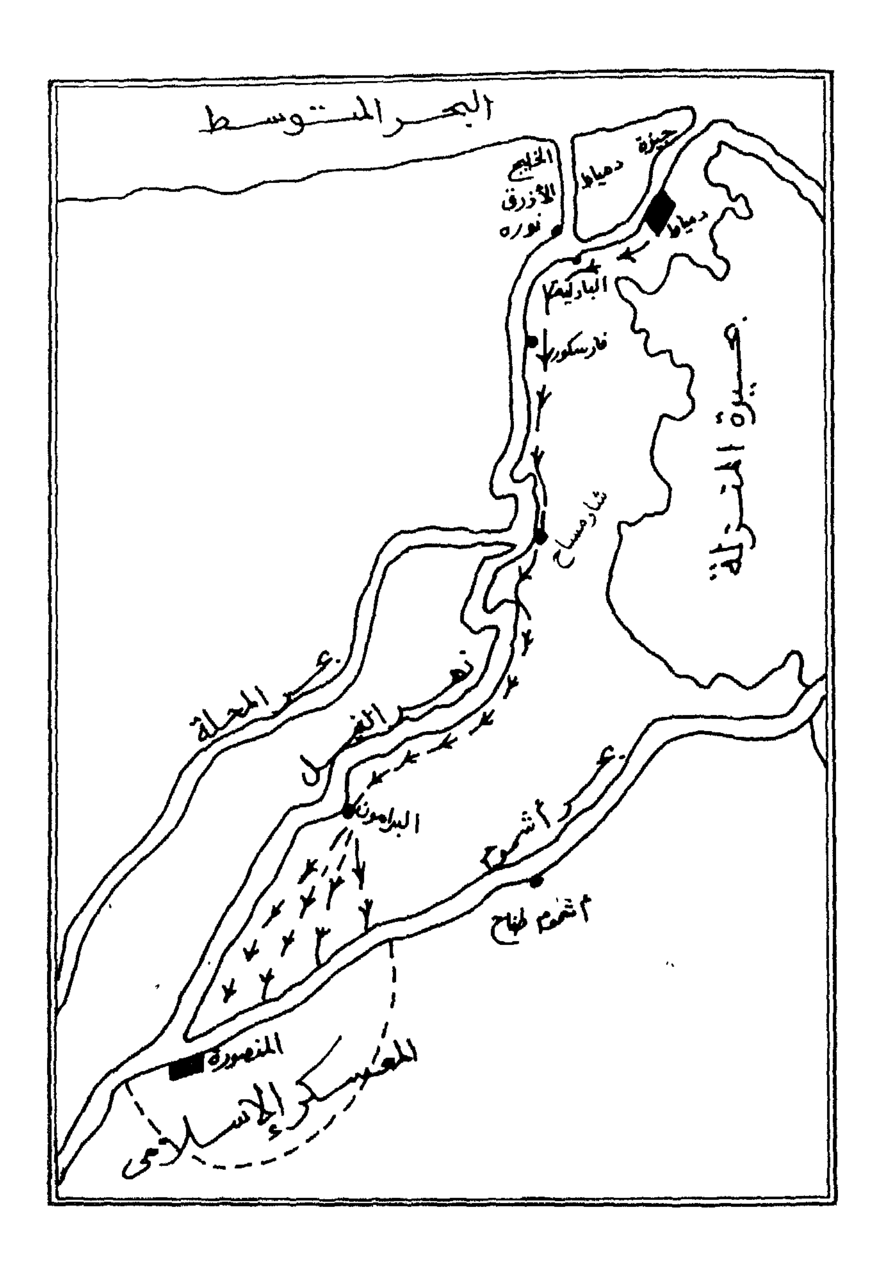
وقبيل سقوط دمياط مباشرة فى يد الصليبيين ، وهو ما حدث فى الخامس من نوفمبر ١٢١٩ (٢٥شعبان ٦١٦هـ) ، تقدم الملك الكامل للمرة الثالثة يعرض الصلح على الصليبيين ،

---

(٤٥) ناقش الدكتور محمود سعيد عمران مسألة تواريخ هذه العروض التى تقدم بها الكامل مناقشة مستفيضة فى كتابه «الحملة الصليبية الخامسة» الفصل الخامس، لذا يفضل الرجوع إلى هذا الكتاب لمن أراد المزيد .

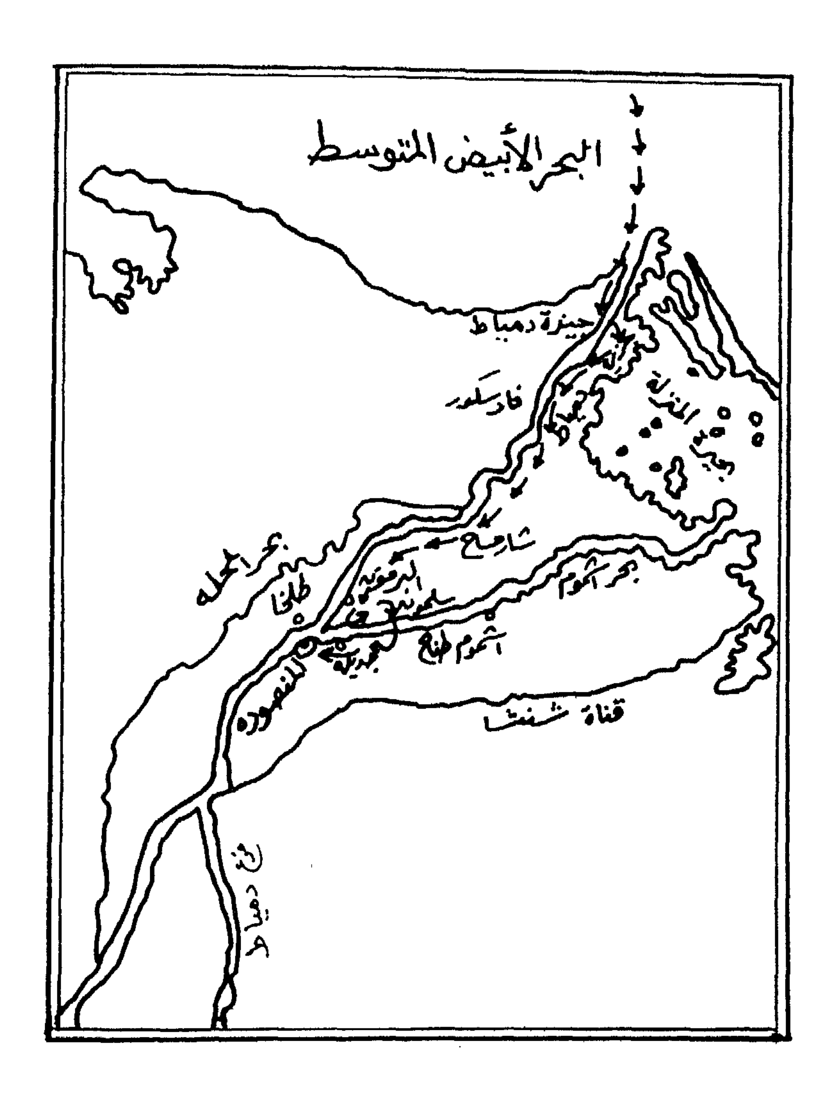
وعاد هؤلاء أيضا يقفون من العرض بين مؤيد يتزعمه الملك جان دى برين، ومعارض يقود خطوه المندوب البابوى بلاجيوس ، وكانت النتيجة المحتومة فشل المفاوضات هذه المرة أيضا كما فشلت سابقا . وبسقوط المدينة أقام الصليبيون فيها عامين كاملين فى نوع غريب من الاسترخاء العسكرى ، وآمنوا أنهم باستيلائهم على دمياط قد ملكوا مفتاح الديار المصرية ، وأن القاهرة قد أمست قاب قوسين أو أدنى من أيديهم ، وأن مملكة بيت المقدس آتية لاريب فيها !! حتى إذا كانت بدايات النصف الثانى من يوليو ١٢٢١م / ٦١٨هـ وأخذت القوات الصليبية تتحرك باتجاه الجنوب تبتغى القاهرة ، أسرع الكامل للمرة الأخيرة يعرض الصلح على الزاحفين ، ويعدهم بتسليم مدينة بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية ، وجميع «الفتوح الصلاحى» وثلاثمائة ألف دينار لإصلاح أسوار بيت المقدس ، ويزيدهم من فضله التعهد بأعادة «صليب الصلبوت» أو «الصليب الأعظم» الذى تردد الروايات المسيحية أنه هو الذى شهد تعليق المسيح عليه !! وإذا كانت العروض السابقة كلها قد لقيت الرفض خاصة من جانب بلاجيوس وشيعته ، فقد كان من المنطقى أن يتم رفض هذا العرض أيضا ، ولم لا وقد آنس الصليبيون من أنفسهم قوة وهم يرون زحوفهم تقترب من المعسكر الكاملى فى المنصورة ، وإن هى إلا جولة أو بعض جولة ثم يجدون أنفسهم فى القاهرة !!

وطوال هذين العامين (١٢١٩-١٢٢١م) / (٦١٦هـ - ٦١٨هـ) لم يقف الكامل مكتوف اليدين ، بل ظل مرابطا للجهاد ، مثابرا على مناوشة الصليبيين فى دمياط وحولها من المناطق فيما يمكن أن نسميه بتعبيرنا الحديث «حرب الاستنزاف» حتى لايهدأ للصليبيين بال أو تقر لهم عين . ولعل أوضح الأمثلة على ذلك قيام الكامل باختيار موضع استراتيجى ممتاز لإقامة معسكره فيه بعد ارتداده من العادلية وتخليه عن فكرة الإقامة فى فارسكور ، وهو موضع يقع إلى الجنوب من فارسكور شرقى دمياط، فسيح معتدل الهواء مثلث الشكل تقريبا بين بحر أشموم والشاطئ الشرقى للنيل ، قبالة قرية اسمها «جوجر» إحدى قرى طلخا حاليا . وليس أفضل هنا من أن أترك القلم لأستاذنا الدكتور محمد مصطفى زيادة ليسجل بنفسه «عبقرية المكان» الذى اختاره الكامل وهيئة قيادته ، يقول : «... كان طبيعيا أن يختار السلطان الكامل هذا الموضع الفضاء الفسيح لمعسكره الجديد، لا اعتباطا أو خبط عشواء، بل بناء على اعتبارات استراتيجية واضحة الأهمية لأغراض السلطان الحربية ضد الحملة الصليبية التى باتت مسيطرة على دمياط وتستعد للزحف إلى القاهرة . ويبدو أن اختيار هذا المكان قد استقر



موقع المدينة الجديدة «المنصورة» واتجاه قوات الحملة الصليبية الخامسة إليها

«نقلا عن . محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة»



خط سير الحملة الصليبية الخامسة باتجاه المنصورة

«نقلا عن محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر»

فى ذهن الكامل قبل ذلك عند انتقاله من العادلية إلى فارسكور ، فأودعه فى حساب خططه العسكرية المستقبلية . وكان من بين الاعتبارات الاستراتيجية أن هذا الموضع حصين بضلعين مائيين هما البحر الصغير وفرع دمياط ، ومن ثم فلاتستطيع الحملة الصليبية أن تصل إليه برا إلا بعد عبور البحر الصغير الذى يعرف بشدة انحدار جانبيه وسرعة تياره ، كما لاتستطيع أن تصل إليه عن طريق النيل إلا بأسطول نهرى طويل لابد أن يبعد عن قواعده ، ثم إن هذا الموضع تنتهى عنده أقصر مسافة لوصول النجدات الأيوبية المنتظر قدومها من الشام عبر شبه جزيرة سيناء والأطراف الشرقية المصرية ، كما أنه قريب من طريق البريد والمواصلات الرئيسية إلى القاهرة ، فضلا عن قربه من ميناء سمنود ذات الصوارى والسفن النيلية التجارية الكثيرة، والمحاصيل الزراعية الوفيرة ، والمركز الجغرافى الواصل بين بلاد الدلتا . وهكذا يتضح أنه لم يكن فى الإمكان أحسن مما كان من اختيار السلطان الكامل لهذا الموضع لنقل معسكره إليه . وليس أدل على حسن هذا الاختيار من مجموعة الحوادث التى جرت فى مسالكها، ودونت حركات الحملة الصليبية غداة زحفها من دمياط ، وسجلت أوصاف النشأة الأولى لمدينة المنصورة الحالية»[٤٦].

لقد كان هذا الموضع الذى اختارته القيادة العسكرية السياسية فى مصر لإقامة معسكرها فيه ، هو الذى عرف فيما بعد باسم «المنصورة» ، وكانت إقامة المعسكر هناك هى النواة الأولى لميلاد هذه المدينة، التى قدر لها أن تحقق شهرة واسعة فى التاريخ الأيوبى ، خاصة فى الحملة الصليبية السابعة التى قادها لويس التاسع ملك فرنسا من بعد إلى مصر . ويقول مؤرخنا المقريزى[٤٧] «هذه البلدة على رأس بحر أشموم تجاه طلخا، بناها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ... فى سنة ست عشرة وستمائة، (٦١٦هـ / ١٢١٩م) عندما ملك الفرنج مدينة دمياط ، فنزل فى موضع هذه البلدة وخيم به وبنى قصرا لسكناه ، وأمر من معه من الأمراء والعساكر بالبناء فُبنى هناك عدة دور ونصبت الأسواق ، وأدار عليها سورا مما يلى البحر (النيل) وستره بالآلات الحربية و الستائر (الدفاعات) ، وتسمى هذه المنزلة «المدينة المنصورة» ، ولم يزل بها حتى استرجع مدينة دمياط».

---

(٤٦) محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر، ص٥٤ .

(٤٧) الخطط، جـ١ ص٢٣١ .

هكذا استغل الكامل فترة «الاسترخاء العسكرى» الصليبى فى دمياط طيلة العشرين شهرا التى أمضاها الصليبيون فى المدينة بعد سقوطها فى أيديهم (الخامس من نوفمبر ١٢١٩م) وحتى بداية زحفهم جنوبا باتجاه القاهرة (السابع عشر من يوليو ١٢٢١م) ، وأخذ فى تحصين هذا «المعسكر» الجديد الذى نزل فيه ، وإقامة الاستحكامات الدفاعية اللازمة لمواجهة الهجوم الصليبى المتوقع ، إضافة إلى ما ذكرناه لتونا عن المناوشات التى كانت قواته تقوم بها لإرهاق الصليبيين ، ويكفى أن نرجع فقط إلى صفحات المؤرخ المعاصر ابن واصل لنجده يستفتح سنوات تأريخه لهذه الفترة وتلك الأحداث بعبارة واحدة تعنى قيام الملك الكامل بواجباته العسكرية خير قيام ، فيقول مؤرخنا مثلا ، «واستمر الملك الكامل إلى آخر هذه السنة (٦١٥هـ / ١٢١٨م) محاربا للفرنج منازلا لهم » ؛ وفى موضع آخر يقول ، «ودخلت سنة ٦١٦ هـ والملك الكامل صاحب مصر فى مقابلة الفرنج ومحاربتهم » ؛ ويضيف ضمن أحداث هذه السنة ، «وحين جرى هذا الأمر الفظيع (استيلاء الصليبيين على دمياط) ابتنى الكامل مدينة وسماها المنصورة ... ونزل فيها بعساكره وبنى عليها شورا على بحر النيل» ؛ «ودخلت سنة سبع عشرة وستمائة والسلطان الملك الكامل مستقر فى المنصورة ، مرابط لجهاد الفرنج»[٤٨].

وإلى جانب هذا الجهد العسكرى الذى بذله الكامل، نجده يسلك طريقا جادا آخر منذ اليوم الأول لتوليه مسئولية الحكم فى مصر ، وذلك عن طريق إشراك أبناء البيت الأيوبى وأمراء المسلمين بالشام فى مسئولية الدفاع عن مصر باعتبارها زعيمة حركة الجهاد آنذاك والسند والمحرك الأساسى لها ضد الصليبيين ، وكان الكامل شديد الإلحاح فى طلب النجدة والعون من أمراء المسلمين عامة ، والبيت الأيوبى وأخويه المعظم والأشرف بوجه خاص . وتطالعنا افتتاحيات السنوات عند ابن واصل بهذه العبارة ، «واصل السلطان الملك الكامل كتبه إلى إخوته وأهل بيته يحثهم على سرعة الحركة ، والقدوم إليه فى العساكر (الإسلامية) لدفع العدو عن مصر ». وكانت نتيجة ذلك فى نهاية الأمر أن «خرج الملك الناصر (ابن المنصور) من حماة فى عساكره، ولقى خاله الملك الأشرف وانضوى إليه ، وخرج إليه أيضا الملك المجاهد (صاحب حمص) أسد الدين شيركوه ، والملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه ابن فرخشاه (صاحب بعلبك)

---

(٤٨) ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٤ ص١٩ ، ٢٣ ، ٣٣ ، ٧٠ .

في عساكرهما . ثم سار الملك الأشرف وأخوه الملك المعظم ومن انضاف إليهما من العساكر المذكورة إلى الديار المصرية نجدة الملك الكامل على الفرنج»[٤٩]. وهكذا لم يتوان أيضا أبناء البيت الأيوبى عن القدوم إلى مصر لعلمهم أهميتها بالنسبة لهم والعالم الإسلامى جميعه، لأن «فى ملك الصليبيين لها- كما يقول ابن واصل- بوار الإسلام بالكلية».

ترى .. هل يمكن أن يقال عن رجل مثل الملك الكامل أخذ على عاتقه منذ تولى زمام الأمور فى مصر بعد استيلاء رجال الحملة الصليبية الخامسة على برج السلسلة ، مهمة الجهاد متمثلة فى حرب استنزاف طويلة ، وتشييد معسكر المنصورة ، ومواصلة المراسلات طلبا للنجدة من إخوته وأقربائه وآل بيته، وسط ظروف غاية فى التعقيد ، سافرة أو مستترة ، تتبدى فى مؤامرة أحد القادة العسكريين وجماعته الأكراد، وهجمات البدو والعربان على الدلتا ، وانخفاض النيل وظهور بوادر الأزمة الاقتصادية، ووصول صدى دقات طبول المغول الزاحفين غربا بهمة لاتعرف الكلل أو الرحمة . نقول .. هل يمكن أن يقال عن رجل هذا شأنه أنه قد ألح فى عرض الصلح على الصليبيين إلى حد «الإفراط» فى هذا العرض ، دون أن يكون فى رأسه تكتيكا عسكريا وبعدا استراتيجيا يسعى إليه و«يرابط» من أجله ؟

ولعل خير إجابة على هذا التساؤل ما قال به المؤرخ الصليبى المعاصر لأحداث هذه الحملة «جاك دى ڤترى» Jacques de Vitry ، معبرا عما يدور فى ذهن عدد من زعماء الصليبيين آنذاك ، خاصة المندوب البابوى بلاجيوس ، القائد الفعلى للحملة ، وصاحب الموقف الرافض أبدا لكل عروض الكامل، إذ كان يعتقد تماما أن سلطان مصر لم يكن خالص النية فى عرضه ذاك ، بل إنه يهدف من وراء ذلك إلى بذر بذور الشقاق بين صفوف القوات الصليبية [٥٠]. وقد يكون من المنطقى أن نصدق «ڤترى» فيما يذهب إليه ولكن بدءاً من العرض الثانى للصلح وما تلاه ، بعد ما رآه من حدوث الخلاف فعلا بين قادة الحملة ، أما فى المرة الأولى فإن ذلك يعد مستبعدا لأن الكامل كان يخاطب فيما يتصور قيادة واحدة للحملة هى الملك چان دى برين، أما وقد دب النزاع فعلا بين الملك والمندوب البابوى ، فإنه يصبح من الذكاء السياسى تعميق هوة ذلك الشقاق بين الرجلين ، كوسيلة من وسائل تحقيق أكبر قدر ممكن من الفشل لهذه

---

(٤٩) المصدر السابق ، حـ٤ ص٩٣ .

(٥٠) راجع فى ذلك ، محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة ، ص٢٧٠- ٢٧١ .

الحملة . ولايمكن أن ننكر أبدا أن هذه السياسة التى «أفرط» الملك الكامل فى اتباعها قد آتت أكلها فيما آل إليه أمر الحملة الخامسة فى النهاية .

لقد وقف جان دى برين وأنصاره من الأمراء الصليبيين فى الشام فرحين بما عرضه الملك الكامل ، ولعبت المصالح الخاصة لدى الفريقين دورا كبيرا إن لم يكن الدور كله فى عناد كل منهم واصراره على موقفه . ولعب الملك الكامل بدهاء سياسى على هذا الوتر لمصلحة مصر فى المقام الأول ، ولعله من المفضل أن نتوقف هنا قليلا لنجلو حقيقة الأمر ونفسر بدقة موقف الكامل رغم كل ما قيل عن الظروف التى أحاطت به ودفعته لتجديد عرض الصلح أكثر من مرة .

فالحملة الخامسة كانت تضم بين قواتها بصفة أساسية رجالا من المدن التجارية الإيطالية ، البندقية وجنوة وبيزا ، وهؤلاء جميعا لم يكن لهم هدف من هذه الحروب الصليبية إلا تحقيق أكبر قدر من الأرباح التجارية والمكاسب المادية ، وهم يعلنون ذلك صراحة ودون مواربة ؛ فالبنادقة يرفعون شعارا واضحا أنهم «بنادقة أولا وصليبيون ثانيا » !! أما الجنوية، «فجنوية أولا وعاشرا » ولايرد للصليبية عندهم ذكر إلا بالقدر الذى يحقق لهم النفع الاقتصادى، وكذا كان البيزاوية. ومن ثم فالاستيلاء على دمياط ، الميناء التجارى الهام شرقى البحر المتوسط، والقريب من الممتلكات الصليبية فى الشام، وبسط السيادة على مصر من بعد ، وهذه المسألة الأخيرة بدت لهم شيئا قريب المنال بفعل وصول الكثير من النجدات إليهم قادمة من الشام أو أوروبا، وتكرار عرض الصلح من جانب سلطان مصر ، وكان هذا كله يعنى لهم صفقة رابحة لاتعدلها صفقة أخرى ولاحتى سقوط القسطنطينية نفسها على أيدى صليبيى الحملة الرابعة والبنادقة بصفة خاصة، فمصر ملتقى الطرق التجارية الرئيسية القادمة من مناطق شرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، ولها السيادة على البحر الأحمر من مدخله حتى منتهاه ، إضافة إلى ما تتمتع به هى فى حد ذاتها من الثراء والرخاء الاقتصادى، فكيف إذن لايسيل لعاب التجار الإيطاليين أمام كل ذلك وقد تخيلوها الآن فى قبضة أيديهم ؟!

ولعل نظرة إلى الشروط التى كانت تضعها هذه المدن التجارية الإيطالية مقابل نقل الصليبيين على سفنها من أوروبا إلى سواحل بلاد الشام، كضرورة إقامة أحياء تجارية خاصة بهم فى الموانئ التى يستولون عليها ، بل وتخصيص مدن كاملة لهم فى بعض الأحيان مثل «جبيل» واعفاء تجارتهم من الضرائب والمكوس الجمركية ، ومعاملة تجارهم باعتبارهم أصحاب المرتبة الأولى وهكذا، لعل هذا كله يوضح الدوافع الحقيقية التى حدت بهم إلى المشاركة فى

هذه الحروب ، كما أنه لايخفى علينا تلك الصراعات الدامية والاقتتال العسكرى الذى دار بين هذه المدن وبعضها على سواحل بلاد الشام ، بسبب التنافس التجارى فيما بينها . وما لنا نذهب بعيدا وهذه الحالة ماثلة أمامنا فى دمياط بعد استيلائهم عليها ؛ فقد دب النزاع بين التجار الإيطاليين ومحاربيهم من ناحية ، والقوات الفرنسية وأنصار المندوب البابوى بلاجيوس من ناحية أخرى، وشارك فى الفوضى فرسان الداوية والاسبتارية ، فلم يكن أحد من هؤلاء جميعا راضيا عما حصل عليه من نصيب فى المدينة ومن الغنائم ، فلما أعيد توزيع الأسلاب من جديد ، كان طبيعيا أن يحصل الإيطاليون على نصيب أكبر من سابقه ، وهذا يذكرنا بما حدث تماما عندما تم الاستيلاء على القسطنطينية عام ١٢٠٤م حيث حظى التجار الإيطاليون بنصيب الأسد من المدينة والغنائم !

ولاشك أن هذا كان باعثا أساسيا لحمل التجار الإيطاليين على مساندة بل ودفع «بلاجيوس» إلى رفض عروض السلام المتكررة التى قدمها الكامل، فكيف يمكن التنازل عن دمياط ، خاصة بعد أن تملكوها ، وكيف يمكن التفريط فى مصر وهم الآن على جزء من أرضها ، والأمل يملؤهم فى السيطرة عليها كلها بعد قليل ؟! وقد «زين لهم سوء عملهم- على حد قول مؤرخنا المقريزى[٥١] أنهم يملكوا أرض مصر ويستولوا منها على ممالك البسيطة كلها» !! وقد يزول العجب تماما وتختفى الحيرة كلها إذا علمنا أن المندوب البابوى بلاجيوس كان يصرف جهده وهمه كله فى أوروبا ، عندما كان أسقفا لكنيسة «سانتا لوشيا» St. Lucia قبل قدومه إلى مصر فى سبتمبر ١٢١٨ ، فى الأمور التجارية والصناعية والإدارية أكثر من اهتمامه بالمسائل الروحية والكنسية [٥٢].

أما فرسان الداوية والاسبتارية فقد وقفوا هم الآخرون يعضدون بكل ما وسعتهم الطاقة وملأهم العداء ، هذا المندوب البابوى فى تشدده المتزايد لرفض مشروع السلام ، وليس من الصعب تفسير موقفهم هذا فى ضوء ما يعلمه جميعنا من أن مصر تحت زعامة الناصر صلاح الدين الأيوبى هى التى قضت على زعمائهم وكبار فرسانهم ، واستولت على حصونهم وقلاعهم التى تمركزوا فيها بالشام ، وقوضت أحلامهم سواء قبل حطين أو بعدها ، فكيف إذا واتتهم الفرصة الآن للانتقام من مصر وضرب الأفعى على رأسها، أن يهجروها ؟! ولذا كان أمرا

---

(٥١) السلوك ، جـ٤ ص٢٠٣ .

(٥٢) Runciman (S.), A history of the Crusades, 3 vols. London 1965 , vol.2 p. 154-155.

طبيعيا أن يقف الداوية والاسبتارية فى صف بلاجيوس لرفض أى محاولة للجلاء عن مصر ، حتى ولو كان المقابل هو القدس ، بل ومملكة بيت المقدس كلها. وإذا كانوا قد ملأوا الدنيا ضجيجا أنهم يشنون هذه «الحرب المقدسة» من أجل تخليص القدس وقبر المسيح من أيدى المسلمين ، فإن القدس جاءهم الآن يسعى دون قتال، فإذا هم عنه راغبون !!

هكذا تكاتف التجار الإيطاليون وفرسان الداوية والاسبتارية ورجال الدين وعلى رأسهم هذا الـ «بلاجيوس» مندوب البابا، للوثوب على مصر أملا فى تحقيق الحلم القديم الذى راود الصليبيين الأوائل ، وقاد فى سبيله عمورى الأول أربع حملات متتابعات دون أن يحقق أى نجاح . وهكذا أيضا تلاقت المصالح التجارية والمطامع الدينية ، مما كشف بوضوح تام وبشكل سافر عن الوجه الحقيقى للحركة الصليبية .

أما الملك جان دى برين وأمراؤه فقد كانوا هم فقط الذين قبلوا عرض السلطان بالصلح ، وإذا كان الملك الصليبى يدرك أن هذه فرصة ذهبية قد لاتتاح لهم من بعد أبدا، وأن القوى الصليبية المعسكرة فى دمياط لن تتمكن ، مهما تدفقت عليها الإمدادات من أوروبا ، من الاستيلاء على مصر بهذه السهولة التى يتصورها بلاجيوس وبطانته ، وإذا كانت دمياط قد استغرقت ثمانية عشر شهرا قبل أن تمسى فى حوزة الصليبيين، فكيف بمصر كلها ؟! إذا كان هذا كله ماثلا فى ذهن جان دى برين عندما أبدى قبوله لعرض الصلح ، فإن الدافع الشخصى أيضا كان حاثا قويا له على ذلك ؛ فالرجل كان يحمل لقب «ملك بيت المقدس» ، وهو مصطلح بلا معنى، إذ أنه لايملك من مملكة بيت المقدس القديمة قبل حطين، إلا عكا فقط وبعض المدن الساحلية ، بمقتضى صلح الرملة الذى وقعه ريتشارد قلب الأسد مع الناصر صلاح الدين، ومن ثم فكيف له أن يرفض عرضا يعيد إلى لقبه معناه الحقيقى، ويصبح كما يقولون إسما دالا على مسماه ؟!

إذن فقد لعبت المصالح الخاصة والأهواء المتنافرة لدى الصليبيين دورا أساسيا فى نجاح سياسة الكامل الذى راح يجدد عرض الصلح على هؤلاء الصليبيين أكثر من مرة، وقد اشتدت حمى الخلاف بين كل من الملك والمندوب البابوى ، وراحت تتصاعد بصورة حادة فى أعقاب كل مرة كان الملك الكامل يتقدم فيها بعرض الصلح، حتى إذا سقطت دمياط فى أيديهم، اعتقد جان دى برين «يائسا» أن مهمته قد انتهت عند هذا الحد، وأنه قد أدى دوره ، فعاد أدراجه ثانية إلى عكا، تاركا الساحة كلها لصلف بلاجيوس وغروره ، ولعله من المفيد هنا أن نعيد

بعض ما قاله المؤرخ الألمانى «ماير» وقدمناه فى صدر هذا الموضوع : «لقد كان (بلاجيوس) رجلا متطرفا عجيبا ، جبارا عنيدا ، مغترا بنفسه إلى حد بعيد جدا ، شكل لنفسه حزبا من الجدد ومن رجال الهيئات الدينية ، ومن التجار الإيطاليين ، واستطاع بدعم منهم أن يخرج الأمر من يد الملك جان دى بريين ... ومن ثم انقسم الجيش الصليبى إلى معسكرين متعادين ، وراح بلاجيوس يتدخل فى الشئون العسكرية دون أى اكتراث بالقانون الكنسى، حتى آل إليه أمر قيادة الجيش، ولكنه لم ينجح فى شئ إلا فى تحقيق الفشل الذريع للحملة » !

وهذه العبارة الأخيرة نجدها متمثلة تماما عندما تم اتخاذ القرار بالزحف جنوبا باتجاه القاهرة، فقد دب النزاع مرة ثانية بين كل من الملك جان دى بريين والمندوب البابوى بلاجيوس ، إذ أن الأخير اتخذ قرار الزحف وحده دون الرجوع إلى الملك الذى لم يكن قد عاد من عكا حتى الآن ، فلما قدم واطلع على خطة الزحف أبدى استياءه الشديد من تفاصيلها العسكرية ، وأظهر عدم ارتياحه لجوانب هذه الخطة ، غير أنه لم يجد آذانا صاغية من بلاجيوس وشيعته ، ورغم تحذير الملك من مغبة الزحف فى هذا الوقت بالذات ، حيث شهور فيضان النيل، إلا أن المندوب البابوى ضرب عرض الحائط بكل هذه الأمور العسكرية ، مما كشف عن جهله التام وأنصاره بطبوغرافية منطقة الدلتا ، ومع ذلك فقد جعل من نفسه القائد العام العسكرى للحملة ، واضطر الملك الصليبى كارها أن يصيخ السمع لكل آراء المندوب البابوى ، وإن كان فى الوقت نفسه قد اكتفى فقط بالتحذير من المخاطر التى تتهدد مسير الحملة على هذا النحو، وما يمكن أن يحيق بها من جانب القوات الإسلامية .

ويلفت النظر فى هذا الجانب الذى نتحدث عنه ، «المواقيت » التى اختارها الكامل ليتقدم بعرض الصلح مرارا على الصليبيين ، فبغض النظر عن المرة الأولى التى أقدم فيها على ذلك مدفوعا بالظروف السياسية والعسكرية والأمنية والاقتصادية المحيطة به فى الداخل والخارج على السواء، نجده فى المرات التالية يتحين الفرصة السانحة بدقة بالغة للتقدم بهذا العرض حتى يكون له الهدف المنشود الذى يسعى إليه، بتعبير آخر، أن الملك الكامل لم يكن فى المرة الأولى قد وقف على الخلاف الكبير الحادث بين الملك الصليبى والمندوب البابوى ، فلما تبين له حقيقة هذا الأمر بعد عرضه الأول بالصلح ، أدرك بدهائه السياسى ، والحرب خُدعة ، أن العمل على تعميق هوة ذلك الشقاق بين الرجلين ، كفيل بأحداث الاضطراب فى صفوف الصليبيين ، ومن ثم كان هذا، «الإفراط» فى عرض الصلح . وهذا لاينفى وجود الدوافع الأخرى لدى

الكامل، وإن كان هذا «الإفراط» من جانبه يمثل جزءاً جوهريا من سياسته لإضعاف القوة الصليبية النازلة بالديار المصرية ، يدعم هذا الذى نذهب إليه ذلك الاختيار الدقيق لـ «مواقيت» تقدمه بعرض الصلح على الصليبيين .

لقد جاء العرض الثانى من جانبه عقب الهجوم الذى شنه على المعسكر الصليبى فى أغسطس عام ١٢١٩م / جمادى الآخرة ٦١٦هـ بعد فشل المحاولة التى قام بها الصليبيون لمباغتة القوات الإسلامية ، وقد خسر الصليبيون عددا ليس بالقليل من قواتهم ، يراوحه المؤرخون بين ألف وأربعة آلاف مقاتل (٥٣) ، وحدث ما حدث من قبل فى المرة الأولى، إذ وقف جان دى برين وبارونات بيت المقدس والفرنسيون والفرسان التيوتون فى جانب ، بينما وقف بلاجيوس والداوية والاسبتارية والإيطاليون فى الجانب الآخر. وجاء العرض الثالث قبيل سقوط دمياط مباشرة ، بعد الجهود المضنية التى بذلها الكامل للحفاظ على المدينة، ونجاحه مرارا فى اختراق الحصار الصليبى لها ، وتزويد أهلها بالمؤن والمدد ، حتى استطاعوا الصمود لهذا الحصار طيلة أشهر تسعة كاملة . ومن ثم جاء هذا العرض لعله يصرف جهد الصليبيين عن دمياط ، ومع أنه عمق كثيرا من خرق النزاع بين جان دى برين وبلاجيوس، إلا أن الملك الصليبى لم يكن ليعصى للمدنوب البابوى أمراً ، حتى لاتحل به لعنة البابوية ويمسى محروما . أما العرض الرابع فقد جاء بعد أن تمت الاستعدادات فى المعسكر الصليبى للزحف إلى القاهرة فى يوليو ١٢٢١م / جمادى الأولى ٦١٨هـ وبعد وصول الملك الصليبى مباشرة عائدا من عكا، وكان هدف الكامل من ذلك واضحا هو الحيلولة دون تقدم الصليبيين جنوبا ، عن طريق الدهاء السياسى الذى ظل يضرب على أوتاره طيلة هذه الفترة لتوسيع مساحة البعد بين معسكرى الجيش الصليبى .

وهنا نلاحظ شيئا فى غاية الأهمية يدعم ما نذهب إليه ، وهو أن الملك الكامل لم يتقدم بعرض الصلح على الصليبيين طيلة العشرين شهرا التى أمضوها فى دمياط منذ سقوطها وحتى عزمهم الخروج منها باتجاه القاهرة، وذلك لأن جان دى برين كان هو الآخر خلال هذه الفترة بعيدا عن دمياط ، زائرا لأرمينيا أو مقيما فى مقر مملكته فى عكا ، بعد أن ارتحل عن المدينة فى أعقاب سقوطها ، وبعد أن تبين له نزعة بلاجيوس الاستبدادية فى حكم دمياط ، ومن ثم فلا فائدة ترجى من عرض الصلح ، لموقف بلاجيوس المعروف ، ولغياب جان دى برين

(٥٣) عمران ، الحملة الصليبية الخامسة ، ص٢٦٠-٢٦٣ .

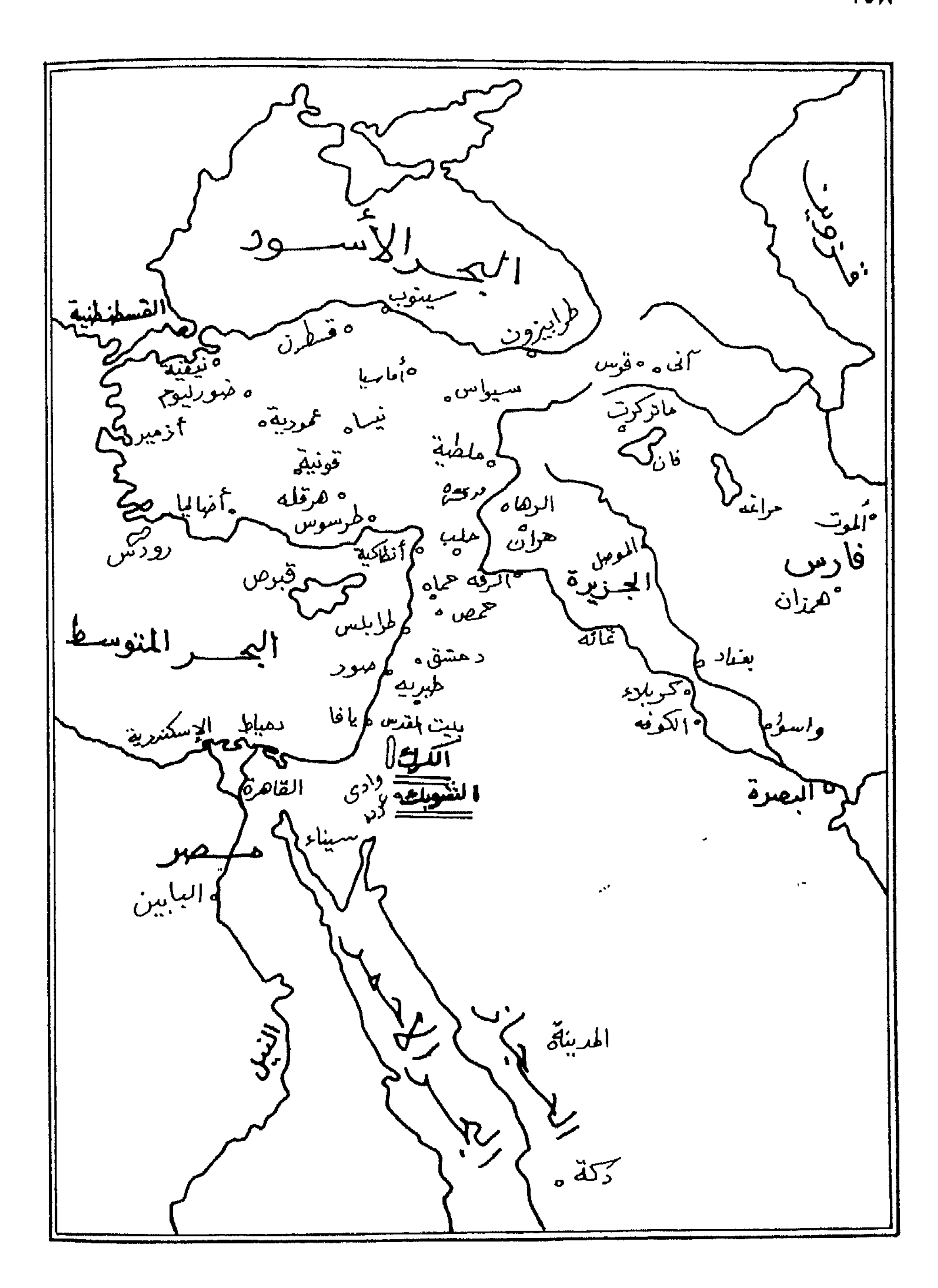
عن الساحة السياسية ، حتى إذا عاد هذا الأخير إلى دمياط ليشارك بدور مُتوار فى قيادة الحملة ، عاد السلطان يجدد عرضه للمرة الأخيرة بالصلح ، فإذا أضفنا إلى هذا أن القوات الشامية، بقيادة المعظم والأشرف وآل أيوب ، كانت قد وصلت بالفعل إلى معسكر الكامل بالمنصورة ، وأن السلطان كان قد أعلن النفير العام وتوافد إليه الناس من « أسوان إلى القاهرة » كما يشير المقريزى ، أدركنا أن الكامل لم يكن فى عرضه هذا صادرا عن موقف ضعف عسكرى يعانى منه ، بل عن دهاء سياسى كشفت عنه مواقفه هذه المتكررة تجاه الصليبيين ، إلى جانب الشخصية «التسامحية» التى كان يتمتع بها الملك الكامل وملوك بنى أيوب بصفة عامة ، وتلك مسألة أخرى سوف نعود لمناقشتها فيما بعد .

وإذا كنا قد ناقشنا حتى الآن الجانب السياسى التكتيكى من مشروع الصلح المتكرر الذى عرضه الكامل، فإن علينا أن نعرج على الجانب العسكرى البارز فى هذا المشروع ، وهو الذى يؤكد دون أدنى شك ما ذهبنا إليه منذ البداية ، نعنى أن مصر كانت محور سياسة الملك الكامل فى تعامله مع الصليبيين ، وأن سلامتها وتأمينها وحفظها بعيدا عن الوقوع فى أيدى هؤلاء الغزاة ، كانت الأهداف الاستراتيجية فى هذه السياسة .

لقد حرص الكامل خلال عرضه المتكرر للصلح على ضرورة الاحتفاظ بحصنى الكرك والشوبك وعدم تسليمهما إلى الصليبيين ، ولعل فى تصميم هؤلاء أيضا على أن يكون الحصنان ضمن أراضى مملكة بيت المقدس التى يعدهم الكامل بإعادتها إليهم مع كل « الفتوح الصلاحى » ، يفصح عن فهم الصليبيين وإدراكهم لما كان يهدف إليه السلطان ، وكأنى بالكامل فى رفضه الكامل تسليم حصنى الكرك والشوبك إلى الصليبيين ، يدفع بهؤلاء إلى حائط مسدود فى طريق المفاوضات ، وهو يذهب إلى ذلك عمدا ، فلم يتزحزح قيد أنملة عن موقفه خلال رحلة المباحثات الطويلة . ويشير المقريزى إلى ذلك عندما يحدثنا عن المشاورات التى دارت بين الطرفين أثناء عروض الصلح فيقول : «فلم يتم بينهم أمر وقالوا : «لابد من أن تعطونا خمسمائة ألف دينار لنعمر بها ما خربتم من أسوار القدس ، مع أخذ ما ذكر من البلاد ، وأخذ الكرك والشوبك أيضا »[٥٤].

---

(٥٤) السلوك ، جـ١ ص٢٠٧ .



موقع حصنى الكرك والشوبك

«نقلا عن سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، الجزء الأول»

وقد أجمع الجغرافيون والرحالة المسلمون[٥٥] على أهمية حصن الكرك ومناعته من حيث وقوعه على جبل شاهق ، وإحاطة الأودية به كما لو كانت خنادق حفرت من حوله ، وتحكمه فى طرق المواصلات التجارية والعسكرية على السواء فيما بين مصر والشام والحجاز ، ولايقل حصن الشوبك عنه أهمية ومنعة ، ويعد كلاهما من الناحية العسكرية وحدة واحدة ، بحيث يقول عنهما «رانسيمان» أنهما يتحكمان فى طريق الحجاج إلى الحجاز، والطريق البرى بين مصر والشام، وهما فى الوقت نفسه مفتاح الطريق إلى القدس ، ونقطتا الدفاع أو الهجوم المتقدمتان للمدينة المقدسة [٥٦]. ويصف ابن شداد[٥٧] ذلك بقوله : «وكان على المسلمين منه (يعنى الكرك) ضرر عظيم ، فإنه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لايمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة الغفيرة». ومن المعلوم لدينا كم عانى المسلمون الشئ الكثير من جراء الاحتلال الصليبى لهذين الحصنين زمن صلاح الدين، عندما كان «رينو دى شاتيون» Reynald de Chatillon والمعروف فى المصادر الإسلامية باسم «البرنس أرناط» ، أميرا على حصن الكرك ، إذ تعرض لكثير من القوافل القادمة من القاهرة إلى دمشق أو العكس ، بل لقد استغله هذا «الأمير اللص» فى محاولة القفز على مكة والمدنية، وليس هناك أدنى شك فى أن فتح الطريق البرى بين مصر والشام وتأمينها كان شيئا يعض المسلمون عليه بالنواجز ، حتى تظل دائرة الحصار على الصليبيين تقض مضاجعهم .

وابن الأثير يصف الكرك بأنه «من أمنع المعاقل على طرف البر» ، ويخبرنا ابن أيبك الدواداری[٥٨] أن الملك العادل، لما اشتد حصار الأفضل ابن أخيه صلاح الدين له بدمشق ، عرض الخروج من البلد مقابل الحصول على «الكرك» ! وهذا هو ابن جبير فى رحلته يعرج على الكرك فيجده «من أعظم الحصون ، وهو المعترض فى طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف (أكثر) قليلا، وهو سرارة (أطيب) أرض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة»[٥٩].

---

(٥٥) ياقوت الحموى، معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٥ جـ٤ ص٣٦٢ ؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠ ص٢٧٤ ؛ ابن جبير ، الرحلة ، بيروت ١٩٧٩ ، ص٢٦٠ .

(٥٦) Runciman, Crusades, II p. 440 .

(٥٧) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص٦٦ .

(٥٨) الدر المطلوب، ص١٤٠ .

(٥٩) ابن جبير ، ص١٤٠ .

وما لنا نذهب بعيدا وبين أيدينا وثيقة تاريخية هامة، هى تلك الوصية التى تركها الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، يعظ فيها ابنه المعظم تورانشاه ، وكأنى به يقرأ ما فى فكر أبيه ويسطره بيديه لحفيده، أعنى حفيد الكامل ، يقول الصالح بالحرف الواحد : «يا ولدى ... لاتخرج الكرك من يدك. الله الله احفظ وصيتى،(لاحظ هنا كيف يشدد الصالح على ابنه بأهمية الاحتفاظ بالكرك تحت سلطانه) ، فلاتعلم ما يكون من هذا العدو المخذول ، لعله، والعياذ بالله- أن يتقدم إلى مصر، يكون ظهرك الكرك، تحفظ فيه رأسك وحريمك ، فمصر مالها حصن، ويجتمع عندك العسكر وتتقدم إليهم، تردهم عن مصر، وإن لم يكن لك ظهر مثل الكرك، تفرقت عنك العساكر. وقد عزمت أن أنقل إليها المال والذخائر والحرم وكل شئ أخاف عليه ، واجعلها ظهرى . والله ما قوى قلبى واشتد ظهرى ، إلا لما حصلت فى يدى»!![٦٠].

ترى .. هل هناك دليل آكد من هذا على صدق ما نذهب إليه من أن مصر كانت محور تفكير الملك الكامل وبؤرة اهتمامه ؟ وأن ما عُد «إفراطا» فى عروض الصلح من جانبه ليس إلا مناورة سياسية تكتيكية قصد بها أمن مصر وتأمينها أولا وقبل كل شئ ، من الوقوع فى أيدى الصليبيين ، وفى الوقت نفسه سلاحا ساعد كثيرا على اتساع هوة الشقاق بين زعيمى الحملة الصليبية الخامسة ، جان دى بريين ملك بيت المقدس فى عكا، وبلاجيوس المندوب البابوى .

ويزيد الأمر وضوحا فى هذا المجال ما تضمنته الوثيقة نفسها والصالح يوصى ابنه تورانشاه قائلا : «وهذا العدو المخذول، إن عجزت عنه ، وخرجوا من دمياط وقصدوك ، ولم يكن لك بهم طاقة وتأخرت عنك النجدة ، وطلبوا منك الساحل وبيت المقدس وغزة وغيرها من الساحل- أعطيهم ولاتتوقف، على أن لايكون لهم فى الديار المصرية قعر قصبة». وهذه بعينها سياسة الكامل ووجهة نظره، مصر أولا باعتبارها قلب هذه المنطقة النابض ، وقصورها عن تأدية رسالتها يعطل الجسد كله ! ومن هنا جاءت عبارات الصالح التالية حاسمة حين يقول : «إعلم يا ولدى أن الديار المصرية هى كرسى المملكة ، وبها تستطيل على جميع الملوك . فأن كانت بيدك ، كان بيدك جميع الشرق» !

---

(٦٠) النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب ، جـ٢٩ ص٣٥٢ .

لم يكن الملك الكامل وحده إذن صاحب هذه السياسة ، بل سار على خطاه من بعد إبنه الملك الصالح ، وسبقه بها أبوه الملك العادل، وتلك سمة ملوك الأسرة الأيوبية الثانية ، العادل سيف الدين، والكامل محمد، والصالح نجم الدين ، وهى أيضا سمة سلطان الأسرة الأيوبية الأولى، الناصر صلاح الدين ، ولكن على خلاف فى الأسلوب ، من هنا جاء تمييزنا بين سلاطين بن أيوب فى أسرتين فيما يتعلق بالسياسة الخارجية ؛ فالأسرة الأولى قامت على الخطة الهجومية لزعزعة أركان الكيان الصليبى المتمركز فى بلاد الشام، وتقليص حجم الإمارات اللاتينية التى قامت هناك منذ أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى ، وكان هذا أمرا لامندوحة عنه فى ظل تدفق الحملات الصليبية إلى بلاد الشام مباشرة، بما فيها الحملة الصليبية الثالثة التى ضمت القوى العظمى فى أوروبا آنذاك، ألمانيا وانجلترا وفرنسا ، وكانت مصر طوال هذه الفترة التى شغلها حكم صلاح الدين الأيوبى، القاعدة الأساسية التى انطلقت منها الجيوش والامدادات البشرية والتموين الاقتصادى. حتى إذا انتهت هذه الحملة بالفشل ، وانتهى أمرها بعقد صلح الرملة بين الناصر صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، آمن الصليبيون يقينا أنهم لابقاء لهم بالشام ما بقيت مصر على حالها من القوة والاستقلال ، وأنهم لن يقر لهم جفن أو يهدأ لهم بال إلا بضمان إسكات هذه القوة تماما ، بمعنى السيادة عليها، وإذا كانت الأحلام راودتهم منذ مقدمهم إلى الشرق بـ «أهمية» توسيع نفوذهم وسلطانهم بضم مصر إلى ممتلكاتهم ، فإن الآمال راحت تلح عليهم الآن بـ «ضرورة» الاستيلاء على مصر لتحقيق سيطرتهم الكاملة على هذه المنطقة .

هنا تغيرت طبيعة المرحلة التالية ، وكان لابد أن يتغير معها بالتالى أسلوب المواجهة الأيوبية ؛ فالحملات الصليبية أخذت منذ مطلع القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى، تولى وجهها شطر مصر مباشرة، لتضرب- بتعبير زعمائها- الأفعى على رأسها، ولتسلك طريق القدس من أوله، الذى يبدأ فى القاهرة ، بتعبير زعمائها أيضا ، ومن ثم تركزت السياسة الاستراتيجية للأسرة الأيوبية الثانية على حماية مصر أولا، وتحولت الخطة من الهجوم لتخليص الأطراف من الاحتلال الصليبى ، إلى الدفاع لحماية القلب وتأمينه من الغزو الصليبى، وتمثل ذلك واضحا فى إقدام العادل على تجديد الهدنة مع الصليبيين فى الشام ، وعقد اتفاقيات مع البندقية ، وسياسة الكامل تجاه الحملة الخامسة، وموقفه من فردريك الثانى، وتصدى الصالح ومماليكه لصليبية الملك الفرنسى لويس التاسع .

عند هذه النقطة نجد أنفسنا «تلقائيا» أمام ما عده المؤرخون «تفريطا» من الملك الكامل فى حقوق المسلمين والقضية برمتها، عندما أقدم على تسليم القدس إلى الامبراطور فردريك

الثانى بمقتضى اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩م ، والذى من أجله قامت الدنيا على الكامل ولم تقعد، وكثرت عليه «الشناعات» فى الأقطار الإسلامية لما اعتبروه من الكامل شيئا إمرا.

ولعله مما يتفق ومنطق الأمور أن نطبق كل ما قدمناه آنفا عن استراتيجية الكامل على ما جرى بينه وبين فردريك ، بمعنى أن ما كان مجرد عرض فى الحملة الخامسة ، بات واقعا مع ما يسمى بالحملة السادسة، بتعبير أكثر وضوحا ، أن الكامل لم يقدم هنا لفردريك أكثر مما قدمه لجان دى برين وبلاجيوس ، وليس هناك من خلاف سوى أن الإمبراطور فردريك الثانى ألحف فى إلحاحه على الملك الكامل بتسليم بيت المقدس إليه ، بينما اشتط بلاجيوس فى رفضه تسلم البيت المقدس، ولو اتفق هذا مع جان دى برين فى قبوله عرض الكامل لكانت النتيجة واحدة ، ولغدا بيت المقدس وغالبية «الفتوح الصلاحى» فى حوزة الصليبيين ثانية بمقتضى اتفاقية للصلح كما حدث فى يافا عام ١٢٢٩ م .

إذن .. هذى الضجة الكبرى علام ؟! لقد كان الملك الكامل واضحا فى سياسته تمام الوضوح ، هناك خطة تكتيكية ينفذها لحينها ، وهناك سياسة استراتيجية يلتزم بقواعدها ، وتقوم فى جوهرها على أن مصر هى بيت القصيد ، وأنها يجب أن تبقى أولا وقبل أى شئ آخر آمنة بعيدة عن أيدى الغزاة ، أو بتعبير ابنه الصالح ، إنه لامانع من التنازل عن «الساحل وبيت المقدس وغزة وغيرها من الساحل ، بشرط أن لايكون للصليبيين (أو غيرهم) فى مصر قعر قصبة ... لأن الديار المصرية هى كرسى المملكة، وبها تستطيل على جميع الملوك ، فإن كانت بيدك ، كان بيدك جميع الشرق» .

وقد يكون من الهام جدا هنا أن نستعيد ثانية ما قاله مؤرخنا ابن واصل فى هذا المقام : «إن دفع الفرنجة عن الديار المصرية هو من أهم الوجوه، ولو ملكوها لم يبق بالشام ولاغيره معهم ملك لأحد»، وهذه بعينها عبارات الصالح نجم الدين أيوب وهو يعظ ابنه تورانشاه ، ويزيد ابن واصل مؤكدا أن الفرنج أيقنوا «أنهم بملكهم لمصر يملكون البيت المقدس وسائر بلاد الشام، وأنهم متى ملكوها لايمتنع عليهم شئ من الممالك بعدها».

لهذا كله وفى ضوئه يمكن القول بكل الثقة إن الكامل عندما أقدم على تسليم القدس ، أو بتعبير أدق ، الأماكن المسيحية المقدسة فى بيت المقدس، لم يكن فى ذلك أى «تفريط» فى الحقوق أو القضية برمتها ، بقدر ما كان خطة تكتيكية ضمن سياسة استراتيجية تهدف إلى انقاذ مصر من الوقوع فى قبضة الصليبيين ، وبالتالى الحفاظ على الشام بما فيها بيت المقدس

خالصة من دون العناصر الصليبية الغازية ، وهذا بعينه ما أكدته الوقائع التاريخية فيما بعد، إذ تمكنت مصر بعد تخلصها من الحملة الصليبية السابعة ، أن تسترد في خلال أربعين عاما فقط ، وبجهود مصرية خالصة ، إمارة أنطاكية على يد الظاهر بيبرس ، وإمارة طرابلس على يد المنصور قلاوون ، ومدينة عكا على يد الأشرف خليل بن قلاوون، هذا بالطبع إضافة إلى القدس نفسها قبل ذلك (عام ١٢٤٤م) على يد الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل .

ولهذا كله أيضا وفى ضوئه لم يكن المؤرخ ابن واصل مبالغا فى قوله ، بعد أن تم توقيع اتفاقية يافا عام ١٢٢٩م ، «كان الملك الكامل رحمه الله يعلم أن الفرنج لايمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره ، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له ، كان متمكنا من تطهيره من الفرنج واخراجهم منه» !! ولم يكن مبالغا أيضا حين أضاف : «رأى الكامل أن يرضى الفرنج بمدينة القدس خرابا ، ويهادنهم مرة ، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء» !! ولقد جئنا على ذكر هذه العبارات من قبل ، ولانجد غضاضة أو مانعا يحول دون الاتيان بها هنا مرة أخرى ، بل إننا لانجد أيضا مانعا من أن نستعيد ثانية تعليقنا ساعتها عليها ، «لابد لمن يقرأ هذه العبارات أن يتوقف طويلا عند الثقة المطلقة التى يتحدث بها ابن واصل ، معبرا عن سياسة السلطان ، والعبارة الأخيرة بصفة خاصة تدعم تماما الرأى الذى نذهب إليه عن الأهداف الاستراتيجية للكامل وخططه التكتيكية ، وهو ما أكده الكامل نفسه فى قوله : «إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس وآدر خراب ، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدى المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه ، ووالى المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله»[٦١] .

وفى دراسة جادة قام بها أحد الباحثين المحدثين[٦٢] يتضح لنا جانب آخر من جوانب هذه الاتفاقية التى أقدم عليها الملك الكامل مع الامبراطور فردريك الثانى، وهو الجانب الفقهى ،

---

(٦١) ابن واصل ، جـ٤ ص٢٤٣-٢٤٤ .

(٦٢) حسن عبد الوهاب ، «هدنة القدس فى ضوء فتوى المؤرخ القاضى ابن أبى الدم الحموى ١٢٢٩ / ٦٢٦هـ ، دراسة تحليلية مقارنة». وقد تفضل الإبن العزيز الدكتور حسن عبد الوهاب مشكورا بإهدائى مخطوط هذا البحث القيم قبل نشره، مضافا إليه صفحات المخطوطات التى تضمنت هذه الفتوى، فله منى كل الشكر والتقدير .

أو بتعبير آخر ، الوضع الفقهى الشرعى لهذه الاتفاقية ، معتمدا على ما جاء فى كتاب «ابن أبى الدم الحموى[٦٣] القاضى الشافعى ، والمعروف بـ «التاريخ المظفرى» مستمدا فتواه ، أعنى ابن أبى الدم ، من أحكام الأمام الشافعى التى وردت فى مؤلفه «الأم» ، بالإضافة إلى ما جاء أيضا فى «التاريخ المنصورى» الذى هو «تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان» لابن نظيف الحموى . وخلص الباحث فى دراسته هذه إلى أن عددا من الفقهاء وقفوا إلى جانب الكامل فيما ذهب إليه ، ولم يسايروا الرأى العام وأصحاب المصالح الخاصة فى استنكار ما فعله الكامل .

وسوف أسمح لقلمى هنا- بعد استئذان صاحب الدراسة، أن ينقل عنه بضعة أسطر معدودات تبين وجهة النظر الفقهية فى هذا الصدد ، وهى بلاشك جديرة بالاعتبار : «... وصالح الفرنج على أن يسلم إليهم البيت المقدس حرسه الله وحده من غير شئ من أعماله ولابلاده قليلا ولاكثيرا، وشرط عليهم أن لايحدثون فيه بناءً ، لا سوراً ولا دورا ، ولاتجاوزوا خندقه، وأن تقام فيه الجُمع للمسلمين المقيمين به ، ولايُمنع مسلم من زيارته كيف أراد، ولايؤخذ من زاير مالا أصلا» ويعلق الباحث على ذلك بقوله : «ذكر ابن أبى الدم النص السابق بشأن وضع القدس فى الهدنة ، وهدفه الرئيسى ليس تناول بنودها ، بقدر الحكم عليها من الناحية الشرعية ، وقد اعتمد بشكل رئيسى على كتاب الأم للإمام الشافعى فى ذكر الشروط الشرعية للهدنة وجوانبها التوثيقية الأخرى ... وقد ذكر الإمام الشافعى أول شرط لعقد الهدنة بقوله : «فى حالة نزول نازلة بالمسلمين ... يكون النظر لهم فيها »، وفى ضوء ذلك ذكر ابن أبى الدم أن الكامل عقد هذه الهدنة لوجود «شر عظيم وخوف ، وكذلك حفظا لبقية الثغور والبلاد. ونلاحظ - والكلام هنا للباحث- استخدامه كلمة «المصلحة» فى تبرير عقدها ، «فعل ما رآه مصلحة رآها» ، «وكان ذلك إن شاء الله تعالى من أكبر مصالح المسلمين» ويمضى الباحث قائلا ، «ولم يكن ابن أبى الدم وحده الذى قدم لنا هذه «المبررات الشرعية» لعقدها ، وإنما نجد ابن الأثير يذكر أيضا الخوف من عودة الكامل إلى مصر وتركه بلاد الشام (وكان مقيما بتل العجول) ، «وعلموا أنه إن عاد استولى الفرنج على القدس

---

(٦٣) هو شهاب الدين أبو اسحق ابراهيم بن عبدالله ، شغل وظيفة القضاء فى حماه، وتوفى عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م .

وغيره ، أما ابن واصل فذكر خوف الكامل بأن «يفتح له باب محاربة مع الفرنج ويتسع الخرق ويفوت عليه كلما خرج بسببه « ... ويضيف المقريزى «أن الكامل تورط مع ملك الفرنج وخاف من غائلته ، عجزا عن مقاومته» . أ هـ .

ويؤكد الباحث أيضا من خلال ما أورده ابن أبى الدم ، اتساقا مع الإمام الشافعى، أن الملك الكامل أقدم على عقد هذه الاتفاقية باعتباره صاحب السلطة الشرعية فى ذلك ، لكونه سلطان المسلمين والأمر إليه فى مثل هذه المسائل، كما أنه حرص على أن لاتزيد مدة الهدنة عن عشر سنوات ، وهى المدة المحددة شرعا ويجوز تجديدها لمدة مماثلة عند الاقتضاء . ولاشك أن هذه الدراسة الممتعة الجادة تلقى ضوءا جديدا على سياسة الكامل إزاء فردريك الثانى ، وتقدم إلى جانب كل ما قدمناه دليل صدق على صحة م ما رأيناه من قبل فيما يتعلق بالاستراتيجية التى وضعها الكامل وحرصه على الالتزام بها إلى أبعد الحدود .

ولعله من الأهمية بمكان أن نورد هنا نص ما ذكره القاضى ابن أبى الدم الحموى الشافعى، لنقف من قريب على صدق دوافع الكامل فيما ارتآه ، وهذا لايقلل مطلقا من كل ما ذكره المؤرخون القدامى والمحدثون عن الظروف التى أحاطت بالكامل ودفعته إلى توقيع هذه الاتفاقية وتسليم القدس إلى الامبراطور فردريك الثانى، والتى كان فى مقدمتها دون شك استعانة أخيه المعظم عيسى قبل وفاته بالخوارزمية ، واستعدائهم على أخويه الأشرف موسى والكامل محمد بصورة استفزازية صارخة . يقول ابن أبى الدم : « ... تجهز المولى السلطانى الملك الكامل أعز الله أنصاره إلى الشام والسواحل للقاء الفرنج خذلهم الله تعالى حين علم بحشدهم وتجمعهم ، ولترتيب أمور المسلمين فى بلادهم ... واجتمعت عساكر المسلمين هناك (تل العجول) ، وكان الانبرور (الامبراطور) طاغية الفرنجة وعظيمهم خرج بجمع كثيرة إلى الجزاير والسواحل، وخيف على البلاد الإسلامية منهم، فاجتهد المولى السلطان الملك الكامل برأيه وصالحهم صلحا تاما رأى فيه صلاحا للمسلمين وغبطة ، وهو إن شاء الله تعالى راعى هذه الأمة المحمدية وسلطان الملة الإسلامية ، ومن أعز الله به الدين وأهله والمأمون عليهم ، والناصح المشفق لهم وعليهم ففعل ما رآه مصلحة رآها ، وغبطة ترجحت فى نظره راعاها ، وصالح الفرنج على أن يسلم إليهم البيت المقدس حرسه الله، وحده من غير شئ من أعماله ولا بلاده قليلا ولاكثيرا وشرط عليهم أن لايحدثون فيه بناءً لاسورا ولا دورا ، ولاتجاوزوا خندقه ، وأن تقام فيه الجُمع للمسلمين المقيمين به ، ولايمنع مسلم من زيارته كيف أراد، ولايؤخذ من

زاير مالا أصلا . وكان ذلك إن شاء الله تعالى من أكبر مصالح المسلمين وأعظمها مما لايخفى عن ذوى البصاير ، فإن البيت المقدس موضع عبادة المسلمين، وللكفار فيه اعتقاد عظيم يحملهم على قصد المسلمين وبلادهم لأجله ، والمقصود منه التردد إلى زيارته لإقامة العبادة على حسب اعتقاد المتين. فسلم المولى السلطان الملك الكامل خلد الله سلطانه ذلك إليهم مع تهدمه وعدم حصانته حفظا لبقية الثغور والبلاد ، ونزّله منزلة مسجد يتردد إليه المصلون ، وعقد معهم الهدنة الشرعية المدة المرعية فى نظر سلطان المسلمين وملكهم ومتولى أمورهم، أعز الله أنصاره ، واندفع من المسلمين بذلك شر عظيم وخوف ، وحصل الأمن بعد الهدنة. فلامصلحة للمسلمين أيمن من هذه المصلحة ، ولاغبطة لهم أعظم من هذه الغبطة . ودخل البيت المقدس أناس قليلون من الفرنج لاشوكة لهم ولاعَدد ولا عُدد .. ومتى مهد المولى السلطان الملك الكامل خلد الله أيامه بلاد الشرق، واتفقت كلمة الملوك على سلطنته والطاعة له، استعاد البيت المقدس من يد من هو فى حوزه من الفرنج فى يوم واحد، بل فى ساعة واحدة» .

هذا ما ذكره بنصه ابن أبى الدم الحموى . وهو يؤكد فى كل عباراته ما ارتأيناه منذ بداية هذا الموضوع من أن الملك الكامل كان يضع المصلحة العامة، المتمثلة فى نجاة مصر من الوقوع فى براثن الصليبيين فى المقام الأول، لتنجو بها بلاد الشام كلها ، والعبارة الأخيرة التى أوردها ابن أبى الدم تتفق تماما مع عبارات ابن واصل ، حول قدرة الملك الكامل على استرداد القدس متى شاء .

ورغم أن الملك الكامل كان يعد رأس الأسرة الأيوبية، باعتباره سلطان الديار المصرية التى هى كرسى السلطنة الأيوبية ، كما تقول بذلك كل المصادر المعاصرة ، إلا أنه كان – مع ولايته للأمور شرعا– حريصا على أن يطلع أمراء بنى أيوب على خططه واتجاهاته ، وهذا ما حدث عندما أطلع أخاه المعظم عيسى على العرض الذى قدمه لصليبيى الحملة الخامسة بعد فتنة ابن المشطوب ، أثناء وجود المعظم فى مصر ، ثم إطلاع كل الأمراء الأيوبيين الذين قدموا لنجدته واجتمعوا فى معسكره بالمنصورة ، بعد أن راح الصليبيون يحركون قواتهم من دمياط باتجاه المنصورة ابتغاء القاهرة، فقد عرض الصلح على الصليبيين للمرة الأخيرة تحت سمع وبصر كل هؤلاء الأمراء . وها هو هنا يفعل الشئ نفسه فى علاقته مع فردريك ؛ ذلك أنه فى إحدى مراحل المفاوضات التى كانت دائرة بين السلطان والامبراطور ، وصلت رسل الأخير إلى الكامل تحمل رسالة من فردريك مؤداها : « ... إن الجيد للمسلمين والمصلحة لهم أنهم كانوا قد بذلوا

لنائبى الساحل جميعه وإطلاق الحقوق، هذا فى حصارهم لدمياط ،.وما فعلوا ، وفعل الله لكم ما فعل من ظفركم وأعادها إليكم ، ومن نائبى ؟ إن هو إلا أقل غلمانى ، فلا أقل من اعطائى ما كنتم بذلتموه له»(٦٤).

وحالما علم الكامل بفحوى هذه الرسالة ، استدعى إليه سيف الدين بن قلج رسول الأشرف إلى الكامل والذى كان بحضرة السلطان آنذاك وكلفه أن يكتب إلى الملك الأشرف يعرفه صورة هذه الرسالة وأن يبدى رأيه فيها، فما كان جواب الأشرف إلا أن قال : «يا سيف الدين ما يقول عبد مملوك هو وجماعته ، مهما رسم السلطان الكامل كان، لأنه هو سلطان البلاد ولايخرج أحد عن أمره ، بل تسأله اتفاق الكلمة(٦٥) لتجمع العساكر من البلاد إلى خدمته ، ويقرر ما فيه الصلاح للمسلمين وللبيت »(٦٦). وعلى هذا النحو كانت استراتيجية الكامل وخططه معلومة لدى ملوك وأمراء بنى أيوب جميعا ، وهم أهل الحل والعقد آنذاك ، وتحظى بموافقة الغالبية العظمى منهم . وإذا جاز القول إن الخليفة العباسى كان صاحب السلطة الشرعية العليا فى الدولة الإسلامية ، فمن المعروف أنه كان مسلوب الإرادة تماما فى ظل السيادة التركية فى بغداد ، ومع ذلك فإن الكامل لم يدخر وسعا فى سبيل إطلاعه على الحقائق كلها، والحصول على موافقته «الصورية» ورضاه إلى الحد الذى خلع عليه تكريما له(٦٧).

ويورد ابن نظيف الحموى، وهو فقيه وقاض ومؤرخ معاصر لتلك الأحداث ، حوارا دار بين الملك الكامل ورسول صاحب إربل ، إحدى مدن أعالى الفرات ، يكشف بجلاء عن أن الكامل

---

(٦٤) ابن نظيف الحموى ، التاريخ المنصورى ، تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان، تحقيق الدكتور أبو العيد دودو، دمشق ١٩٨٢ ، ص١٦٤؛ وراجع أيضا ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ص٢٢٨-٢٢٩ .

(٦٥) يشير الأشرف بذلك إلى الخلاف القائم بين الأخوين من ناحية والناصر داود ابن أخيهما المعظم عيسى من الناحية الأخرى .

(٦٦) ابن نظيف الحموى ، التاريخ المنصورى ، ص١٦٤ .

(٦٧) المصدر السابق ، ص١٧٩ ، وقارن المقريزى (السلوك ، جـ١ ص٢٣٢) الذى يقول ما نصه : «وسير الكامل جمال الدين الكاتب الأشرفى إلى البلاد الشرقية ، وإلى الخليفة ، فى تسكين قلوب الناس وتطمين خواطرهم من انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس». وهى عبارات لاتبتعد كثيرا عما ذكره ابن نظيف الحموى ؛ وراجع أيضا، النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٩ ص١٧٣-١٨٩ .

كان يعى جيدا ما هو مقدم عليه، مقتنعا تماما بما يفعله ، مدركا يقينا أن فى ذلك الصالح العام للمسلمين فى مصر والشام والبيت الأيوبى، واثقا الثقة كلها أن ما قام به ليس فيه ما يشين ما دام يبتغى من ورائه دفع الأذى والعدوان عن الديار المصرية كرسى السلطنة الأيوبية ، ومن ورائها بلاد الشام بأسرها ؛ يقول ابن نظيف الحموى : «وصل رسول صاحب إربل يشير بأن يسيّر السلطان الكامل رسولا إلى الخليفة فى نعى البيت المقدس والعذر عنه، فقال الملك الكامل : «نحن مماليك هذا البيت المقدس ، وآباؤنا وخدماتنا له معروفة ما نرائى ولاتماذق»[٦٨] ، والسلطان يشير هنا إلى ما قام به مؤسس الدولة الأيوبية ، السلطان الناصر صلاح الدين من استرداده وإعادة عمارته ، وما قام به الأيوبيون جميعا من رعايته والحفاظ عليه ، ومن ثم فهو لايخشى فى الحق لومة لائم ، وليس هناك من خطأ وقع فيه حتى يقوم بالاعتذار عنه للخليفة ، ومن ثم أيضا ما كانت رسله إلى بغداد إلا لإخباره فقط بما حدث .

بقيت صفحة واحدة لم تطو بعد ، ولابد من الاتيان عليها حتى تستكمل الصورة تماما، ولندرك من خلالها الإطار العام الذى كان يتحرك فيه الملك الكامل ، والأهداف الاستراتيجية لسياسته العامة تجاه الصليبيين .

فمن المعروف تماما أن ملوك بنى أيوب جميعهم منذ أسس صلاح الدين دولته ، قد اتسموا بسمة واحدة هى «التسامح» الكامل حتى مع أعدائهم الصليبيين ، بل إن شئت الدقة قرأت الجملة من غير «حتى» ! ولم يأت ذلك عن ضعف فى شخصياتهم أو وهن فى نفوسهم ، بل كانوا جميعا محاربين أشداء وضعوا قضية الجهاد نصب أعينهم ، ولكن «التسامح والرحمة» مع أعدائهم كانت تسبق غضبهم ، و«عفوهم» كان يتغلب دائما على «عقوباتهم» ، ويزيد الأمر هذا تقديرا أننا فى عصر اتسم بالتعصب الشديد ، كل حسب معتقده وهويته ، وحملت العناصر اللاتينية عامة وفرسان الداوية والاسبتارية خاصة، عداءً شديدا تجاه المسلمين فى الشرق، بل تجاه الامبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية ذاتها ، وسيطر سلطان التعصب على النفوس فى الشرق والغرب على السواء، وإن كان فى الأخير أشد نتيجة التأثيرات البيئية والخلفيات الثقافية الحضارية ، فهؤلاء اللاتين هم حفدة الجرمان بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، كما وصمتهم بذلك المؤرخة البيزنطية الأميرة «أنا كومننا» Anna Comnena ، بينما كانت

---

(٦٨) ابن نظيف الحموى ، التاريخ المنصورى ، ص١٨٢ .

الحضارتان البيزنطية والإسلامية قد حققتا لنفسيهما شأوا عظيما فى الرفعة والارتقاء والسلوك الحضارى .

ونظرة واحدة إلى ما كتبه المؤرخون اللاتين بأنفسهم عما فعله بنو جلدتهم الصليبيون خلال الحملات الصليبية عامة ، والأولى خاصة ، تكشف بوضوح عن هذه الروح العدائية والتعصب الشديد، والابتعاد تماما عن روح الاعتدال والتسامح الذى اتصف به المعسكر الإسلامى فى معاملة الأعداء. ويكفى أن نشير فقط إلى المذابح التى جرت على أيديهم فى معرة النعمان ثم ما كان من أمرهم عند دخولهم «البيت المقدس» وما أحدثوه فيه من الفظائع التى تقشعر من هولها الأبدان ، يقول المؤرخ المجهول صاحب «أعمال الفرنج وحجاج بيت المقدس»[٦٩] Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitarum وحديثه يقطر بالتشفى عند دخولهم أنطاكية: «... ودخلوا المدينة من أبوابها ، وذبحوا من صادفوه من الأتراك والمسلمين، ولم ينج من القتل سوى من تهيأ لهم الفرار إلى القلعة ... وامتلأت جميع شعاب المدينة ومسالكها بالجثث ، حتى لقد أصبح من المستحيل السير فيها نظرا للرائحة النتنة المتصاعدة منها، ولم يتمكن أحد منا من السير فى الشوارع إلا على جثث الموتى» . حتى إذا أتوا على بيت المقدس قال : «... وأخذ رجالنا فى مطاردتهم (المسلمين) معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يغوصون حتى كعوبهم فى دماء القتلى... فلما ولج حجاجنا المدينة جدوا فى قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة عمر، حيث تجمعوا أو استسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أفظع القتل طيلة اليوم بأكمله ، حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم ... وفى صباح اليوم التالى تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين رجالا ونساء ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل، فرمى بعضهم بنفسه من أعلى المعبد، فتلظى تنكرد غيظا حين شاهد هذا المنظر (تأمل مدى غيظ الرجل لأن سيفه لم

---

(٦٩) ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص٧٠ ، ١١٨-١٢٠ ، ولمزيد من التفصيلات عن هذا الموضوع ، راجع ، ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ترجمة حسين عطية ، الاسكندرية ١٩٨٩؛ بطرس توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ترجمة حسين عطية ، الاسكندرية ١٩٩٢ ؛ فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، نقله إلى العربية قاسم عبده قاسم تحت عنوان «الوجود الصليبى فى الشرق العربى» ، الكويت ١٩٩٣ .

يقتل هؤلاء الذين ماتوا بأيديهم قفزا من فوق سقف المسجد!) ... وانطلق جنودنا فى جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال ، كما أخذوا فى نهب البيوت الممتلئة بالثروات ... ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثث القتلى ، فقد صدرت الأوامر إلى الشرقيين الذين قيضت لهم الحياة بسحب جثث إخوانهم خارج بيت المقدس وطرحهم أمام الأبواب (لاحظ مدى الإيلام النفسى فى هذا العمل) ، وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا، وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التى ألمت بالشعب الوثنى (يعنى المسلمين) !! » ولنا بالطبع أن نتخيل ما تعنيه هذه العبارة الأخيرة . ويردد مؤرخ آخر هو بطرس توديبود[٧٠] Peter Tudebod هذا القول ، فيقول متسائلا تساؤل العالم بالإجابة مسبقا : «هل شاهد أحد قط أو سمع عن مثل محرقة الكفرة هذه ؟ والله وحده يعلم كم عددهم لأن لا أحدا سواه يعلم ذلك »، على حين يقرر واحد ثالث هو فوشيه الشارترى[٧١] Fulcher of Chartres «ترى .. ماذا أقول.. إنا لم نترك أحدا منهم على قيد الحياة، وحتى النساء والأطفال ، لم نغادر منهم أحدا ».

ولم يكن هذا النمط البربرى لسلوك اللاتينى قاصرا على الحملة الأولى وحدها ، ولا على الأمراء والجنود فقط، بل كان سمة كل الحملات التالية، وطبيعة زعمائها من الملوك أيضا ، وليس أدل على ذلك مما فعله ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا فى الحملة الثالثة من قتل حامية عكا ومن معهم من المسلمين ، وقد بلغ عددهم جميعا ثلاثة آلاف نفس ، مخالفا بذلك لشروط تسليم المدينة ، ولم يكن ما قام به صليبيو الحملة الخامسة فى دمياط بعيدا عن هذه الروح الهمجية ، حيث «غدروا بأهلها » ووضعوا فيهم السيف قتلا وأسرا ، وباتوا تلك الليلة يفجرون بالنساء » على حد قول المؤرخ أبى شامة[٧٢].

وقد امتد هذا السلوك الهمجى ليشمل كذلك المسيحيين ، فقد تعرضت القرى المسيحية على طول الطريق من الغرب اللاتينى إلى القسطنطينية لاعتداءات وحشية من قبل هؤلاء الصليبيين ، وعانى أهل القرى المجرية بصفة خاصة من ويلات عذاباتهم ، يستوى فى ذلك

---

(٧٠) تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين عطية ، ص٣١٩ .

(٧١) الوجود الصليبى فى الشرق العربى، ترجمة قاسم عبده قاسم ، ص١٥٣ .

(٧٢) الذيل على الروضتين ، ص١١٧ .

المسيحيون واليهود ، وما فعله رينودى شاتيون ، البرنس أرناط ، بمسيحيى قبرص ورجال الدين القبارصة بصفة خاصة بخاف على أى باحث ، وما حل بأهالى مدينة زارا على يد جنود الحملة الصليبية الرابعة لايمكن اغفاله أو التغاضى عنه، أما النازلة التى وقعت على أم رأس القسطنطينية نتيجة الغزو اللاتينى عام ١٢٠٤ فحدث عنه ولاحرج ، ويكفى أن نعود إلى صفحات المؤرخ البيزنطى نيقتاس الخونياتى Nicetas Choniates والمؤرخ اللاتينى فيلهاردوان Geoffrey de Villehardoiun لنقف منها تفصيلا على ما أثمته أيديهم فى حق القسطنطينية .

ولو عامل المسلمون الصليبيين بعد انتصاراتهم التى حققوها عليهم من بعد ، بمثل ما عاملهم الصليبيون من قبل ، لما لامهم على ذلك أحد، لكنهم أبوا إلا أن يسلكوا جادة السلوك الإنسانى فى معاملتهم مع أعدائهم خاصة الأسارى منهم، ولعل الموقف الذى اتخذه صلاح الدين إزاء الصليبيين فى بيت المقدس بعد استردادها ، يشهد بوضوح على أن روح التسامح والاعتدال كانت ديدن ملوك بنى أيوب جميعا، ورغم أنهم كانوا هم حملة لواء الجهاد ضد الصليبيين على امتداد عمر الدولة الأيوبية كلها، سواء فى المرحلة الأولى الهجومية زمن الناصر صلاح الدين ، أو المرحلة الثانية زمن العادل سيف الدين وأسرته ، ولو أقدم صلاح الدين على ذبح كل من وجده من هؤلاء الصليبيين فى بيت المقدس ، اقتداء بما فعلوه ، لما كان لأحد أن يلومه ، لكن الرجل سمح لهم بالخروج بأموالهم وأمتعتهم دون أن يتعرض لهم أحد، مقابل دفع فدية قدرها عشرة دنانير للرجل وخمسة للمرأة وواحد للطفل ، وكان من الأمور التى أدهشت المسلمين أن يروا هرقل بطريرك المدينة المقدسة يدفع الدنانير العشرة ليفتدى نفسه بها، ويغادر المدينة حاملا ما استطاع حمله من الذهب والفضة وخلفه العربات تحمل نفائس كنيسة القيامة التى نهبها قبل خروجه ، دون أن يبالى بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم[٧٣]، بل إن صلاح الدين رفض أن يصغى لنصح بعض خاصته الذين أشاروا عليه بمصادرة هذه الأموال التى يهرب بها البطريرك ، وقال : «لا أغدر به» ! ! ولكن الأكثر إثارة للدهشة ، وإن لم يكن مستغربا من الصليبيين ، أن هؤلاد الذين خرجوا بأمان المسلمين ، وقعوا ضحية اعتداء الأمراء الصليبيين فى المدن الأخرى ، إذ هاجموهم واستولوا على ما معهم مما أخذوه من بيت المقدس !!

---

(٧٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ص٢١٧ .

وقد بلغت سماحة صلاح الدين واعتداله - في هذا العصر الملئ بالتعصب ، حدا حمل معه بعض الضرار بالمسلمين أنفسهم ؛ ذلك أن صلاح الدين كان قد فعل مع كل المدن والمعاقل الصليبية ما فعله بالقدس ، ومن ثم خرج هؤلاء الصليبيين جميعا ، وولوا وجههم شطر صور ، وتحصنوا بها ، حتى قويت بهم وتقووا هم بها ، واستعصى من بعد على صلاح الدين فتحها ، وكانت النواة التي ولدت حولها من جديد فكرة احياء مملكة بيت المقدس بعد مجئ الحملة الصليبية الثالثة وسقوط عكا في أيدي جنودها .

وكان لابد أن يلفت سلوك صلاح الدين هنا أنظار المؤرخين الغربيين ، فها هو مؤرخ الحروب الصليبية ستفن رانسيمان Steven Runciman يعقد مقارنة بين موقف الصليبيين والمسلمين عند دخول كل منهم المدينة عقب انتصاره ، قال : «كان المنتصرون (المسلمون) معقولين وانسانيين ، فبينما خاض الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاما في دماء ضحاياهم ، نجد في هذه المرة أنه ما من بناء نهب وما من إنسان أصابه أذى ، وتنفيذا لأوامر صلاح الدين انتشر الحراس يحرسون الطرق والأبواب ويمنعون أي اعتداء قد يصيب المسيحيين... وتقدم نساء الفرنج اللاتي افتدين أنفسهن إلى صلاح الدين والدموع تملأ عيونهن وسألن أين يستطعن الذهاب بعد أن قتل أزواجهن أو آباؤهن أو وقعوا في الأسر ، فكان جواب صلاح الدين أن وعدهن بأن يطلق سراح كل زوج أسير ، أما الأرامل واليتامى فقد أعطى كلا منهن منحة تتناسب مع مكانتهن من ماله الخاص . لقد كان عفوه وعطفه مباينا مباينة واضحة لأفعال المسيحيين الغزاة في الحملة الصليبية الأولى[٧٤] . ويقول ستانلي لين بول Stanley Lane-Poole[٧٥] «... هكذا عامل العرب المدينة المحتلة ، ولاينسى أحد الافتتاح الهمجي للمدينة المقدسة إبان الحملة الأولى ... عندما عُذّب المسلمون العزل ، أُحْرِقوا وقُتّلوا بلا رحمة على حصون وسقف الهيكل ، عندما كانت الدماء لعنف المذبحة ، تلوث شرف المسيحية ، وتلوث المشهد حيث كان المسيح يبشر بانجيل المحبة والرحمة «طوبى للرحماء لأنهم يرحمون »، كانت الغبطة منسية عندما دمر المسيحيون المدينة المقدسة ، ولحسن حظ غير الرحماء ، فلقد نالوا الرحمة على يد السلطان المسلم». أما المؤرخ الألماني «ماير» [٧٦] Hans Eberhard Mayer

(٧٤) Runciman, Crusades, II p. 466

(٧٥) صلاح الدين، ترجمة فاروق سعد أبو جابر ، القاهرة ١٩٩٥ ص١٩٦-١٩٧ .

(٧٦) تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة عماد الدين غانم ، ص١٩٨ .

فيلخص ذلك كله فى عبارة مختصرة غاية فى البلاغة حين يقول : «لقد كان سلوك صلاح الدين غاية فى التسامح والاعتدال». ولعل هذا هو الذى شفع له عند دانتى اليجيرى (٧٧) Dante Alighieri فى الكوميديا الإلهية حيث وضعه على حافة الجحيم وليس فى قاعها !!

وكان موقف صلاح الدين عظيما أيضا مع ريتشارد ملك انجلترا ، وهو الذى قدم إلى الشرق بهدف استرداد بيت المقدس ثانية من يد المسلمين، حيث بعث إليه فى مرضه بما طلبه من «فاكهة وثلج» (٧٨) . وهكذا كان الناصر صلاح الدين أنموذجا احتذاه من بعد ملوك بنى أيوب جميعهم ، فموقف العادل سيف الدين كان واضحا جدا من أهل بيت المقدس ، حيث افتدى من ماله الخاص منهم عددا كبيرا ، ولم يشأ الملك الكامل- وكان بمقدوره - أن يأخذ الصليبيين فى الحملة الخامسة وقد أحيط بهم أخذا وبيلا ، لكنه جنح إلى التسامح والاعتدال فطنة سياسية وذكاءً ، فلم ينزل على رأى أخويه وأقاربه من بنى أيوب بالقضاء على الصليبيين وهم ملك يمينه ، وأصر على رأيه بأطلاق سراحهم جميعا سماحة وكياسة .

وكان هذا التسامى والتسامح بابا ولج منه فردريك الثانى إلى قلب الملك الكامل وعقله ، وأضحى ذلك واضحا فى المراسلات التى دارت بين الرجلين ، والتى كان همزة الوصل فيها بينهما الأمير الدبلوماسى المثقف فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وقد قدمنا من قبل تلك الرسالة التى يستعطف فيها الإمبراطور السلطان لينعم عليه بـ «قبضة البلد» حتى لايرجع «خايبا» إلى قومه ، يقول ابن واصل : «بلغنى أن الإمبراطور قال للأمير فخر الدين : لولا أنى أخاف انكسار جاهى عند الفرنج ، لما كلفت السلطان شيئا من ذلك ، ومالى غرض فى القدس ولاغيره ، وإنما قصدت حفظ ناموسى عندهم» (٧٩).

هذه العبارة الأخيرة التى قالها مؤرخنا على لسان فردريك الثانى، تقود خطونا إلى أوروبا لنسير مع الإمبراطور فكرة رحلته إلى الشرق، ولانستخدم كلمة «حملة» هنا، لأن ما قام به فردريك كان مجرد رحلة بكل المقاييس ، وإن غنم من خلالها ما فشلت فيه أعظم الحملات العسكرية الصليبية التى قادها ملوك فرنسا وانجلترا وألمانيا من قبل ؛ فبينما قدم على رأس

---

(٧٧) الكوميديا الإلهية، ترجمة حسن عثمان، الجزء الأول، الجحيم، الأنشودة الرابعة .

(٧٨) ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٤ ص٢٤٣ ؛ المقريزى ، السلوك، جـ١ ص٢٣٠ .

(٧٩) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ص٢٤٣ ؛ المقريزى، السلوك ، جـ١ ص٢٣٠ .

خمسمائة فارس فقط ، خرج جده فردريك الأول برباروسا يقود جيشا قوامه مائة ألف جندى ، قال عنه ابن الأثير ، لو وصلت هذه القوات كاملة إلى بلاد الشام، لكان يقال إن مصر والشام كانتا للمسلمين !! فهل يمكن وصف الحرس الخاص لفردريك الثانى ، أعنى الفرسان الخمسمائة، بأنهم يشكلون حملة عسكرية صليبية ؟!

هذا من الناحية العملية فى تكوين الجيش، أما من الناحية الجوهرية فى الفكر الصليبى، فقد خرج فردريك إلى الشرق وهو محمل بقرار اللعنة الذى أوثقه به البابا جريجورى التاسع، العجوز العنيد ، ومن ثم كان لابد أن تحل هذه اللعنة بمن يصحبه من القوات ، وبكل منطقة يتملكها ، وكل ما تصل إليه يداه، ولذا لم يكن لهذا «الخروج» من سند شرعى فى الفكر أو العرف الصليبى ، ما دام فردريك قد حرم من رحمة الكنيسة ، وأمسى طريد ملكوت السماوات كما يقر الفكر البابوى .

وكان فردريك الثانى قد توج ملكا على ألمانيا فى عام ١٢١٢ ، إبان اشتعال جذوة الصراع الأهلى بين أسرة الهوهنشتاوفن التى ينتمى إليها ، وعائلة الولفيين، العدو التقليدى ، التى يترأسها الآن أوتو الرابع دوق برنسويك Otto IV of Brunswick ، وقد اشترط عليه البابا إنوسنت الثالث Innocent III عندما وضع التاج على رأسه أن يتعهد بحمل الصليب والاتجاه إلى الشرق فى حملة لاسترداد البيت المقدس ، ولم يكن فردريك استثناءً ، بل كان أحد الثلاثة الذين قدموا هذا الوعد استجابة لدعوة البابوية ، وكان الاثنان الآخران هما فيليب السوابى، الابن غير الشرعى لفردريك الأول بربروسا ، وأخو هنرى السادس ، وأوتو الرابع دوق برنسويك الذى جئنا على ذكره توا ، وهم رجال الحرب الأهلية الطاحنة التى وقعت فى ألمانيا عقيب وفاة هنرى السادس عام ١١٩٨م . وفى عام ١٢٢٠م تكرر المشهد ثانية عند تتويج فردريك الثانى امبراطورا، حيث جدد البابا هونوريوس الثالث Honorius III هذا الشرط ، بحمل الصليب ثانية[٨٠].

---

(٨٠) لمزيد من التفصيلات عن هذا الموضوع ، أنظر ، رأفت عبد الحميد، الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب ، بحث منشور فى مجلة «ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثانى ١٩٨٣، ص١٣٠-١٣٦؛ وله أيضا ، السمو البابوى بين النظرية والتطبيق ، بحث منشور فى مجلة «ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثالث ١٩٨٥ ص٢٠٨-٢١٢ .

وطوال هذه الفترة لم يحاول فردريك الثانى القيام بما عاهد عليه البابا، فقد راح يتعلم تدريجيا أصول السياسة الهوهنشتاوفنية فى مواجهة ادعاءات السلطة البابوية ، أو بتعبير آخر، حقوق السيادة الامبراطورية وضرورة الحفاظ عليها أمام محاولات البابوية وسعيها الدءوب لتحقيق السمو الكامل من خلال نظرية الشمس والقمر التى أطلقها البابا إنوسنت الثالث. ولم ييأس البابا هونوريوس الثالث من حث فردريك الثانى على ضرورة حمل الصليب لانقاذ البيت المقدس ، وازداد إلحاح البابا على الإمبراطور خاصة بعد الفشل الذريع الذى منيت به الحملة الصليبية الخامسة عند دمياط، وتعددت اللقاءات بين الرجلين فى «فيرولى» Viroli سنة ١٢٢٢ ، و «فرنتينو» Ferentino عام ١٢٢٣ ، و«سان جرمانو» San Germano سنة ١٢٢٥ (٨١). وقد بدا واضحا أن فردريك كان حريصا فى كل لقاءاته هذه على تأجيل فكرة الخروج على رأس حملة صليبية قدر استطاعته ، متعللا بانشغاله فى الأمور الداخلية فى ألمانيا والملحة في صقلية ، وعلى هذا النحو تمكن من الحصول على موافقة البابا بأن يكون عام ١٢٢٧ هو التاريخ الفعلى لبدء حملته .

كان هونوريوس الثالث يتحرق شوقا لإتمام هذا العمل الصليبى ليختتم به عمره الذى راح يسعى إلى الفناء ! ويساوره القلق والشك فى نيات الامبراطور ، ويضيق صدره ولاينطلق لسانه حتى لايغضب هذا الامبراطور الشاب فتتبدد أحلامه ، وبلغ معه السعى حدا أهداه فيه مملكة بيت المقدس الصليبية قبل أن يخطو تجاهها خطوته الأولى، ذلك أنه تلقف فكرة «هرمان السالزاوى» Herman of Salza مقدم الفرسان التيوتون ، القائلة بزواج الإمبراطور فردريك الثانى من الأميرة «يولاندا» Yolanda (إيزابيلا الثانية Isabella II) إبنة جان دى بريين ملك بيت المقدس ووريثته ، كى يعقد الزفاف فى عكا أو صور حتى يضمن خروج فردريك الثانى حاملا الصليب ، ولم يكن هذا الأخير أقل سعادة بهذه الزيجة التى سوف تحمل إليه عرش المملكة المقدسة ، وتجعل منه زعيم العالم المسيحى المدافع عن حقوقه ، الحفيظ على مقدساته ، وذلك أمر كان يحرص عليه الحرص كله لتثبيت دعائم نفوذه الإمبراطورى لا فى ألمانيا أو صقلية فحسب بل فى إيطاليا ، وروما نفسها حاضرة مجد الرومان الأقدمين، ومقر الكرسى الرسولى لبطرس أمير الرسل !

---

(٨١) Kantorowicz, Frederick the Second, London 1931, p. 137

غير أن الإمبراطور لم يفعل شيئا مما داعب أحلام هونوريوس الثالث، فلم يذهب إلى عروسه، ولم يخرج إلى الأراضى المقدسة ، فقد ضرب موعدا ولن يُخلفه ، ومن ثم جئ بالعروس الصغيرة إليه وقد حفت بوفد إمبراطورى رفيع المستوى، كان قد بعث به إليها ، وجرت مراسم عقد الزواج ودخل بها فردريك فى ميناء برنديزى جنوبى إيطاليا . وهكذا بات واضحا أن الامبراطور قد عقد العزم فعلا على عدم التحرك بقواته باتجاه الأراضى المقدسة إلا فى الموعد الذى اتفق عليه مع البابا هونوريوس الثالث فى سان جرمانو .

وخلال هذين العامين ١٢٢٥-١٢٢٧ حرص فردريك على توطيد سلطانه الإمبراطورى فى كل من ألمانيا وجنوب إيطاليا وصقلية ، وحاول قدر الطاقة أن يمد هذا النفوذ إلى الشمال حيث مدن العصبة اللومباردية ، حتى إذا كان عام ١٢٢٧ وأكمل فردريك ما ظنه الجميع استعدادات حربية فى طريقها إلى القدس ، وتجمعت القوات التى توافدت على «برنديزى» من كل أنحاء أوروبا ، مات هونوريوس الثالث قبل أن تقر عينه بما كان يمثل له حلم خريف العمر ، ولعل القدر كان به رحيما عندما وافته المنية قبل أن يتفشى الطاعون فى كل هذا القوات ويبدد شملها ، وحتى الامبراطور نفسه ألم به المرض ، وإن لم يصل به إلى حد الهلاك ، فلما أبحر بمن بقى معه من القوات عاندته الأمواج والرياح ، فاضطر أن يلقى مراسيه فى أوترانتو Otranto ، مؤجلا فكرة الزحف نحو الشرق إلى موعد آخر.

ولم يكد البابا الجديد جريجورى التاسع يتربع على عرش البابوية ، حتى استفتح عهده بأصدار قرار الحرمان الكنسى ضد الامبراطور فرديك الثانى، إذ اعتبر عدم خروجه على رأس حملة صليبية مماطلة متعمدة من جانبه لاتستحق غير اللعنة ، فأوثقه بها ؛ ذلك أن فردريك نزل فى أوترانتو فى الثالث عشر من سبتمبر ١٢٢٧ ، ولم يمض على ذلك أكثر من أسبوعين حتى كان البابا قد حرمه من رحمة الكنيسة . وقد ينصرف الذهن للوهلة الأولى إلى أن عدم خروج فردريك بحملة صليبية كان السبب وراء هذا الحرمان ، ولكن المسألة لم تكن على هذا النحو من البساطة ، إذ أنها تدخل فى إطار العلاقة بين البابوية والامبراطورية والتى لم تكن فى جملتها طبيعية ، بل تميزت بالعداء فى أغلب الأحيان إن لم يكن على طول الخط ، وازداد عنفها بشكل واضح جدا على عهد أباطرة أسرة الهوهنشتاوفن، وكل من البابوات اسكندر الثالث وإنوسنت الثالث وجريجورى التاسع ، وكلهم وأوسطهم خاصة، راحوا يقفزون قفزات واسعة باتجاه السمو البابوى ، لتحقيق السيادة على العالم ، من خلال نظرية الشمس والقمر ،

البابوية والامبراطورية، وعلى اعتبار أن البابا هو نائب المسيح على الأرض Vicarius Christi .

وكان جريجورى التاسع واقعا تحت تأثير اعتقاد يقينى بأن الخطر كل الخطر يكمن فى شخصية فردريك الثانى، وأن التسامح معه سوف يجر على البابوية كل الوبال، ومن ثم جعل قهر هذا الامبراطور أكبر همه ومبلغ سعيه، ليس هذا فقط، بل إن هدفه الأساسى الذى جاهد لتحقيقه منذ اللحظة الأولى لاعتلائه العرش، تحطيم هذا الـ «فردريك» تحطيما تاما ، ولم يكن جريجورى التاسع بالرجل الذى يحجم عن النزال ، ورغم تقدم العمر به إلا أنه ظل محاربا عنيدا ، وكاهنا من الطراز الأول، يجيد تماما فنون الاعتزاز بالنفس إلى حد الخيلاء والعجرفة، وظلت النيران المشتعلة فى صدره أيام شبابه، متأججة حتى الآن فى ليالى شيخوخته ، لتتقد بالعداء ضد فردريك الثانى، والكراهية التى لاحدود لها ، ولذا اهتبل هذه الفرصة التى سنحت، ولم يدعها تفلت من بين يديه ، وأقدم على حرمان فردريك الثانى من رحمة الكنيسة ، واضعا نصب عينيه أن هذا القرار هو بداية الطريق الأمثل للقضاء كلية على الهوهنشتاوفن [٨٢]. وإذا جاز لنا أن نعود إلى ما كتبه الأديب «جوزيف جاى ديس» ، متخيلا أن فردريك الثانى يكتب مذكراته، وجدناه يقول على لسان الامبراطور، « ... إن أية توبة يمكن أن أقدمها غير مقبولة منى ... فلن يقبل منى سوى التنازل عن مملكة صقلية لتكون تحت حكم البابا ... لقد أماط جريجورى اللثام عن النزاع الدفين، وقد تلخصت مخاوفة فيما يلى : نمو الدولة الزمنية والإصلاح الكنسى وهما ما تمسكت بحقى فيها ... والآن يريد أن يتحكم فىّ ويوجه مسلكى كى أسير على هواه. لقد أعلن الحرب على شخصى، وهى حرب لارحمة فيها ولاهوادة [٨٣]. فلقد كان الهلع يتسلط على البابوية من جراء سيادة أسرة الهوهنشتاوفن على صقلية منذ خطب فردريك الأول بربروسا الأميرة كونستانزا وريثة عرش النورمان لابنه هنرى السادس ، فأمست البابوية على هذا النحو واقعة بين قدمى الإمبراطورية ، الأولى فى ألمانيا والثانية فى صقلية[٨٤].

---

(٨٢) Kantrowicz, Frederick, pp. 170-171 .

(٨٣) جوزيف جاى ديس، الزنديق الأعظم ، ترجمة أحمد نجيب هاشم، ص٣٥٦-٣٥٧ .

(٨٤) لمزيد من التفصيلات عن هذا الخطر الذى كانت تستشعره البابوية من جراء هذا الارتباط بين =

ولم تكتف البابوية بهذا الحرم الكنسي الذى أنزلته على أم رأس فردريك الثانى، بل راحت تلاحقه أينما حل، وواصلت ملاحقتها له حتى الأراضى المقدسة وبلاد الشام ، وبعثت برسلها إلى هناك تطلب إلى الصليبيين عدم الترحيب أو التعاون مع هذا الامبراطور «الملعون» ، وتحرض حكام المسلمين ضده للقضاء عليه وعلى مشروع حملته التى لم تباركها البابوية. وكانت البابوية جادة تماما فى هذا السبيل ، إذ أنها كانت تعلم علم اليقين أن أى نصر يحققه الامبراطور فى الشرق سوف يكون وبالا على الكرسى الرسولى الرومانى ، إذ أنه يحمل فى جوهره تعرية لـ «قدسية» البابوية و«بركاتها» التى تخلعها على هذه الحملات[٨٥] حيث تمسى بذلك جوفاء لاقيمة لها، وهذا ما كان يؤرق جفنى جريجورى التاسع ، ويدفعه دفعًا إلى تصعيد نغمة العداء مع أبرز أفراد أسرة الهوهنشتاوفن والسلطة الامبراطورية، فردريك الثانى .

وقد تكون البابوية محقة فعلا فيما ساورها من شكوك فى نيات فردريك الثانى حول جدية الخروج على رأس حملة صليبية لاسترداد البيت المقدس، فقد ظل فردريك خمسة عشر عاما (١٢١٢-١٢٢٧) بعيدا كل البعد عن التفكير فى هذا المشروع الصليبى برمته ، ومن المحتمل أن يكون انصراف الإمبراطور طيلة هذه السنوات إلى تثبيت نفوذه الملكى فى ألمانيا أمام إدعاءات أمراء الاقطاع ، وإقرار سيادته الامبراطورية فى إيطاليا وصقلية فى مواجهة مدن العصبية اللومبارية شمالا واضطرابات النورمان جنوبا ، نقول من المحتمل أن يكون ذلك قد ترك أثره فى مسألة حمله الصليب ، لكن من المرجح تماما أن ذلك لم يدر بخلده عبر هذه السنوات ؛ بل لن نكون مبالغين إذا ذهبنا إلى القول ، استنادا لما جرت به الأحداث ، إن عدة تساؤلات كان يتردد صداها فى ذهن فردريك الثانى ويلح عليه، لماذا تدور رحى هذه الحرب التى تنعتها البابوية بـ «المقدسة» ؟ وهل هى حقا مقدسة ؟ وما هو الدور الغريب الذى تلعبه البابوية فى تأجيجها ؟ وما مدى الفائدة التى جنتها من وراء ذلك ؟ وهل المسلمون حقا بمثل هذا الذى تنعتهم به الدوائر الكنسية وعلى رأسها البابوية فى الغرب ، من التعصب

= ألمانيا وصقلية ، أنظر ، رأفت عبد الحميد، المشكلة الإيطالية فى السياسة الألمانية ، بحث منشور فى «المجلة التاريخة المصرية، القاهرة ١٩٨٤ ص٢٨٢-٢٨٧ .

(٨٥) راجع الفصل الأول .

والهمجية؟! وهل كان هؤلاء القوم الذين أمضى بين ظهرانيهم طفولته وصباه وسنى شبابه الأولى، أعنى المسلمين ، يستحقون فعلا كل ما جرى لهم فى بلادهم على أيدى جند المسيح هؤلاء كما تسميهم الكنيسة ؟ علامات استفهام كبيرة ارتسمت فى مخيلة الرجل وهو يتابع هذا الإلحاح المستمر من البابوات لدفعه للخروج بحملة صليبية إلى الشرق لحرب المسلمين !

لقد نشأ الطفل فردريك هذا فى صقلية ، فقد مات أبوه هنرى السادس عام ١١٩٧ وهو لم يكمل بعد الرابعة من عمره ، فتولت أمه كونستانزا النورمانية الوصاية عليه، حتى إذا أدركها الموت فى السنة التالية (١١٩٨) انتقل الطفل إلى وصاية البابوية بوصية من أمه قبل وفاتها ، ولما كانت البابوية آنذاك على عهد انوسنت الثالث (١١٩٨- ١٢١٦) فى شغل شاغل بنفسها وسموها عمن سواها ، تدس أنفها وأصابعها عن عمد فى ذلك الصراع الأهلى الطاحن فى ألمانيا حول العرش ، والدائر بين فيليب السوابى ، الأخ غير الشرعى لهنرى السادس، وأوتو الرابع دوق برنسويك ، زعيم الولفيين ، فإنها لم تلتفت مطلقا إلى ذلك الصبى فردريك، ولم تعره اهتماما ، وأوضحت ذلك فى وثيقة رسمية أصدرتها فى عام ١٢٠١ ، وجاء فيها الاعتراف بأحقية الطفل فى العرش ، والتأكيد فى الوقت نفسه على أنها لاتملك الوقت الكافى لرعايته وتنشئته كما تقضى الوصاية الحق [٨٦]، وهكذا ترك الصبى فردريك وشأنه ليشب فى حارات صقلية وشوارعها ، وليعتمد على نفسه، فى تربية نفسه ، وليفتح عينيه على كل ما خلفه المسلمون فى الجزيرة من جوانب حضارة راقية ، حرص النورمان خلفاؤهم على الإبقاء عليها والإفادة منها قدر الطاقة ، وكان ملوكهم أكثر ذكاء من ملوك رسبانيا والبرتغال الذين بذلوا الجهد كله لطرد المسلمين من شبه الجزيرة إبان حركة الاسترداد. وأدرك فردريك الشاب ، بعقل واع وبصيرة نافذة عرفت عنه، أنه أمام تراث حضارى ضخم وقف إزاءه مشدوها ، ورسخ فى ذهنه تقدير قيمته ، وانعكس ذلك واضحا فى إجادته للغة العربية ، وفيما أثر عنه عندما غدا من بعد ملكا امبراطورا من عدم اهتمامه بالشئون السياسية الألمانية بقدر ولعه بأيطاليا وصقلية . وبدا هذا وضاحا فى أنه خلال الثمانى والثلاثين سنة (١٢١٢-١٢٥٠) التى حكمها، لم يمض منها فى ألمانيا سوى تسع شنوات فقط، وعلى فترتين !

---

(٨٦) Immocent III, The decision of the disputed election of Frederick, Philip of Suabia, and Otto , 1201 (in Thatcher & Mc Neal, A Source book for mediaeval history, pp. 220-227).

ولعل هذا هو الذى دفع هنرى بيرين H. Pirenne إلى أن يتسا ىل فى صراحة .. ماذا كانت ألمانيا تعنى لفردريك ؟ ويجيب في وضوح : لقد كانت مجرد طريق عليه أن يسير فيه ليعتلى عرش القياصرة ، أما قوته الرئيسية فكانت تتمثل فى صقلية ... إنه لم يكن حتى يجيد الحديث بالألمانية (٨٧). بل لقد كان فى رأى «ويلى»(٨٨) D. Waley يمقت ألمانيا ، بل ويعتبرها «أرض الأحراج الكئيبة، والمدن الموحلة والقلاع المنفرة »(٨٩) ، بينما كانت إيطاليا وصقلية بالنسبة له، حسب تعبير «كانتروفتش»(٩٠) «مرفأه الأمين من الطوفان ، وفردوسه الحانى وسط غابة الأشواك»! ومن ثم فإن اهتمامه بألمانيا كان للحصول على اللقب الإمبراطورى فقط، وبالتالى تدعيم نفوذه وسلطانه فى إيطاليا وصقلية .

وقد قدر لفردريك أن يظل فى صقلية حتى العام السادس عشر من عمره ، عندما تم استدعاؤه من قبل البابا انوسنت الثالث، ليتوج ملكا على ألمانيا بعد اغتيال عمه فيليب السوابى سنة ١٢٠٨ ، وليزج به فى آتون الحرب الأهلية ضد أوتو الرابع دوق برنسويك، الذى قلب للبابوية ظهر المجن بعد أن أصبح وحيدا فى الساحة السياسية والعسكرية ، وأدرك جيدا مقاصد البابوية وسعيها الدءوب للسيادة على الحكام الزمنيين، طريقا إلى السمو !

من هنا كانت السنوات التى أمضاها فردريك الثانى فى صقلية ، وهى الفترة الباكرة من العمر والتى يتم فيها تشكيل العقل وغرس القيم واحترام التقاليد ، ويقدر حنقه على البابوية وكراهيته الشديدة لها، لتركها له دون رعاية خلافا لوصية أمه ، إلا أنه أفاد من هذا «الإهمال البابوى» فى الإحاطة بهذه الثقافة العريضة التى أحاطت به فى صقلية ، والإلمام والولع بكثير من جوانب الحضارة الإسلامية فى الجزيرة ، وازداد رد فعله تجاه البابوية عندما ساقته إلى هذه الحرب الأهلية مباشرة ، عقب استدعائه من صقلية ، تحت دعوى الحفاظ على حقوقه فى التاج

= ولمزيد من التفصيلات عن هذه المسألة والوثيقة ، أنظر ، رأفت عبد الحميد، الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب، ص١٣٣-١٣٧ .

(٨٧) Pirenne, A history of Europe , London 1951 , pp. 314-315 .

(٨٨) Waley, Later Medieval Europe from St. Loius to Luther , London 1976 , p. 220 .

(٨٩) Barraclough, The origins of Modern Germany, Oxford 1937, p. 220 .

(٩٠) Frederick the Second, p 220 .

الألمانى ، وما أدركه خلال السنوات التالية قبل تتويجه امبراطورا من محاولات البابوية لجعله خاضعا لسلطانها ، سائرا فى ركاب رغائبها ، حتى إذا حمل التاج الامبراطورى (١٢٢٠) لمس بوضوح الاتجاه أو النزعة الاستقلالية لدى رجال الاكليروس الألمان بتأييد من البابوية ، إضافة إلى التعهدات التى فرضتها عليه البابوية فيما يتعلق بضرورة حمل الصليب باتجاه الشرق لانقاذ البيت المقدس ، ثم ما كان من أمر الاغراءات التى قدمت إليه ليخلع على نفسه لقب ملك بيت المقدس حالة زواجه من يولاندا وريثة عرش المملكة ، ولهذا نراه يقبل هذه الزيجة، ليبين للبابا- ظاهريا- أنه سائر فى طريق الشرق حاملا الصليب، وفى الوقت نفسه يدعو فى العام التالى مباشرة (١٢٢٦) لعقد مؤتمر فى «كريمونا» Cremona يعلن فيه حرصه الكامل على حقوق الامبراطورية فى السيادة على المدن اللومباردية . وكان هذا المؤتمر فى جوهره موجها لإدعاءات البابوية فى شمالى إيطاليا . من هنا لم نكن مبالغين عندما أسلفنا القول، إن قرار الحرمان الكنسى الذى صدر ضد الإمبراطور عام ١٢٢٧ لم يكن ناجما عن عدم خروجه إلى الشرق فى ظل الصليب ، بل كان جزءا أساسيا من رحلة طويلة لعلاقات غير طبيعية ، معقدة بين البابوية والامبراطورية، وإن فردريك لم يكن راغبا أصلا فى الخروج بمثل هذه الحملة الصليبية .

لقد كان فردريك الثانى- على حد تعبير «رنسيمان»[٩١] يمتلك قدرا عاليا من الفكر والثقافة الواسعة ، وعقلا ذكيا، يعرف ست لغات هى الفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية والعربية . متضلعا من الفلسفة ، عالما بالطبيعيات ، عارفا بالطب والتاريخ الطبيعى ، على قدر كبير من الإلمام بأحوال الأمم والبلدان الأخرى ، يأخذ حديثه - متى شاء بالألباب، وإن كان يحمل إلى جانب ذلك صفات أخرى تتمثل فى القسوة وعدم التسامح مع أعدائه . ويمضى «رنسيمان» فى حديثه قائلا إن فردريك لم يكن رجلا بلادين irreligious كما أشيع عنه ، بل كانت مسيحيته لاتقل عن بعض الأباطرة البيزنطيين، بل كان ينظر إلى نفسه باعتباره «نائب المسيح» على الأرض[٩٢]، ولعل هذا هو السبب الرئيسى فى عداء

(٩١) Crusades, III, p. 175 وقد عقد الدكتور سعيد عاشور دراسة خاصة عن شخصية فردريك الثانى وثقافته تحت عنوان «الامبراطور فردريك الثانى وعلاقته بالشرق العربى، المجلة التاريخية المصرية، العدد الحادى عشر، ١٩٦٣ ، ص١٩٥-٢١٣ .

(٩٢) Runciman , Crusades, III, p. 176 .

البابوية تجاهه وكرهها العميق له، حيث كان البابوات ابتداء من انوسنت الثالث يحملون اللقب نفسه ، بعد أن كانوا مجرد خلفاء لبطرس حتى القرن الثالث عشر الميلادى .

ولم يكن فردريك الثانى يجد أى غضاضة فى أن يبدى اهتماما معينا بديانات أخرى، وخاصة الإسلام ، حيث وقف على كثير من أصوله على امتداد حياته ، لطول إقامته فى صقلية ، ولم يكن ينظر إلى الكنيسة البيزنطية على أنها كنيسة منشقة كما تعتبرها كنيسة روما ، ولعل هذا هو الذى دفع بعض المؤرخين المسلمين إلى القول عنه «إنه كان دهريا وكان يتلاعب بالنصرانية»[٩٣] ورغم أنه كان فى دمائه نصف ألمانى ، نسبة لأبيه ، ونصف نورمانى، نسبة لأمه، إلا أنه كان فى تنشئته صقليا ، لقد كان طفلا ترعرع فى جزيرة كانت نصف يونانية ونصف عربية ، ومن ثم فقد استطاع بذكائه الحاد أن يفهم طبيعة المسلمين وعقليتهم ، وأن يدرك تماما دهاليز الدبلوماسية الإسلامية[٩٤].

ولنترك القلم الآن للمؤرخ «هربرت فيشر» H. Fisher[٩٥] ليعرض لنا فى عبارات بليغة شخصية فردريك الثانى، فنجده يقول : «اتصف فردريك الثانى بصفات قَلّ أن تجتمع فى رجل واحد، إذ أجاد الكتابة والكلام فى ست لغات ، ونظم الشعر العاطفى فى نغم دافئ دفء أنغام الصقليين الذين نشأ بينهم ، وأغدق من ماله وعنايته لتشجيع العمارة والنحت والتعليم ، وهو إلى جانب ذلك جندى بارع وسياسى لبق إلى أقصى درجات اللباقة ، مع الجسارة التى لاتخشى خاشية ، والنزعة الفكرية الجانحة إلى ميادين الفلسفة والفلك والهندسة والجبر والطب والتاريخ الطبيعى. وألف فردريك فى البَيْزَرة (علم تربية الصقور وتدريبها على الصيد والقنص) كتابا هو أصل من أصول العلوم التجريبية فى غرب أوروبا ... ولم تكن التقاليد والقيود المسيحية التى التزمها أمثال ملك فرنسا القديس لويس فى ذلك العصر، مما يأبه له فردريك الذى نشأ فى صقلية ، حيث ملتقى الأجناس والأديان ، بل اصطنع فردريك المسلم واليهودى، وعرف لكل منهما قدره ومكانه ، مع أنه سلك مسلك الرهبان الدومنيكان فى

---

(٩٣) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان، جـ٨ ص٦٥٦ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب ، ص٢٩٤ .

(٩٤) Runciman, Crusades, III, p. 176

(٩٥) تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٦٦ ، جـ٢ ص٢٤٩ - ٢٥٠ .

الصرامة الدينية ... والواقع أن ثمة صفات خارقة اجتمعت فى ذلك الامبراطور الذى عالج شئونه السياسية فى نشاط هائل وواقعية بصيرة ، كما اشتهر بالتصوف والتشكك فى آن واحد، مع الجرأة والثورة على القديم فى جميع مناهجه وآرائه». ويضيف المؤرخ إرنست باركر فى كتابه عن الحروب الصليبية قوله : «كان فردريك يتصرف بروح ملك صقلية لابروح ملك بيت المقدس، وهو ما كان لابد أن يقوم به، فمن أسلافه القليلين ، الذين عقدوا معاهدات تجارية مع مصر ، تعلم فردريك أن يجعل من الحرب، وإن كانت صليبية ، مسألة معاهدة . فعلى الرغم من أن الفرع النورمانى الذى انحدر منه ملوك صقلية كاد يختفى فإن سياسته بقيت من بعدهم عند من خلفهم من ملوك الهوهنشتاوفن، والتى أمعنت فى أن تجعل للحملة السادسة مظهرها الدنيوى والدبلوماسى المجرد من الدين».

ولقد أفاض المؤرخون المسلمون فى خلع مثل هذه الصفات أو بعض منها على فردريك الثانى وقد بهرتهم شخصيته ، وكان من بين ما قاله نفر منهم(٩٦) «إنه كان مائلا إلى المسلمين لأن مقامه فى الأصل ومُرَبّاه بلاد صقلية ... وأهل تلك الجزيرة غالبهم المسلمون»، ولايخفى علينا ما تشير إليه هذ العبارة من العلاقات التى كانت قائمة بين فردريك وملوك بنى أيوب، والتى استمرت على عهد الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل . على أنه من الأهمية بمكان إدراك أن هذا «الميل» لم يكن تجاه «الإسلام» فى حد ذاته إلى الدرجة التى «قيل» فيها «إنه كان مسلما» !! (٩٧) ، فالرجل كان عاهل الامبراطورية الرومانية المقدسة فى المقام الأول، يعمل لصالح دولته وهيبة الإمبراطور ، فهو لم يتورع عن إعدام أحد الرهبان المسيحيين بعد اتهامه بالهرطقة ، ولم يتردد فى زجر وتوبيخ واحد من القسيسين عندما رآه يهم بدخول المسجد الأقصى أثناء زيارة فردريك لبيت المقدس بعد توقيع اتفاقية يافا وهو لم يتوان فى المقابل لحظة واحدة فى القضاء بعنف على القلاقل والاضطرابات التى أثارها المسلمون بين الحين والحين فى صقلية ، وذلك من أجل تثبيت دعائم سلطانه فى قاعدة ملكه(٩٨) حيث كانت الجزيرة هكذا بالنسبة له، وليس فى كل هذا أى تناقض فى شخصيته ، فلاضير مطلقا أن يأخذ عن غيره من

---

(٩٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ص٢٣٤ .

(٩٧) ابن أيبك ، الدر المطلوب، ص٢٩٤ .

(٩٨) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص١٩٤-١٩٥ .

أصحاب الديانات الأخرى، بفكر متفتح وعين واعية ، ما يفيد دولته ويعود على نظمها بالتطور، فى الوقت الذى لايسمح فيه لأصحاب هذه الديانات أو الأفكار بأحداث الضرار داخل هذه الدولة ، ومن ثم فقد عمل- كما قال فيشر- على أن يصطنع المسلم واليهودى، ويعرف لكل منهما، فى الوقت نفسه ، قدره ومكانه .

لهذا كله لم يكن غريبا فعلا أن يحظى فردريك الثانى بلقب «محير العالم» أو «أعجوبة الدنيا» Stupor mundi الذى أطلقه عليه معاصروه ، تعبيرا عن هذه الصفات المتعددة التى اجتمعت له فى شخصه ، والتى قد تبدو للوهلة الأولى لأعين الرائين متناقضة متباينة، وإن كانت الحقيقة غير ذلك تماما .

وفى الجانب الآخر من البحر المتوسط كان الملك الكامل بمثل هذه الصفات ، والتى تحدثنا عنها فى صدر هذا الفصل وخلال صفحاته ، والتى جمعت بين الحزم والمهابة وشدة البأس ولين الجانب وسداد الرأى وحسن السياسة وحدة الذكاء، هذا كله إلى جوار الصفة المميزة لملوك بنى أيوب جميعهم ، أعنى التسامح مع الاقتدار ، وكان الكامل هنا شديد الشبه تماما بعمه الناصر صلاح الدين الأيوبى . أما ما كان يتصف به الملك الكامل من حب للعلم وإيثار للعلماء، وسعة الاطلاع ، والإلمام الكبير بفروع المعرفة الإنسانية ، وتنوع الثقافة ، فحدث عنه ولاحرج كما حدث عنه مؤرخو عصره واللاحقون .

والذى يلفت النظر فعلا، أنه إذا كان الأيوبيون قد حققوا شهرة واسعة فى ميدان الجهاد الحربى ضد الصليبيين ، هجوما ودفاعا ، فى الشام وعلى أرض مصر، واحتلوا بذلك مكانة مرموقة فى نفوس المسلمين، فإنهم فى الوقت نفسه حظوا بسمعة طيبة فى المجال الثقافى، وبلغوا منزلة راقية فى النواحى الفكرية والأدبية ، نتيجة اهتمامهم بالمسائل التعليمية ، وتقديرهم واحترامهم للعلماء والمفكرين وذوى الرأى، ولم يشغلهم الجهاد العسكرى عن الجهاد الفكرى، فتحقق لهم النجاح فى الحقلين، ومن ثم لم يكن غريبا أن نرى عددا لابأس به من ملوك بنى أيوب فى مصر والشام كانوا فى عداد هؤلاء العلماء والمفكرين والأدباء، مثل الكامل والمعظم وابنه الناصر داود والمؤيد صاحب اليمن المتوفى سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م ، وبهرام شاه ابن فرخشاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨هـ ١٢٣١م، والمؤرخ أبو الفدا اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه المتوفى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م صاحب كتاب المختصر فى أخبار البشر، والملك المنصور صاحب حماه المتوفى سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م ، ويأتى على رأس هؤلاء

جميعا مؤسس الأسرة صلاح الدين الأيوبى. ولذا فلاغرو أن تنتشر المدارس بصورة تجل عن الحصر فى مصر والشام ، وأن يوقف عليها الكثير من الأراضى حتى تستطيع أن تؤدى رسالتها العلمية على خير حال .

أما الملك الكامل فـ «كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم عنده، وشغف بسماع الحديث النبوى. وكان يناظر العلماء ، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها ، فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده . وكانت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم ... فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه»(٩٩) . وقد اشتملت مجالسه العلمية على مختلف فروع المعرفة الإنسانية، كما كان ذواقا للشعر راغبا فى حفظه ولديه المقدرة على ذلك والقدرة على قرضه(١٠٠) . وقد عمر قاعة بقلعة الجبل يجلس فيها مع الفقهاء والصالحين فى شهر رمضان من كل عام أطلق عليها «قاعة رمضان»(١٠١) وقد أفرد ابن واصل صفحات طوال للحديث عن علم الكامل وحسن معاملته للعلماء واحترامه لهم وتقديره إياهم ، وسعيه الجاد ليجئ بهم إلى بلاطه فى مصر من مختلف أماكن إقامتهم (١٠٢) . وكان هؤلاء من الفقهاء والنحاة والمناطقة وعلماء الأصول والطب والمحدثين والأدباء ، وكانوا جميعا «يحاورونه - على حد قول ابن واصل(١٠٣) فى العلوم والآداب».

وهكذا كانت سعة الثقافة ومحبة العلم واحترام العلماء وتقديرهم والبعد عن التعصب ، القاسم المشترك الأعظم بين الرجلين ، الملك الكامل الأيوبى والامبراطور فردريك الثانى الهوهنشتاوفنى، ومن هذا المنطلق لم يجد الامبراطور أى حرج فى أن «يُسَيِّر إلى السلطان مسائل حِكمية ومسائل هندسية ورياضية مشكلة، ليمتحن بها من عنده من الفضلاء ، فعرض الملك الكامل ما أورده من المسائل الرياضية على الشيخ علم الدين قيصر بن أبى القاسم إمام

---

(٩٩) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ص٢٥٨-٢٥٩ ؛ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٦ ص٢٣٢ ، ٢٣٧ .

(١٠٠) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ص٢٣٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ص٣٧٧ .

(١٠١) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ص٢٢٨ .

(١٠٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ص١٥٨-١٦٩ .

(١٠٣) المصدر السابق ، جـ٥ ص١٦٤ .

هذه الصناعة، وعرض الباقى على جماعة من الأفاضل فأجابوا عن الجميع (١٠٤). وكان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، أحد أبرز رجالات عصره ثقافة وكياسة، ومستشار الملك الكامل، هو همزة الوصل بين الرجلين، شهد له الامبراطور فردريك بالكفاءة والذكاء (١٠٥). وعلى هذا النحو تماثلت أو تقاربت خصال العاهلين، الكامل وفردريك، وأضحيا كأنما يعيشان فى عصر غير عصرهما، وحق للمؤرخ «كانتروفتش» أن يقول عنهما «بأنهما كانا وجهين لعملة واحدة، وكان الكامل هو الوجه الشرقى للامبراطور، بينما كان فردريك هو الوجه الغربى للسلطان» (١٠٦).

ومن هذا المنحى أيضا لم يكن غريبا أن يتعرض كل من الامبراطور والسلطان لحملة ضارية من النقد والتجريح من جانب معاصريهم وخاصة رجال الدين، الكامل لما عُدَّ «تفريطا» فى حق المسلمين بتسليم القدس إلى «الفرنجة»، وفردريك لما اعتبر «تهاونا» فى قتال المسلمين، وأنه ما كان له أن يهادنهم والحرب قائمة بين المعسكرين، ورغم كل ما تحقق من نجاح على يد فردريك لم يحظ بمثله الصليبيون منذ الحملة الأولى، إلا أن ذلك كله لم يغفر للإمبراطور خطيئته هذه، فقد خرج ملعونا محروما، وحمل التاج الملكى لبيت المقدس وهو على هذه الصفة من الحرمان واللعنة.

وهناك نقطة على جانب كبير من الأهمية توقف عندها المؤرخون القدامى منهم والمحدثون، نعنى إقدام الكامل على الاستنجاد بفردريك ليكون عونا له على أخيه المعظم، وتوقفنا المصادر المعاصرة لتلك الأحداث أن السلطان أقدم على ذلك «لشغل سر أخيه الملك المعظم» (١٠٧). ولم يكن الأخير فى حد ذاته قوة يمكن أن يستعصى استئصالها على الكامل، ولكن خطورة المعظم تمثلت فى أمرين، أولهما أنه حرص على أن يأخذ العهود والمواثيق على أخيه الملك الأشرف ليقفا معا ضد أخيهما سلطان مصر، وإن كان الأشرف قد «رجع عن جميع

---

(١٠٤) المصدر السابق، جـ٤ ص٢٤٢، وانظر أيضا، المقريزى، السلوك، جـ١ ص٢٣٢.

(١٠٥) انظر الفصل الرابع.

(١٠٦) Kantorowicz, Frederick the Second, p. 185.

(١٠٧) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢ ص٢٠٦.

ما قرره مع أخيه المعظم إلا موافقته فيما طلب»[١٠٨] ، وثانيهما وأخطرهما هو استعداء جلال الدين السلطان الخوارزمى على أخيه الكامل، وتهديد الأشرف أيضا بهؤلاء الخوارزمية، وبلغ الأمر بالمعظم أن حرضهم على حصار أخلاط حاضرة الملك الأشرف، يقول ابن العديم [١٠٩]، «وكاتب الملك المعظم خوارزمشاه وأطمعه فى بلاد أخيه الأشرف» ! ويبرر المعظم هذا الذى أقدم عليه بأنه قد فقد الثقة فى قدرة الخليفة العباسى على حسم الخلاف القائم بينه وبين أخويه ، بعد أن أمسى الخليفة عاجزا حتى عن حماية نفسه ممن يحيطون بعرشه[١١٠].

ويقرن المؤرخون بين استنجاد المعظم بخوارزمشاه ، واستدعاء الكامل لفردريك لنجدته ، ولايجدون فارقا كبيرا بين الفعلين، وإن كان نصيب سلطان مصر من اللوم أكثر لاستعانته بقوة غير اسلامية تناصب المسلمين العداء، وتحتل جزءا من بلادهم على سواحل الشام. لكن الأمور لم تكن هذا النحو من البساطة، ذلك أن الخوارزمية كانوا أشد خطراً وأبعد أثرا، فجلال الدين كان رجلا شديد الطموح واسع الأطماع متهورا، بلغت به طموحاته إلى حد فكرة إقامة دولة إسلامية كبيرة تحت سلطانه ، تضم هذه الكيانات الإسلامية الموجودة فى الشام والجزيرة وفارس، وجاء ذلك فى وقت كانت فيه جحافل المغول تتأهب لاكتساح هذا العالم الإسلامى والسيادة عليه، وبدلا من أن يأتلف جلال الدين خوارزمشاه حكام هذه الكيانات ، ويضم صفوفه إلى صف الخليفة العباسى ، راح يعتدى على أراضى الدولة العباسية ، ليضعف

---

(١٠٨) ابن العديم ، زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، جـ٣ ص١٩٩-٢٠١ ؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ٥ ص٢٦٦ .

(١٠٩) زبدة الحلب، جـ٣ ص١٩٧ .

(١١٠) ابن أيبك ، الدر المطلوب ، ص٢٨١ ، ويخبرنا ابن أيبك أن جمال الدين يوسف بن الجوزى قدم رسولا من بغداد إلى المعظم ، وقال له بلسان الخليفة : «تخرج عن موافقة هذا الخارجى جلال الدين، ونحن نصلح بينك وبين إخوتك ، فأجاب المعظم متسائلا « إذا أنا رجعت عن جلال الدين الخوارزمى ، وقصدنى إخوتى ، تنجدوننى أنتم ؟! قال نعم ، فقال المعظم : «والله ما لكم عادة بنجدة أحد قبلى حتى تنجدوننى أنا، هذه كتب الإمام الناصر (الخليفة العباسى) عندى ونحن على دمياط فى حرب الفرنج ، وهو الجهاد الأعظم المفترض على كل مسلم، دع أن يكون إمام المسلمين ؛ فيجئ الجواب بعد التوقف أن قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة فلم يقبلوا ... وأنا فقد اتفق علىّ إخوتى، وقد أنزلت جلال الدين الخوارزمى على أخلاط ، فإن قصدنى الأشرف منعه الخوارزمى، وإن قصدنى الكامل كان فىّ - إن شاء الله- له».

بعضهم بعضا مما سهل على المغول القضاء عليهما معا فيما بعد (١١١). ولم تغب حقيقة الأطماع الخوارزمية هذه عن فطنة الكامل وذكاء المؤرخ المعاصر ابن واصل الذى أخبرنا أنه «لما علم الملك الكامل انتماء أخيه المعظم إلى سلطان العجم جلال الدين خوارزمشاه ، خاف أن يكون اتفاقهما سببا لزوال الدولة، فأرسل الأمير فخر الدين يوسف إلى الامبراطور فردريك» (١١٢)، خاصة وأن الكامل يعلم جيدا أطماع أخيه المعظم فى ملك مصر منذ وقت بعيد ، وأنه كان يحسد الكامل على ملكها واستئثاره بها منذ أوصى له بها أبوه العادل .

ولم يغب عن فطنة الكامل أيضا أن فردريك لم يكن كغيره من ملوك أوروبا الذين سبقوه وحملوا الصليب فى حملات عسكرية إلى الشرق، ولم تكن هذه المعرفة أمرا بعيد المنال فى عصر الأسرة الأيوبية الثانية التى ابتدأت بالعادل سيف الدين أبى بكر والد الكامل، والتى ارتبطت باتفاقيات للهدنة ومعاهدات تجارية مع القوى الصليبية، سواء فى ساحل بلاد الشام أو المدن التجارية الإيطالية ، إلى الحد الذى دفع البابوية إلى أن تهدد هذه المدن خاصة البندقية وجنوة بالقطع من شركة الكنيسة والحرمان من رحمتها (١١٣)، وكان أمرا طبيعيا أن ينقل

---

(١١١) ليس أدل على ذلك مما يقوله المقريزى : «عاد السلطان جلال الدين ابن خوارزمشاه إلى بلاده ، وقوى أمره على التتر، واستولى على عراق العجم ، وسار إلى ماردين وأخذها ، وسار إلى خوزستان ، وشاقق الخليفة الناصر (لدين الله) ، وسار حتى وصل بَعْقُوبا ، وبينها وبين بغداد سبعة فراسخ ، فاستعد الخليفة للحصار، ونهب جلال الدين البلاد ، وأخذ منها مالايقع عليه حصر، وفعل أشنع مما يفعله التتر ، فكاتبه الملك المعظم ، واتفق معه معاندة لأخيه الملك الكامل ، ولأخيه الملك الأشرف ، صاحب البلاد الشرقية». ويقول فى موضع آخر : «فلما خلا سر (جلال الدين) من (المغول) سار إلى خلاط- من بلاد الأشرف- فنهب وسبى الحريم، واسترق الأولاد ، وقتل الرجال، وخرب القرى، وفعل مالم يفعله أهل الكفر، ثم عاد إلى بلاده ، وقد زلزل بلاد حران والرها ، وما هنالك ، ورحل أهل سروج إلى منبج ، وكان قد عزم على قصد بلاد الشام لكن صرفه الله عنها». السلوك ، جـ١ ص٢١٥-٢١٦ ، ٢٢٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ص٢٣٥ ؛ أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ص١٤١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦٢٣هـ .

(١١٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ص٢٠٦ .

(١١٣) ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم، ص٤٢ ؛ هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا محمد ، جـ٢ ص٢٣ وما بعدها ؛ عفاف صبرة ، العلاقلات بين الشرق والغرب ، علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠ ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص٩٠ .

التجار اللاتين أخبار ما يجرى فى أوروبا إلى الشرق ، ولابد أن تكون أخبار البابوية والامبراطور وطبائع هذه الأخير فى علاقاته هذه من بين تلك الأخبار التى وقف عليها الكامل الأيوبى، خاصة وقد ذكر لنا الرحالة بنيامين التطيلى أنه من بين ثمانية وعشرين مدينة تجارية كان لها تجارها فى الاسكندرية، كانت هناك صقلية ولمبارديا[١١٤] ويعلق «هايد»[١١٥] على ذلك بقوله : «كان تجار صقلية يتمتعون خلال القرن الثانى عشر الميلادى بتخفيض فى التعريفات الجمركية فى ميناء الاسكندرية، وظلت الحركة التجارية بين مصر وصقلية نشطة كالمعتاد ، واستمرت كذلك زمنا طويلا بعد زوال الأسرة النورمانية الحاكمة»، أى بعد انتقال صقلية إلى سيادة أسرة الهوهنشتاوفن . ولما كان معروفا عن فردريك الثانى اهتمامه الكبير بازدهار تجارة الامبراطورية ، كان لابد أن يعمل على زيادة دور تجار صقلية فى البحر المتوسط، ونحن نقف على ذلك مما يرويه مؤرخنا المقريزى[١١٦] من أن الامبراطور كان حريصا منذ بدأت مراحل المفاوضات مع الكامل على أن يحصل على الاعفاء الكامل لرعاياه من التجار فى ميناءى الاسكندرية ودمياط، وإن لم يستطع أن يحقق فى هذا الجانب نفس القدر من النجاح الذى حققه على المستوى السياسى .

ومن مراجعة تواريخ هذه الوقائع تتضح لنا حقيقة هامة عن طبيعة الاتصالات التى جرت بين الكامل وفردريك قبل قدومه إلى الشرق، فالمعظم كاتب جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م ، والكامل أرسل سفارته التى رأسها الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى فردريك فى عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م [١١٧]، ومن عبارة أوردها ابن واصل[١١٨] نعرف متى كان خروج هذه السفارة ومتى كان وصولها إلى صقلية ، يقول مؤرخنا : «وكان مسير الأمير

---

(١١٤) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، جـ٢ ص٣٨-٣٩ .

(١١٥) المرجع السابق، ص٤٢ .

(١١٦) السلوك ، جـ١ ص٢٢٨ .

(١١٧) ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٤ ص٢٠٦ ، ويذكر المؤرخ Runciman , Crusades, IIIp . 184 أن الكامل أرسل هذه السفارة فى خريف عام ١٢٢٦م ، ومن المعروف أن الأول من يناير سنة ١٢٢٧م يوافق الحادى عشر من المحرم سنة ٦٢٤هـ .

(١١٨) مفرج الكروب ، جـ٢ ص٢٣٤ .

فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى الإمبراطور من جهة السلطان الكامل «في آخر أيام الملك المعظم» ، ولما كان المعظم قد مات في ذى القعده من سنة ٦٢٤هـ أو ما يوافق الحادى عشر من نوفمبر ١٢٢٧م، فلابد أن يكون فخر الدين قد أتى صقلية في أخريات هذا العام أو أوائل ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م . بمعنى آخر، أن رسول الكامل قدم على الإمبراطور بعد أن كان قد صدر ضده قرار الحرمان الكنسى من جانب البابا جريجورى التاسع ، والذى جرى في أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر ١٢٢٧م ثم جدد ثانية في كنيسة القديس بطرس في نوفمبر من العام نفسه .

ومبلغ الدلالة في هذه التواريخ التى جئنا على ذكرها، أننا لو أخذنا عبارة ابن واصل الأخيرة «في آخر (وليس أواخر) أيام الملك المعظم» كان هذا يعنى أن تكون هذه السفارة قد خرجت من القاهرة في طريقها إلى صقلية في أواخر شهر أكتوبر سنة ١٢٢٧م على أكثر تقدير، وهذا يعنى أن أنباء حرمان الإمبراطور من رحمة الكنيسة قد قدمت إلى مصر مع التجار القادمين من صقلية أو المدن التجارية الإيطالية ، وأن الملك الكامل كان على علم بها، وبالتالى على دراية تامة بأن القوات التى كان قد جرى حشدها للخروج باتجاه الشرق حاملة الصليب تحت قيادة فردريك الثانى، قد تفرقت أيدى سبأ بفعل الطاعون والعواصف ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما كان الكامل يعلمه جيدا من قبل متمثلا في أن فردريك الثانى ملك ألمانيا وصقلية ، قبل أن يتوج إمبراطورا ، لم ينفذ ما كان من المفترض أن يتولاه ، وهو قيادة الحملة الصليبية الخامسة التى تقررت في مجمع اللاتيران الرابع عام ١٢١٥ ، وقادها بدلا منه جان دى برين ، ولم يخرج على رأس النجدة الألمانية التى قدمت لمعاونة جنود الحملة الصليبية الخامسة في دمياط ، بعد أن توج امبراطور عام ١٢٢٠ وتعهد بحمل الصليب من جديد، وكان وصول هذا المدد سنة ١٢٢١ بعد هزيمة الحملة وجلائها عن مصر، نقول إذا أضفنا هذا إلى دلالة ما تقدم من تواريخ تحركات الكامل ، أدركنا للوهلة الأولى أن سلطان مصر كان يوقن تماما أنه يتعامل مع ملك يتفق معه في صفات كثيرة جمعت بينهما ، ويختلف عن كثير بل عن كل ملوك أوروبا الذين قدموا في حملات صليبية إلى الشرق، تحمل روح العداء وتصطبغ بصبغة التعصب المقيت [(١١٩)].

---

(١١٩) يذكر حسن عبد الوهاب في بحثه سالف الذكر «هدنة القدس في ضوء فتوى المؤرخ القاضى ابن أبى الدم الحموى» أن الكامل إنما أقدم على مراسلة فردريك الثانى لنجدته بعد أن غدا هذا الأخير ملكا للفرنجة بزواجه من يولاندا وريثة عرش مملكة بيت المقدس، وهذا الرأى مع ما له من وجاهة إلا أنه لم يكن الباعث الحقيقى أو الفاعل الذى حدا بالكامل إلى الاقدام على مكاتبته .

نحن إذن الآن أمام رجلين عرف كل منهما للآخر قدره ، وخبر طرائق تفكيره ، ووقف على مدى ثقافته وكيفية معالجته للأمور ، واطلع على مكنون عقله وخبئ نفسه، وأحاط خُبرا بالظروف السياسية والعسكرية التى يحياها كل فى دولته ، وقد حدث هذا كله قبل أن يلتقيا من بعيد على أرض الشام، وإن لم يتقابلا شخصيا على الإطلاق ، وغدا كل من العاهلين حريصا على أن يتعامل مع الآخر فى إطار من العلاقات الإنسانية والمجاملات الدبلوماسية ، بعيدا عن قعقعة السلاح وغبار المعارك فى ساحة الوغى، وترفعا بسمات جُبل عليها كلاهما، وخلال ربّت معهما، عن دنيا التعصب البغيض التى كان يحياها عالمهما؛ فالامبراطور فردريك يسأل السلطان الملك الكامل «أن ينعم عليه بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه» يعنى بذلك بيت المقدس، ويعلن أنه ليس إلا «مملوك السلطان وعتيقه ، وليس له عما يأمر به خروج» ، من أجل تحقيق هذا الأمر، ومهما قيل عن صيغة المبالغة فى هذه العبارات ، إلا أنها تمثل نوعا من الدبلوماسية كان معروفا لدى كل العاملين فى السلك السياسى إلى زماننا هذا، فى سبيل تحقيق مكاسب سريعة وإن كان وقتية . والملك الكامل بدوره لايبادل هذا بالتعنت والصلف ، بل بالمهادنة عن قدرة وليس من ضعف ، فهو الآن فى المركز الأقوى ، وبمنطق العفو عند المقدرة فى الخلق الإسلامى الذى نشأ عليه الكامل، كما أشرنا فى صدر هذا البحث ، ومن منطلق الخط السياسى الواضح الذى سارت عليه الدولة الأيوبية الثانية، العادل وبنوه ، واتساقًا مع ما أرساه مؤسس الأسرة ، الناصر صلاح الدين، من التسامح والسمو الخلقى، وافق الكامل على أن «ينعم» على فردريك لا بـ «القدس» كله، بل بأجزاء منه، وبالشروط التى وضعها الملك الأيوبى .

ولما قامت الدنيا ضد الكامل ولم تقعد ، لمصالح سياسية بحتة عند الناصر داود بن المعظم عيسى، ولأهداف خاصة عند بعض ثان، ولمشاعر دينية عامة عند المسلمين ، لما عُد «تفريطا» فى حق المسلمين آنذاك ، وكان فردريك لايزال موجودا فى بلاد الشام، استشعر الرجل الحرج الذى أحاط بالكامل من جراء ذلك، وعدّ نفسه مسئولا عما حدث لقرينه ، ومن ثم لم يتردد فى أن يقدم للممثل الشخصى للملك ، الأمير فخر الدين اعتذارا رقيقا علّ ذلك يشفع للإمبراطور ويخفف عن السلطان وجاءت عباراته أيضا دبلوماسية راقية ، قال : «لولا أنى أخاف انكسار جاهى عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئا من ذلك ، ومالى غرض فى القدس

ولاغيره، وإنما قصدت حفظ ناموسى عندهم»[١٢٠]. ويرتفع الكامل فوق غضبه الذى تملكه بعد أن «قامت القيامة» عليه من الناس، واشتدت العظائم بحيث أقيمت المآتم، حسب تعبير سبط بن الجوزى[١٢١]، وكثرت عليه الشناعات، على حد قول المقريزى[١٢٢]، ويبين للمسلمين جميعا أن المسألة لايمكن أن تعد «تفريطا» فى قضيتهم أو «قدسهم»، فليس ذلك من شيمة ملوك هذه الدولة الأيوبية، وهم الذين تصدوا للصليبيين فى الشام ومصر، وأنها لاتعدو أن تكون «إرضاء» لإمبراطور ليس له فى الحرب الصليبية الدائرة فى الشرق ناقة ولاجمل - كما جرى على لسانه- «ومالى غرض فى القدس ولاغيره»، وأن هذا «الإرضاء» جاء من موقف القدرة وليس عن ضعف، وأن زمام المبادأة بيد الكامل، إذا شاء استرده حين يريد، قال الكامل: «إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس وآدر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدى المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالى المسلمين متحكم فى رساتيقه وأعماله». ولابن واصل تعليق رائع على ما حدث يقول: «إنما عظم على المسلمين ذلك، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه، لأن فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من أيدى الكفار من أعظم مآثر عمه الناصر صلاح الدين- قدس الله روحه- (ونضيف ... للارتباط الدينى العميق لدى المسلمين بمدينة القدس باعتبارها ثالث الحرمين الشريفين) - لكن علم الملك الكامل رحمه الله- إن الفرنج لايمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت له الأمور، كان متمكنا من تطهيره من الفرنج واخراجهم منه»[١٢٣]. ويقول الحنبلى[١٢٤] «ورأى الكامل أن يرضيهم بذلك ويهادنهم مدة، وهو قادر على ارتجاعها متى شاء».

ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أن الكامل لم يكن مبتدعا فيما أقدم عليه، بل سبقه إلى ذلك عمه السلطان الناصر صلاح الدين، ذلك أن صلاح الدين قبل بمقتضى صلح الرملة الذى

---

(١٢٠) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤ ص٢٤٣؛ وقارن، الحنبلى، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، ص٢٦٨.

(١٢١) مرآة الزمان، المجلد ٨ جـ٢ ص٦٥٤.

(١٢٢) السلوك، جـ١ ص٢٣١.

(١٢٣) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤ ص٢٤٣-٢٤٤.

(١٢٤) شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، ص٢٦٧.

وقع فى عام ١١٩٢ مع ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا، أن يتنازل للصليبيين عن الساحل كله الذى كان ضمن مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكان قد فتحه كله باستثناء صور ، ولم يحدث له ما حدث لابن أخيه من بعد ، من قيام الشناعات عليه فى كل مكان ، ذلك لأن القدس بقيت فى حوزة المسلمين ولم تذهب ضمن ما ذهب، المسألة إذن فى جوهرها تتعلق بـ «الموضع» أو «المكان» وليس بمبدأ المفاوضات فى حد ذاته ، وهذا الأمر الأخير يضيف أبعادا جديدة إلى مكانة الدولة الأيوبية فى التاريخ، باعتبارها دولة حملت راية الجهاد بيد ، وراية السلام بالأخرى، فقد تحملت طيلة عمرها البالغ ثمانين عاما (١١٧١-١٢٥٠م) كل مقومات الحرب ضد الصليبيين هجوما ودفاعا ، ولم تتردد فى قبول مبدأ الفاوضات وصولا إلى سلام ، حفاظا على قلب المنطقة، أعنى مصر ، فى المقام الأول. ومن ثم قدمت بذلك أنموذجا يحتذى فى عصر طفح بالتعصب المقيت . وكان الكامل يعرف هذه الحقائق كلها لاتغيب عن ذهنه ، ولايبغى عنها حولا فى سياسته ، وتدلنا رسالة بعث بها الملك الجواد أحد ملوك بنى أيوب إلى فردريك الثانى ردا على رسالته ، أن الصداقة كانت قائمة بين السلطان والإمبراطور ، وأن كليهما كما ذكرنا يعرف لكلّ قدره ومكانته ، وأن دولتيهما تجمع بينهما سمات من سعة الثقافة واستنارة الفكر على غير عادة زمانهما، جاء فى الرسالة :«... وأنفسَ أسباب المودة والحصافة ، وشدّد أواخى الاخلاص والموافاة ، فاستبشرت النفوس بوفوده (أى الكتاب) ووقف منه على الإحسان الذى نعرفه ، ووجد عقده مشتملا على جواهر الوداد الذى نألفه ، فشكر الله على هذه الألفة المنتظمة ، والمحبة الصادقة المكرمة ... فأما ما ذكره المقام العالى السلطانى الملكى الكاملى الناصرى- زاده الله شرفا وعلوا- من أنه لا فرق بين المملكتين ، فهذا هو المعتقد فى صدق عهده وخالص وده»(١٢٥).

ومن رسالة بعث بها الامبراطور فردريك إلى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وهو نازل مع السلطان الملك الكامل فى حرّان سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩-١٢٣٠م وقدمت مع رسول بعث به الامبراطور إلى السلطان، ندرك إلى أى مدى توطدت العلاقة بين فردريك والكامل وفخر الدين، يقول الامبراطور بعد الديباجة الخاصة بألقابه : «لو ذهبت إلى وصف ما نجده من عظيم الشوق ، وما نكابده من أليم الاستيحاش والتوق ، إلى المجلس السامى الفخرى أدام الله

---

(١٢٥) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، جـ٧ ص١١٨ .

أيامه، وسرمد أعوامه ، وثبت فى الرياسة أقدامه ، وحرس مودته وإكرامه ، وأجرى على سبيل النجاح مرامه (... أمنيات طيبة كثيرة) للزمنا فى الخطاب شططا ... إذ منينا بروعة استيحاش بعد سكون وإيناس ، ولوعة فراق ، فى إثر غبطة واشتياق ... وبعد ، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا ، والحميد من آثارنا ، نشعره حسبما شرحناه له بصيدا أن البابا- باء بالغدر والخديعة - أخذ إحدى قلاعنا » [١٢٦]، وتمضى الرسالة بعد ذلك تحدث عن الأعمال التى قام بها البابا جريجورى التاسع منتهزا فرصة وجود فردريك الثانى بالشرق، من الاعتداء على ممتلكات الإمبراطورية فى جنوب إيطاليا وصقلية، وما قام به الامبراطور فور عودته من الشرق ونزوله فى برنديزى جنوبى إيطاليا . والرسالة على هذا النحو دليل عملى على مدى احترام الامبراطور للسلطان واعتزازه بصداقته ، إلى حد إطلاعه وممثله الشخصى فخر الدين ، على أحوال الامبراطورية الداخلية ، وكيف تطورت العلاقة من سئ إلى أسوأ بين فردريك وجريجورى، ولم يكن ذلك ليحدث لو لم يكن الامبراطور يعلم أن الملك الكامل حريص على الوقوف على أخباره خاصة علاقته بالبابوية ، وهذا واضح من قول فردريك «علمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا»، وهذا هو ما ذكرنا آنفا عند حديثنا على تقارب الرجلين فكرا وثقافة .

ويختتم فردريك الرسالة بقوله : «وبعد .. فمما نؤثر من المجلس (أى البلاط السلطانى) مواصلة كتبه متضمنة شرح أحواله ومهماته وحاجاته ، وأن يقرى سلامنا على جميع أكابر العسكر وغلمانه ومماليكه»[١٢٧]، وفى هذا بدوره إشارة واضحة إلى اهتمام الإمبراطور هو الآخر بالأحوال السياسية التى يحياها الملك الكامل .

وقد أورد لنا ابن نظيف الحموى[١٢٨] رسالة أخرى وردت من الامبراطور ، تجرى على المنوال نفسه، وتشرح بوضوح كل ما جرى بين فردريك وخصومه خاصة البابوية . ومنه أيضا نعلم أن الملك الكامل كتب إلى الامبراطور رسالة حملها أحد المسلمين الذين قدموا على الكامل يخبره بما حل به وجماعات المسلمين هناك على أيدى قوات الإمبراطور [١٢٩]. وقد

---

(١٢٦) ابن نظيف الحموى ، التاريخ المنصورى، ص١٩٠-١٩١ .

(١٢٧) المصدر السابق ، ص١٩٣ .

(١٢٨) المصدر السابق، ص١٩٣-١٩٤ .

(١٢٩) المصدر السابق ، ص١٩٤-١٩٥ .

استمرت هذه العلاقات الودية قائمة بين ملوك بنى أيوب من بعد الكامل وبين فردريك الثانى وبنيه، وظهر ذلك جليا فى قول ابن واصل[١٣٠] «ولما تقررت قواعد الهدنة بين السلطان الملك الكامل والامبراطور ، أقلع الامبراطور راجعا إلى بلاده ، واستمر مصافيا للملك الكامل مواد له، والمراسلة بينهما متصلة، (وهذا ما دلت عليه الرسائل التى أوردناها توا) ، إلى أن توفى الملك الكامل ، وملك ولده العادل سيف الدين ، فصافى الإمبراطور وواده وراسله، ولما قُبض على الملك العادل وولى أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب، استمر الأمر على ذلك، وأرسل إليه الملك الصالح الشيخ العلامة سراج الدين الأرموى، قاضى قونية من بلاد الروم ، وأقام سراج الدين عنده مكرما مدة ، وصنف له كتابا فى المنطق ، وأحسن إليه الإمبراطور إحسانا كبيرا ، وعاد سراج الدين إلى الملك الصالح مكرما».

وبلغت هذه العلاقات الودية ذروتها حين أرسل الامبراطور فردريك رسالة إلى الملك الصالح يخبره فيها بأنباء الاستعدادات التى تجرى فى أوروبا على قدم وساق ، تحت رعاية لويس التاسع ملك فرنسا ، للخروج بحملة صليبية جديدة يقودها هذا الملك الفرنسى، هدفها الأساسى مصر، رأس الأفعى ، وقد أخبرنا المقريزى[١٣١] عن هذا الأمر صراحة حين قال : «ونزل (الصالح) بقلعة دمشق فورد عليه رسول الامبراطور ملك الفرنج الألمانية بجزيرة صقلية فى هيئة تاجر ، وأخبره سرا بأن بواش (لويس) الذى يقال له روا د فرنس Roi de France عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها ». ويعلق الدكتور سعيد عاشور على ذلك بقوله : «كان من المفروض أن الامبراطور فردريك الثانى، وهو صاحب المصالح الكبيرة فى بلاد الشام بوصفه والد كونراد الوريث الشرعى لمملكة بيت المقدس، (وهو ابنه من يولاندا) يؤيد لويس التاسع فى حملته وجهوده لاستعادة أملاك الصليبين المفقودة ، ولكن فردريك على العكس من ذلك لجأ إلى سلاح آخر فى الخفاء، فاتصل بالصالح أيوب سرا ، وأرسل إليه سفارة يحيطه علما بتحرك الصليبيين ونواياهم [١٣٢]. ونتساءل نحن .. ترى أليس هذا التصرف من جانب فردريك دليلا نضيفه إلى ما سبق أن قدمناه عن موقف الإمبراطور من الحروب الصليبية جملة

---

(١٣٠) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ص٢٤٦ .

(١٣١) الخطط، جـ١ ص٢١٩ .

(١٣٢) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ص١٠٥٤ .

وتفصيلا ؟! وقد يحلو لبعض أن يقول إن موقف فردريك هذا كان نابعا من خشيته ضياع سلطانه - حتى وإن كان نظريا- فى بلاد الشام على ما بقى من مملكة بيت المقدس ، باعتباره وصيا على ابنه كونراد، إضافة إلى ما كان يربط بينه وبين الكامل. ولكن يمكن الرد على ذلك بأن الكامل قد مات وأصبح على العرش الآن ابنه الصالح ، ومن ثم فليست العلاقات الفردريكية الكاملية مجرد علاقات شخصية ، بل بنيت على فكر معين وحكمتها مبادئ وقيم تختلف عما كان سائداً آنذاك ، إضافة إلى أن فردريك لم يكن يعنيه أطلال مملكة بيت المقدس بقدر ما كان يشغله تلك الحرب المستعرة بينه وبين البابوية التى وضعت هدفا لها لاتحيد عنه هو تحطيم أسرة الهوهنشتاوفن وزعيمها فردريك الثانى .

لم يأت فردريك الثانى إلى الشرق محاربا ، بل جاء مفاوضا [١٣٣] ، وكيف لا ولم يصحبه إلا خمسمائة فارس فقط، قل عنهم إن شئت إنهم حرس الامبراطور الخاص، وقد كان يعلم علم اليقين أن الأمر الوحيد الذى يصون ممتلكاته فى الغرب هو أن يحقق نجاحا فى الشرق [١٣٤]، وهذا ما عبر عنه الامبراطور بوضوح فى رسالته التى بعث بها إلى الكامل بعد أن أخذت المفاوضات تصل إلى طريق شبه مسدود ، خاصة بعد أن مات الملك المعظم عيسى وتخلص الملك الكامل نسبيا من بعض ما كان يؤرقه ، وقد جاء فى هذه الرسالة على لسان فردريك «... وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فإن رجعت خايبا انكسرت حرمتى بينهم» ، وما أسر به إلى صديقه الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وأسلفناه ، «لولا أنى أخاف انكسار جاهى عند الفرنج ، ما كلفت السلطان شيئا من ذلك». ومن المؤكد أن فردريك لم يفاوض الكامل وحده، بل بعث برسائله إلى بعض ملوك بنى أيوب بالشام ومنهم الملك المعظم نفسه[١٣٥] وإن لم يحقق منها نفعا .

---

(١٣٣) عاشور، الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى، المجلة التاريخية المصرية ، ص٢٠٣ ، ويقول رينيه جروسيه Grousset, Histoire des croisades, III, 281 «إن الإمبراطور إنما «خرج فى نزهة جميلة» .

(١٣٤)ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة عماد الدين غانم ، ص٣٣٥ .

(١٣٥) ابن أيبك ، الدر المطلوب ، ص٢٨٤ .

ولم يكن أمام فردريك الثانى إلا هذا الطريق سبيلا إلى تحقيق نجاح معين من مجيئه إلى الشرق ، فقد تفرقت السبل بالقوات التى كان قد أعدها للخروج عام ١٢٢٧م بسبب الطاعون والبحر، والقوات الصليبية الموجودة فى الشام لن تعمل مطلقا تحت لواء ملك محروم من رحمة الكنيسة، حتى لاتحل بها اللعنة هى الأخرى ، ناهيك بالطبع عن عدم اقتناع الامبراطور بفكرة أو جدوى مثل هذه الحرب الصليبية كما قدمنا ، وكان بمقدوره أن يقعد فى أوروبا ويستعطف البابا لرفع قرار الحرمان عنه ، لكنه لم يفعل شيئا من ذلك، فقد أصبحت الحرب «الصليبية» الآن تدور فى أوروبا بينه وبين البابوية ، وذلك حديث آخر !

والآن .. حان الوقت كي نغلق ملف هذه القضية ؛ ذلك أن الاتفاقية التى وقعت بين الكامل وفردريك وعرفت باتفاقية يافا ١٢٢٩م حملت فى جوهرها فكرة جديدة آنذاك على الفكر السائد فى العصور الوسطى، وسبق بها الملكان زمانهما بكثير، وهى فكرة «التدويل» أعنى «تدويل» مدينة القدس، ولنعد إلى ما جاء فى هذه الاتفاقية لنرى ذلك المعنى واضحا فيها تماما، يقول ابن واصل : «... وآخر الأمر أنه تقرر بينهما أن يسلم (الكامل) إليه (فردريك) القدس على شريطة أن يبقى خرابا، ولايجدد سوره ، وأن لايكون للفرنج شئ من ظاهره البتة ، بل يكون جميع قراياه للمسلمين ، وللمسلمين والٍ عليها يكون مقامه بالبيرة، من عمل القدس من شماليه، وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين ، وشعار المسلمين فيه ظاهر ، ولايدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوام من المسلمين ، واستثنى الفرنج قرايا معدودة هى طريقهم إذا توجهوا من عكا إلى القدس، تكون هذه القرايا بأيديهم خوفا أن يغتالهم أحد من المسلمين».

هكذا بقيت الأماكن المقدسة الإسلامية بأيدى المسلمين، وشعارهم فيها ظاهر ، أى إقامة الصلوات كلها بها ، ويشرف عليها «قوام» من المسلمين ، والأماكن المقدسة المسيحية بأيدى الصليبيين، تقام فيها طقوسهم وقداساتهم، وليس لأحد من هؤلاء أو أولئك أن يعتدى على حرمة وقداسة هاتيك المقدسات ، وقد طبق الامبراطور هذا الشرط بنصه حالة وجوده، والقصة التى أوردتها المصادر العربية كلها خير شاهد على ذلك [١٣٦]، كما بقيت للمسلمين السيطرة

---

(١٣٦) يقول ابن واصل ، «حكى لى شمس الدين (قاضى نابلس) قال : «لما قدم الامبراطور القدس لازمته كما أمرنى السلطان الكامل ، ودخلت معه الحرم الشريف ، فرأى ما فيه من المزارات ، ثم دخلت معه =

على معظم القرى التابعة للقدس ، وأعطى الصليبيون طريقا يصل بين أماكن عبادتهم في القدس وبين عكا ويافا ، ويشرف على القرى التى كانت فى حوزة المسلمين وال مقره فى «البيرة» شمالى القدس. وعلى هذا النحو يمكن القول ببساطة أن المدينة أصبح يشترك فى إدارتها المسلمون والصليبيون سواء، ولما كانت الأماكن المقدسة عند الطرفين ، هى محور الاهتمام بالمدينة وجوهره ، فقد تم الاتفاق على «تدويلها» كما اقترحنا منذ قليل . وكانت القوتان العظميتان فى العالم آنذاك هما المسلمون واللاتين لأن القسطنطينية نفسها كانت خاضعة آنذاك لسلطان العناصر اللاتينية .

ومن الجدير بالذكر أن شيئا من مثل هذا قد حدث من قبل على عهد الناصر صلاح الدين ؛ ذلك أنه لما أيس ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا من استرداد القدس ثانية من يد صلاح الدين، بعد أن أمضى فى الشام عامين عقب فشل الحملة الصليبية الثالث فى تحقيق هذا الهدف ، ودخل فى معارك عديدة مع المسلمين ، تناوب فيها الطرفان النصر والهزيمة ، وأحس أنه لاطائل من بقائه فى الشرق بعيدا عن مملكتة ، اقترح على صلاح الدين أن يجدا وسيلة أخرى غير الحرب ، وكتب إليه يقول : «إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد ، وتلفت الأموال والأرواح ، وقد أخذ هذا الأمر حقه» [١٣٧]، وطلب ريتشارد الدخول فى مفاوضات من أجل الصلح ، «فنصطلح ونستريح من هذا التعب الدائم»[١٣٨] . وقد تعثرت المفاوضات كثيرا بين المعسكرين بسبب إصرار كل منهما على موقفه من مسألة القدس.

= إلى المسجد الأقصى فأعجبته عمارته وعمارة قبة الصخرة المقدسة، ولما وصل إلى محراب الأقصى أعجبه حسنه وحسن المنبر ، وصعد فى درجه إلى أعلا ، ثم نزل وأخذ بيدى وخرجنا من الأقصى ، فرأى قسيسا وبيده الانجيل ، وهو يريد دخول الأقصى ، فصاح عليه صيحة منكرة ، وقال: «ما الذى أتى بك إلى هنا، والله لئن عاد أحد منكم يدخل إلى هنا بغير إذنى لآخذن ما فى عينيه ، نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وإنما تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الانعام منه، ولايتعدى أحد منكم طوره»: انظر، ابن واصل ، مفرج الكروب، ص٢٤٤ ، وراجع أيضا سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، م٨ جـ٢ ص٤٣٣؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب ، ص٢٩٣-٢٩٤ ، وبهذين المصدرين الأخيرين زيادة . وراجع كذلك ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ص٢٣٢ .

(١٣٧) أبو شامة ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ٢ ص١٩٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢ ص٣٧٢ .

(١٣٨) ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق دكتور جمال الدين الشيال، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص١٩٤ .

لكن الذى يعنينا هنا، أنه فى إحدى مراحل المفاوضات تقدم ريتشارد باقتراح فحواه أن يتم زفاف جوانا Joanna أخت ملك انجلترا ، «والعزيزة عليه كبيرة القدر»(١٣٩) إلى الملك العادل سيف الدين ، أخى صلاح الدين ،وأن يشترك الاثنان ، العادل وجوانا ، فى حكم القدس والساحل(١٤٠) . وكانت جوانا زوجة لوليم الثانى النورمانى ملك صقلية الذى توفى عام ١١٨٩، ولم يعقب الزوجان وريثا، ومن ثم رأى ريتشارد أن يزوجها للعادل حلا لمشكلة القدس التى يصر كل من الطرفين على أحقيته بملكيتها .

وقد لقى هذا الاقتراح قبولا لدى الجانب الإسلامى ، «فرأى الملك العادل ذلك مصلحة وعين الصواب ، وشاور السلطان فوافقه فيما أجاب ، ونفذ رسوله إلى ملك انجلترا بالإجابة» (١٤١). غير أن رفض هذه الزيجة جاء من جانب رجال الكنيسة الذين أدخلوا فى روع «جوانا» أن هذا الأمر يعد خروجا عن العقيدة وعصيانا للمسيح ومخالفة لتعاليمه (١٤٢)، ويقول أبو شامة أنها لما سمعت هذا، «رجعت عن ذلك وما أجابت» ، وهذه العبارة تعنى موافقة جوانا هى الأخرى، وهى صاحبة الأمر فى ذلك ، على هذه الزيجة فى البداية وقبولها للفكرة نفسها، لولا تدخل رجال الدين فى الأمر .

ورغم أن ابن شداد (١٤٣) وأبا شامة(١٤٤) يقرران أن هذا العرض من جانب ملك انجلترا لم يكن سوى، «خديعة» أو مجرد «مكر وهزو» ، إلا أنه لاينفى أن ما يشبه فكرة «التدويل»

---

(١٣٩) ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٢ ص٣٧٢ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٢ ص١٩٣ ؛
Runciman, Crusades, III, p. 35 .

(١٤٠) ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٢ ص٣٧٢ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٢ ص١٩٣ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص١٩٥ .

(١٤١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٢ ص١٩٣ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص١٩٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ص٣٧٢ .

(١٤٢) «فدخل الفرنج على المرأة وخوفوها واتهموها فى دينها وعنفوها ، وقالوا لها ما معناه هذه فضيحة فظيعة وسُبة شنيعة ، وقَطْعٌ على النصرانية وقطيعة ، وأنت عاصية للمسيح لامطيعة ، فرجعت عن ذلك وما أجابت»، أنظر ، أبوشامة ، كتاب الروضتين ، جـ٢ ص١٩٣ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص١٩٦ ؛ ابن واصل مفرج الكروب ، جـ٢ ص٣٧٢ .

(١٤٣) النوادر السلطانية ، ص١٩٦ .

(١٤٤) كتاب الروضتين، جـ٢ ص١٩٣، ويذكر Runciman, Crusades, IIIp. 59-60 ، وربما استنتاجا=

كانت حاضرة فى أذهان كل من ريتشارد الأول ملك انجلترا، والسلطان الناصر صلاح الدين ، والملك العادل سيف الدين، وأن اشتراك القوتين العظميتين فى حكم القدس كان أمرا واردا ، ومن ثم لم يكن أمرا مستغربا أن يقدم كل من السلطان الكامل والامبراطور فردريك الثانى على تطبيق هذه الفكرة عمليا بمقتضى اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩ .

ومهما يكن من أمر فإن الملك الكامل كان ينظر إلى تسليم القدس أو إقامة حكومة تضم العالمين الإسلامى والمسيحى لحكم المدينة المقدسة، على أنه مجرد إجراء مؤقت ، وأن بمقدوره- كما قدمنا على لسان المؤرخين المعاصرين- «انتزاع ذلك من الصليبيين متى شاء». ولم يكن الكامل واهما فيما يعتقد ، ولا كان المؤرخون المعاصرون مبالغين فيما قالوه ، ولكن السلطان كان يعرف تماما أين يضع قدمه ، وأن ما أقدم عليه لم يكن ليخرج مطلقا عن سيطرته ، وقد تمثل ذلك بوضوح فيما أقدم عليه من وضع «الشوبك» تحت سلطانه ، وكان واقعا ضمن سيادة الناصر داود بن المعظم عيسى .

يقول ابن واصل : «ودخلت سنة خمس وعشرين وستمائة هـ، والسلطان الملك الكامل مقيم بالديار المصرية، والملك الناصر داود بن الملك المعظم مستولٍ على مملكة والده بين حمص وعريش مصر، وورد إليه من جهة عمه الكامل يطلب منه أن يسمح له من بلاده بقلعة الشوبك فقط»[١٤٥]. وهذا الموقف من الكامل يعيد إلى الأذهان ثانية إصرار الكامل على الاحتفاظ بحصنى الكرك والشوبك أثناء عروضه التى تقدم بها إلى صليبيى الحملة الخامسة من قبل، باعتبارهما مفتاح بيت المقدس ، وها هو الآن يعيد الدور نفسه بعد تأكده من قرب وصول الامبراطور إلى الشام . بتعبير أدق ، أن الكامل رغم اتفاقه مع فردريك فى النظرة العامة للأمور آنذاك ، إلا أنه كان يضع فى اعتباره جيدا أنه من الضرورى بمكان أن تكون مفاتيح بيت المقدس، أعنى الحصون والقلاع المؤدية إليها، أو بواباتها ، بيد سلطان مصر. وقد انتهى الأمر بالاتفاق بين الكامل والأشرف وابن أخيهما ، الناصر داود ، على أن تكون فلسطين

= مما قاله ابن شداد وأبو شامة ، أنه فى الوقت الذى استقبل فيه صلاح الدين هذا العرض على أنه طُرفة ، كان ريتشارد يبدى إزاءه اهتماما بالغا، إلى الحد الذى كان فيه على استعداد للتغاضى عن آراء رجال الدين وتعاليم البابوية لو اقتضى الأمر ذلك ، وهذا نقف عليه مما ذكره ابن شداد (النوادر السلطانية، ص٢٠٣-٢٠٤ من أن ريتشارد كان على استعداد أن يزوج العادل من ابنة أخته المسماة إليانور دون الحصول على إذن من البابا .

(١٤٥) ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٤ ص٢٢٥ .

للكامل ، ودمشق للأشرف ، وحران والرها والرقة وسروج للناصر. وهكذا ضمن الكامل السيادة العملية عسكريا على المناطق المطلة على المدينة المقدسة.

وبعد ... فإنه من خلال هذا الاستعراض لعالم الملك الكامل ودنياه، وإعادة قراءة النصوص التى حوتها المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الأحداث، ومحاولة سبر أغوار عقل الملك الكامل للوقوف على خصائص فكره وجوانب ثقافته وسعة وغزارة علمه ، ودراسة شخصيته بصورة متكاملة ، يتضح لنا أن السلطان كانت لديه سياسة واضحة المعالم ، وضع قواعدها ضمن تقاليد الدولة الأيوبية عامة وعهدها الثانى «العادلى» خاصة، ورعى هذه القواعد وحفظها بدقة، وهى تقوم على أساس الحفاظ على «القلب» سليما مصونا بعيدا عن الخطر الذى يحدق به، لأنه ما دام «القلب» آمنا، أمنت الأطراف بالتالى حتى وإن لقيت العنت بعض حين. ومن ثم فلم تكن عروضه المتكررة لصليبيى الحملة الخامسة «إفراطا» عشوائيا فى طلب الصلح ، بل كان مرحلة تكتيكية وقتية ضمن خطة استراتيجية بعيدة المدى ، وكذا كان الحال فى اتفاقية يافا مع الامبراطور فردريك الثانى ، إذ هو «قادر على استرداد القدس متى شاء» ، ما دام «القلب» ، أعنى «مصر» سليما معافى، وهذا ما أثبتته الأحداث التاريخية ، فقد ذهبت القدس وعادت ، لأن مصر بقيت آمنة ، بل إن مصر هى التى استعادت من يد الصليبيين كل ما أخذوه غصبا فى نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى.

وقد اتضح لنا أيضا أن الكامل مع قرينه فردريك الثانى كانا يسبقان عصرهما عندما دعيا بدعوة التسامح والتسامى بعيدا عن التعصب المقيت الذى كان سمة الحروب الصليبية، وقد جمعت بينهما سعة ثقافة وغزارة علم واستنارة فكر ، وكان الكامل يصدر أيضا فى موقفه إزاء فردريك ، فى ظل هذه الخلفية الثقافية والفكرية كلها، عن الاستراتيجية التى وضعها منذ البداية ، مصر أولا، حتى يمكن أن تبقى للأطراف حيويتها وحياتها ، ولم يكن ما فعله الكامل مع فردريك «تفريطا» فى القضية كما تم «التشنيع» بذلك عليه، بل كان أيضا مرحلة تكتيكية ضمن خطة استراتيجية لم يبغ عنها السلطان حولا . ولذا يظل الكامل كما قال عنه ابن واصل «أسوس إخوته جميعا ... ملكا جليلا ، حازما مهيبا ، سديد الرأى ، حسن التدبير لمملكته .. حليما ومع هذا الحلم العظيم ، كان عظيم الهيبة» ، وكما وصفه ابن خلكان وسبط بن الجوزى . «عظيم القدر جميل الذكر، محبا للعلماء متمسكا بالسنة النبوية، حسن الاعتقاد، معاشرا لأرباب الفضائل ، حازما فى أموره ولايضع الشئ إلا فى موضعه من غير إسراف ولاإقتار »، «شجاعا ذكيا مهابا .. يثبت بين يدى العدو، ولما نزل الفرنج بدمياط ما أبقى قلما فى خزائنه وذخائره . أما عدله فإليه المنتهى، وفضله فهو المشتهى».

الفصل الرابع

الأمير فخر الدين بن الشيخ فى محكمة التاريخ

الأمير فخر الدين بن الشيخ
فى محكمة التاريخ

فى منتصف القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، أقام المؤرخ جمال الدين بن واصل دعوى فى محكمة التاريخ، يتهم فيها الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قائد الجيش المصرى، أتابك أو مقدم العسكر، بتعبير ذلك الزمان ، بالانسحاب مع قواته العسكرية، أو الفرار بهذه القوات من ميدان المعركة وعدم التصدى للجيش الصليبى الذى يقوده القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، فيما عرف بالحملة الصليبية السابعة ، مما أدى إلى استيلاء الصليبيين على مدينة دمياط دون عناء، وامتلاكهم لها «صفواً عفواً» ، وما تبع ذلك من النكبات التى حلت بمصر قبل أن ينتهى الحال بالحملة وقائدها إلى الفشل والإذلال ، واتسعت قائمة الاتهام لتشمل التصريح بـ «همة الأمير التى ترقى إلى الملك»، والتلميح بذلك إلى الرغبة الكامنة لديه فى القفز على عرش السلطنة الأيوبية والملك الصالح نجم الدين أيوب يلملم ليالى العمر المعدودة الباقية له ليرحل عن دنيا الناس ، والسعى إلى تحقيق هذا الطموح قبل أن يصل الوريث الشرعى للصالح، المعظم تورانشاه ، إلى مصر ليتسلم مقاليد الأمور ويتصدر دست السلطنة .

وعلى درب ابن واصل سار المؤرخون المعاصرون واللاحقون ، وجلهم ينقل عن سلفهم هذا ، ويكاد بعضهم يردد عبارات ابن واصل بنصها ، من هؤلاء المؤرخين القدامى، ابن أيبك الدوادارى ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى، والمقريزى الذى كان أشد هؤلاء جميعا قسوة على ابن الشيخ إلى درجة تعيد إلى الأذهان صحيفة اتهامات ابن واصل ، كما لو أن المقريزى كان يقرأ منها ويخط بيمينه ! ولم يسلم الأمير فخر الدين كذلك من ملاحقة المؤرخين المحدثين له بهذه الاتهامات خلال تناولهم لأحداث الحملة الصليبية السابعة ، جريا على ما قالت به سطور المصادر التاريخية المعاصرة ، دون التوقف طويلا أو حتى قليلا عند هذه الأقوال ومناقشتها واخضاعها لأصول النقد التاريخى ومنهج البحث العلمى، حتى تتضح الحقائق ، أو على الأقل يتبين مدى صدق ما قالت به تلك المصادر ، أو بتعبير أدق ، ما أذاعه ابن واصل وتابعه فيه دون مناقشة من جاءوا بعده ، خاصة وأن هذه الاتهامات تندرج كلها تحت «الخيانة العظمى» والإخلال بواجبات «الشرف العسكرى»، وهو ما يستوجب فى أى ناحية من نواحيه عقوبة الإعدام.

ومع الإقرار الكامل والاعتراف بالأهمية الكبيرة للكتاب جليل القدر عظيم النفع الذى خلفه لنا المؤرخ ابن واصل تحت عنوان «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» لما احتواه من مادة علمية ضافية وتفاصيل دقيقة وآراء سديدة فى كثير من الأحيان، ساعده فى الوصول إليها قربه من الأحداث ووقوفه على مجريات الأمور ومعايشته إياها ، إلا أن حديثه عن الأمير فخر الدين وعلاقته بالسلطان الصالح نجم الدين أيوب وابنه المعظم تورانشاه ، استوقفنى أمامه عدد سنين أحاوره علىّ أجد بين ثنايا أقواله شيئا يميط اللثام عن حقيقة القضية ، خاصة وأن ابن واصل كان لصيقا ببعض صناع القرار فى هذه الأحداث بالذات ، مشاركا لهم حتى فى خواطرهم ، مشيرا عليهم بما يفعلون أحيانا، كما يخبرنا بنفسه عن ذلك فى هذا الكتاب .

والبحث فى مثل هذه القضايا يعد أمرا شائكا تعتوره الصعاب من كل ناحية ، فى ضوء تطابق المصادر التاريخية فى رواياتها ، ونقلها عن بعضها البعض ، مع الإشارة إلى ذلك حينا ، والسكوت عن ذلك أيضا أحايين كثيرة ، وتلك مشكلة قائمة تواجه الباحثين فى تاريخ العصور الوسطى فى الشرق الإسلامى أو الغرب المسيحى أو العالم البيزنطى على السواء. ومع إدراكى الكامل لمثل هذه الصعوبة منذ البداية، إلا أننى آثرت تحريك الدعوى فى هذه القضية من جديد أمام محكمة التاريخ ، معتمدا فى ذلك على نفس صحيفة الاتهام الأساسية التى قدمها ابن واصل ، وأقوال الشهود من التابعين وتابعيهم ، مناقشا لما جاء فى تلك الدعوى وهذه الأقوال ، محللا وناقدا ، مستعينا بمجريات الأحداث وتتابعها ، وطبائع الأشخاص المشاركين فيها ، وسيرهم الذاتية ، ثم قدمت فى النهاية لمحكمة التاريخ وثيقة الشاهد العدل الرئيسى فى هذه القضية كما خطها هو نفسه بقلمه !

ومن الجدير بالذكر أن عائلة شيخ الشيوخ قد عملت كلها فى خدمة سلاطين الدولة الأيوبية منذ عهد الناصر صلاح الدين الذى عهد إلى صدر الدين محمد بتولى مشيخة الصوفية فى مصر ، بعد توليه إياها بدمشق فترة من الزمن خلفا لأبيه عماد الدين عمر بن حمويه [١]،

---

(١) يعد عماد الدين عمر بن حمويه المؤسس الحقيقى لهذه الأسرة ، وكان نور الدين محمود قد ولاه مشيخة «خانقاه» دمشق، فاكتسب بذلك لقب «شيخ الشيوخ» ، وهو اللقب الذى ذاعت به شهرة هذه الأسرة ، حيث تولى أفرادها جميعا هذه الوظيفة باستثناء فخر الدين يوسف. أنظر أبو شامة ، الذيل على الروضتين ص١٢٥؛ المقريزى، الخطط جـ٢ ص٣٣-٣٤ ، راجع حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة فى العصر الأيوبى، أسرة شيخ الشيوخ ، القاهرة ١٩٧٨ .

وكلفه أيضا بالإشراف على المدرسة الصلاحية لما لمسه فيه من سعة العلم وعمق المعرفة وشدة الصلاح والتقوى، وهذه أمور اجتمعت كلها فى أسرة «الشيخ» دون استثناء ، وهذا هو الأمر الذى حدا بالأيوبيين إلى تقريبهم إليهم والاعتماد عليهم فى معظم شئون دولتهم السياسية والعسكرية والدينية، خاصة وأن ملوك بنى أيوب كانوا هم الآخرون يتمتعون أيضا بحب شديد للمعرفة والتعمق فيها وتقدير كبير للعلم والعلماء، ولم تحل الجهود الضخمة التى بذلوها للتصدى للصليبيين دون الاهتمام الكبير أيضا بالنواحى العلمية ، بل كان من بين هؤلاء الملوك من تعمق فى الأمور الفقهية والمسائل الكلامية وقرض الشعر والتأريخ .

وقد ترك صدر الدين محمد عند وفاته أربعة أبناء هم عماد الدين عمر، وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن، وفخر الدين يوسف ، وقد ذاع صيتهم جميعا أيام الملك الكامل وابنه الصالح[٢] ، ويقول ابن واصل إن هؤلاء الأربعة كانوا أخص الناس بخدمة الكامل، ونالوا فى زمانه مكانة مرموقة حيث كان يعد أخًا لهم من الرضاعة عن طريق أمهم إبنة القاضى شهاب الدين ابن أبى عصرون [٣].

ولما كان الملك الكامل «فاضلا عالما شهما مهيبا عاقلا محبا للعلماء، وللحديث وأهله ، حريصا على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف»[٤] فقد اصطفى لنفسه عماد الدين عمر بن صدر الدين لسعة علمه وتنوع ثقافته حتى جمع له، على حد قول المقريزى[٥] بين رياسة العلم والقلم سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م ولم يجتمع ذلك لأحد فى زمانه . لقد كان الرجل ، كما يحدث عنه ابن واصل[٦] تام العقل والكرم والبأس والرئاسة ، مقصدا لمن يفد إليه ... وكان معدم المثل فى وقته ، وإلى جانب هذا كله كان فارسا ماهرا ، فحاز بذلك «فضيلتى السيف والقلم»[٧]. وقد أهلته مواهبه هذه للمشاركة بفعالية فى ترتيب أوراق البيت الأيوبى بعد وفاة

---

(٢) أبو شامة ، الذيل ص١٢٥ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ٥ ص١٧٠ ؛ المقريزى، الخطط جـ٢ ص٣٤ .

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ٦ ص٢٢٨ ، ٢٣٦ .

(٥) الخطط جـ٢ ص٣٤ .

(٦) مفرج الكروب جـ٥ ص٢٠١-٢٠٢ .

(٧) أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٦١ .

الملك الكامل ، فسعى جاهدا للحفاظ على أن تظل مصر من نصيب ولده العادل الثانى، وتصدى بكل القوة لأطماع الناصر داود فى مصر، وحاول من بعد الحد من نفوذ الجواد مظفر الدين يونس حفيد العادل الكبير أبى بكر فى دمشق ، مما دفع هذا الجواد إلى كراهيته حتى شاع أنه استأجر جماعة من الباطنية فقتلوه[٨].

وتولى كمال الدين أحمد شأن أبيه صدر الدين وأخيه عماد الدين مشيخة الصوفية لعلمه وصلاحه وتقواه ، وعُهد إليه بنيابة حران والجزيرة سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م بعد أن أخذها الملك الكامل من أخيه الأشرف موسى بمقتضى اتفاقية «تل العجول» التى تمت بينهما فى العام السابق ، ولم يلبث أن جعله وزيرا فى مصر فى أخريات العام نفسه (٦٢٧هـ) / (١٢٢٩م)[٩]. وازدادت مكانة كمال الدين بن شيخ الشيوخ فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، حيث ولاه قيادة القوات المصرية المتجهة لمحاربة الناصر داود عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، وعهد إليه بقيادة الجيش المصرى المقيم بغزة بين عامى ٦٣٩-٦٤٠هـ / ١٢٤١-١٢٤٢م[١٠].

وعلى الدرب نفسه سار الأخ الثالث معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ ، فتولى مشيخة الصوفية ، وإن كان قد تميز عن إخوته بفصاحة اللسان ومقدرة بلاغية ، فأوفده الملك الكامل إلى بغداد لتقديم العزاء فى وفاة الخليفة العباسى الظاهر بأمر الله، والتهنئة بخلافة المستنصر بالله سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م، فألقى خطبة رائعة بين يدى الوزير مؤيد الدين ابن محمد القمى، أورد لنا المقريزى[١١] جزءا منها، وفى عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م عهد إليه الكامل بتدبير

---

(٨) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث كلها ودور عماد الدين عمر فيها ، راجع ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٢٠٠ ؛ سبط بن الجوزى، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان جـ٨ ص٧٢١-٧٢٣ ؛ أبو الفدا، المختصر جـ٣ ص١٦٣؛ المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ص٢٧٦- ٢٧٧ ، الخطط جـ٢ ص٣٣-٣٤ .

(٩) المقريزى ، السلوك جـ١ ص٢٣٨-٢٣٩ .

(١٠) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠١ ؛ المقريزى، السلوك جـ١ ص٣٠٩ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب، وهو الجزء السابع من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدوادارى ، ص٣٤٧ .

(١١) السلوك جـ١ ص٢٢١ ، وكان من بين ما جاء فيها : «ويوالى شكر الله تعالى على إماطة ليل العزاء ، الذى عم مصابه ، بصبح الهناء الذى تم نصابه ، حتى تزحزح شمس الهدى شفق الاشفاق ، فجعل كلمتها العليا ، وكلمة معاديها السفلى ، وزادها شرفا فى الآخر والأول».

أمور السلطنة وسماه نائب الوزارة، فلما تسلطن الملك الصالح نجم الدين على مصر استوزر معين الدين، ثم عقد له إمارة الجيش المتجه إلى دمشق لإخراج الصالح اسماعيل منها، بعد أن استبد بالأمر هناك وعانى أهلوها من عسفه وقساواته [١٢]، وأمر قواته من الخوارزمية أن تعمل تحت إمرته ، ورسم له أن يكون نائبه بدمشق ، وحكّمه فيها، وأقامه مقام نفسه [١٣]. وتروى لنا المصادر[١٤] رواية طريفة تدل على ذكاء معين الدين بن شيخ الشيوخ وفراسته وسرعة بديهته ، فتخبرنا أنه لما اشتد الحصار على دمشق ، وضيق معين الدين بقواته على الصالح اسماعيل، أرسل هذا إلى معين الدين سجادة وعكازا وابريقا ، وهى من الأدوات الخاصة بالزهد والانقطاع للعبادة، وهذا الأمر يحمل فى ذاته سخرية من معين الدين وإشارة إلى أنه باعتباره شيخا للصوفية فلايصلح لقيادة الجيوش، وتمثل ذلك فى قول الصالح اسماعيل له «اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بحرب الملوك وأبناء الملوك»! ، فلما تلقى عماد الدين هذه الأدوات والرسالة ، بعث من فوره إلى الصالح «جِنْكا» وزمرا وهما من أدوات الغناء والرقص ، كما بعث له «غلالة» حرير أحمر وأصفر ، وهى قميص يرتديه النساء، وقال له : «السجادة وما معها تصلح لى، وأنت أولى بهذا من الملك» ! وكانت هذه سخرية لاذعة تشير إلى أن الصالح اسماعيل لايصلح للسياسة والملك بقدر ما يصلح للهو والطرب. وقد شدد معين الدين بن شيخ الشيوخ الحصار على دمشق حتى اضطر الصالح اسماعيل إلى الهروب منها، لتصبح بذلك خاضعة لسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب .

وإذا كان الإخوة الثلاثة هؤلاء من أبناء شيخ الشيوخ قد تولوا مشيخة الصوفية ورثة لأبيهم صدر الدين ، ولما اشتهروا به من الورع والتقوى والتفقه فى الدين والعلم بالأصول ، إلى جانب الاشتغال بأمور السياسة والحرب للثقة المطلقة التى أولاها إياهم سلاطين بنى أيوب، فإن الأخ الرابع فخر الدين يوسف ، رغم ما اجتمع لديه من كل ما توافر لإخوته ، إلا أن الملك الكامل رأى فيه بصيرة نافذة ورجاحة عقل ومضاء عزيمة وعلو همة، أو كما وصفه العماد الحنبلى[١٥]

---

(١٢) أبو شامة ، الذيل ص١٧٦ .

(١٣) ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٥٤ .

(١٤) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان جـ٨ ص٧٥٢ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٥٤-٣٥٥ وحاشية ١ ص٣٥٥ .

(١٥) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ٥ ص٢٣٩ .

«محتشما سيدا معظما ذا عقل ورأى ودهاء وشجاعة وكرم»، هذا إلى أن فخر الدين يوسف كان متضلعا فى كثير من فروع المعرفة الإنسانية إلى جانب العلوم الدينية ، ولم يكن ابن واصل مبالغا عندما خصه دون إخوته بقوله «كان فاضلا متأدبا يشارك فى كل فن [١٦] ، وكان من نتيجة هذا كله أن الكامل أراد أن يفيد من ذكاء هذا الرجل، فلم يدعه يحذو حذو إخوته وأبيه فى تولى مشيخة الصوفية، وإنما «جعله أحد الأمراء وألبسه الشربوش والقباء[١٧]، وأصبح من أخص ندمائه ، وهذا يدل على المكانة المرموقة التى احتلها الأمير فخر الدين لدى الملك الكامل، وتمثل ذلك فى الكثير من المهام السياسية والعسكرية والدبلوماسية التى كلفه القيام بها على امتداد عهده فى السلطنة .

ففى عام ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م وقعت الوحشة بين الكامل وابن أخيه الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب دمشق، وكان ذلك بسبب رفض الناصر التنازل لعمه عن حصن «الشوبك» الذى كان الكامل يعتبره قلعة متقدمة لمقاومة الصليبيين فى الشام وحماية مصر من هجماتهم ، هذا إضافة إلى ما بلغ الكامل عن ظلم الناصر لأهالى دمشق ، وانصرافه عن الاهتمام بأمور الدولة إلى اللهو [١٨]، ومن ثم عزم الكامل على الخروج بنفسه لتأديب الناصر ، فعهد إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة من بعده، وأركبه بشعار السلطنة ، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف ليحصل الأموال ويدير أمور المملكة[١٩]. ولاشك أن هذا يفصح عن الثقة التى كان يضعها الكامل فى فخر الدين ابن شيخ الشيوخ . ولم تكد تمضى على ذلك سنوات قلائل

---

(١٦) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص١٦٩ .

(١٧) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها ؛ المقريزى، الخطط جـ٢ ص٣٤ . والشربوش قلنسوة طويلة أعجمية ، وتلبس بدل العمامة، وكانت شارة للأمراء فلا يلبسها رجال العلم كالقضاة والكتاب وغيرهم. راجع المقريزى ، السلوك جـ١ ص٢٥١ حاشية ١ ، أما القباء فهو عبارة عن قباءين أحدهما تترى ويلبس أولا والآخر إسلامى ويلبس فوقه، والقباء زى أرباب السيوف . راجع القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ٤ ص٣٩-٤٠ .

(١٨) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٤ ص٢٢٥-٢٢٦ ؛ المقريزى، السلوك جـ١ ص٢٢٤-٢٢٥ .

(١٩) المقريزى ، السلوك جـ١ ص٢٢٥ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين نشر مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة بدون تاريخ ، ص١٥ .

حتى كان فخر الدين فى مكة سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م لإقرار الأمور فيها بعد وفاة الملك المسعود صاحب اليمن، وهو ابن الملك الكامل ، وذلك فى عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م ، واستبداد راجح بن قتادة بالأمور هناك [٢٠].

غير أن الدور الأساسى الذى اضطلع به الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ فى عهد الملك الكامل، يتمثل فى المهمة الدبلوماسية التى قام بها مفاوضا مع الإمبراطور فردريك الثانى Fredrick II ملك ألمانيا وامبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بعد أن أدت الظروف السياسية التى تسبب فيها المعظم عيسى صاحب دمشق ، والأشرف موسى صاحب خلاط، بطمعهما فى مُلك مصر، ولجوء ملوك البيت الأيوبى فى الشام إلى الاستعانة بقوى خارجية ضد بعضهم بعضا، مثل الخوارزمية والصليبيين، أو قوى داخلية مثل الباطنية الأشد فتكا، ولتحقيق طموحاتهم الشخصية، أدت إلى أن يوفد سلطان مصر الملك الكامل ، الأمير فخر الدين إلى صقلية سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦-١٢٢٧م لمقابلة فردريك الثانى ودعوته للقدوم إلى الشرق، ليُشغل بمقدمه أخويه ويصرفهما عن أطماعهما [٢١].

وقد جمعت بين الرجلين ، الإمبراطور والأمير، محبتهما للمعرفة وشغفهما بمختلف العلوم، ودارت بينهما مناقشات طويلة فى كثير من المسائل العلمية بعيدا عن المفاوضات السياسية، ولعل هذا يوضحه وصف المؤرخ ابن واصل للرجلين، إذ يكاد يستخدم الكلمات نفسها فى حديثه عن كل منهما، فيقول عن فردريك الثانى : «وكان الامبراطور- من بين ملوك الفرنج- فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب»، ويقول عن الأمير : «وكان فخر الدين فاضلا متأدبا يشارك فى كل فن» [٢٢] ، ولاشك أن هذه الصفات المشتركة والمتشابهة إلى حد بعيد جدا قد

---

(٢٠) ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٠٦ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى جـ٤ ص٢٧٣ ؛ المقريزى، الخطط جـ٢ ص٣٤ .

(٢١) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٤ ص٢٠٦ ، وقد ناقشنا هذه المسألة وما ترتب عليها تفصيلا فى الفصل السابق من هذا الكتاب .

(٢٢) يقول ابن واصل : «وكان الامبراطور من بين ملوك الفرنج ، فاضلا، محبا للحكمة والمنطق والطب جـ٤ ص٢٣٤ ، جـ٥ ص١٦٩ ، وقارن Kantrowicz, Fredrick the Second , p. 185 وفى القصة الرائعة التى نسجها المؤلف الأمريكى جوزيف جاى ديس Joseph Jay Deiss تحت عنوان The Great Infidel معتبرا إياها مذكرات للامبراطور فردريك الثانى كتبها بالعربية ، يقول الامبراطور محدثا عن الأمير فخر الدين =

قربت بين الرجلين تماما، وازدادت هذه العلاقات توطدا بعد قدوم فردريك الثانى إلى الشام فى عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، وتولى الأمير فخر الدين مسألة التفاوض معه نيابة عن الملك الكامل، حتى تم التوصل فى النهاية إلى عقد صلح يافا بين الطرفين فى الثامن عشر من فبراير ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ [٢٣].

وقد أنعم الامبراطور على الأمير فخر الدين بمرتبة «فارس» ومنحه امتياز وضع الرنك الامبراطورى على رايته ودرعه بعد موافقة السلطان الكامل على ذلك[٢٤]، واستمرت هذه العلاقات الودية والاحترام المتبادل قائما بين الامبراطور والأمير بعد عودة فردريك الثانى إلى أوروبا، فقد كتب الأخير رسائل إلى الملك الكامل وهو بـ «حران» سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م، ومثلها إلى الأمير فخر الدين، يطلعه فيها على الأحوال السياسية التى يمر بها، وكذا المؤامرات التى حاكتها البابوية ضده، والانتصارات التى تحققت له على الأسقف الرومانى وأعوانه. وهذا كله يشير إلى مدى الثقة التى يوليها فردريك الثانى لفخر الدين، وعلو المكانة التى احتلها الأمير لدى الإمبراطور، وكذا المرتبة التى يضع فيها الامبراطور الملك الكامل. ومن الرسالتين اللتين احتفظت لنا المصادر[٢٥] بنصيهما، ندرك كل هذه الأمور، حيث يتضح من خلالهما كما لو كان الإمبراطور يخاطب شخصا معنيا بالأمور السياسية الداخلية للإمبراطورية، أو بتعبير آخر، واحدا من الذين يناط بهم المسئولية فى تلك البلاد، وتفصح عن ذلك - على سبيل المثال- عبارة وردت فى صدر الرسالة الأولى تقول: «... وبعد، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا، والحميد من آثارنا، نشعره حسبما شرحنا بله ...»، هذا بالطبع بعد الديباجة التى تمتلئ بكل العبارات المفعمة بالمودة والصداقة، بينما

= «كان هذا الرجل لطيفا ... على علم واسع بالفلسفة والشعر، وعلى دراية بالأسلحة والخيل والتصقر (أى الصيد بالصقور)، لقد كان فى الواقع خير ممثل لمليكه». راجع الترجمة العربية التى قام بها الأستاذ أحمد نجيب هاشم لهذه القصة تحت عنوان «الزنديق الأعظم» ص٣٥٠-٣٥١.

(٢٣) راجع الفصل السابق.

(٢٤) جوانفيل، القديس لويس، ترجمة حسن حبشى ص١٠٨؛ راجع أيضا:

Runciman, A history of the Crusades, vol. III, p. 185

Setton, A history of the Crusades, vol. II p. 449 وقارن

(٢٥) الحموى، التاريخ المنصورى، تحقيق أبو العيد دودو ص١٨٩-١٩٤.

يختتم الرسالة الأولى بالتأكيد على مواصلة ودوام المراسلات بينهما ، يقول : «... وبعد، فمما نؤثر من المجلس مواصلة كتبه متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحاجاته». أما الرسالة الثانية فهى تتناول فى جملتها جهود الإمبراطور فى التصدى لمحاولات البابوية المستمرة للنيل من الإمبراطورية . وقد فصلنا ذلك كله فى الفصل السابق .

وليس هنا معنى للقول فى حذلقة - كما قد يذهب البعض- إلى أن الإمبراطور كان يشير من طرف خفى فى رسائله إلى قوته المتزايدة وانتصاراته العديدة على البابوية ، حتى يدخل فى روع المسلمين المهابة والحذر من الإقدام على نقض شروط صلح يافا، فهذا التأويل مردود عليه بأن المسلمين لم يقدموا مطلقا على نقض عهد قطعوه على أنفسهم ، أو التنكر لصلح أو اتفاقية وقعوا عليها مع الصليبيين منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين حتى دالت دولة اللاتين بالشام ، هذا بالإضافة إلى أن فردريك منذ عودته إلى أوروبا حتى وفاته عام ١٢٥٠م، كان همه كله موجها لتدعيم سلطان دولته وإقرار حقوقه الإمبراطورية فى إيطاليا وصقلية ضد السياسة البابوية العدائية السافرة ضده، والتى تحولت إلى عداء شخصى فى تلك المرحلة [٢٦]، كما أن فردريك كان حريصا على ابقاء هذه الصداقة مع الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، والأمير فخر الدين ، ولذلك لم يتوان مطلقا عن إخبار سلطان مصر بأنباء الاستعدادات التى كانت تجرى فى أوروبا لخروج حملة صليبية جديدة هدفها مصر، يقودها لويس التاسع ملك فرنسا، وهى التى عرفت بالحملة الصليبية السابعة.

وإذا كان فخر الدين بن شيخ الشيوخ قد حاز ثقة الامبراطور فردريك الثانى وإعجابه، فإنه قد نال قبلها وأكثر منها لدى الملك الكامل الذى توسم فيه من البداية مظاهر الذكاء والفراسة وسعة الأفق ، ومن ثم حرص على أن يظل قريبا منه عونا له فى تصريف أمور دولته السياسية والعسكرية على السواء، إضافة إلى تقديره لعلمه وسعة ثقافته ، خاصة وأن الكامل كان يجل العلماء وينزلهم مُنزلا كريما، وقد لخص المقريزى[٢٧] ذلك كله فى عبارة مختصرة وإن كانت فى غاية البلاغة ، قال فيها : «ومازال (فخر الدين بن شيخ الشيوخ) مكرما محترما حتى مات الملك الكامل».

---

(٢٦) رأفت عبد الحميد، السمو البابوى بين النظرية والتطبيق (فى مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثالث ص٢١٣-٢١٧ .

(٢٧) الخطط جـ٢ ص٣٤ .

ويبدو أن القلاقل والاضطرابات التى حاقت بالدولة الأيوبية بعد وفاة الملك الكامل بسبب النزاع الذى نشب بين أفراد البيت الأيوبى ، قد شملت أيضا بتقلباتها الأمير فخر الدين، فتقلبت به الأحوال خلال السنوات التالية مباشرة لرحيل الكامل، فقد أقدم ابنه وخليفته فى مصر، العادل الثانى الصغير ، على سجن فخر الدين نتيجة وشايات ساقها الناصر داود صاحب الكرك وابن عم العادل ، وتشير المصادر إلى أن هذه الوساوس التى همس بها الناصر فى أذن العادل لم تكن قاصرة على فخر الدين فقط، بل شملت أخاه عماد الدين أيضا[٢٨]، ولعل ذلك يعود فى المقام الأول إلى ما أدركه الناصر من أن عائلة شيخ الشيوخ بأبنائها الأربعة هى التى قامت عليها دولة الكامل ، وأنهم يمثلون خاصة مستشاريه السياسيين وقواده العسكريين، كما أنه لم يغفر لأولاد الشيخ حرمانه من دمشق التى كانت لأبيه المعظم عيسى، واعطائها للجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل الكبير، الذى كان الكامل قد جاء به إلى مصر وتعهده بالرعاية، وعَدّ الناصر قرار العادل الثانى بالإبقاء عليه فى الكرك، وعدم تمكينه من دمشق والانعام بها على الجواد أمرا زينه أولاد شيخ الشيوخ لسلطان مصر الجديد، خاصة وأنهم كانوا - كما يصفهم ابن واصل[٢٩] آنذاك، «أرباب الدولة المشار إليهم» وأنهم يمثلون «شوكة قوية» .

ولم يطل مُكث العادل الصغير على عرش السلطنة ، إذ سرعان ما نحاه أخوه الصالح نجم الدين أيوب وسجنه ، وأصبحت بيده مقاليد الأمور فى مصر سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩ ، وما أن تم له ذلك حتى ولى وجهه شطر أولاد الشيخ؛ فاستوزر معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ ، ومكّنه وفوض إليه تدبير المملكة- على حد تعبير ابن واصل[٣٠] وحفظ لكمال الدين أحمد منزلته ومكانته التى كانت له أيام الملك الكامل، ثم لم يلبث السلطان أن أفرج عن الأمير فخر الدين وأخرجه من سجن القلعة فى سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م .

---

(٢٨) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان جـ٨ ص٧٠٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص١٧١-١٧٣ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٢٨ ؛ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٠٣-٣٠٥ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص٢٣ ؛ الحنبلى ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص٣٤٧ .

(٢٩) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص١٧١-١٧٣ .

(٣٠) مفرج الكروب جـ٥ ص٢٧٦-٢٧٧ .

وقد أسلفنا من قبل ما قام به أولاد الشيخ فى عهد الصالح نجم الدين وما أدوه للدولة من خدمات ، وما لقيوه من تكريم أيضا وثقة من جانب السلطان ، وقد اتضح ذلك تماما مما يرويه المؤرخون مثلا عند خروج معين الدين حسن مقدما للعسكر المصرى المتجه إلى دمشق فى عام ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م ، فيقول المقريزى[٣١] «وخرج الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ على العساكر من القاهرة ومعه الدهليز السلطانى والخزائن، وأقامه السلطان مقام نفسه، وأذن له أن يجلس على رأس السماط ، ويركب كما هى عادة الملوك، وأن يقف الطواشى شهاب الدين رشيد أستادار السلطان فى خدمته على السماط، ويقف أمير جاندار والحجاب بين يديه، كعادتهم فى خدمة السلطان، وكتب إلى الخوارزمية أن يسيروا فى خدمته». وهذه العبارات لاتحتاج إلى تعليق إلا أن نورد منها ما جاء فيها دالا غاية الدلالة وهى عبارة «وأقامه السلطان مقام نفسه».

أما ما كان من أمر فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، فإن السلطان سرعان ما أصدر قرارا بتحديد إقامته فى بيته ، ويعلل ابن واصل ذلك بقوله إن الأمير فخر الدين بعد أن أطلق الصالح نجم الدين سراحه «ركب ركبة عظيمة ، واجتمع له خلق من الرعية ودعوا له لأنه كان محببا إلى الناس لكرمه وحسن سيرته ، فبلغ الملك الصالح نجم الدين ، فاستشعر منه ولم يعجبه ذلك وأمره أن يلزم بيته»[٣٢] ، وكانت هذه المسألة من الأمور التى أودعها ابن واصل فيما بعد صحيفة اتهاماته وجعلها من بين الأسباب التى أوغرت صدر الصالح ضده وأدت إلى وقوع الوحشة بينهما، وذلك أمر سوف نعود إلى مناقشته تفصيلا عند ذهابنا إلى محكمة التاريخ فى صحبة الأمير فخر الدين .

---

(٣١) السلوك جـ١ ص٣١٨-٣١٩ وقارن ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٣٤١ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٥٤ . والأستادار هو أحد أرباب السيوف ويتولى الاشراف على البيوت السلطانية ، وله التصرف التام فى احضار ما يحتاجه كل من بيت السلطان من النفقات والكساوى. أما أمير جاندار فهو أيضا أحد أرباب السيوف ، ويتولى الاستئذان لدخول الأمراء لخدمة السلطان ويدخل أمامهم إلى الديوان ، وإذا أراد السلطان تعزير أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة ... وهو الذى يطوف بالزفة حول السلطان فى سفره . راجع القلقشندى، صبح الأعشى جـ٤ ص٢٠ .

(٣٢) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٢٧٦-٢٧٧ .

وقد امتدت مدة الإقامة الجبرية هذه التى حكم على ابن شيخ الشيوخ بقضائها فى داره إلى ما يقرب من أربع سنوات ، حتى عفا عنه السلطان فى عام ٦٤٣هـ/ ١٢٤٦م ، والذى يدعو للانتباه أن فخر الدين خرج من معتقله إلى حيث المكانة التى تليق به كواحد من أبناء أسرة الشيوخ ، ليس هذا فحسب بل لكفاءته وتعدد مواهبه ، وهو ما أدركه فيه الكامل وقدره، وما تنبه إليه الصالح وأفاد منه، فما أن أفرج عنه حتى «خلع عليه وأمّره وقدمه وأحسن إليه إحسانا كثيرا » (٣٣)، ولم يلبث أن عهد إليه بقيادة العساكر المصرية لمواجهة الملك الناصر داود صاحب الكرك الذى وطد علاقته مع الخوارزمية وسعى كلاهما لمضايقة الصالح نجم الدين، فاستولى فخر الدين على ما كان بيد الملك الناصر داود من البلاد وهى القدس ونابلس وبيت جبريل والصلت والبلقاء، ثم اتجه بعد ذلك إلى الكرك وألقى حصاره عليها بعد أن التجأ إليها الناصر ومن معه من الخوارزمية ، وكان ذلك فى عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م ، فخرب ما كان حولها، وضيق على الناصر ومن معه حتى قلّ ما عند الناصر من المال والذخائر (٣٤)، فلما اشتد عليه الأمر بعث إلى فخر الدين يستعطفه ، فتم الاتفاق بينهما على أن يسلم الناصر كل من عنده من الخوارزمية إلى ابن الشيخ ، فتسلمهم منه ورحل عنه (٣٥).

ولم يكد فخر الدين بن شيخ الشيوخ ينجز هذه المهمة بنجاح حتى أمره السلطان الصالح بالخروج على رأس جيش كثيف للإغارة على عدد من المناطق التى يحتلها الصليبيون، فاتجه إلى عسقلان سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م وحاصرها وفتحها وهدم تحصيناتها ، ثم رحل عنها إلى طبرية فأنزل بها ما حل من قبل بعسقلان(٣٦) حتى إذا حققت هجماته أغراضها كتب إليه الصالح يأمره بالتوجه إلى دمشق بمن معه من العساكر بعد أن حملت إليه الأنباء عزم الناصر صلاح الدين صاحب حلب القفز على المدينة وضمها إلى أملاكه ، فقدم ابن الشيخ إلى دمشق وبقى مقيما بها حتى قدم الصالح نجم الدين أيوب إليها فى السنة التالية ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م ،

---

(٣٣) المصدر السابق نفسه ص٣٥٢ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ص٣٢٢ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص٣٣-٣٤ .

(٣٤) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٣٦٣-٣٦٤ ؛ ابن أيبك الدر المطلوب ص٣٥٩ .

(٣٥) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص٣٥ .

(٣٦) ابن واصل، مفرج الكروب جـ٥ ص٣٧٨ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص٣٦ ، العماد الحنبلى ، شذرات الذهب جـ٥ ص٢٣٠ .

وأقام بها جمال الدين بن يغمور نائبا للسلطنة [٣٧]، وعهد في الوقت نفسه إلى الأمير فخر الدين بالخروج على رأس جيشه إلى حمص لاستخلاصها من يد الحلبيين، وقد ألقى ابن الشيخ حصاره عليها حتى إذا أمست قاب قوسين أو أدنى من الوقوع في يديه ، وصل رسول الخليفة العباسي وعقد الصلح بين الطرفين، وعاد الجيش المصرى إلى دمشق فأقام بها حتى نهاية هذا العام [٣٨].

على هذا النحو كان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العساكر المصرية هو رجل المهام الصعبة وموضع ثقة السلطان الصالح ، كما كان موضع ثقة أبيه الكامل من قبل ، واستمرت هذه الثقة قائمة حيث عهد إليه بقيادة الجيش المصرى لمواجهة الحملة الصليبية السابعة التي يقودها لويس التاسع ملك فرنسا ، والتي ألقت مراسيها على الشواطئ المصرية عند دمياط سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م لتبدأ بذلك محنة الأمير فخر الدين التي تمثلت في هذه الاتهامات التي عرضناها في صدر هذا الفصل ، والتي دفعتنا- كما ذكرنا- إلى تحريك هذه الدعوى من جديد أمام محكمة التاريخ .

ولن نخوض في التفصيلات الخاصة بالإعداد للحملة، وما جرى في أوروبا، وما فعله لويس التاسع قبل مقدمه من الاستعدادات وتوفير كل الإمكانيات التي تساعد أو تحقق لحملته النجاح، وليعوض من خلالها ما لحق بالحملات التي سبقتها - باستثناء السادسة- من الفشل الذريع ، وهذه الأمور كلها يمكن الاطلاع عليها في الكتب العديدة التي تناولت أحداث هذه الحملة، ومن ثم فإننا نقول هنا مباشرة إن لويس التاسع رحل من ميناء ليماسول في مايو ١٢٤٩م، بعد أن مكث في قبرص ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨- مايو١٢٤٩م) ، ليصل أمام دمياط في المنطقة المعروفة بـ «جيزة دمياط» ، وليبدأ بذلك الخطوات نفسها التي سبقه إليها جان دى بريين قائد الحملة الصليبية الخامسة [٣٩].

---

(٣٧) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص٣٦ .

(٣٨) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها .

(٣٩) محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، القاهرة ١٩٦١ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على مصر ، الاسكندرية ١٩٦٩ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٥٢-١٠٧٥ ؛
Setton , Ahistory of the Crusades, II pp. 487-521 , Runciman , A history of the Crusades , III pp. 255-292 .

وكان الصالح نجم الدين أيوب عندما وصلته أنباء إعداد الحملة الصليبية عن طريق فردريك الثانى، قد اعتقد أن الصليبيين ، بمنطق الإفادة من العمليات العسكرية السابقة والأخطاء التكتيكية القاتلة التى أدت إلى فشل الحملة الخامسة، لن يسلكوا الطريق نفسه الذى سلكته تلك الحملة حتى لايدخلوا ثانية فى شبكات مياه النيل، تجنبا للغوص كأسلافهم فى أوحال الدلتا ، إذا ما قطع المصريون الجسور المقامة على الفروع المختلفة للنهر، وتوقع بالخبرة العسكرية أن يذهب لويس التاسع إلى اتباع الطريق الذى جاءت منه حملات عمورى الأول ملك بيت المقدس فى ستينيات القرن الثانى عشر، ولذا قام بزيارة للمنصورة وتفقد حصونها، ثم اتجه إلى أطراف محافظة الشرقية الحالية ليقيم منطقة عسكرية- جديدة لتقف فى وجه هؤلاء القادمين عن طريق الصحراء كما توقع ، وعرفت هذه المنطقة باسم الصالحية. وكان هذا الإجراء من جانب الصالح دليلا على فطنة عسكرية، وإدراك لما كان من المفروض أن تقدم عليه الحملة الصليبية . غير أن نزول الصليبيين عند دمياط يوحى دون شك بأن تأثير التجار الإيطاليين على لويس التاسع لم يكن أقل منه على سلفه جان دى بريين .

ومع كل هذه التوقعات التى تحتمها الخبرة العسكرية ، إلا أن السلطان أخذ فى الوقت نفسه يستعد حربيا لمواجهة هذا الغزو الصليبى، فأنتقل من دمشق إلى مصر محمولا على محفة لاشتداد المرض به ، واستقر أول الأمر فى أشموم طناح التى اتخذ منها معسكرا له ومركزا لعملياته ، وأصدر أوامره بعودة القوات المصرية التى كانت على حصار حمص إلى مصر فورا ، كما أنه عمل بكل ما وسعه الجهد على تحصين مدينة دمياط وتزويدها بالمؤن والذخيرة وآلات الحرب ، وليس أبلغ فى التعبير عن ذلك مما ذكره السلطان نفسه عن دمياط حيث يقول ما نصه [٤٠]: «وأنا قوّيت دمياط، وملأتها ذخائر من كل شئ ، يكفيها عشرين سنة مع ما كان عند أهلها من الذخائر ... وقويتها بجميع عسكر الديار المصرية ، من فارس وراجل ، وما خليت (هكذا) لها عذرا، حتى بقيت وحدى فى أشموم بسبب المرض» .

وفى إطار هذه الاستعدادات العسكرية ، عهد السلطان إلى جماعة من الكنانية ، وهم الجند العرب الذين استوطنوا مصر فى المنطقة بين البرلس ودمياط، واشتهروا بالشجاعة والمثابرة فى القتال ، ولعبوا دورا كبيرا فى الدفاع عن دمياط أثناء حصار الحملة الصليبية

---

(٤٠) النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٤٣ .

الخامسة، عهد إليهم الملك الصالح بحماية المدينة من الداخل، فشحنت أبراج المدينة وأسوارها بأعداد ضخمة منهم، بينما أمر الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، القائد العام للجيش المصرى، أن يتقدم على رأس جيشه إلى البر الغربى للنيل قبالة دمياط ، أو المنطقة التى تعرف- كما قدمنا- بـ «جيزة دمياط» ، والتى نزلت فيها الحملة الخامسة، والتى وردت التقارير إلى معسكر الصالح بأنها قصد الصليبيين الآن، وأعطى الأوامر أيضا إلى الأمير حسام الدين ابن أبى على، نائب السلطنة فى القاهرة : بإعداد قطع الأسطول المصرى وتجهيزها بالرجال والعتاد ، وإرسالها وحدة بعد أخرى رفقة السفن التموينية إلى دمياط ، لتكون مانعا ضد أية حركة صليبية تجرى فى نهر النيل(٤١).

ويبدو أن أخبار مرض الملك الصالح نجم الدين قد نقلت إلى الملك لويس التاسع عن طريق أعوانه من الصليبيين فى الشام، ولابد أن يكون ملك فرنسا قد استبشر خيرا بهذه الأنباء ، ولعله أراد أن يستغل هذه الفرصة فيضرب ضربته والحديدة محماة ، أى ينتهز هذه النهزة للضغط على أعصاب السلطان المريض، الواهن القوى ، عن طريق ما نعرفه فى زماننا هذا بـ «الحرب النفسية» ، مع أننا رأينا كيف أن الصالح وإن كان قد هدّه المرض فعلا كما تخبرنا المصادر المعاصرة ، إلا أنه لم يكن أبداً خائر العزيمة، بدليل كل ما أقدم عليه من استعدادات عسكرية فى الصالحية وأشموم طناح والمنصورة ودمياط وجيزة دمياط على المستويين البرى والبحرى على السواء. لكن لويس أراد أن يهتبل كل سانحة لإضعاف خصمه والنيل من عزيمته قبل أن تبدأ المعركة ، أو هكذا ذهبت به الظنون ، ومن ثم فإنه بعث إلى سلطان مصر برسالة(٤٢) تفيض بالتهديد والوعيد ، نقتطف منها هنا لأهميتها بعضا مما جاء فيها، قال :

« ... (ونحن) نقتل العباد وندوس البلاد ، ونطهر الأرض من الفساد، فإن قابلتنا بالقتال فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال ، ورميتهم فى أسر الوبال ، فيكثر فيهم العويل، ولايرحم عزيز ولاذليل ، ولاتجد إلى نصرتهم من سبيل . ونحن شرحنا لك ما فيه الكفاية ،

---

(٤١) زيادة ، حملة لويس التاسع ص١٠٣ ؛ جوزيف نسيم ، العدوان الصليبى ص٨٢-٨٣ .

(٤٢) ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٦٦-٣٦٧ . وقد ناقش كل من الدكتور حسن حبشى فى كتابه ، الشرق العربى بين شقى الرحى، ص٣٦-٤١ ؛ والدكتور محمد مصطفى زيادة فى كتابه، حملة لويس التاسع على مصر ص١٠٨ ؛ والدكتور جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ، ص٢٩١-٢٩٣ ، موضوع رسالة الملك لويس التاسع ورد السلطان الصالح نجم الدين أيوب عليها ، وموقف المصادر منها، لمزيد من الدراسة راجع هذه المؤلفات .

وبذلنا لك غاية النصح والهداية ... فلاتكون فيك فترة ولاتوان ، لتكون قلوبنا راضية عليك ، ولاتسوق حتفك إليك ، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ، وتعود وتقول يا ليت ... فسيوفنا حداد ، ورماحنا مداد ، وقلوبنا شداد ، ويحكم بيننا وبينكم رب العباد » !!

وإلى جانب هذا التهديد الصريح والوعيد ، تضمنت الرسالة عبارات تفيض بالتباهى والتفاخر بماتم ارتكابه من الفظائع والوحشية ضد مسلمي الأندلس خلال حرب الاسترداد الدائرة هناك، وما تعرضت له الاسكندرية من هجمات سابقة على يد الصليبيين وملكى صقلية وبيت المقدس، إشارة إلى ما ينتظر الصالح ومصر من سوء العاقبة إذا لم يبادر السلطان بأعلان الاستسلام واعتبار نفسه نائبا عن ملك فرنسا فى حكم مصر ، كما أفصحت سطور الرسالة !!

ولم يحقق هذا الإنذار الفرنسي الآمال التى كان يعقدها عليه لويس، بل على العكس زاد الملك الصالح عزيمة وإصراراً على التصدى لهذه الغطرسة الصليبية، فكتب إليه يقول :

«... أما بعد ، فقد وصل كتابك ، وفهمنا لفظك وخطابك ، وها أنذا قد أتيتك بالخيل والرجال ، والخزائن والأموال، والعساكر والأثقال ، والقيود والأغلال ؛ فإن كانت لك فأنت الساعى وقد أمنت الناعى، وإن كانت عليك فأنت الباغى لحتفك والجادع أنفك بظلفك ... وفى كتابك تهددنا بجيوشك وأبطالك وخيلك ورجلك ، أو ما تعلم أنا نحن أرباب السيوف وأبطال الحتوف ، ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ، ولاعدم منا فارس، إلا جددناه، ولاطغى علينا طاغ إلا دمرناه ، فلو نظرت أيها المغرور حد قلوبنا ، وجد حروبنا ، لرأيت فرساننا أسنتهم لاتمل وسيوفهم لاتكل وقلوبهم لاتذل، ولعضيت على يدك بسن الندم، ولأخرت تحريك قدم عن قدم ، فلاتعجبك العساكر التى بين يديك ، فهو يوم أوله لنا وآخره عليك. فإذا قرأت كتابى هذا فلتكن منه على أول سورة النحل «أتى أمر الله فلاتستعجلوه» ، ولتكن منه على آخر سورة ص «ولتعلمن نبأه بعد حين» ، هنالك تتطاول نحوك الأعناق وتشخص صوبك العيون ، ويشويك الويل، وتسوء بك الظنون ، «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» . ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بأذن الله والله مع الصابرين»، وإلى قول الحكماء « إن الباغى له مصرع » ، وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك، والسلام»[٤٣].

---

(٤٣) ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٦٧-٣٦٩ ؛ المقريزى، السلوك جـ١ ص٣٣٤-٣٣٥ .

وكان لابد أن تأتى رسالة الصالح أيوب على هذا النحو ردا ايجابيا على ما حوته تهديدات لويس التاسع، مبينا أن الصليبيين هم المعتدون ، وأنهم هم الذين سعوا إلى اشعال نيران هذه الحرب ، ومن ثم فرض الجهاد على المسلمين، وكان حتما مقضيا ، ولاتخلو الرسالة أيضا من نغمة التخويف بالقوة التى يتمتع بها الجيش المصرى متمثلة فى فرسانه ومشاته بأسلحتهم وصبرهم على القتال وشدة بأسهم فى الحروب.

ووسط هذه الأجواء من الحرب النفسية ، ظهرت السفن الصليبية أمام الشواطئ المصرية فى يوم الجمعة الرابع من يونية ١٢٤٩ / العشرين من صفر ٦٤٧هـ ، وتعرضت عند ظهورها لمناوشات من جانب بعض قطع البحرية المصرية التى أرسلت بغرض الاستكشاف ، وإن كان الأسطول الصليبى قد طوق ثلاثا من هذه القطع الأربع واستولى على من وما فيها. وفى اليوم التالى مباشرة ، السبت بدأت القوات الصليبية فى النزول إلى الشاطئ الغربى للنيل قبالة دمياط ، فى المنطقة المعروفة بجيزة دمياط ، حيث كان يعسكر الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ مقدم العسكر والقوات المرابطة معه . ولم يكن نزول فرق الجيش الصليبى يسيرا ، إذ أخذت القوات المصرية فى التعامل معها فى محاولة لمنعها من الانتشار أو إقامة معسكر لها، وفقد الجيش المصرى فى هذه المعركة الأولية واحدا من من أبرز قواده هو الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، وكان من أشد المقربين إلى السلطان الصالح أيوب ، وكذلك الأمير صارم الدين أزبك الوزيرى، واستطاع الصليبيون فى نهاية الأمر أن يكملوا عملية إنزال القوات إلى الشاطئ، وأن ينصب الملك خيمته ، ويضرب أمراؤه خيامهم حولها .

وفجأة ودون سابق إنذار ، انتهز الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، القائد العام للجيش، دخول الليل فانسحب بكل من معه من العساكر فى هدوء ودون جلبة إلى الشاطئ الشرقى للنيل عند دمياط ، حتى أن أحدا من المعسكر الصليبى لم يعرف برحيلهم إلا فى صبيحة اليوم التالى، ولم يتوقف فخر الدين وقواته فى دمياط، بل ولى وجهه وجيشه معه مباشرة إلى أشموم طناح حيث يعسكر السلطان . وكان لابد أن يثير هذا التصرف الفزع والهلع فى نفوس أهل دمياط وهم يرون مقدم العسكر وعسكره يخرجون بكامل قواهم وعددهم باتجاه المعسكر السلطانى، وزاد الأمر سوءا أن جماعات الكنانية التى وكل إليها الدفاع عن المدينة وتحصنوا بأبراجها وأسوارها، ما أن رأوا ذلك حتى أطلقوا هم الآخرون سيقانهم للريح ، بعد أن أشعلوا النيران فى سوق المدينة، «وخرجوا ومعهم أهل دمياط على وجوههم طول الليل، ولم يبق

بدمياط أحد، بل تركوها صفرا من الرجال والنساء والصبيان ، ورحلوا مع العسكر هاربين إلى أشموم طناح».

وسوف أترك المجال هنا للمؤرخ المعاصر ابن واصل ليعلق على هذه الأحداث المتلاحقة التى لم تستغرق من الليل إلا ساعات معدودات ، وترتب عليها أمور جسام كادت تقلب كفة التوازن الدولى فى المنطقة لو تم للصليبيين تحقيق حلمهم بالسيطرة على مصر ، وليس هناك أقدر على وصف ما حدث من مؤرخنا هذا ابن واصل ، يقول : «... كان هذا فعلا قبيحا منهم ومن فخر الدين والعساكر ، فإن فخر الدين لو منع العسكر من الهرب ، وأقام ، لامتنعت دمياط ، فإن دمياط فى الكرة الأولى لما نازلها الفرنج أيام الملك الكامل (الحملة الصليبية الخامسة) كانت أقل ذخائر وعُددا ، ولم يقدر الفرنج عليها إلا بعد سنة، فلما نوزلت سنة خمس عشرة وستمائة ، وأخذت سنة ست عشرة وستمائة ، لم يتمكن العدو منها إلا بعد أن فنى أهلها بالوباء والجوع ... والكنانية وأهل دمياط لو غلقوا أبوابها وتحصنوا بها بعد رجوع العسكر إلى أشموم طناح ، لما قدر الفرنج عليهم ، وكانت العساكر ردت إليهم ، ومنعت الفرنج عنهم ، والأقوات والآلات والعدد كانت عندهم فى غاية الكثرة ، فكانوا قدروا على حفظها سنتين أو أكثر من ذلك ، ولكن إذا أراد الله أمرا فلا مردّ له»(٤٤).

ولو قارنا هنا بين ما يذكره ابن واصل عن حصانة دمياط وشجاعة من بها من الكنانية والمصريين أهل البلد، وما فيها من الأسلحة والعتاد ، وبين ما قاله الملك الصالح عن تحصين المدينة وشحنها بالرجال والعتاد ، على النحو الذى أشرنا إليه من قبل، وأضفنا إلى ذلك كله الاستعدادات العسكرية الضخمة التى قام بها السلطان ، سواء فيما يتعلق بالقوات البرية أو البحرية ، لو جمعنا هذا كله لأدركنا أن الأمير فخر الدين- كما يبدو من ظاهر القول- لم

---

(٤٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، نقلا عن الملحق رقم ١ فى كتاب دكتور محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، ص٢٦٥-٣١٤ ، وهذا الملحق يتناول أخبار حملة الملك لويس التاسع على مصر، منذ قدومها إلى الشواطئ المصرية إلى جلائها نهائيا عن دمياط ، منقول من الجزء الذى لايزال مخطوطا من كتاب ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ولذا فإننا سوف نشير ابتداء من الآن فى الحواشى إلى ذلك بعبارة «الملحق المذكور » ونورد رقم الصفحة كما جاء ترقيمها فى كتاب الدكتور محمد مصطفى زيادة . راجع أيضا ، النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٣٤ .

يصدر أوامره بالانسحاب من جيزة دمياط والعودة إلى أشموم طناح، عن ضعف فى هذه القوات أو نقص فى عتادها ، حتى أن جوانفيل ، كاتب سيرة لويس التاسع ، يقول «وصل الملك أمام دمياط، وأبصرنا أمامنا على الشاطئ كتائب السلطان ، وهى كتائب يستحب النظر إليها ، فقد كانت أسلحتها من الذهب (هكذا) إذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار ، وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة فى نفوس سامعيها »[٤٥]، ومن ثم فإن هذا الانسحاب المفاجئ فى جنح الليل يمثل علامة استفهام كبيرة ، خاصة وأن كل عوامل النصر على الصليبيين الآن كانت قائمة .

وتجد علامة الاستفهام هذه إجابة لها عند مصدرين معاصرين، أحدهما المؤرخ الصليبى جوانفيل ، شاهد العيان فى هذه الحملة، والمؤرخ الإسلامى ابن واصل المعاصر لهذه الأحداث ، ونلتقط أول خيط فى الإجابة من قول جوانفيل «استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه بنبأ رسو الملك ، لكنهم لم يتلقوا جوابا ما عن رسائلهم لاشتداد العلة عليه، فتبادر إلى أذهانهم أنه مات ، ومن ثم غادروا دمياط» [٤٦] ويعلل البغدادى[٤٧] عدم رد السلطان على الرسائل إلى أنه كان واقعا تحت تأثير المخدر الذى أعطاه إياه الطبيب ليخفف عنه آلامه ، ونصح فى الوقت نفسه بعدم ازعاجه . وأيا كانت الأسباب فإن الجيش المصرى المعسكر فى جيزة دمياط لم يتلق ردا على رسائله إلى الصالح أيوب . أما الخيط الثانى فنجده عند ابن واصل الذى يقول : «ولما عدّى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ والعسكر إلى البر الشرقى، رحل العسكر طالبا أشموم طناح ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم ما يردهم ولايردعهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح»[٤٨].

---

(٤٥) جوانفيل ، القديس لويس ص٩١ .

(٤٦) جوانفيل ، القديس لويس ص٩٦ .

(٤٧) الحوادث الجامعة ص٠٢٤ (نقلا عن محمد محمد أمين ، السلطان الملك الصالح نجم الدبن أيوب ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة غير منشورة ، ص١٢٥ .

(٤٨) ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٦٦ .

والمصدران يتفقان على أن السبب الرئيسى فى انسحاب العسكر من الضفة الغربية للنيل وتركها خالية أمام الصليبيين ، كان اشتداد العلة على السلطان وتوقع وفاته بين لحظة وأخرى، وهو أمر يقتضى حسب مفهوم العسكر آنذاك الوجود بالقرب من موقع الأحداث للمشاركة فيها أو التحكم فى مجرياتها وتسيير دفتها بما يتفق وطبيعة الأمور، هذا ما يوحى به حديث المصادر. ويفهم للوهلة الأولى من رواية ابن واصل أنه يلقى بالتبعة كاملة على الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ حين يقول صراحة : «وكان هذا فعلا قبيحا منهم (يعنى الكنانية) ومن فخر الدين والعساكر ، فإن فخر الدين لو منع العسكر من الهرب وأقام لامتنعت دمياط» ، وكان هذا اتهاما صريحا للأمير فخر الدين بالتفريط والتهاون فى المهام الملقاة على عاتقه من الناحية العسكرية، واخلالا بالواجب العسكرى المنوط به باعتباره القائد العام للجيش، بل يصل الأمر إلى حد الاتهام بالخيانة العظمى حين يُنسب إليه طمعه فى القفز على العرش ، وأنه ترك الجبهة وارتد إلى أشموم طناح لينتهز أول بارقة أمل فى موت السلطان ليحقق مأربه الذى يدفعه إليه طموحه الذى احتوت عليه نفسه منذ زمن بعيد يعود إلى بداية تملك الصالح نجم الدين أيوب سلطنة الديار المصرية، على حد قول ابن واصل عنه صراحة ، «إنه كان عالى الهمة جدا ... وكانت همته تترقى إلى الملك ... وكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر»! [٤٩].

ولم يكن غريبا أن تحذو المصادر الأخرى حذو ابن واصل ، فهذا ابن أيبك[٥٠] يعتبر أن ما أقدم عليه الأمير فخر الدين يعد «رأيا ذميما وسوء تدبير» ، بينما يقول أبو المحاسن بن تغرى بردى[٥١] «إن هذا (يعنى الانسحاب) كان من قبيح رأى فخر الدين» ، فإذا ما جئنا إلى المقريزى وجدناه شديد اللوم لفخر الدين يكاد يردد عبارات ابن واصل ويقول «فَعُدَّت هذه الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به ... وقامت الشناعة من كل أحد على الأمير فخر الدين»[٥٢] وعلى نفس المنوال نهج المؤرخون المحدثون وكالوا الاتهامات للأمير فخر الدين

(٤٩) المصدر السابق ، ص٢٨٥-٢٩٤ .

(٥٠) الدر المطلوب ص٣٦٩ .

(٥١) النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٣٠ .

(٥٢) المقريزى ، السلوك جـ١ ص٣٣٥ ، ٣٣٦ .

واعتبروه مسئولا عن كل ما وقع من الأحداث الجسام التى صاحبت هذه الحملة السابعة على أرض مصر منذ سقوط دمياط حتى معركة المنصورة[٥٣] ولم يأخذ موقفا مغايرا لذلك إلا

---

(٥٣) يقول أستاذنا الدكتور سعيد عاشور «وربما كان السبب فى تعجل فخر الدين فى الفرار، هو اعتقاده بأن السلطان المريض- الملك الصالح أيوب- قد توفى فعلا، فى الوقت الذى كان فخر الدين ذا أطماع «تترقى إلى الملك» (وهذه عبارة ابن واصل)، مما جعله يسرع لتحقيق أطماعه تاركا دمياط لقمة سائغة للصليبيين»، الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٦١، وافتتاح الحديث بكلمة «ربما» يفيد الشك أو الاحتمال والتحفظ فى الوقت ذاته. بينما يعلنها الدكتور جوزيف نسيم يوسف حربا لا هوادة فيها ضد فخر الدين متهما إياه صراحة بالخيانة بعبارات تفوق أحيانا ما أدانته به عبارات المصادر، ولأهمية ذلك فى عرض القضية التى نحن بصددها، فإننى آثرت أن انقل هنا نص ما كتبه أستاذنا الدكتور جوزيف نسيم يوسف رغم طول فقرات هذا النص: « ... ويعلل بعض المؤرخين والكتاب المحدثين تراجع فخر الدين والعسكر بعجزهم عن ملاقاة الفرنج عندما أصبحوا أمامهم وجها لوجه، بسبب تفوقهم عليهم فى العدة والعدد، حتى أن الرعب تملك القوات المصرية نتيجة هذا الهجوم المباغت فارتدت إلى دمياط وتركتها دون أية مقاومة إلى أشموم طناح.

«ويبدو أن هذا التعليل غير معقول (نجد بعد ذلك حديثا عن حصانة دمياط ومقاومتها إبان الحملة الخامسة وعبارات ابن واصل التى تلقى باللوم على فخر الدين لانسحابه) ... ومن الجائز أن يكون الرعب قد تسلل إلى نفوس العساكر الإسلامية عند مرآى الفرنج وأساطيلهم لكن هذا لايمنعنا من القول بأن خوفهم من الصليبيين ليس هو السبب الحقيقى الذى دفع فخر الدين إلى الفرار بالعسكر وترك دمياط فريسة سهلة فى أيدى العدو، ويمكننا تفهم حقيقة هذا الموضوع الخطير من تحليل حياة فخر الدين نفسه وبحث المشاكل العامة المتعلقة بالدولة وقتئذ.

«لقد كان فخر الدين - كما وصفه المؤرخون - كبير المطامع عريض الآمال، ويظهر أن هذا الأمير أيضا كان قد حدثته نفسه بالسلطنة فى ذلك الوقت، فإنه جاء فى المصدر السابق (يعنى ابن واصل، مفرج الكروب) «كان قد انتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكانت همته تترقى إلى الملك».

«أخذ فخر الدين يتحين الفرص لبلوغ أهدافه وتحقيق مآربه، ولقد وجد جميع الظروف مهيأة له تستدعيه لتحقيق حلمه المنشود الذى طالما كان يسعى إليه، فعندما لم يتلق ردا على رسائله التى بعث بها إلى السلطان، اعتقد أن السلطان المريض قد مات، فانتهز هذه الفرصة المواتية ورحل هو والعسكر عن دمياط علّه يستولى على الملك. وقد جاء فى مخطوط ابن واصل نص صريح يكشف عن حقيقة نوايا هذا الأمير المصرى (!!) وعسكره يقول فيه (وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، فلم يكن لهم من يردعهم أو يردهم، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح، كما ذكر فى موضع آخر، ولم يبق للسلطان (!!) قدرة على ضبط جنده وقد اشتد طمعهم فيه)، يتضح لنا مما سبق

= أن فرار فخر الدين والعسكر لم يكن في الواقع خوفا من كثرة عدد الفرنج أو عدتهم ، لكنهم أرادوا استغلال هذه الفرصة الذهبية لتحقيق مطامعهم ، ظنا منهم أن سلطانهم قد وافته منيته ، فتركوا المدينة مسرعين نحو العاصمة (من المعروف أنهم لم يتجهوا إلى العاصمة، القاهرة ، بل اتجهوا إلى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح)، علهم يحصلون على ما كانوا يأملون من الملك والسلطان ، غير ملتفتين إلى الدفاع عن دمياط ، بينما لو ثبتوا فيها لأمكن صد عدوان الصليبيين وردهم على أعقابهم ».

ويواصل الدكتور جوزيف هجومه على فخر الدين فيقول : «وبالرغم من الخيانة التى اتهم بها فخر الدين عند ارتداده عن دمياط دون قتال ، فإنه كان محبوبا من الناس (!!) ولهذا فقد عُهد إليه بقيادة الجيوش وتدبير شئون المملكة قبل أن يصل المعظم (تورانشاه بن الصالح) من الحصن (حصن كيفا) . ولمتسائل أن يقول: إذا كان فخر الدين طامعا فى الملك حتى أنه أخلى دمياط مدفوعا بهذا السبب ، فما هو موقفه من موت الصالح ؟ وهل ظل مكتوف اليدين أم جدد محاولاته للوصول إلى كرسى السلطنة ؟ لقد عمل هذا القائد المصرى على استغلال هذه الفرصة ، فأصبح فعلا صاحب الأمر والنهى بعد موت سيده ، وتصرف فى الأمور تصرفا مطلقا ، وشرع فى إطلاق المساجين ، وأحسن إلى الرعية ، وأبطل بعض المكوس ، وأنفق فى العسكر ، وخلع على خواص الأمراء ، وقرب إليه أولئك الذين كان قد أبعدهم الصالح أيوب مثل ابن مطروح والبهاء زهير ، كما صار له موكب عظيم بالمنصورة ، والأمراء كلهم فى خدمته ، ويترجلون له كلهم عند النزول ، ويحضرون سماطه ، حتى لقد خشى حسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة أن يستأثر فخر الدين بالملك ويستبد به لنفسه ، فسير قاصدا من قبله إلى المعظم يحثه على سرعة القدوم إلى مصر قبل أن تخرج البلاد من يده ، كذلك بعثت شجر الدر وباقى الأمراء القصاد لاحضار المعظم ، وما أمكن فخر الدين إلا الموافقة على ذلك حتى لاتحوم حوله الشبهات ، خاصة وأنه كان يستبعد وصول تورانشاه من الحصن لعلمه أن الأعداء كانوا متربصين له فى الطريق . وقد تنكر بعض الأمراء الصالحية عقب موت الصالح لفخر الدين وعزموا على قتله ، ولكى يخمد هذه الفتنة استدعاهم إليه وأعلمهم أنه لاطمع له فى الملك، وأنه إنما يحفظه للمعظم إلى أن يصل ، وواضح أن فى ذلك إشارة من طرف خفى إلى طمعه فى الملك ، وإلا لما كان هناك أى مبرر لثورة بعض الأمراء عليه ، وأن يستدعيهم ليطمئنهم بأنه لايعمل للوصول إلى العرش، وإنما لحفظه إلى أن يحضر ابن سيده » .

ويختتم الدكتور جوزيف دعوى الاتهام العنيف بقوله « وهكذا نرى أن سلوك فخر الدين وتصرفاته بعد موت الصالح أيوب ، كانت تدل على أنه كان يسعى سعيا حثيثا إلى الملك ، لكن القضاء لم يمهله طويلا، إذ استشهد قبل وصول المعظم بقليل ، بينما لو واتته الظروف وقدر له أن يعيش لكان ربما تسلطن ولصار إليه مُلك البلاد ». راجع ، العدوان الصليبى على مصر ، ص١٠٣-١٠٦ ، ١٤١-١٤٣ .

الدكتور محمد مصطفى زيادة، الذى تحفظ على هذه الاتهامات التى سيقت ضد الأمير فخر الدين ، بقوله : « ... اعتقد الأمير فخر الدين أن باستطاعته أن ينسحب بجيشه مؤقتا من الميدان، وأن يذهب إلى حيث يضطجع السلطان المريض حيا أو ميتا ، ليشارك أولا فى تقرير ما ينبغى تقريره من الشئون العليا فى سياسة الدولة والوراثة السلطانية »(٥٤).

ويمضى الدكتور زيادة قائلا : « والحق ، إنه بالإضافة إلى اختلاف معايير العصور الوسطى فى الشرق والغرب عن معاييرنا فى العصر الحاضر ، لم يكن من السهل، ولامن المنطق الشخصى فى تلك العصور الوسطى ، أن يرضى القائد فخر الدين بالبقاء بعيدا عن المعترك السياسى البلاطى، أى حول سرير المريض، أو أن يظل مشغولا بعمل حربى يمكن الانصراف إليه فيما بعد، أى بعد تقرير مصير السلطنة ، ثم إنه كأن القائد فخر الدين شعر بأنه مُبعد عمدا عن الميدان السياسى الداخلى، بناء على إشارة من بعض المحيطين بشخص السلطان المريض ، وأنه ربما يخدم مصالح السلطان والدولة الأيوبية، ومصالحه الشخصية الخاصة به كذلك، بذهابه فى سرعة إلى أشموم طناح »(٥٥).

وبعد أن يوضح الدكتور زيادة عبارة «المصالح الشخصية » هذه لدى الأمير فخر الدين ، وذلك من وجهة نظر المؤرخين المعاصرين أو المحدثين كما بيناها آنفا، يختتم حديثه بقوله: «غير أن حوادث حملة الملك لويس التاسع بعد كارثة دمياط ، سوف تفند هذه الشكوك (التى سيطرت على متهمى فخر الدين)، وسوف تبرهن على أن الأمير فخر الدين كان من المفترى عليهم فى التاريخ حسب معايير العصور الوسطى »(٥٦).

(٥٥،٥٤) محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع ص١١٤ .

(٥٦) المرجع السابق نفسه ص١١٤-١١٥ ، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور زيادة عند تحقيقه لكتاب «السلوك لمعرفة ول الملوك» للمقريزى فى عام ١٩٥٦ ، ذكر تعليقا يفيد الموافقة نسبيا على رأى ابن واصل والمقريزى فى اتهام فخر الدين ، فقد جاء فى حاشية رقم ٥ ص٣٤٥ من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزى ، قوله : «يظهر أن الأمير فخر الدين كان قد حدث نفسه بالسلطنة فى ذلك الوقت ، فإنه حسبما جاء فى ابن واصل «كان قد انتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح، وكانت همته تترقى إلى الملك»، وفى عام ١٩٦١ أصدر الدكتور زيادة كتابه «حملة لويس التاسع على مصر» وذكر فيها الآراء التى عرضنا لها فى المتن، ويبدو فيها التحفظ واضحا على اتهامات المؤرخين لفخر الدين .

وبعد تلاوة صحيفة الدعوى المرفوعة ضد الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، والمفعمة بقائمة الاتهامات والشكوك، و«الشناعات» على هذا النحو الذى رأينا ، فأنه لامدنوحة ، سواء بشأن هذه الصحيفة ووجودها أو عدم تحريكها ، عن التسليم المطلق بداهة وبداية إن إقدام أى قائد عسكرى ، ناهيك عن القائد العام ، على الانسحاب بقواته من ميدان المعركة ، دون أن يكون هذا ضمن الخطة التكتيكية الحربية للمعركة ، يعد إخلالا بالواجبات العسكرية، وإثما كبيرا يجب أن يواجه بأقصى عقوبة ينص عليها القانون العسكرى، كان هذا فى العصور الوسطى أو العصر الحديث ، وهذا هو ما فعله السلطان الصالح أيوب مع الكنانية الذين تركوا مواقعهم فى أبراج مدينة دمياط وأسوارها وهربوا ، حيث أصدر أوامره بأعدام خمسين أو يزيد من زعمائهم ، وتم فعلا إعدامهم ، هذا فى الوقت الذى اكتفى فيه بتوجيه اللوم والتأنيب فقط إلى قائد جيشه، وأبقاه فى منصبه كما هو ، قائدا عاما للجيش المصرى !! وهذه مسألة لاشك تثير الحيرة والدهشة أمام أى باحث. إذ كيف يتم شنق خمسين من زعماء الكنانية لفرارهم من دمياط ، مع أن هذا جاء نتيجة لما رأوه من تخلى الأمير فخر الدين عن مواقعه فى الضفة الغربية للنيل، ومروره بدمياط فى طريقه إلى أشموم طناح ، ومن ثم تبعوه حسبما جرت به رواية المصادر ؟!

وقبل أن نصدر حكما فى هذه القضية الشائكة ، فأنه يتحتم علينا إعادة قراءة النصوص المعاصرة بدقة وروية ، بل والتوقف طويلا أمام كل اتهام تضمنته صحيفة الدعوى ومناقشة أصحابها ، حتى يجئ الحكم متفقا مع حيثياته .

علمنا من جوانڤيل أن الانسحاب جاء نتيجة لعدم تلقى القوات المعسكرة فى جيزة دمياط ردا على الرسائل الثلاث التى بعث بها القائد العام إلى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح، وسريان شائعة احتمال موت الملك الصالح . ولعل الذى يقفز إلى الذهن الآن مباشرة تساؤل مُلِحّ عن مضمون تلك الرسائل وما الذى كانت تحتويه . ولما كانت المصادر تخلو حتى من الإشارة إلى هذه الرسائل ، ولم يزد جوانڤيل عن ذكر عددها فقط ، فليس أمامنا من سبيل إلا أن نستقرئ سطورها من بين الأحداث والوقائع التى صحبتها أو تلتها . والذى لاشك فيه أن هذه الرسائل لابد أن تكون أشبه شئ بما نعرفه فى زماننا هذا بالبلاغات الحربية التى تصدرها القيادة العامة للجيش عن سير المعارك ، ومن ثم فمن المتوقع أن تكون الرسالة الأولى قد حملت إلى المعسكر السلطانى نبأ نزول القوات الصليبية إلى الشواطئ المصرية عند جيزة

دمياط ، قبالة القوات المصرية المرابطة هناك[٥٧] إضافة إلى تقرير القيادة العامة لعدد الجيش الصليبي والأسطول المصاحب له. ومن المتوقع أيضا أن تكون الرسالة الثانية قد أبلغت السلطان بأخبار المناوشات التي وقعت بين طلائع القوات الغازية ومقدمة الجيش المصري. وهي المناوشات التي استشهد فيها الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، والأمير صارم الدين أزبك الوزيري، كما أسلفنا ، وكانت محاولة لوقف انتشار الجيش الصليبي، ويبدو طبعا أنها لم تستمر طويلا ، إذ نقف على ذلك من قول الملك الصالح للعسكر بعد عودتهم إلى أشموم طناح «أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج» [٥٨]، وليس من المستبعد أن تكون الرسالة الثانية هذه قد تضمنت إلى جانب ذلك الإشارة إلى خطورة الموقف من جراء التفوق العددي الواضح للجيش الصليبي، خاصة وأن المنطقة التي تعسكر فيها فرق الجيش المصري لم تكن على قدر من الحصانة العسكرية بحيث تهيئ فرصة دفاعية أفضل في مواجهة الصليبيين ، وعليه فليس من المستبعد أيضا أن يكون القائد العام، الأمير فخر الدين ، قد طلب المشورة من السلطان فيما يتعلق بهذا الأمر.

ولما لم يتلق مقدم العسكر ردا على رسالتيه السابقتين وبخاصة الثانية، بادر على الفور بإرسال الثالثة والتي نرجح أن يكون قد عرض فيها على السلطان مقترحات محددة بشأن الموقف العسكري وكيفية مواجهته ، وادخال بعض التعديلات على الخطط الحربية السابقة التي كان السلطان قد أقرها بشأن الدخول في معركة حاسمة مع الصليبيين عند نزولهم إلى الشواطئ المصرية في جيزة دمياط ، وهو ما ارتآه عقب عودته مباشرة من الشام إلى مصر ، لدى سماعه بأنباء قدوم الحملة الصليبية . ولما كان فخر الدين قد وقف الآن عن قرب على حقيقة الموقف العسكري ، وأيقن أن الدخول في معركة فاصلة مع الصليبيين في جيزة دمياط غير مضمونة العواقب أمام كثافة أعداد الجيش الصليبي ، لذا رأى أن يجري تعديلا سريعا في الخطة الحربية السابقة بما يضمن عدم نجاح الصليبيين في تحقيق أهدافهم .

---

(٥٧) يقول جوانفيل «استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه بنبأ رسو الملك» ، راجع القديس لويس ص٩٦ .

(٥٨) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ص٣٣٦ .

ويؤكد رجحان كفة هذا الرأى عندنا ما أخبرتنا به المصادر عن حجم قوات لويس التاسع وكثرة أعدادها ، فابن واصل يقول : «... وصلت مراكب الفرنج وفيها جموعهم العظيمة ، وقد انضمت إليهم إفرنج الساحل جميعها، (يقصد الصليبيين بالشام) ، فأرسوا فى البحر بأزاء المسلمين»[٥٩]، وقد أسلفنا أن هذه السفن أسرت ثلاثا من سفن الأسطول المصرى بمن وما فيها ؛ أما ابن أيبك الدوادارى[٦٠] فيخبرنا أن الامبراطور فردريك الثانى، الذى لم تنقطع صلته بالأيوبيين بعد وفاة السلطان الملك الكامل، أرسل إلى السلطان الملك الصالح يخبره بخروج هذه الحملة الصليبية قاصدة مصر، وأنه (أى لويس التاسع) «قد وصل فى خلق كثير» ثم يقول ابن أيبك نفسه «وصل إلى دمياط مراكب سدت البحر كثرة» ؛ هذا على حين يردد المقريزى[٦١] عبارات ابن واصل حيث يقول : «وصلت مراكب الفرنج البحرية وفيها جموعهم العظيمة ... وقد انضم إليهم فرنج الساحل كله، فأرسوا فى البحر بأزاء المسلمين» ؛ بينما يخبرنا أبو المحاسن[٦٢] بأن ملك فرنسا «قد خرج من بلاده فى جموع عظيمة» ، ومن الملاحظ هنا أن هذه المصادر كلها تتحدث عن ضخامة الجيش الصليبى وكثرة أفراده ، دون أن تحدد عددا معينا ، وقد أكمل الحنبلى[٦٣] الصورة بقوله : «جمع (ملك فرنسا) جموعه ، فكانوا نحو خمسين ألف مقاتل» ويذكر أبو الفدا[٦٤] العدد نفسه الذى ذكره الحنبلى . وحتى يصبح الموقف أكثر وضوحا فإننا نورد ما يذكره كاتب سيرة الملك لويس ، نعنى جوانفيل ، الذى يخبرنا فى سطور متفرقات عن قوة الجيش الصليبى ، فيذكر أولا عند مغادرة لويس لقبرص ، «أن البحر على امتداد البصر كان مغطى بقلاع السفن التى بلغ عددها ألفا وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة»[٦٥]، وعند الوصول أمام شواطئ دمياط ، يقول «دعا الملك باروناته للتشاور فيما يفعلون، فأشار عليه الكثيرون بوجوب الانتظار حتى يعود جميع رجاله (وكانت

---

(٥٩) ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٦٥ .

(٦٠) الدر المطلوب ص٣٦٦ .

(٦١) السلوك جـ١ ص٣٣٣-٣٣٤ .

(٦٢) النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٣٠ .

(٦٣) شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص٣٣٩ .

(٦٤) المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٨٧ .

(٦٥) جوانفيل ، القديس لويس ص٩٠ .

العواصف قد باعدت بين كثير من سفن الأسطول الصليبى) ، خاصة وأنه لم يبق منهم حوله سوى مالا يجاوز الثلث» (٦٦) ، ومع أن جوانفيل لايضع رقما معين لعدد جنود الحملة ، إلا أننا نستطيع أن نقف على تقدير تقريبى لضخامة الجيش من أسماء الأمراء الذين شاركوا لويس فى حملته طبقا للنظام العسكرى، فى الاقطاع الأوروبى فى العصور الوسطى (٦٧)، وكان فى مقدمة هؤلاء الأمراء إخوته الثلاثة روبرت كونت أرتوا ، وألفونس كونت بواتييه ، وشارل كونت أنجو(٦٨) . والرقم الوحيد الذى ذكره جوانفيل كان عن عدد الفرسان المحيطين بالملك وقدّره بألفين وثمانمائة (٦٩)، ومن هذه الأسماء وهذا الرقم وطبيعة نظام الفروسية فى العصر الأقطاعى ، اقترح أستاذنا الدكتور محمد مصطفى زيادة أن يكون المجموع الكلى لقوات لويس التاسع على أقصى تقدير ثمانية وعشرين ألف مقاتل(٧٠)، وهو لم يبعد بذلك عن المراجع الأوروبية التى ذكر بعضها أن جيش الملك لويس كان خمسة وعشرين ألف مقاتل (٧١)، بينما راوحها بعض آخر(٧٢) ما بين هذا الرقم الأخير وخمسة عشر ألف جندى فقط .

أما القوات التى كان يقودها الأمير فخر الدين فى جيزة دمياط ، فقد وصلت منذ قليل مع قائدها من على حصار حمص فى أعالى الشام، بعد أن أصدر الملك الصالح أوامره بسرعة عودتها حتى تتهيأ لمواجهة الغزو الصليبى، ولم تكن أعداد هذه القوات تقترب بأى حال من

---

(٦٦) المصدر السابق نفسه ص٩١ .

(٦٧) يقول جوانفيل «... كما أخذ الصليب هيو دوق برجنديا ، ووليم كونت فلاندرز والكونت الباسل هيو دى سانت بول، وابن أخيه جوشيه ... وكوانت دى لامارش ، وابنه هيولى برون ، وكونت ساربروك وأخوه جوبرت دابرمونت » ، هذا إضافة إلى اخوة لويس الثلاثة وكثيرين غيرهم . راجع ، القديس لويس ص٧٥-٧٦ .

(٦٨) جوانفيل ، القديس لويس ص٧٥ .

(٦٩) المصدر السابق نفسه ص٩١ .

(٧٠) حملة لويس التاسع ص٩٩ وحاشية (من الصفحة نفسها .

(٧١) Runciman , Crusades III p, ; Grousset, Croisades III p . 438 n.l.

(٧٢) Strayer (J.R.) , The Crusades of Louis IX (in Setton , Crusades II pp. 493-494 .

وراجع أيضا ماير (هـ . إ .) تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة عماد الدين غانم ، ليبيا ١٩٩٠ ، ص٣٧٦-٣٧٧ .

الأحوال من أعداد جيش لويس، وهذا أمر نقف عليه من الأعداد التى يذكرها لنا المقريزى[٧٣] عند حديثه عن التنظيمات العسكرية للجيش الأيوبى ، الذى كانت أعداد عسكره تتراوح فى أحسن الأحوال دائما بين أربعة عشر ألف مقاتل وعشرة آلاف.

على هذا النحو يمكن أن نقف فعلا على محتوى الرسالة الثالثة العاجلة التى بعث بها الأمير فخر الدين مقدم العسكر إلى الملك الصالح، والتى رجحنا أن يكون قد أشار على السلطان فيها بضرورة تعديل الخطة الحربية ، والذى كان بالضرورة - كما أكدت الأحداث ، يتضمن الانتقال من الضفة الغربية للنيل فى جيزة دمياط ، إلى الضفة الشرقية حيث مدينة دمياط نفسها بحيث يمكنها الصمود ومواجهة الصليبيين ، وتلك حقيقة يعرفها الأمير فخر الدين حق المعرفة، ويدرك مدى قدرة دمياط على التصدى لحصار الصليبيين، فقد كان معاصرا لأحداث الحملة الصليبية الخامسة ، قريبا جدا من الملك الكامل، عارفا بكثير من الأمور العسكرية ، مدركا أن هذا يمثل أفضل الخيارات العسكرية التى يمكن الاقدام عليها ، بدلا من مواجهة القوات الصليبية فى معركة مكشوفة كان التفوق العددى فيها لجيوش لويس التاسع ، كما أن المناوشات الأولى- كما بينا- كانت الغلبة فيها للملك الفرنسى . من هنا نرجح أن يكون الأمير فخر الدين قد عرض ذلك على السلطان، مبينا عدم جدوى البقاء فى جيزة دمياط، فلما لم يتلق ردا من المعسكر السلطانى على رسائله ، بادر بتنفيذ ذلك على مسئوليته الخاصة باعتباره القائد العام للجيش المصرى، وليس هذا ضربا من التخمين ، ولكن هو ما تؤيده الأحداث من بعد ، والتى سوف نتناولها تفصيلا ، وإن كان يأتى فى مقدمتها أن السلطان الملك الصالح لم يقدم على اتخاذ أى عقوبة عسكرية ضد الأمير فخر الدين أو هيئة أركانه أو عساكره .

ويزيد من ترجيح ما نذهب إليه أن عملية الانسحاب من البر الغربى إلى البر الشرقى تمت بصورة منظمة وسريعة استغرقت فقط جزءا من الليل ، ولم يشعر بعملية الانسحاب هذه أحد من أفراد الجيش الصليبى المعسكر بالقرب جدا من هذه القوات المنسحبة ، ولو أن المسألة كانت فرارا كما يصوره المؤرخون ، لما تم بهذا الشكل الهادئ المنظم دون جلبة أو اضطراب ، حتى أن الصليبيين فوجئوا فى صبيحة اليوم التالى بعدم وجود قوات الصالح أيوب قبالتهم فى جيزة

---

(٧٣)الخطط جـ١ ص٨٦ .

دمياط . ولم يحدثنا المؤرخون عن وقوع فرد واحد من هذه القوات المنسحبة غريقا فى النيل بسبب الفوضى والاضطراب التى تصاحب أى عملية للفرار والهروب من ميدان المعركة، وهذا يعد دليلا واضحا أن الانسحاب تم فى سرية تامة وهدوء كامل وترتيب دقيق أشرف عليه القائد العام وهيئة قيادته ، ولو لم يجر الأمر على هذا النحو ، وتنبه الصليبيون لما يسميه المؤرخون «فرارا» لما تركوا هذه القوات تفلت من أيديهم ولأبادوا أفرادها عن اخرهم . ومن ثم يمكن القول بكل الاطمئنان أن هذا الانسحاب الذى قام به الأمير فخر الدين كان انسحابا تكتيكيا كى يتخذ من مدينة دمياط ، وبها من الرجال والذخائر والأقوات ما بها، قاعدة عسكرية لعملياته ضد الصليبيين .

ومن وجهة النظر العسكرية البحتة ، يعد هذا الانسحاب عملية عسكرية ناجحة بكل المقاييس ؛ إذ تم عبور القوات من الضفة الغربية للنهر إلى الضفة الشرقية خلال جزء يسير من الليل، والعدو على مقربة من هذه التحركات ، دون أية خسارة فى الأرواح أو العتاد، وليس من المنطقى ولا من المقبول أن يقدم الأمير فخر الدين على انجاز هذه المهمة ، التى عدها الصليبيون مكيدة دبرت لهم على حد قول المصادر، ليكون هدفه الأساسى من ورائها الهروب من ميدان المعركة ، أو الاسراع إلى أشموم طناح لهوىً فى نفسه بالوثوب على العرش، لأن «همته كانت تترقى إلى الملك» كما يقول ابن واصل ! ولكن الذى نميل إليه ونرجحه أن هذا العبور كان تكتيكيا لاتخاذ دمياط مركزا متقدما حصينا للمقاومة ، حيث يعسكر الكنانية «الشجعان» المنوط بهم أصلا الدفاع عن المدينة .

والذى لاشك فيه أن فكر القائد العام للجيش ، الأمير فخر الدين، كان مشغولا آنذاك ، إلى جانب النواحى العسكرية، بما يمكن أن تكون الأمور قد جرت عليه فى أشموم طناح ، وزاد من هذا القلق أنه لم يتلق ردا على رسائله من السلطان ، وهو يعلم جيدا أن الملك الصالح قد نقل من دمشق إلى أشموم طناح فى محفة لما ألم به من مرض شديد، وأن وفاته أو أى مكروه يضاعف من عجزه فى مثل هذه الظروف الحرجة من الناحية العسكرية، قد يقود البلاد بالتالى إلى متاهات لايعلم إلا الله مداها ، ومن ثم كان لزاما عليه أن يكون فى قلب الساحة السياسية لضبط الأمور وحسن إدارة البلاد فى ذلك الوقت ، وهذا ما سوف تؤكده الأحداث التالية كما سنوردها تفصيلا فيما بعد .

وهكذا كانت الأمور تقتضى أن يترك فخر الدين جزءا من قواته فى دمياط لتعزيز دفاعاتها ، والإسراع ببقية العسكر إلى أشموم طناح حيث يرقد السلطان، وهنا فقط انقلبت المسألة إلى الفوضى الكاملة التى عجز القائد العام نفسه عن السيطرة عليها ؛ ذلك أن العسكر الذين كان من المفروض أن يبقوا فى دمياط ، لم يقبلوا ذلك واستحثوا خطاهم فى إثر فخر الدين ومن معه باتجاه أشموم طناح ، وزاد الأمر سوءا أن جماعات الكنانية أطلقوا هم الآخرون سيقانهم للريح ، وتركوا مواقعهم التى وكل إليهم الدفاع عنها فى أبراج المدينة وأسوارها ، وكان طبيعيا وقد رأى أهل دمياط هذا « الفرار» الذى قام به الكنانية ، أن يغادروا بدورهم المدينة «حفاة عراة» لايلوون على شئ ، فى محاولة للنجاة بنفسهم بعد أن رأوا مدينتهم وقد خلت تماما من القوة المكلفة بالدفاع عنها ، وهذه الوقائع كلها نستقيها من المصادر المعاصرة وخاصة مؤرخنا ابن واصل .

ولنتابع معا ما جرى به قلمه حيث كتب : «ولما عدّى فخر الدين والعسكر إلى البر الشرقى، رحل المعسكر طالبا أشموم طناح ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان»، وهذا يعنى نصا أن العسكر هم الذين حصل عندهم طمع وليس فخر الدين ، وأنهم هم الذين غذوا السير إلى حيث العسكر السلطانى، وهذا تؤكده عبارة ابن واصل التالية مباشرة إذ يقول «فلم يكن لهم ما يردهم ولايردعهم »[٧٤] ، ومعنى ذلك أن الأمير فخر الدين قد فقد السيطرة عليهم، وأدرك لساعته أن الأمور على هذا النحو سوف تفلت من بين يديه ، أو هى هكذا بالفعل حيث يضيف ابن واصل : «فإن فخر الدين يوسف لو منع العسكر من الهرب ، وأقام ، لامتنعت دمياط»، أى لتمكنت دمياط من الصمود أمام جند لويس ، ومع أن العبارة تلمز فخر الدين من طرف خفى لمن يدقق فى كلماتها ، إلا أنها فى معناها الظاهرى تعد دليل صدق على ما نذهب إليه من أن العسكر هم الذين أحدثوا هذه الفوضى ، ولم يرتدعوا للأوامر العسكرية «بسبب ما حصل عندهم من طمع نتيجة مرض السلطان ». ولم يكن هذا أمرا جديدا على المعسكر، بل إنهم مارسوه مع الصالح نفسه من قبل عندما كان فى الشام قبل اعتلائه عرش السلطنة فى مصر، ومارسوه من بعد مع أميرهم فخر الدين نفسه عند وفاته على نحو ما سنبينه من بعد .

---

(٧٤) مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٦٦ .

والآن .. نقدم شهادة شاهد عدل تثبت بما لايدع مجالا للشك مطلقا صحة كل ما ذهبنا إليه عن فحوى رسائل الأمير فخر الدين وهو بعد فى جيزة دمياط، والتعديل الذى أدخله على الخطة العسكرية السابقة وأطلع عليه السلطان قبل تنفيذه، وعزمه على تقوية دفاعات دمياط كى تصبح قاعدة الدفاع عن الديار المصرية ، وأن الرجل لم يكن له يد مطلقا فى هذه الفوضى التى حدثت وحدثُنا عنها نحن الآن ، هذه الشهادة جرت على قلم الملك الصالح نفسه فى وصيته لابنه تورانشاه ، يقول : «... فلما أن أقبل العدو وشاهدوه وطلبوا البر بالحراريق(٧٥) انهزموا وسلموا لهم البر، واشتغلوا بالنساء ونقلهم من دمياط ، وهربت العوام وتبعهم الأجناد، وكان المقدم عليهم الأخ فخر الدين ، الذى ساق خلفهم وردهم ، وجعل على أبواب دمياط كل باب أمير ، فلما أصبح ما وجد فى المدينة أحداً، هربوا الكنانية فى الليل، وكسروا الخوخ (الطاقات والنوافذ فى الحصون) ونزلوا من السور ، وتركوا أموالهم وذخائرهم ، نهبوها المسلمين (هكذا) بعضهم بعض (هكذا) وأخلوا دمياط حتى أخذتها الفرنج ثانى يوم» (٧٦).
ولا تحتاج هذه الشهادة إلى تعليق ، ومن ثم فلّسنا مبالغين حين قلنا إن ابن واصل كان يلمز الأمير فخر الدين فى قوله «لومنع العسكر ، وأقام ، لامتنعت دمياط»، فقد فعل ابن شيخ الشيوخ أكثر من ذلك حين رتب الدفاعات على الأبواب، «وساق وراء العسكر وردهم» ، ولكن فوضى جبلوا عليها ، و«طمعا» داعب هوى فى نفوسهم جعلهم يتخلون عن واجباتهم العسكرية .

ولم يكن ما فعله العسكر بالأمر المستغرب وبصفة خاصة فى السنوات الأخيرة للدولة الأيوبية ، وكانوا فى معظمهم من الأكراد والأتراك والتركمان وعناصر أخرى ، ولعل هذا هو الذى دفع الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الاعتماد على جماعة الخوارزمية فى حروبه مع الصليبيين فى الشام أو ضد أقاربه من البيت الأيوبى هناك، فلما تبين له عدم التزام هؤلاء الأخيرين أيضا بالانضباط العسكرى، عمد إلى شراء هذه الأعداد الكبيرة من المماليك الذين أصبحوا خاصة عسكره ، وغدا لهم أستاذا ، وأخلصوا له وظلوا على ولائهم التام له حتى موته، وكونوا من بعده دولة قوية حملت اسمهم . ولم تكن حقيقة أولئك العسكر غائبة عن

---

(٧٥) مفردها «حراقة» وهى نوع من السفن الحربية التى ترمى بالنيران ، انظر درويش النخيلى ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ص٣٢ .

(٧٦) النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٤٤ .

الملك الصالح ، ويعبر ابن أيبك[٧٧] عن ذلك فى عبارات واضحة لا لبس فيها حين يقول : «اشترى (الملك الصالح) من المماليك الترك مالم يشتر أحد من الملوك مثله من قبله ، حتى عاد أكبر جيشه مماليكه، وذلك لكثرة ما جرّب من عُدد الأكراد والخوارزمية وغيرهم من الجيوش». وما لنا نذهب بعيدا والملك الصالح نفسه كتب ذلك بقلمه فى وصيته لإبنه تورانشاه حين قال : «يا ولدى، أكثر الأجناد اليوم عامة ، وباعة وقزازين ، كل من لبس قباء وركب فرسا ، وجاء إلى أمير من هؤلاء الترك ، وقدم له فرس (هكذا) ويبرطل نقيبه وأستاذ داره[٧٨] على خبز جندى معروف بالشجاعة والحرب، طرده أميره، وأعطى خبزه لذلك العامى الذى لاينفع ، وأكثرهم على هذه الحالة، فإذا عاينوا العدو وقت الحاجة هربوا ، وينكسروا العسكر ، لأنهم ما يعرفون قتال (هكذا) ولاهو شغلهم ، فينبغى أن لايستخدم إلا من يعرف يلعب بالرمح على الفرس ، ويرمى بالنشاب والأكرة ، وتظهر فروسيته، حينئذ يستخدم»[٧٩].

على هذه الحال وصلت العساكر والأجناد والكنانية والعوام وأهل دمياط إلى أشموم طناح حيث المعسكر السلطانى ، ومن هؤلاء الأخيرين من تفرق فى الديار المصرية ، ويصف ابن واصل الحالة من حول الملك الصالح بقوله فى إيجاز شديد : «ولما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان ، حنق على الكنانيين حنقا شديدا ، وأمر بشنقهم ، فشنقوا جميعا ، وتألم السلطان مما فعله فخر الدين والعسكر، لكن الوقت كان لايحتمل إلا الصبر والإغفاء عما فعلوه»، أو «الصبر والتغاضى» على حد تعبير المقريزى[٨٠].

---

(٧٧) الدر المطلوب ص٣٧٠ ، ويقول ابن واصل : «لما رأى الملك الصالح من غدر الأمراء به يوم أخذت دمشق ، وثبات مماليكه معه لما فر الناس عنه بقصر معين الدين بـ «الغور» ، مال إلى مماليكه ورجحهم»، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٧٤ ، وراجع تفاصيل ما كان من هؤلاء العساكر مع الملك الصالح أيوب فى ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٢٣٣-٢٣٤ ، ٢٣٨-٢٣٩ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ص٣٣٩ .

(٧٨) أي المتولى شئون قصر الأمير أو وكيله .

(٧٩) النويرى، نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٤٩ . ومن الجدير بالاهتمام أن نفرق بين تعبيرى «عسكر» و«جند» ، فالمقصود بالعسكر الجيش النظامى أو عسكر السلطان ، ويخدم أفراده بصفة دائمة ويتلقون إقطاعا، ويحيطون بالسلطان لايفارقونه أبدا . أما الجند أو الأجناد فهم جند الأمراء وغالبهم من الأكراد والأتراك ، وهم يشكلون القوات الاحتياطية أو الإقليمية ، ويخرجون إلى الحرب مقابل اقطاعاتهم . لمزيد من التفاصيل عن ذلك ، راجع للمؤلف ، الجيش المصرى فى عصر الأيوبيين، تحت الطبع .

(٨٠) ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٦٨ ؛ المقريزى، السلوك جـ١ ص٣٣٦ .

وإذا كان الوقت لايحتمل إلا الصبر والتغاضى عما فعله العسكر وقائدهم فخر الدين ، فلماذا خص السلطان قائد جيشه وعساكره فقط بصبره وتغاضيه ، ولم يتسع الصدر ليشمل هذا ، «الصبر والتغاضى» أيضا زعماء الكنانية ، الذين يخبرنا ابن العبرى[٨١] أن السخط عليهم بلغ بالسلطان مبلغه وأمر بشنقهم كما هم بثيابهم ومناطقهم وخفافهم» ؟! وتأتينا الإجابة عن هذا التساؤل فى عدد من المصادر[٨٢] تقول ، إن السلطان «شنق أمراء الكنانية - وكانوا نيفا وخمسين أميرا- بعد أن استفتى فى شنقهم ، لخروجهم عن الثغر بغير أمره».

والعبارة الأخيرة توضح أمرا يختص بتكوين الجيش المصرى فى العصر الأيوبى ؛ ذلك أن الكنانية وغيرهم من العرب والعربان أو البدو والمتطوعة، لم يكونوا ضمن الجيش الرئيسى، أو بتعبير آخر لم يكوناو جزءا من العساكر النظامية التى تخضع للقائد العام للجيش، مقدم العسكر، ومن ثم كانوا يتلقون أوامرهم من السلطان مباشرة ، ورغم شجلعتهم التى عرفوا بها وتحمسهم للقتال، بل وتهورهم أحيانا واندفاعهم فى القتال ، إلا أنهم بسبب هذا كله كانوا يسببون كثيرا من الحرج للجيش النظامى ، وخسائر جسيمة لأنفسهم فى كصر من الأحيان. ولدينا على ذلك أمثلة كثيرة وبصفة خاصة على عهد السلطان الناصر صلاح الدين، ولذلك كان الاتهام الرئيسى الذى وجه إلى الكنانية أن انسحابهم من دمياط وترك حصونها وأسوارها دون حماية وتخليهم عن مواقعهم بغير أوامر صريحة من السلطان ، مما كان سببا أساسيا ومباشرا فى سقوط دمياط غنيمة باردة فى أيدى الصليبيين ، فى اليوم التالى مباشرة لفرارهم منها، وكانت تلك هى الطامة الكبرى .

لم يتوان الصالح أيوب إذن عن إنزال أقصى عقوبة تفرضها القوانين العسكرية على هؤلاء الكنانية ، رغم إقرار المصادر المعاصرة واللاحقة كلها بشجاعتهم ومواقفهم السابقة تجاه الصليبيين ، بينما كان نصيب فخر الدين من هذه العقوبات مجرد «تغير» السلطان و «الألم» الذى حل به وليس بالأمير فخر الدين !! ترى .. لو خامر الشك السلطان لحظة واحدة فى نية

---

(٨١) تاريخ مختصر الدول، ص٢٥٩ . ولابن العبرى أيضا ، تاريخ الزمان، ص٢٩٣-٢٩٤ ، وإن ذكر فى كل كتاب عددا يختلف عن الآخر ، إذ جعلهم فى الأول أربعة وخمسين أميرا، وفى الثانى اثنين وستين أميرا .

(٨٢) المقريزى ، السلوك جـ١ ص٣٣٦ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص٣٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٣٥ .

الهروب من ميدان المعركة لدى مقدم عسكره، أو التآمر الكامن فى نفس القائد العام تجاهه، هل كان يتركه هكذا دون عقاب ، ويترك الألم يعتصره هو نفسه متذرعا بالصبر ، فى ظل ظروف سياسية وعسكرية بالغة السوء؟! والأغرب من ذلك أن يتركه فى منصبه قائدا عاما لجيشه ، بل ويوحى صراحة على لسان المصادر ، أن السلطان أكد على أن يظل فخر الدين أتابكا للعسكر، كما أخبرت عن ذلك زوجه شجر الدر، وأخذت العهود والمواثيق على الأمراء باحترام ذلك حتى يحضر المعظم تورانشاه ، ابن الصالح ، من حصن كيفا بعد أن مات السلطان، وأخفت زوجه خبر موته إلا عن الأمير فخر الدين نفسه، والطواشى جمال الدين محسن ، أقرب الناس إلى السلطان، على حد قول ابن واصل (٨٣) . هذا كله بينما لم يتورع الصالح عن الإيعاز بقتل أخيه العادل خوفا من أن تحدثه نفسه بالقفز على عرش السلطنة أثناء توجه السلطان إلى الشام سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م وكانت أوامره فى ذلك صريحة واضحة عندما وجهها إلى حسام الدين ابن أبى على نائب السلطنة فى القاهرة حيث قال : «إنى مسافر إلى الشام، وأخاف أن يعرض لى موت، وأخى الملك العادل بقلعة مصر، فيأخذ البلاد وما يجرى عليكم منه خير، فإن عرض لى فى سفرى هذا مرض ولو أنه وجع إصبع أو حمى يوم (تأمل !!) فاعدمه ، فإنه لاخير فيه لكم»(٨٤). ولم يلبث الملك العادل أن وجد ميتا بالقلعة فى اليوم التالى مباشرة لرفضه الانصياع لأوامر أخيه الصالح بالخروج إلى الشوبك، ليكون بها معتقلا بعيدا عن القاهرة حالة وجود السلطان فى الشام ، وتشير أصابع الاتهام إلى قيام الطواشى جمال الدين محسن بقتله خنقا (٨٥). بل إن السلطان - على حد قول ابن واصل(٨٦) لم يأذن لابنه المعظم تورانشاه فى القدوم عليه إلى مصر، لكراهيته له !! مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها .

والآن .. وقد أسقطنا بالأدلة الثابتة وشهادة الشهود العدول، الشق الأول من الاتهامات الموجهة إلى الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، والقائلة بـ «هروبه» أو «فراره» من

---

(٨٣) مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٨١ .

(٨٤) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٣٧٥-٣٧٦ .

(٨٥) المصدر السابق نفسه جـ٥ ص٣٧٩-٣٨٠ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ص٣٢٧-؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص٣٥ .

(٨٦) مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٧٩ .

جيزة دمياط إلى المعسكر السلطانى، وتخليه بذلك عن واجباته العسكرية ، وتفريطه وتهاونه فى الدفاع عن الديار المصرية ضد جنود الحملة الصليبية السابعة ، نقول الآن .. بقى أن ننظر فى الشق الثانى من هذه الاتهامات، وهو مكمل للأول ، باعث له ومترتب عليه !! نعنى بذلك اتهامه بالخيانة والتآمر سعيا للقفز على العرش فى ظل هذه الظروف السياسية والعسكرية البالغة الصعوبة والحرج، بمرض السلطان مرض الموت ، واحتلال جزء من الديار المصرية على يد الصليبيين ، وسعيهم للتوغل داخل البلاد لتملكها، وذلك اتهام جد خطير لن تقل عقوبته - إذا صح - عما لقيته بنو كنانة منذ قليل. وإذا كان الدليل العملى الوحيد الذى يساق هنا من جانب من يتهمون فخر الدين بالخيانة، هو انسحابه من جيزة دمياط وعودته مباشرة- على حد قولهم- إلى أشموم طناح ، فإن سؤالا لابد أن يقفز إلى الذهن دون توان ، ما الذى فعله الأمير فخر الدين حالة وصوله إلى المعسكر السلطانى ؟ لماذا لم يقبض على السلطان الذى لايستطيع حراكا ؟! لماذا لم يعزله أو يجهز عليه إذا كان قد جاء أصلا لهذا الغرض ؟! لماذا لم يفعل ذلك ويعلن نفسه سلطانا بدلا منه ، خاصة وأن الملك الصالح «لم يحزن لموته إلا القليل» ، كما تقول المصادر[٨٧]، بينما كان الأمير فخر الدين محبوبا رغم خيانته ، على حد قول المؤرخين الذين يقيمون ضده هذه الدعوى ؟![٨٨] أتراه ترك للزمن وحده أن يتكفل بذلك والنهاية قريبة محتومة ، كما يسوق متهموه ذلك أيضا ؟ وإن كنا لاندرى كيف يجتمع الناس ، وفى مقدمتهم السلطان وزوجه والعامة ، على حب رجل اتصف بالخيانة ، وسلم جزءا من البلاد للأعداء ، مهما بلغت منحه وعطاياه .

ومن ثم ، أليست هذه كلها، علامات استفهام تحتاج إلى إجابة محددة وصريحة ، حتى يمكن فعلا إقامة دعوى الاتهام ضد الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أو إسقاطها بالكلية ؟

ونتساءل أولا - هل يمكن أن يكون فخر الدين قد قطع هذه المسافة -هربا- من جيزة دمياط إلى أشموم طناح ليمثل فى حضرة السلطان المسجى فى فراش المرض، ليدخل الألم فقط على نفس السلطان علّه يموت كمدا ؟! أو ليسمع بعض عبارات اللوم من جانبه ، والتى لم تزد عن قول السلطان، الذى يتسم بالشدة والحزم ، للعسكر «ما قدرتم تقفون ساعة بين يدى

---

(٨٧) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٣٦ .

(٨٨) جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ص١٤١ .

الفرنج» ؟ ! هل يقبل كيل الاتهامات ضد الرجل على هذا النحو من البساطة ، وليس هناك دليل واحد غير الانسحاب هذا، والذى فصلنا فيه القول من قبل . لكن ابن واصل ومن سلك سبيله يتحدثون عما يُظن أنه كان طموحا فى نفس الأمير فخر الدين وتطلعا إلى السلطة وشوقا إلى العرش! ويرتبون على ذلك حدوث الجفوة بين السلطان وابن شيخ الشيوخ ، ليس فقط بسبب ما عدوه فرارا وتخاذلا كما جاء على لسان ابن واصل : «لم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة، سيما وأنه كان متألما منه لرجوعه بالعساكر من دمياط، وتهاونه بها حتى أخذها الفرنج»(٨٩)، ويردد هذه العبارة نفسها فى موضع آخر بقوله : «إن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ما كان يثق بالأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، الثقة التى توجب أن يفوض إليه الأمور بعده» ، ومرة أخرى لاندرى كيف يمكن أن يقدم سلطان على اختيار شخص لايثق فيه قائدا عاما لجيشه والحرب قائمة !!

نقول ليس هذا فقط الذى جعل الصالح يزّاور عن فخر الدين فى رأى متهمية، بل راحوا يؤصلون هذه الجفوة ويردونها إلى الأيام الأولى التى اعتلى فيها الصالح عرش سلطنة الديار المصرية ، فيقول ابن واصل مكملا عبارته السابقة، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب «يعرف همة فخر الدين وتعاليها، وأنه يوم ملك السلطان مصر، وأطلق فخر الدين (من سجن القلعة كما قدمنا) ، ركب فخر الدين ركبة عظيمة ، ودعا له المصريون ، واحتفوا به، فأوجب ذلك أن استشعر منه وألزمه داره» (٩٠)، يعنى أنه قد خشى جانبه فقرر تحديد إقامته فى داره كما نقول بتعبيرنا الحديث ، ويضيف ابن واصل فى موضع آخر : «إن الأمير فخر الدين رحمه الله كان عالى الهمة جدا، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر»(٩١).

ومن حقنا أن نتساءل ، إذا كان السلطان قد ارتاب فى أمر الرجل منذ اليوم الأول لتملكه الديار المصرية ، بعد أن أحسن به وأخرجه من السجن، ألم يك قادرا على أن يعيده إليه ثانية

---

(٨٩) مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٨٠ .

(٩٠) المصدر السابق نفسه ص٢٨٣ ، وقارن جوزيف نسيم ، العدوان الصليبى على مصر ص١٠٥ . ويقول المقريزى ، «كثر تردد الناس إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، بعد ما أطلقه السلطان من السجن، فكره السلطان ذلك ، وأمره أن يلازم داره »، السلوك جـ١ ص٣٠٩ .

(٩١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٨٥ .

دون أية مساءلة ؟ وهو لاشك أهون عليه من أخيه العادل ، ولماذا حدد إقامته فى داره ولم يذهب أبعد من ذلك ؟ بل لعله من الطريف أن نقول إنه ذهب فعلا أبعد من ذلك ولكن فى الاتجاه الآخر، إذ أن ابن واصل كان قد أخبرنا قبلا فى موضع سابق من كتابه[٩٢] بهذه الرواية مع اختلاف يسير وإضافات قليلة ، ولكنها تحمل دلالات بعيدة وتفسيرات لما أقدم عليه، قال: «فلما دخل الملك الصالح قلعة الجبل أخرجه ، فركب ركبة عظيمة ، واجتمع له خلق من الرعية ودعوا له لأنه كان محببا من الناس ، لكرمه وحسن سيرته ، فبلغ الملك الصالح نجم الدين ذلك، فاستشعر منه ، ولم يعجبه ذلك وأمره بلزوم بيته غير مضيق عليه »، والعبارة الأخيرة هذه «غير مضيق عليه» تشير صراحة إلى أن الأمير أصبح مطلق السراح ، يمارس حياته بصورة عادية بعد خروجه من السجن ، دون أن تقيد حريته أو يتعرض للمضايقة من جانب السلطان . ويمضى ابن واصل فيقدم ما يمكن أن يعد توضيحا لمكانة أولاد ابن الشيخ عند الملك الجديد الصالح أيوب، فيقول مواصلا حديثه بعد عبارته هذه «واستوزر الملك الصالح أخاه (أخا فخر الدين) معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ ، ومكنه وفوض إليه تدبير المملكة، فقام بوزارة الملك الصالح أحسن قيام ، وأما أخوهم كمال الدين فبقى على منزلته ومكانته التى كانت له فى أيام الملك الكامل»[٩٣].

إذن فالأخوان معين الدين وكمال الدين ابنا شيخ الشيوخ يقومان بتولى أمور السلطنة ، أولهما هو الوزير ومدبر المملكة يقوم بمهامه خير قيام إلى الحد الذى جعل الملك الصالح «يقيمه مقام نفسه» [٩٤]، والثانى حفظت له مكانته التى كانت له أيام الكامل، وجعله الصالح على رأس جيوشه العاملة فى الشام ، وكان طبيعيا أن يقيم الأخ الثالث فخر الدين فى بيته غير مضيق عليه ، وأخواه الآخران يدبران شئون المملكة مدنيا وعسكريا، والصالح يحتاج فى الهنوات الأولى من حكمه إلى تدعيم مركزه وسلطانه ضد أبناء البيت الأيوبى فى الشام ، وأنصار أخيه العادل الثانى المعزول فى القاهرة، ولو كان الشك يخامر السلطان فى نيات وطموح فخر الدين لما أخرجه من السجن ، ولما أنزل أخويه منزلا كريما. ومن ثم فإنه ما أن مات

---

(٩٢) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٢٧٦-٢٧٧ .

(٩٣) المصدر السابق نفسه والصفحات نفسها .

(٩٤) ابن زيبك ، الدر المطلوب ص٣٥٤ .

الأخوان كمال الدين ومعين الدين على التوالى ، حتى استدعى السلطان الأمير فخر الدين ، وأحله محلهما ، ويقول ابن واصل فى ذلك، «فخلع عليه وأمّره وقدّمه وأحسن إليه إحسانا كثيرا ، ولم يبق من أولاد شيخ الشيوخ غيره»[٩٥]، وليس من المعقول أو المقبول أن ينعم السلطان بكل هذه النعم على رجل «استشعر منه» وخاف على نفسه من مكانته بين الناس . بل إن الصالح زاد على ذلك عندما أعطى الخلعة التى كان الخليفة العباسى المستعصم بالله قد بعث بها إلى معين الدين ، فوصلت بعد وفاته، إلى فخر الدين، «فلبسها الأمير فخر الدين بن الشيخ بمرسوم الملك الصالح»[٩٦].

ولعله مما تجدر الإشارة إليه هنا أيضا ، أن علاقة السلطان بالأمير كانت تعود إلى ما قبل تولى الملك الصالح عرش مصر ، ليس هذا فحسب، أعنى أنها لم تكن مجرد علاقات عادية، بل هى علاقة المودة والولاء من جانب فخر الدين للصالح ، فيخبرنا المقريزى[٩٧] أن السبب الذى دفع العادل الثانى إلى القبض على فخر الدين وسجنه بالقلعة ، أن ابن شيخ الشيوخ كان يراسل الملك الصالح وهو بدمشق ، فى الفترة التى اشتد فيها الخلاف بين العادل وأخيه الصالح. فهل هذا الأمير هو الذى يمكن أن «يستشعر منه السلطان» ؟!

ولنمض مع مؤرخنا ابن واصل فى رحلة الحديث عن فخر الدين ، فنجده يقول ، فيما نحن الآن بصدده ، «فلما مات الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ (أخو فخر الدين) بدمشق، احتاج السلطان إلى الاستعانة بفخر الدين يوسف ، لشهامته ونجابته ، فأخرجه وقدمه»[٩٨]، ونحن نسأل ابن واصل ومن سار على هديه ، هل يمكن أن يوصف بالشهامة والنجابة من يتهاون ويتخاذل أمام الأعداء ويضمر الغدر لسيده لهوىً فى نفسه ؟! وهل يعقل أن يقدم حاكم مثل الصالح نجم الدين أيوب، يصفه ابن واصل نفسه بأنه كان «ملكا مهيبا ، عزيز النفس ، حشما عفيفا ، لايؤثر الهزل ولا العبث، شديد الوقار ... بلغ من عظيم هيبته أنه كان إذا خرج

---

(٩٥) ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ص٣٥٢ ؛ المقريزى، السلوك جـ١ ص٣٢٢ .

(٩٦) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٣٥٢ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص٣٤ .

(٩٧) السلوك جـ١ ص٢٨ .

(٩٨) ابن واصل ، مفرج الكروب، الملحق المذكور ص٢٨٤ .

وشاهد المماليك صورته، يرعدون منه، ولايبقى أحد منهم يجسر يتحدث مع أحد»[٩٩] . نقول هل يعقل أن يقدم الصالح أيوب، وقد اجتمعت له كل هذه الصفات، على أن يقرب إليه رجلا يشك فى ولائه له منذ الأيام الأولى لاعتلائه العرش ، حتى لو كان فى أشد الحاجة لذكائه ونجابته وحسن مشورته ؟!

والذى يلفت الانتباه هنا أن ابن واصل عندما كان يحدثنا عن هذه الأمور، يجئ حديثه مرسلا وكأنه خبر الوقائع بنفسه، فإذا ما تناول فخر الدين وما يساور السلطان تجاهه ، قدم لروايته بأنه أخبر بذلك أو نما إلى علمه أو قيل له، وكأنه يلقى بالمسئولية على غيره أو يحترز فيما يرويه ، من ذلك مثلا قوله «وعلمت من جهة قريبة أخرى، أقوى القرائن عندى، وهو أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ما كان يشق بالأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ»[١٠٠] ، وأيضا «بلغنى أنه كان فى نفس اللمك الصالح من هذا (يعنى الانسحاب من جيزة دمياط) أمر عظيم وحنق عليه»[١٠١].

ويبدو أن هذه الجهة القريبة التى أبلغت ابن واصل وأعلمته بما كان فى كثير من هذه المسائل المتصلة بفخر الدين لم تكن إلا الوزير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى، نائب السلطنة فى القاهرة[١٠٢]، وكان هو الآخر مقربا من السلطان الصالح أيوب، ومن ثم كان هو وفخر الدين رجلى الدولة المسئولين عن كل أمورها ، يعتمد عليهما السلطان فى تصريف أمور دولته، وبينما كانت نفس ابن واصل تنطوى على شئ من عدم الارتياح تجاه القائد العام للجيش الأمير فخر الدين، رغم ثنائه عليه فى أكثر من موضع، إلا أنه هو الذى تزعم حملة الاتهامات ضده فى الوقت نفسه ، كان من ناحية أخرى يحمل كل المودة والتقدير للوزير حسام الدين ابن أبى على الهذبانى، حيث كانت تربط بينهما صداقة وطيدة تعود إلى زمن

---

(٩٩) المصدر السابق نفسه ص٢٧٥ ؛ وراجع أيضا أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٣١-٣٣٤ .

(١٠٠) ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٨٣ .

(١٠١) المصدر السابق نفسه ص٢٨٤ .

(١٠٢) جرى ذلك بقلم ابن واصل فى بعض المواضع حين يقول صراحة : «أخبرنى بهذا كله الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى» ، مفرج الكروب جـ٥ ص٣٥٥ ، بينما تتكرر كثيرا عبارة «فحكى لى حسام الدين بن أبى على» ، مفرج الكروب جـ٥ ص٣٦٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ وغير ذلك من الصفحات .

بعيد مذ كان ابن واصل يطلب العلم فى دمشق عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م[١٠٣] وتطورت هذه العلاقة بصورة سريعة، ففى عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م عندما ألقى الملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب دمشق القبض على حسام الدين مع جماعة من أنصار الصالح نجم الدين أيوب، كان الملك الناصر داود صاحب الكرك قد أطلق سراحهم ، وأمر الصالح اسماعيل أن يؤخذ جميع ما كان معه (مع حسام الدين) وجعل فى رجله قيدا وحبسه فى حبس الخيالة بقلعة دمشق. قال ابن واصل معلقا على ذلك «فأقام حسام الدين فى حبس الخيالة، وكنت أصعد إلى القلعة واجتمع به فى الحبس فى أكثر الأوقات»[١٠٤].

وعندما ظهر أمر الصالح نجم الدين أيوب، تحسب عمه الصالح اسماعيل للأمر، فقام بنقل حسام الدين إلى قلعة بعلبك ، واعتقله فى جُب وضيق عليه غاية التضيق ، على حد قول مؤرخنا الذى بعث به حسام الدين إلى القاضى بدر الدين قاضى سنجار ، وإلى محيى الدين بن الجوزى ، رسول الخليفة المستنصر بالله، للتوسط بينه وبين الملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب دمشق ليطلقه من الحبس ، غير أن هذه الوساطة لم تؤت ثمارها المرجوة ، وظل الأمير حسام الدين فى محبسه هذا حتى أطلق الصالح اسماعيل سراحه بعد ذلك فى عام ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م [١٠٥].

ولم تلبث أواصر الصداقة بين حسام الدين بن أبى على الهذبانى وجمال الدين بن واصل أن راحت تزداد رسوخا بعد مجئ مؤرخنا إلى مصر ، وما لقيه من الحفاوة والتكريم على يد نائب السلطنة حسام الدين، وسوف أترك القلم هنا لابن واصل ليقص علينا بنفسه كيف كان ذلك ، يقول: «وكان دخولى إلى القاهرة فى المحرم من هذه السنة (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م) ، واجتمعت بالأمير حسام الدين بن أبى على، وكان السلطان الملك الصالح (نجم الدين أيوب) قد أنزله فى الدار المعروفة بدار الملك[١٠٦] على شاطئ نيل مصر فى مدينة مصر، وهى دار عظيمة من آدر

---

(١٠٣) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص١٩٤ .

(١٠٤) المصدر السابق جـ٥ ص٢٤٣ .

(١٠٥) المصدر السابق جـ٥ ص٢٤٣ ، ٣٢٨ .

(١٠٦) «وهى من إنشاء الأفضل بن أمير الجيوش، بدأ فى بنائها وإنشائها سنة ٥٠١هـ / (١١٠٧-١١٠٨م)، فلما كملت تحول إليها من دار القباب بالقاهرة وسكنها وحول إليها الدواوين من القصر، فصارت=

خلفاء مصر (الفواطم) ليكون قريبا منه ، فإن السلطان كان نازلا فى قصوره بقلعة الجزيرة ، وهى القلعة التى أنشأها بالجزيرة (الروضة) . وكان عنده (يعنى حسان الدين) فى أعظم المنازل، وأعطاه خبزا جليلا، فأحسن إلىّ وأنزلنى فى داره التى بالقاهرة ، وهى دار جليلة بدرب الديلم(١٠٧) وأدرنى إنعامه وإحسانه»(١٠٨) . وعلى هذا النحو الذى فصله مؤرخنا ندرك إلى أى مدى كان حسام الدين يطوق عنق ابن واصل بجميل نعمائه وإحسانه ، ولاغرابة أن يحاول ابن واصل رد هذا الجميل .

وقد أفصح ابن واصل تماما عن مكنون نفسه تجاه قطبى الدولة فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، نعنى الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر، والأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى نائب السلطنة . وجاءت عباراته عن الرجلين واضحة كل الوضوح فى الإقرار بفضل الحسام عليه، والتحامل على فخر الدين مما أدى إلى وقوفه أمام محكمة التاريخ ! وسوف نورد هنا بعضا مما سجله قلم ابن واصل ، يبين بما لايدع مجالا للشك أن هوى مؤرخنا كان مع الحسام ، يقول «ولم ينص (الملك الصالح نجم الدين أيوب) على من يقوم بالأمر بعده ، ولو أوصى لما خرج الأمر عن حسام الدين محمد بن أبى على ، إذ لم يكن يعتمد على أحد غيره . وأما فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، فلم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة»(١٠٩). ولو أن الأمر اقتصر فى الحديث على حسام الدين فقط، لكان من الممكن أن يمضى قول ابن واصل دون إثارة أى تساؤل ، فقد كان حسام الدين فعلا من

= بها وجعل فيها الأسمطة ، واتخذ بها مجلسا سماه مجلس العطايا كان يجلس فيه ، فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة متنزهات الخلفاء ، وكان بها بستان عظيم، وما زالت عظيمة إلى أن انقرضت الدولة (الفاطمية) ، فجعلها الملك الكامل دار متجر، ثم عملت فى أيام الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى دار وكالة». راجع المقريزى ، الخطط جـ١ ص٤٨٣ .

(١٠٧) عرفت بهذا الاسم لنزول الديلم الواصلين مع هفتكين الشرابى حين قدم ومعه أولاد مولاه معز الدولة البويهى وجماعة من الديلم والأتراك فى سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨م، فسكنوا بها فعرفت بهم » راجع المقريزى الخطط جـ٢ ص٨-٩ ، والديلم نسبة إلى المنطقة التى قدموا منها، منطقة الديلم وهى جزء من بلاد فارس تقع جنوبى بحر قزوين .

(١٠٨) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣٤ .

(١٠٩) المصدر السابق ، الملحق المذكور ص٢٨٠ .

المخلصين المقربين إلى الصالح ، أما إقحام اسم فخر الدين هنا دون داع يستدعيه الحديث، فلابد أن يبعث عند أى باحث عوامل القلق ، إذ أن المقارنة هنا بين الرجلين من جانب ابن واصل متعمدة ومقصودة لذاتها ، وليس هناك ما يستوجب الاتيان بها على هذا النحو ، وإن كان ما يقوله هذا يدفعنا إلى الدهشة مرة أخرى ، إذ كيف لايثق الصالح بفخر الدين كل الثقة ويعهد إليه بقيادة الجيش فى أحلك الظروف؟!

ويعود ابن واصل ليؤكد هذا المعنى مرة ثانية فى موضع آخر حين يقول : «ثم جرى من فخر الدين يوسف، من رجوعه عن ثغر دمياط ، حتى بلغنى أنه كان فى نفس الملك الصالح من هذا أمر عظيم ، وحنق عليه ... فتحقق عندى من هذا وما أشبهه ، أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو أوصى إلى أحد بتدبير الملك بعده، ما عدل عن حسام الدين بن أبى على»[110].

ولعل هذه العبارات وما شابهها تكشف جانبا هاما من تحامل ابن واصل على الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وتوضح أن ابن واصل كان بكل قلبه وجوارحه ، مع الوزير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى، وكان يتمنى أن يعهد إليه السلطان بأمور البلاد من بعده أو يوصى بذلك، بل ذهب مؤرخنا أبعد من ذلك عندما أشار صراحة إلى كراهية الملك الصالح نجم الدين أيوب لولده غياث الدين تورانشاه ، الذى عرف بالملك المعظم، لما كان فيه على حد قول ابن واصل من «هوج واضطراب»[111] ، ويمضى قائلا : «وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، لكراهته لابنه المعظم ، لم يأذن له فى القدوم عليه إلى مصر، مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها ، ويكون ولى عهده إذا مات، وبلغ من كراهته له ما أخبرنى به الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى»[112].

وقد فات على ابن واصل ما ذكره فى كتابه فى موضعين[113] من أن السلطان أوصى فعلا بما يجب أن يتم حالة وفاته ، وأنه ترك هذه «الوصية الشفهية» مع وزيره حسام الدين حين قال له يوما : «إذا قُضى علىّ بالموت، فلا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله (العباسى)

---

(١١٠) المصدر السابق نفسه ص٢٨٤ .

(١١١) المصدر السابق نفسه ص٢٧٨ .

(١١٢) المصدر السابق نفسه ص٢٧٩ .

(١١٣) المصدر السابق نفسه ص٢٧٩ ، ٢٨٤ .

ليرى فيها رأيه» . وفى الموضع الثانى يقول : «وكان السلطان الملك الصالح لايعتمد فى حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبى على، حتى أنه فى السفرة الأولى (يعنى ذهابه إلى الشام) قال له (أى للحسام) إنى أسافر ، وأخاف أن يعرض لى موت ، وأخى فى قلعة الجبل (يقصد العادل الثانى الذى قدمنا ما كان من أمره) ، فربما استولى على الأمر فيهلكم، وذكر لى أشياء شتى مما لايمكننى أن أسطره » !! وقال له مرة أخرى : «إن حدث موت ، فسلم البلاد إلى الخليفة المستعصم بالله ، يرى فيها رأيه»!! هكذا- كما يخبرنا مؤرخنا- أفصح الملك الصالح لوزيره عن مكنون نفسه ، وأنه ليس فى نيته أن يعهد لأحد من بعده بالسلطنة وأنه ترك هذه المهمة الثقيلة للخليفة العباسى- هذا ما يقوله ابن واصل ، وسوف يكون لنا عود إليه ثانية لمناقشته فيما يرويه .

أما الآن فعلينا أن نشد الرحال إلى القصر السلطانى بالمنصورة بعد وفاة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، حيث كتمت زوجه شجر الدر خبر وفاته إلا عن الأمير فخر الدين مقدم العسكر ، والطواشى جمال الدين محسن، والطبيب فتح الدين . وكان أول إجراء أقدمت عليه شجر الدر ، بنص كلمات ابن واصل بالحراف الواحد : «ثم أحضرت (شجر الدر) الأمراء بالدهليز السلطانى، وقيل لهم إن السلطان قد رسم أن تحلفوا له، ولابنه الملك المعظم (تورانشاه) بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدمة على العسكر، والقيام بالأتابكية ، وتدبير المملكة . فأجابوا كلهم إلى ذلك، وحلّفوا الأمراء والأجناد ومماليك السلطان» [(١١٤)]. ولم يرد هنا ذكر مطلقا للوزير حسام الدين محمد ابن أبى على الهذبانى نائب السلطنة ، ولم يكن من بين من تم اختيارهم ليؤتمن على كتمان خبر موت الملك الصالح ، رغم ترشيح مؤرخنا له ليكون الأحق بتدبير أمور الدولة بعد رحيل السلطان !!

والسؤال الذى ألحفنا فى طرحه سابقا ما زال قائما، هل يمكن أن تقدم شجر الدر ، زوج السلطان الراحل ، على أن تخص الأمير فخر الدين بخبر وفاة زوجها ، وائتمانه على هذا السر، إلا لكونها تعلم عنه من زوجها أنه كان موضع سره ومستشار أمره ؟ بل كيف تقدم على اختياره أتابكا للعسكر، أى تثبيته فى منصبه الذى كان قد وضعه فيه الصالح ، ثم تعهد إليه إضافة إلى ذلك بتدبير المملكة ، إذا لم تكن على يقين من أنه كان موضع ثقة زوجها ، وأنه

---

(١١٤) المصدر السابق نفسه ص٢٨٢ .

خليق بحمل المسئولية والاضطلاع بها فى ظل هذه الظروف السيئة التى تحيق بالديار المصرية ؟ وشجر الدر مشهود لها من كل المؤرخين المعاصرين بالحكمة وحسن التدبير . ثم إذا كان الأمير فخر الدين يبتغى حقا القفز على عرش السلطنة ، ألم تكن هذه هى الفرصة المناسبة التى جاءته تسعى، وما كان عليه إلا أن يفترصها ليغدو بين يوم وليلة سلطانا للديار المصرية، وأن الأمراء والعساكر والأجناد قد «حلفوا» على السمع والطاعة ، وأعلنوا رضاءهم على هذا الاختيار؟ أم تراه كان يؤخر هذا الأمر حتى يقدم الملك المعظم تورانشاه إلى مصر ، فيدخل معه فى معركة حول العرش ؟ وهل يعقل هذا ؟ وابن واصل يخبرنا بما تم عليه الأمر فى هدوء تام يعود إلى حكمة شجر الدر وخاصة السلطان الراحل، ودقة الموقف فى مصر، يقول : «واتفقوا جميعهم على أن يقوم بتدبير المملكة الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، إلى أن يقدم الملك المعظم بن الملك الصالح نجم الدين أيوب من حصن كيفا، وأن يحلف الناس للملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولابنه الملك المعظم بعده بولاية العهد، وللأمير فخر الدين بأتابكية العسكر ، والقيام بأمر الملك»(١١٥) . ولنتأمل معا أن ابن واصل أورد اسم فخر الدين هنا وما عهد إليه من الأمر مرتين فى أربعة سطور فقط، وصدرها بقوله «واتفقوا جميعهم» ، بمعنى أن هذا كان يلقى استحسان الجميع .

هذا الرجل ، الأمير فخر الدين ، وضعت المقادير بين يديه كل مقاليد السلطة فى مصر ؛ فالسلطان الصالح نجم الدين مات وفخر الدين هو مقدم الجيش، وشجر الدر زوج السلطان الراحل أبقته فى منصبه ، وأخذت له العهود والمواثيق بالولاء من الأمراء والعساكر والأجناد ، وعهدت إليه فوق هذا بتدبير أمور المملكة ، ولم يبق- إن شاء- إلا أن يعلن نفسه سلطانا ، ولكنه لم يفعل ! ترى ... هل كان انسحابه من جيزة دمياط إذن لرغبته الجامحة - كما قيل- فى اعتلاء عرش السلطنة ، حيث كانت نفسه - كما قيل أيضا- تطمع فى هذا الأمر ؟! هذا قول يرفضه أى تفكير منطقى ، بل لعل الدليل العملى القاطع على تبرئة فخر الدين من التهم المنسوبة إليه ، يقدمه لنا ابن واصل نفسه فى قوله وهو يرثيه «كان أميرا فاضلا، عالما متأدبا، جودا سمحا ، عالى الهمة كبير النفس، ما كان فى إخوته مثله ، بل ولا فى غير إخوته»!!(١١٦) ، وهذا يعنى أن ابن واصل ، مع كل ما قاله عن طموحه للسلطة وطمعه فيها،

---

(١١٥) المصدر السابق نفسه ص٢٨١ .

(١١٦) المصدر السابق نفسه ص٢٩٣ .

لم يملك إلا أن يجعله أفضل الناس فى زمانه ، بحيث لم يكن فى اخوته ولاغيرهم من الناس مثله ، ولابد أن يكون حسام الدين بن أبى على الهذبانى ضمن هؤلاء الغير أما النويرى فيذكر أن جماعة من الأمراء المماليك الصالحية تنكروا للأمير فخر الدين بن الشيخ ، وعزموا على قتله لدسيسة وصلت إليهم ، فاستدعاهم «وأعلمهم أنه لاطمع له فى الملك ولا رغبة ، وأنه إنما يحفظه للملك المعظم إلى أن يصل» [١١٧] . ويكمل سبط بن الجوزى هذه الصورة بقوله: «وحسد الجند فخر الدين وعزموا على قتله ونهب داره ... وكان المتهم بذلك الخادم محسن (يقصد الطواشى جمال الدين محسن) [١١٨] وهكذا أضيف إلى قائمة المتربصين به واحد آخر من رجال الدولة . أما ابن كثير [١١٩] فيقول : «وكان (الأمير فخر الدين) فاضلا ديّنا مهيبا ، وقورا بالملك ، كانت الأمراء تعظمه جدا ، ولو دعاهم إلى مبايعته بعد الصالح لما اختلف عليه اثنان ، ولكنه كان لايرى ذلك، حماية لجانب بنى أيوب» ، ويضع أبو المحاسن [١٢٠]، اللمسات الأخيرة فى هذه الصورة الدالة على الولاء والوفاء من جانب فخر الدين للصالح وبنى أيوب فيقول : «كان عاقلا جوادا مُمدّحا مدبرا خليقا بالملك محبوبا إلى الناس، ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب ... نُدب إلى الملك فامتنع ، ولو أجاب لما خالفوه ». وهذه العبارة الأخيرة بنصها ذكرها من قبل المؤرخ المعاصر سبط بن الجوزى.

ولايمكن مطلقا أن تجتمع كل هذه الأقوال فى رجل راودته نفسه يوما ما عن عرش السلطنة، وحدثته بأن يترك واجبه فى ميدان المعركة وهو القائد العام ليستولى على السلطة من ملك يعالج سكرات الموت فى مرضه الأليم ! بل لقد نُدب إلى المُلك فأبى ولوشاء لكان له ما أراد ، لكن نفسه المطمئنة ما كانت تنطوى إلا على الوفاء النادر لبنى أيوب ، بحيث لم يكن هناك فى زمانه من له بين الناس خصاله، على حد قول مؤرخنا ابن واصل .

ومن الجدير بالذكر هنا استكمالا لهذا الجانب الذى نتحدث عنه الآن، القول إن شجر الدر بعثت إلى القاهرة بما تم الاتفاق عليه فى المنصورة، ليُعلن على الجميع ما اتخذ من قرارات فى

---

(١١٧) النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٣٨ .

(١١٨) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان جـ٨ ص٧٧٦ .

(١١٩) البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٨ .

(١٢٠) النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٣٦ .

هذا الشأن . يقول ابن واصل : «ورد المرسوم إلى القاهرة إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على، بأن يُحلّف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة على ما وقع التحليف عليه بالمنصورة ... ووقع التحليف على النحو المذكور»(١٢١).

ولعل عبارة وردت عند ابن واصل(١٢٢) تجعل من كل ما قاله قبلا عن إيثار الصالح نجم الدين أيوب لوزيره حسام الدين، يذهب مع الريح ، يقول : «وبولغ فى كتمان موت السلطان الملك الصالح عن كل أحد، من كبير فى الدولة أو صغير، حتى على الأمير حسام الدين محمد بن أبى على، نائب السلطنة بالديار المصرية (!!) وكانت الكتب ترد من المعسكر (المنصورة) إليه ، ويكتب فيها علامة السلطان ... وكان حسام الدين محمد بن أبى على يظن أن السلطان حى، وأن الخط الوارد إليه فى الكتب خطه» (!!) ، ولو كان الأمر كما يقول ابن واصل متمنيا، لعُهِد إلى حسام الدين فى ذلك المرسوم بتدبير أمور المُلك لكونه الأقرب إلى ذلك باعتباره نائب السلطنة . والغريب فى الأمر أن مؤرخنا يقول فى الفقرة التالية مباشرة «إن السلطان ما كان يثق فى الأمير فخر الدين بالثقة التى توجب أن يفوض إليه الأمور من بعده»!! فكيف يمكن قبول هذا التضارب فى أسطر متتاليات ؟! ومرة أخرى لو كان الأمر كما يقول ابن واصل ، لانتقلت عدوى عدم الثقة هذه من السلطان قبل موته إلى زوجه شجر الدر ، ولتم اقصاء فخر الدين عن موقعه ، هذا إذا افترضنا أصلا عجز السلطان عن القيام بذلك .

وقد ظلت المراسلات تدور بين الأمير فخر الدين أتابك العسكر ومدبر الأمور فى الدولة وبين حسام الدين نائب السلطنة فى القاهرة، فى ظل وإطار المودة الظاهرة والمجاملة الرقيقة من كل منهما تجاه صاحبه ، مثل، من «فخر الدين الخادم يوسف » ومن «حسام الدين المملوك أبو على بن أبى على، وبينهما مجاملات فى الظاهر»(١٢٣).

وملأ ابن واصل ، والمؤرخون من بعده نقلا عنه ، الدنيا ضجيجا بما فعله الأمير فخر الدين طيلة خمسة وسبعين يوما قام خلالها بتدبير الأمور فى السلطنة ، فيقول ابن واصل : «... وفخر الدين يعمل على الاستبداد والاستقلال بالأمر، إن تعذر وصول الملك المعظم ، وصار لفخر

---

(١٢١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٨٢ .

(١٢٢) المصدر السابق نفسه ص٢٨٣ .

(١٢٣) المصدر السابق نفسه ص٢٨٧ .

الدين موكب عظيم بالمنصورة ، والأمراء كلهم في خدمته ، ويترجلون له كلهم عند النزول ، ويحضرون لسماطه»(١٢٤) . ونتساءل ، ما الذى كان يتوقعه ابن واصل من رجل عُهد إليه رسميا بـ «التقدمة على العساكر ، والقيام بالأتابكية ، وتدبير المملكة» ؟ أليس كل ما «يشنع» به ابن واصل هنا على الأمير فخر الدين هو ما تتطلبه هيبة هذه المناصب التى يتولاها وتقاليدها ؟ وهل كان من المفروض أن يقبع الرجل فى مقر قيادته بمعسكر المنصورة محتجبا عن الأمراء والعساكر والناس ؟!

وليت الأمر اقتصر على هذا الاتهام الذى لايخلو من طرافة ، بل امتد ليشمل فى الإطار نفسه أن فخر الدين «شرع فى إطلاق المحبوسين ، ثم أفرج عن أكابر من الأعيان كان الملك الصالح نجم الدين أيوب اعتقلهم »، وكان من بين هؤلاء جمال الدين بن مطروح ، الذى كان نائب السلطنة في دمشق، والشاعر بهاء الدين زهير الذى رده إلى منصبه ، يعنى ديوان الإنشاء ، ولسنا فى حاجة إلى القول أن الأمور بعد وفاة الصالح ، وإن كان خبر ذلك ما زال سرا ، كانت تقتضى الاستعانة برجال يكنون لمدبر المملكة الاحترام ، ويمكن الاعتماد عليهم فى تصريف الأمور، خاصة إذا علمنا أن الأسباب التى من أجلها استغنى الملك الصالح عن خدمات هذين الرجلين ، ابن مطروح والبهاء زهير، لم تكن شكا فى ولائهما، وإلا كان مصيرهما غير ما آل إليه (١٢٥).

---

(١٢٤) المصدر السابق نفسه ص٢٨٧ وراجع حاشية ٥٣ .

(١٢٥) عن سبب غضب الملك الصالح على البهاء زهير راجع أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٣٤-٣٣٥ . ومن المعروف أن بهاء الدين زهير كان مولعا بحب مصر ونيلها ، لايعدلهما عنده أى شئ آخر ، حتى قيل فيه إنه «مصرى المنشأ، مصرى الروح ، مصرى العاطفة» ، وهو الذى أنشأ الرسالة التى بعث بها الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الملك لويس التاسع عند قدومه فى أول الأمر إلى الديار المصرية، والتى أتينا على ذكر منها من قبل . أما الشاعر والسياسى جمال الدين يحيى بن مطروح فقد قام بخدمات جليلة من الناحيتين السياسية والعسكرية للملك الصالح نجم الدين أيوب ، نجدها مبسوطة عند المقريزى فى السلوك جـ١ ص٢٨٤-٢٩٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، حتى أصبح من أرباب السيوف والقلم، ولم يذكر المقريزى شيئا أكثر من قوله ، وفى سنة ٦٤٦ هـ «عُزل الصاحب جمال الدين بن مطروح عن دمشق » دون أن يورد أسباب ذلك. ولكنا نعلم من قصيدة جميلة قالها ابن مطروح مستعطفا الصالح، أن ما جرى له كان نتيجة لسعى الوشاة والحاقدين جاء فيها :

=

واحتوى هذا الجزء من الاتهام نقاطا أخرى مفادها أن الأمير فخر الدين «أخذ فى التصرف فى الأموال، فأطلق منها جملة، وخلع على خواص الأمراء ، وأطلق السكر والكتان إلى الشام»[١٢٦] ، ولانملك تعليقا على جملة ما احتواه هذا الاتهام الأخير إلا أن نسوق هنا نص ما قاله سبط بن الجوزى[١٢٧] فى ذلك : «... ولما وصل تورانشاه (إلى مصر) أخذ مماليك فخر الدين الصغار وبعض قماشه بنصف القيمة ، ولم يعطهم درهما ولاعوض الورثة شيئا ، وكان الثمن خمسة عشر ألف دينار. وكان إذا جلس جعل حسنات فخر الدين سيئات ، يقول ، أطلق الكتان والسكر وأنفق الأموال ، فأيش ترك لى أنا (!!) » ، وهكذا لم يكن فعل فخر الدين هذا إلا حسنات حسده عليها تورانشاه، وطفحت غيرته الشديدة على لسانه! ويضيف ابن الجوزى معلقا فى سخرية لاذعة : «فكان حفظ فخر الدين للمُلك وسياسته للعسكر ومقاتلته للأعداء من أكبر ذنوبه» !!

= من مُبَلِّغ عنى المليك الأروعا — عن عبده يحيى مقالا مقنعا
ولو ادّعيتُ بأن مالك ناصحٌ — مثلى شهدت بصدق ذاك المدعى
ولطالما جربتنى فوجدتنى — أجدى من الملأ الكثير وأنفعا
فعلام بعد الاصطفاء نبذتنى — نبذ النواة بقول واش قد سعى
وسمعت فى حقى كلام معاشر — أقصى مُناهم أن أبيت مُضيّعا

وقد نظم ابن مطروح قصيدة طريفة عندما ترددت أنباء اعتزام لويس التاسع العودة إلى مصر فى حملة جديدة، بعد هزيمته الساحقة فى الحملة الصليبية السابعة التى قاده ، وأسره فى دار ابن لقمان بالمنصورة ، وحذره فيها من سوء المصير الذى ينتظره إذا رام فى ذلك، جاء فيها :

قل للفرنسيس (الملك) إذا جئته — مقال صدق عن قئول فصيح
آجرك الله على ما جرى — من قتل عباد يسوح المسيح
وقل لهم إن أضمروا عودة — لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها — والقيد باق والطواشى صبيح

عن حياة وأدب بهاء الدين زهير وجمال الدين يحيى بن مطروح ، راجع ، محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر الأيوبى ص٥١٧-٥٤٠ .

(١٢٦) ابن واصل ، مفرج الكروب، الملحق المذكور ص٢٨٥ ؛ المقريزى: السلوك جـ١ ص٣٤٤ .

(١٢٧) مرآة الزمان جـ٨ ص٧٧٧ .

ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أيضا أن الأمير حسام الدين الهذباني ظل على اعتقاده أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ما زال حيا، طالما كانت المكاتبات ترد إلى القاهرة من المنصورة ممهورة بتوقيع السلطان، ولم يفق من هذا «الوهم» إذا صح هذا التعبير إلا على يد مؤرخنا جمال الدين ابن واصل الذى اكتشف بفراسته فى التمييز بين الخطوط ومعرفتها ، وأقسم بـ «الله العظيم» على صحة ما يقول من مضاهاة الرسائل الواردة من المنصورة إلى نائب السلطنة بالقاهرة ببعضها، «فتبين مخالفة الخط للخط»، ثم يقول ابن واصل ، وهذا هو بيت القصيد ، «فغلب على ذهن حسام الدين إذن ما قلته ، وأخذ فى التبيين عنه ، والكشف من خواص السلطان نجم الدين أيوب بالمعسكر ، فتحقق موته. وحينئذ اشتد خوفه من الأمير فخر الدين يوسف أن يغلب على الملك ، ويستبد به لنفسه ، فإن الأمير فخر الدين رحمه الله كان عالى الهمة جدا ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر»[١٢٨].

هكذا فى لحظة من لحظات الصدق مع النفس ، كشف مؤرخنا عن حقيقة مكنون نفس صديقه الأثير الأمير حسام الدين، وما يعتمل فى صدره تجاه الأمير فخر الدين مما دفع نائب السلطنة إلى «الخوف الشديد» من أن «يستبد» ابن شيخ الشيوخ بالأمر دونه ، فيصبح من بعد نسيا منسيا ! ويعلق المقريزى[١٢٩] بذكاء على ما كان من حسام الدين بقوله «فاحتاط لنفسه» .

وهذا ينقلنا تلقائيا إلى النقطة التالية حتى تكتمل الصورة وضوحا، نعنى جماعة القصّاد الذيم تم إرسالهم من معسكر المنصورة لاحضار الملك المعظم تورانشاه ابن الصالح من حصن كيفا فى ديار بكر ، ويصر ابن واصل على أن يؤكد فى كل فقرة هنا مدى طمع الأمير فخر الدين فى القفز على عرش السلطنة ، والسعى نحو ذلك حثيثا ، فيظهره بمظهر الكاره لهذا الاجراء حين يقول «وما أمكن فخر الدين يوسف إلا الموافقة على ذلك» [١٣٠]، مع إنا نعلم من

---

(١٢٨) ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٨٤-٢٨٥. وقارن ما جاء بهذا الخصوص عند المقريزى، السلوك حـ١ ص٣٣٩ .

(١٢٩) المقريزى ، السلوك جـ١ ص٣٤٤ .

(١٣٠) ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٨٥-٢٨٦ .

ابن الجوزى[١٣١] وهو معاصر لتلك الأحداث ، شأن ابن واصل، وكذلك يخبرنا ابن أيبك[١٣٢] والمقريزى[١٣٣] أن فخر الدين بعث بالقصاد إلى تورانشاه يستحثه على الحضور لتولى زمام الأمور . وكان على رأس من بعث بهم القصر السلطانى فى المنصورة الأمير فارس الدين أقطاى، ولم يكن حسام الدين بالذى ينتظر الغير يقررون له المصير ، ومن ثم فأنه عملا بمبدأ «الحيطة والحذر» كما أشار المقريزى، بعث هو الآخر من لدنه رسولا من مماليكه الخواص يعرف بـ «زين الدين العاشق»، إلى تورانشاه يرجوه سرعة الحضور خوفا من أن تخرج البلاد من يده[١٣٤]، ولم يكن هذا الايحاء الأخير إلا لينسحب على الأمير فخر الدين ، وفى الوقت نفسه قام حسام الدين بالقبض على الملك المغيث ابن الملك العادل الثانى، وسجنه فى القلعة ، «وأمر والى القلعة بالاحتفاظ به والاحتياط عليه، وألا يسلمه إلى من يطلبه منه، مخافة أن فخر الدين ربما طمع فى السلطنة ، ليستولى على المملكة ويديرها باسمه (أى المغيث) الذى كان عمره آنذاك أربعة عشر عاما [١٣٥]، ويضيف ابن واصل صراحة أن رسول حسام الدين وصل إلى حصن كيفا، واجتمع بالملك المعظم ، وحثه على سرعة الوصول إلى الديار المصرية، وقال له: «إن تأخرت فات الأمر، وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد ، وربما جعلها باسم ابن عمك الملك المغيث بن الملك العادل»[١٣٦]. ولعل هذا يعيد إلى الأذهان ما ذكره مؤرخنا سابقا عن الخوف الذى تملك حسام الدين خشية أن يقفز فخر الدين إلى عرش السلطنة بعد أن تيقن الحسام من موت الملك الصالح .

وحتى تكتمل هذه الصورة تماما، نواصل رحلتنا مع حديث ابن واصل حتى ندرك حقيقة الاتهامات التى كالها للأمير فخر الدين ، وموقف الأمير الوزير حسام الدين، الذى كان مؤرخنا يرشحه ليكون خلفا للملك الصالح . يقول مؤرخنا : «لما تواترت الأخبار بقرب وصول

---

(١٣١) مرآة الزمان جـ٨ ص٧٧٦ .

(١٣٢) الدر المطلوب ص٣٧٣ .

(١٣٣) السلوك جـ١ ص٣٤٥-٣٤٦ .

(١٣٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٨٦ .

(١٣٥) المصدر السابق نفسه ص٢٨٦-٢٨٧ .

(١٣٦) المصدر السابق نفسه ص٢٨٧ .

الملك المعظم تورانشاه إلى الديار المصرية ، خرج الأمير حسام الدين نائب السلطنة إلى لقائه ، وخرجت أنا فى صحبته، (وهذا يوضح مدى العلاقة التى كانت تربط بين حسام الدين وابن واصل ، والتى أشرنا إليها من قبل ، ومحاولة ابن واصل فى الوقت نفسه التعرف إلى تورانشاه) ، فالتقيناه بالصالحية ... وخلع الملك المعظم بالصالحية على الأمير حسام الدين خلعة سنية تامة ، ومنطقة وسيفا محلى بالذهب والجوهر ، وسير إليه فرسا من أجود الخيل بخلعة مذهبة ، وبعث إليه ثلاثة آلاف دينار، فلبس الأمير (حسام الدين) الخلعة وقبل حافر الفرس ، وركبه »[١٣٧].

وهكذا «احتاط حسام الدين لنفسه » كما يقول المقريزى ، وأفلحت سعايته تماما فى إيغار صدر تورانشاه على فخر الدين قبل أن تطأ قدم المعظم أرض مصر ، ولم ينقذ فخر الدين من بطش تورانشاه وأعوانه وانتقامهم جميعا منه إلا استشهاد ابن شيخ الشيوخ قبل مجئ المعظم. وكان الذى ساعد حسام الدين على أن ينال الحظوة لدى تورانشاه ، ويحصل على خلعه وهداياه كما رأينا ، إلى جانب اقناعه بسرعة الحضور إلى مصر قبل أن تفلت الأمور من بين يديه بزعمه ، أنه كانت تربط بين الرجلين ، تورانشاه وحسام الدين علاقات قديمة مذ أنعم الملك الصالح على ولده هذا بحصن كيفا، وأمر حسام الدين أن يقيم معه أتابكا له[١٣٨]. ومن ثم لم يجد نائب السلطنة فى القاهرة صعوبة فى اسغلال هذه العلاقة القديمة لمصلحته الخاصة و«الاحتياط لنفسه» ، ولو أن الأمير فخر الدين كان يضمر السوء حقا للمعظم تورانشاه ، لأوعز إلى أحد من ملوك بنى أيوب فى الشام ، أو لصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ، بصفة خاصة ، وكلهم كان يمتلئ بالكراهية الشديدة لتورانشاه لطيشه وسفه وتكبره ، ولتم القبض عليه أثناء قدومه من كيفا فى أعالى العراق إلى مصر ، ولكن فخر الدين لم تحدثه نفسه بمثل ذلك ، لأنه كما قال ، «كان يحفظ الملك لابن سيده» .

والآن .. ترى من الذى يسعى إلى السلطة حثيثا ، وإلى أن يظل دوما فى دائرة الضوء ؟ الأمير فخر الدين الذى ظل فى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح ثم المنصورة ، يعد العدة مع الصالح أيوب أولا ، ثم متحملا المسئولية كاملة، أتابكا للعسكر ومدبرا للملكة ، فى

---

(١٣٧) المصدر السابق نفسه ص٢٩٥-٢٩٦ .

(١٣٨) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ص١٨٩-٢٠٩ .

مواجهة الغزو الصليبي، أم الأمير حسام الدين الذى كان يتملكه الخوف من أن ينفرد فخر الدين بالسلطنة- على حد تعبير صديقه ابن واصل ، حتى أنه بذل كل ما في وسعه لحث المعظم ليسرع بالعودة إلى مصر ، موغرا صدره على فخر الدين ، ثم كان فى أول مستقبليه عند عودته ، فكان من أمر الهدايا والخلع التي خلع عليه ما كان على النحو الذى رأينا . ولعل هذه الصورة تظهر أكثر وضوحا إذا عدنا إلى معسكر المنصورة لنرى الأمير فخر الدين يؤدى واجبه العسكرى المنوط به حتى آخر لحظات عمره . وأى شئ أكبر شهادة مما يقوله مخاصمه ابن واصل نفسه : «وكان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ يغتسل فى الحمام، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد دهموا المعسكر ، فركب (الأمير فخر الدين) دهشا غير مستعد ولامتحفظ (دون أن يتدرع) ، فصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه ... وختم الله له بالشهادة ، رحمه الله ورضى عنه» (١٣٩)، ويضمن ابن واصل حديثه هذا كثيرا من الصفات النبيلة التى يخلعها على فخر الدين ، والتى جئنا على ذكرها من قبل. وإن كان يغتسل فى الحمام »، فيبدو مشغولا بنفسه عن جيشه، وهذا أمر يفنيه مؤرخ معاصر آخر وهو سبط بن الجوزى(١٤٠) حيث يقول : «... فركب فخر الدين وقت السحر ليكشف الخبر، وأنفذ إلى الحلقة (جند الحلقة) والأمراء ليركبوا ، وساق جريدة معه بعض مماليكه وأجناده ، فالتقى طُلب (كتيبة) الداوية مصادفة فحملوا عليه ، فهرب من كان معه ، وثبت هو ، فطعنوه فى جنبيه ، فوقع عن فرسه ، فضربوه ضربتين فى وجهه طولا وعرضا بالسيف وقتلوه .. وكان له من العمر يوم مات ست وستون سنة ، رحمه الله تعالى ». وهكذا جاءت نهاية فخر الدين فوق جواده فى ميدان المعركة .

وحتى تتضح الصورة تماما، ونقف على كل ما فعله الأمير فخر الدين ، باعتباره قائدا عاما للجيش ، قبل ن يلقى الشهادة فى جديلة ، علينا أن نعود إلى الوراء قليلا، نعنى منذ تلك اللحظة التى قرر فيها الصليبيون الخروج من دمياط والزحف جنوبا ابتغاء القاهرة ، وقد بدأ هذا الزحف فعلا فى يوم ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ك / ١٢ شعبان ٦٤٧هـ، ولم يكد يمضى على ذلك يومان حتى توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وغدا فخر الدين صاحب السلطنة الفعلية فى

---

(١٣٩) ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٩٣ ، ويورد ابن أيبك العبارات نفسها ، الدر المطلوب ص٣٧٦ وكذا المقريزى ، السلوك جـ١ ص٣٤٩ .

(١٤٠) مرآة الزمان جـ٨ ص٧٧٦-٧٧٧ ، ويورد عباراته نفسها النويرى، نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٣٩ .

الديار المصرية ، ولكن الرجل- كما علمنا- آثر أن يجعل شغله الشاغل مدافعة هذه القوات الغازية ، وتعطيل حركتها ، فى محاولات مستميتة لإخراجها من مصر ، ومن هنا كانت إقامته وسط جنوده فى معسكر «جديلة»، الموقع المتقدم لحماية المنصورة .

وفى الرابع والعشرين من شعبان ٦٤٧هـ / الثانى من ديسمبر ١٢٤٩م دخل الجيش الصليبى مدينة فارسكور ، الواقعة على بعد ثمانية وأربعين كيلو مترا جنوبى دمياط ، وهذا يعنى أنها قطعت هذه المسافة البسيطة فى ثلاثة عشر يوما ، ولعل المجارى المائية العديدة التى تمتلئ بها المنطقة كانت السبب فى بطء حركة الزحف الصليبى، حيث يخبرنا «جوانفيل» أنه كان عليهم أن يتوقفوا كثيرا ليتم ردم بعض هذه المجارى المائية .

وهنا ، وحتى نهاية عمره، يظهر جهد الأمير فخر الدين ، مقدم العسكر، تخطيطا وتنفيذا فى الجانب العسكرى؛ فقد تم إعداد كمين من قوة الفرسان جنوبى فارسكور ، ولما كانت القوات الصليبية الزاحفة تفوقها عددا ، فقد أبرق قائدها إلى الأمير فخر الدين يخبره بسقوط فارسكور ، وعلى الفور كتب القائد العام بذلك إلى الأمير حسام الدين نائب السلطنة فى القاهرة ، يوقفه على هذه الأحداث ، ويطلب إليه الدعوة إلى النفير العام ، أو إعلان التعبئة العامة .

وفى خلال العشرين يوما التالية (٢٤ شعبان ٦٤٧هـ- ١٤ رمضان / ٢ ديسمبر إلى ٢١ ديسمبر ١٢٤٩م) وصل الجيش الصليبى إلى رأس جزيرة دمياط، ليصبح بذلك فى مقابلة معسكر جديلة، لايفصله عنه والمنصورة أيضا إلا بحر أشموم ، وذلك بعد أن احتل فى طريقه بعد فارسكور كلا من شرمساح والبرمون ، يظاهره فى ذلك سفن أسطوله المتنوعة والعديدة التى وقفت فى النيل بأزاء المعسكر الصليبى.

وشرع لويس التاسع على الفور يعد العدة لعبور بحر أشموم أو البحر الصغير لدخول المعركة الحاسمة ، ولم يكن هذا بالأمر اليسير ، فطبوغرافية بحر أشموم كانت تؤكد عمق مجراه، وشدة الانحدار فى جانبيه ، وسرعة تياره ، وهذه كلها عوامل كان لابد من وضعها فى الحسبان إذا أراد الملك الفرنسى تأمين عبور قواته إلى الضفة الأخرى، فأصدر أوامره ببناء الجسر على بحر أشموم هذا، وزيادة فى تأمين هؤلاء أمر ببناء ساترين أفقيين أو سقيفتين تظلان هؤلاء العمال أثناء عملهم من وابل السهام أو المنجنيق الذى لابد أن يستخدمه المسلمون لوقف إقامة هذا الجسر ، وعهد إلى جوسلين أمير كورنو Cornaut بالاشراف على آلات رمى المنجنيق التى

أعدوها والتى بلغ عددها ثمانية عشر منجنيقا ، كما أحاط معسكره بسور وخندق لحمايته من الناحية البرية وجعل من أحد إخوته واحدا يتولى نوبة الحراسة نهارا ، بينما قامت مجموعة من الفرسان ، من بينهم المؤرخ جوانڤيل الذى نقف منه على كل هذه المعلومات، بنوبة الحراسة الليلية . وهذا كله يوضح مدى الإصرار الذى كان لدى الصليبيين من أجل سرعة إنجاز هذا العمل ، وبالتالى اللهفة على دخول المعركة الفاصلة منتهزين فرصة وفاة الملك الصالح ، وما دار بخلدهم عما يمكن أن يتركه ذلك فى نفوس المصريين .

غير أن الجيش المصرى بوحداته المختلفة لم يتوقف عن ازعاج الصليبيين بهجماتهم الخاطفة المتلاحقة ؛ ففى اليوم الذى وصل فيه الجيش الصليبى إلى رأس جزيرة دمياط، هاجمت فرقة استطلاعية من الفرسان الجنود الصليبيين قبل أن ينفضوا عن أنفسهم غبار الرحلة التى قطعوها ، مع أنه لم يقع بهذه القوات الغازية أضرار مادية ، إلا أن هذا الهجوم ترك أثرا سيئا من الناحية النفسية ، حيث انطبع فى نفوسهم أن المسألة ليست بالسهولة التى يتصورونها . ولم يكد يمضى على ذلك أربعة أيام حتى قامت خيالة من الجيش المصرى بهجوم آخر فى ٢٥ ديسمبر ١٢٤٩م (١٨ رمضان ٦٤٧هـ) ، أى يوم عيد الميلاد عند المسيحيين اللاتين ، الصليبيين، وفتكوا بجماعة من «التعساء الذين كانوا قد خرجوا إلى الحقول مترجلين »، على حد تعبير «جوانڤيل» . وتكررت مثل هذه الحوادث من أعمال «الإبرار» التى تقع خلف خطوط العدو، وتسبب له ارتباكا كبيرا ، منها مثلا ما حدث فى أول أيام عيد الفطر ، أول شوال ٦٤٧هـ / السابع من يناير ١٢٥٠م، وبعد ذلك بأسبوعين فقط قامت القوات المصرية بمهاجمة المعسكر الصليبى، ودارت بينهما معركة حامية ، فقد فيها كل من الجانبين عدداً من رجاله . وشاركت البحرية المصرية أيضا فى هذه الهجمات ، ففى السابع من شوال ٦٤٧هـ/ ١٢ يناير ١٢٥٠م استولى رجال الأسطول المصرى على سفينة ضخمة من نوع «الشينى» الكبيرة، وعليها مائتا جندى صليبى وقائدهم ، وفى يوم الخميس لثمان بقين من شوال ٦٤٧هـ، أحرقت للفرنج مَرَمّة عظيمة فى البحر ، واستظهر عليها المسلمون استظهارا عظيما بينا ، على حد قول ابن واصل .

أما فيما يتعلق ببناء الجسر الذى حاول الصليبيون مده على بحر أشموم ليعبروا إليه حيث معسكر جديلة ثم المنصورة ، فقد قامت الإدارة الهندسية فى الجيش المصرى بالتعاون مع رجال المدفعية ، المنجنيق ، بأفساد كل الجهود التى قام بها الصليبيون فى هذا السبيل ، فقد عمد

المهندسون إلى حفر عدد كبير من الحفر المتلاصقة والعميقة على الضفة التى يسيطر عليها المصريون ، بحيث تغمرها المياه فى المجرى، فيزداد هذا المجرى اتساعا أمام الصليبيين ، ومن ثم بدا الأمر كما لو كان بحر أشموم يتسع كلما زاده الصليبيون ردما !! وقد عبر جوانڤيل عن ذلك بكل الحسرة قائلا : «ورأى المسلمون إفساد الجسر الذى أمر الملك ببنائه ، فعمدوا إلى حفر فتحات أمام معسكرهم ، لاتكاد تصلها المياه حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه ، وبذلك أفسدوا فى يوم واحد ما أجهدنا أنفسنا ثلاثة أسابيع فى عمله، وذلك أننا كلما ردمنا قسما من المجرى من ناحيتنا ، كلما زادوه من جانبهم بواسطة الفتحات التى يحدثونها »، ويضيف جوانڤيل قوله : «لقد أخطأ الملك وجميع باروناته فى أثناء بنائهم لهذا الجسر» .

هذا ما كان من أمر المهندسين والعمال المصريين فى الجيش، أما ما كان من أمر رجال المدفعية ، فإنهم أصلوا الصليبيين العاملين فى هذا الجسر وكذا القائمين على حراستهم ، نارا حامية ، صبوها عليهم من منجنيقاتهم التى انتشرت على الضفة التى يسيطرون عليها، ورغم أن منجنيقات العدو الثمانية عشرة التى نصبوها فى ناحيتهم قامت بقذف المعسكر المصرى، إلا أن تأثيرها لم يكن يدنو مطلقا مما أوقعته المنجنيقات المصرية بالصليبيين من خسائر ، ولم تفلح السقيفة أو الأبراج التى أقاموها لحماية العاملين فى هذا الجسر ، ولعل أدق من يحدثنا عما فعلته المنجنيقات المصرية بالصليبيين هو جوانڤيل نفسه ، لذا فإننا نترك له المجال هنا لنجده يقول : «... وكانت النار الإغريقية تأتى من الأمام أشبه ما تكون ببرميل كبير من القار ، ذات ذَنَبٍ يقارب الرمح طولا ، يصحبها صوت هائل كدوى الرعد، وكأنها طائر فى الجو ، تشع بنور يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شىء كأنه فى وضح النار . وقد أطلق المسلمون النيران علينا من مدافعهم ثلاث مرات فى تلك الليلة ، وأربع مرات بواسطة الأقواس المتحركة . وكان ملكنا القديس كلما سمع صوت قذائف النار الإغريقية جلس فى فراشه ورفع يديه وعينيه إلى مخلصنا وهتف باكيا .. «أيها الرب السيد الحنان احفظ لى شعبى» وفى ذات مرة سقطت القذائف التى رمونا بها على المكان القائم بحراسته رجال سيدى لورد كورتناى، حيث الشاطئ ، فنظرت فإذا بفارس يدعى «أفليجوى» قادم نحوى ، وقال لى يا سيدى، إن لم تهب لنجدتنا فإننا سنحترق جميعا، لأن المسلمين قد أطلقوا كثيرا من النبال حتى لكأن سياجا ضخما من اللهيب كان يستهدف برجنا» .

ويمضى جوانفيل قائلا : «... وكانت نفوسنا مغتمة لنجاح المسلمين فى تحطيم الأبراج ، وأخرج المسلمون آلاتهم فى وضح النهار ، بينما كانوا لايجرؤون من قبل على استعمالها إلا

ليلا، وأخذوا يواصلون رمينا بالنار الإغريقية . واقتربوا بآلاتهم حتى أصبحوا على كثب من الجسر الذى يعمل الجيش فى تشييده ، فلم يعد أحد يجرو على الذهاب إلى البرجين من جراء ما تقذفه آلات حربهم على الجسر من الحجارة الضخمة ، مما أدى إلى احتراق البرجين. واشتد حزن ملك صقلية (يقصد أخ لويس التاسع، شارل كونت أنجو ، الذى أصبح فيما بعد ملكا على صقلية من قبل البابوية) حتى كاد أن يُجن ، وأراد أن يلقى بنفسه إلى حيث تشتعل النيران عسى أن يطفئها ، وكان فى أشد الغيظ ... إذ لو استمروا فى الرمى حتى الليل لاحترقنا جميعا أثناء قيامنا بالحراسة» .

أليس هذا بكافٍ على أن يقام ديلا على صدق الأمير فخر الدين، وإخلاصه ، وجهده الكبير الذى بذله لتنظيم القوات المصرية حتى أضحت على هذا الوضع الذى وصفه مؤرخ صليبى كان شاهد عيان على تلك الأحداث ، ويزيد جوانفيل هذا الجهد الذى بذله فخر الدين وضوحا حين يقول إن لويس أمر بأنشاء برج جديد عوضا عن البرجين المحترقين ، وقدر ثمن الخشب الذى استخدم فى تشييده بعشرة آلاف دينار أو يزيد ، فلما تم بناؤه عهد إلى أخيه شارل كونت أنجو بحسن استخدامه حتى يعوض خسارة البرجين السابقين ، فتقدم بالبرج إلى حيث كان البرجان المحترقان ، «فلما رأى المسلمون ذلك رتبوا صفوفهم وصفوا آلاتهم الست عشرة لتستطيع رمى الجسر فتصيبه هو والبرج ، ولما رأوا إحجام رجالنا عن الذهاب إلى الجسر خشية الحجارة المتساقطة من الآلات عليه، أحضروا مقاليعهم وقذفوا البرج منها بالنار الإغريقية فأتت عليه كله».

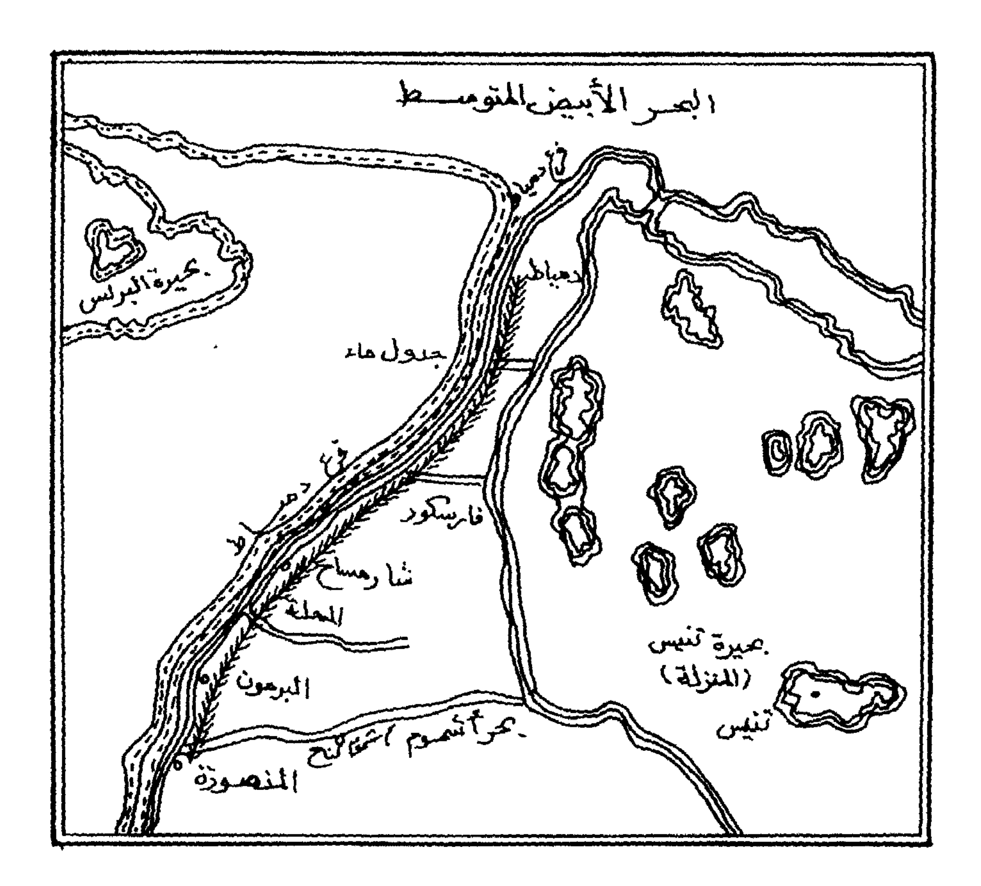
هكذا نجد أن الأمير فخر الدين القائد العام للجيش المصرى، مقدم العسكر ومدبر أمر المملكة الآن، لم يدخر وسعا فى الإعداد للمعركة الحاسمة المتوقعة مع الصليبيين، واتبع كل الوسائل الممكنة حتى لايدع للصليبيين فرصة ينعمون بها أو فيها بالراحة داخل معسكرهم فى رأس جزيرة دمياط ، ففعلت القوات الخاصة التى دفع بها خلف خطوط العدو فعلها ، وقامت البحرية المصرية بدورها، وأدى رجال الهندسة العسكرية واجبهم على خير وجه ، ونصب ستة عشر منجنيقا فى مواجهة الثمانى عشرة التى أقامها الصليبيون ، فأصلت الآلات المصرية جنود لويس العاملين فى إقامة الجسر حمم نيرانها ، وأحرقت كل دفاعاتهم التى أعدوها لحماية أنفسهم وعبورهم بحر أشموم ، وتملكهم اليأس من إتمام هذا العمل . وكتب جوانفيل يقول : «لما رأى الملك ما جرى استدعى باروناته للمشاورة ، فأجمعوا على أنهم لايستطيعون بناء

جسر يعبرون عليه، نظرا لعجز رجالنا عن أن يردموا من جهتهم قدرا يكافئ ما يستطيع المسلمون حفره من ناحيتهم ». ويكفى أيضا فى صف فخر الدين أن نسجل عبارات رئيس نوبة الحراسة الليلية للبرجين الصليبيين، عندما عاين ما يفعله الجيش المصرى بقيادة الأمير فخر الدين من معسكره فى جديلة ، قال : « أيها السادة ، إننا فى أخطر وضع تعرضنا له حتى الآن، ذلك أنهم إذا أضرموا النيران فى أبراجنا (وكان ذلك فى أول الأمر قبل احتراق البرجين)، وبقينا حيث نحن، فلابد أننا هالكون بالحريق ، وإذا تركنا أماكن دفاعنا هذه ، التى وكل إلينا حراستها ، فقدنا شرفنا ، ولن يدفع عنا هذا البلاء سوى الرب ، لذا فإنى أنصحكم أن نجثوا على أيدينا وركَبِنا كلما قذفونا بالنيران ، وندعو «مخلصنا» أن يقينا شر هذا البلاء» .

ومن الجدير بالذكر أن الصليبين قطعوا المسافة من دمياط إلى رأس جزيرة دمياط فى ثلاثين يوما (٢٠ نوفمبر إلى ٢١ ديسمبر) ، بينما أمضوا خمسين يوما فى مكان نزولهم (من ٢١ ديسمبر ١٢٤٩- ٨ فبراير ١٢٥٠) لايستطيعون عبور بحر أشموم ، ولاشك أن الجهود التى بذلها فخر الدين على النحو الذى رأينا كان لها أكبر الأثر فى هذا السبيل ، بل لقد أثر عنه - فيما رواه جوانفيل - القول بأنه أقسم على مهاجمة المعسكر الصليبى وتحقيق النصر وتناول طعامه فى فسطاط الملك الفرنسى ، يوم عيد ميلاد القديس سباستيان St. Se-bastian .

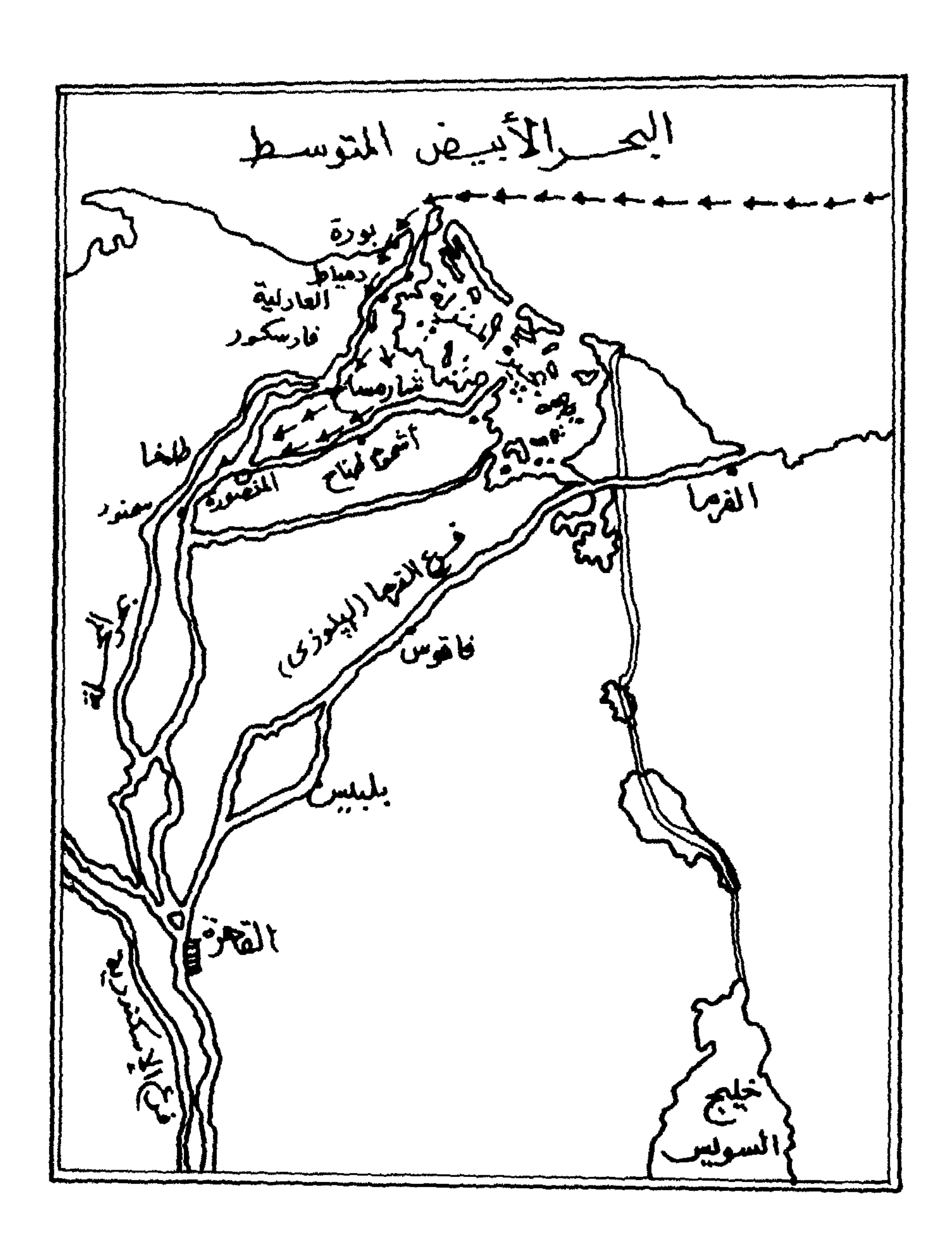
غير أن شيئا نكرا جرى حدوثه أضاع سدى كل الجهود التى بذلها الجيش المصرى وقائده الأمير فخر الدين ، ذلك أن واحدا احتوت نفسه على الخيانة ، تطوع ليدل الصليبيين على مخاضة يعبرون من خلالها بحر أشموم ، ليأخذوا المسلمين على غرة مقابل خمسمائة دينار يدفعونها له مقدما !! وتقع هذه المخاضة عند قرية سلمون التى تبعد عن مدينة المنصورة الحالية بحوالى ستة كيلو مترات . ولم يتردد الملك لويس التاسع لحظة واحدة فى قبول العرض ، رغم أن المخاضة لم تكن تصلح فقط إلا لعبور الفرسان على ظهور خيولهم ، بينما يستحيل على المشاة اجتيازها ، ولكنه اهتبل هذه الفرصة التى جاءت تسعى على غير موعد ، ولامانع من أن يتحقق عن طريق الخيانة ما فشل الصليبيون فى إنجازه خلال خمسين يوما من المناوشات ، اصطلوا فيها بنيران الجيش المصرى .

هكذا لم يكن هجوم الصليبيين الذى تم على هذا النحو المفاجئ ، ولاخروج فخر الدين دهشا غير مستعد ، إذا أخذنا برواية ابن واصل ، عن تقصير من جانب مقدم العسكر ، أو



رسم تخطيطي لزحف لويس التاسع وقواته باتجاه بحر أشموم

«نقلا عن جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على مصر»



خط سير الحملة الصليبية السابعة باتجاه المنصورة وموقع مخاضة سلمون وقرية جديلة

«نقلا عن محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر»

تراخ في أداء واجباته العسكرية ، بل كان نتيجة لخيانة «بعض من لادين لهم»، على حد قول مؤرخنا المقريزى[١٤١] ، ومن ثم فإنه لما كان الأمير فخر الدين رجلا «عالى الهمة» فلم يكن يتوقع أن تأتيه الكارثة من الداخل ، نعنى الخيانة التى تسببت فى عبور الصليبيين لبحر أشموم عند مخاضة سلمون ، وهجومهم المباغت على المنصورة [١٤٢]، ومهما يكن من أمر ، فالذى يعنينا أن فخر الدين ظل حتى اللحظة الأخيرة ، وقد بلغ العام السادس والستين من عمره ، مقاتلا فى قلب ميدان المعركة ، وظل ثابتا طلبا للشهادة ، بينما فر عنه طلبا للنجاة كل من حوله وخاصة مماليكه الذين تركوه وانصرفوا إلى داره فنهبوا كل محتوياتها . ولانملك إلا هذا التعليق الذى يجمع بين السخرية والأسى لعدم الوفاء، والذى جرى به قلم سبط بن الجوزى[١٤٣]، قال : «... وخُربت داره كأنها لم تكن بالأمس ، خربها الأمراء الذين كانوا يركبون كل يوم إلى خدمته ويقفون على بابه، وهم أكثر من سعبين أميرا كانوا يتمنون أن ينظر إلى أحد منهم نظرة ، وما نفعه تربية مماليكه وإحسانه إليهم »!!

والآن ، وبعد عرض القضية من جميع جوانبها على هذا النحو ، آن لنا أن نقدم شهادة الحق على أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ كان بعيدا كل البعد عن كل ما تضمنته صحيفة الدعوى المقامة ضده من اتهامات ساقها بعض المؤرخين القدامى والمحدثين ، وهذه يدلى بها السلطان نفسه . فابن واصل ملأ الدنيا فى كتابه ضجيجا مؤكدا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو كان موليا أحدا من بعده ، فإنه لم يكن ليعدل أبدا عن وزيره حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، لأنه كان ساعده الأيمن فى كل أموره ، وموضع ثقته المطلقة ، ولأنه لم يكن يثق كل الثقة فى الأمير فخر الدين بحيث يجعله يقدم على اختياره خلفا له ، إضافة إلى كراهية الصالح لأبنه المعظم تورانشاه . ومع أن المقريزى يتفق مع ابن واصل فى كثير مما يقوله عن الأمير فخر الدين حتى يكاد يورد فى بعض المواضع عباراته نفسها ، إلا أنه هنا يخرج عن هذه القاعدة ويؤكد أن الملك الصالح أوصى قبل موته أن يخلفه ابنه تورانشاه ، يقول

(١٤١) الخطط جـ١ ص٢٢١ .

(١٤٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع كتابنا «الجيش المصرى فى عصر الأيوبيين ، تحت الطبع .

(١٤٣) مرآة الزمان جـ٨ ص٧٧٧ .

المقريزى[١٤٤] ما نصه : «فلما كان ليلة الاثنين نصف شعبان ، مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة وهو فى مقابلة الفرنج ، عن أربع وأربعين سنة ، بعدما عهد لولده الملك المعظم تورانشاه ، وحلف له فخر الدين ابن الشيخ ومحسن الطواشى ، ومن يثق به» وعبارات المقريزى تفيد أمرين أولهما أن الصالح أوصى لأبنه تورانشاه قبل موته ، وثانيهما أنه صدق على ذلك بأخبار مقدم عسكره فخر الدين ، وطواشيه محسن ، ومن يثق به ، ولم يكن من بينهم بالطبع حسام الدين ، وإلا ذكره المقريزى ولم يكن ليغفل عنه من قبل صديقه ابن واصل. أما التعبير الأخير الذى ورد فى عبارة المقريزى ، ونعنى به قوله «ومن يثق به»، فإنه يضيف بعدا جديدا يؤكد بما لايدع مجالا للشك أن الأمير فخر الدين كان على رأس هؤلاء الذين يثق بهم الملك الصالح، بحيث أخذ عليه موثقا وعهدا أن يحفظ عرش الديار المصرية حتى يؤوب تورانشاه . وهل فعل فخر الدين غير ذلك ؟

وبذكاء تميز به المقريزى المؤرخ ، أشار إلى حديث ابن واصل فى هذا الشأن ، ولم يأت به خبرا مؤكدا كما جرت عباراته السابقة عن وصية الصالح لأبنه ، بل أورده ضمن دائرة الأقوال التى لا دليل عليها ، ومن ثم فإنه جاء بحديث ابن واصل وقدمه بما يفيد عدم موافقته عليه، وهذا نص المقريزى، «وقيل إنه لم يعهد إلى أحد بالملك ، بل قال للأمير حسام الدين ابن أبى على : إذا مت لاتسلم البلاد إلا للخيفة المستعصم بالله ، ليرى فيها رأيه »[١٤٥]. وهذا بنصه قول ابن واصل .

أما الشهادة التى يدلى بها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وحجبناها إلى آخر جلسات المحاكمة لتكون الحجة الدامغة ضد كل من اتهم فخر الدين بن الشيخ فى شرفه العسكرى ووطنيته، فهى عبارة عن الوصية التى كتبها الصالح لإبنه تورانشاه ، والتى يعهد فيها إليه بالملك ، ويضمنها كل خبرته وخلاصة تجاربه وصادق نصحه ، ليكون هذا كله دستورا لـ «الولد» فى ممارسة مهام منصبه [١٤٦]. وفى الوقت نفسه جاءت بيانا ناصعا ودليلا صادقا

---

(١٤٤) السلوك جـ١ ص٣٣٩ ، ويقول ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٧٣ ، «قام الأمير فخر الدين بن الشيخ مدبر الدولة، وجمع الأمراء ، وقال : «إن السلطان رسم أن تحلفوا لولده غياث الدين تورانشاه »، وقارن الحنبلى ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص٣٤٠ .

(١٤٥) المقريزى ، السلوك جـ١ ص٣٤٢ .

(١٤٦) النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٤١-٣٥٢ .

على تبرئة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من كل ما نسب إليه . وما علينا إلا أن نقرأ معا أمام محكمة التاريخ بعضا مما جرى به قلم السلطان.

يقول الصالح : «... والأخ فخر الدين بن الشيخ ما عندى من أقدّم سواه ، فأكرمه واحترمه كما تحترمنى ، واجعله عندك كالوالد، واسمع قوله ورأيه ، ولاتخالفه ، واجعل له من العدة مائتى فارس». وهذا فى حد ذاته اعتراف صريح من الملك الصالح نجم الدين أيوب بأنه ليس عنده فى دولته من يحتل المقام الأول بعده مباشرة إلا الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وهذا ينفى تماما ما يردده ابن واصل من القول بأن «السلطان الملك الصالح لايعتمد فى حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبى على»[١٤٧] . وفى كلمات الصالح هذه أمر لولده بستة أمور واجبة التنفيذ ، تخص الأمير فخر الدين ، إعلاء قدره وتكريمه ، واحترامه بما يليق بمكانته ، وانزاله منزلة الوالد، والنزول عند كل أقواله وآرائه ، وعدم مخالفة مشورته ونصحه ، وتخصيص مائتى فارس له لرفعة منزلته .

ويضيف الصالح قائلا لولده وهو يعظه «اتفق أنت والأخ فخر الدين ... واحفظ يا ولدى ما أقوله لك (وكان قد ذكر له جملة نصائح تخص مختلف أمور الدولة سياسية ودبلوماسيا وعسكريا)، فهذا جميعه ما عرّفنى به إلا الأخر فخر الدين»، ويختتم وصيته بقوله « فهذه وصيتى إليك، فاعمل بما فيها ولاتخالف وصيتى ، وكل يوم طالعها ، وقف[١٤٨] عليها ، ولاتعمل شيئا[١٤٩] دون أن تشاور الأخ فخر الدين ، والله يقدر بما فيه الخير إن شاء الله تعالى» .

والوصية تمتلئ فى مواضع متعددة بضرورة الأخذ برأى «الأخ فخر الدين» فى أمور كذا وكذا ، مثل ما يجب عمله تجاه بعض زعماء جماعة القَيْمُرِيَّة ، (وهم طائفة من الأكراد) ، وزعماء المماليك الصالحية الذين أوصاه بهم خيرا ، والمشكلات المتعلقة بالأسطول ، حيث أن «الأخ فخر الدين عرفنى بهذه الأحوال جميعها ، فاسمع ما يقوله لك» !!

---

(١٤٧) ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص٢٨٤ .

(١٤٨) فى الأصل «واقف» .

(١٤٩) فى الأصل «شئ» .

الوصية إذن تقليد المُلك للمعظم تورانشاه من قبل أبيه الصالح نجم الدين أيوب ، وتعيين لمستشاره وقائد جيشه ، والرجل المقدم فى دولته، ومن لايقدم غيره ، نعنى «الأخ» فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، الذى خصه بأسرار دولته ، إذ يقول لولده : «وقد عينت فى ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تقدمهم ، تعطى لكل واحد منهم كُوَس (صنوج من نحاس يدق بها فى المواكب وهى من شعارات السلطنة والإمارة) ، وعلما(١٥٠)، وتحسن إليهم».

ولو كان الأمر حقا كما ردد ابن واصل مرارا وتكرارا فى كتابه ، من ثقة الصالح التى لاحدود لها فى الأمير حسام الدين، وفقدانه إياها فى الأمير فخر الدين لكان المنطق يحتم عليه أن يجعل من حسام الدين، وليس فخر الدين ، مستشارا لإبنه تورانشاه حاله اعتلائه عرش السلطنة ، خاصة وأن حسام الدين كان أتابكا لتورانشاه عندما كان فى حصن كيفا كما علمنا. ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، ولم يختر الصالح أحدا سوى ابن الشيخ ليكون عضد ولده كما كان عضده هو شخصيا فى سنى حكمه .

والسلطان الصالح ينزل فخر الدين منزله أخيه ، فلايسميه فى وصيته إلا بـ «الأخ» ، ولم يستخدم هذا اللفظ مع أحد غيره ممن وردت أسماؤهم فى الوصية على كثرتهم ، ومنهم نفر من أهله وأقاربه ، ولم يستخدم مع هذا اللفظ لقب الأمير أو مقدم العسكر أو الأتابك ، دليلا على مدى قرب فخر الدين من الصالح ومودته له واحترامه إياه، بل والثقة المطلقة التى أولاها إياه ، على العكس مما يقوله ابن واصل تماما .

وقد جاء ذكر حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، صديق ابن واصل ، فى هذه الوصية ، فإذا ما قرأنا ما كتب عنه علمنا يقينا أن كل ما قاله مؤرخنا عن انفراد حسام الدين بثقة الصالح ، وأنه لم يكن ليولى أحدا من بعده غيره لو أوصى ، مجرد آمال داعبت ابن واصل من أجل صديق عمره ، وصاحب الفضل فى انزاله مُنزلا كريما عند قدومه إلى القاهرة من الشام . وها قد أوصى الصالح، ولكنه أوصى بالشخصيتين الكريهتين لابن واصل !! تورانشاه وفخر الدين !! أما ما يخص الحسام فقد جاء ذكره فى عداد الأمراء غيره ؛ يقول الصالح : «الولد (يعنى تورانشاه) يتوصى بالخدام ، محسن (يقصد الطواشى جمال دين محسن، ورشيد والخدام المقدمين ، لاتغيرهم ، فما قدمت أحدا(١٥١) من الخدام ولا من المماليك إلا بعد ما

---

(١٥٠) فى الأصل «عَلَم» .

(١٥١) فى الأصل «أحد» .

تحققت نصحه وشفقته ، وأستاذ الدار وأمين جاندار تتوصى بهم . وكذلك الحسام . لاتغيرهم ، فإنى اعتمد عليهم فى جميع أمورى ... والحسام يكون بمفرده لا حَلّ ولاربط » !! وهكذا يجئ ذكر حسام الدين فى عداد أعوان السلطان الذين يعتمد عليهم ، بل آخرهم بعد الطواشى محسن ورشيد والخدام المقدمين . والسلطان يعرف جيدا أن وزيره نائب السلطنة لايعرف الحل والربط فى الأمور بمفرده ! فكيف يمكن أن يجعل منه الصالح - لو أوصى كما يقول ابن واصل - سيدا على مصر ؟!

وليس ببعيد أن يحاج أحد بالقول أن الوصية كتبت قبل أن ينسحب الأمير فخر الدين بجيشه من جيزة دمياط ، ومن ثم فإن الصالح لم يكن يعلم بعدم ولاء مقدم عسكره عندما كتب وصيته . غير أن ذلك قول واه يسهل دحضه دون عناء من خلال أمرين ، أولهما يتفق مع المنطق وطبيعة الأمور ، وهو أنه كان بمقدور الصالح أن يمزق هذه الوصية تمزيقا ، أو أن ينسخ بيديه محوا كل ما كتبته يده عن فخر الدين ، أو أن يضيف فى أضعف الأحوال عبارة فى بداية وصيته أو نهايتها يخبر ولده فيها بخيانة فخر الدين وموقفه من الصليبيين عند جيزة دمياط ، أما ثانى الأمرين فهو الدليل العملى الدامغ من داخل هذه الوثيقة نفسها ، فالوصية تضمنت فى بدايتها كل الأحداث التى وقعت عند دمياط ، وما كان من أمر الصليبيين هناك، أى احتلالها بعد أن فر من كان بها من الكنانية !! بل وتتضمن أيضا شهادة البراءة الكاملة للأمير فخر الدين على النحو الذى عرضنا له من قبل .

بقى أن نقول هنا ، حتى نغلق ملف قضية الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ ، القائد العام للجيش المصرى، أو بتعبير زمانه أتابك العسكر، والذى اتضحت لنا براءته - على الأقل من وجهة نظرنا- مما نسب إليه من تركه لجيزة دمياط وانسحابه إلى أشموم طناح لهوىً فى نفسه ، وعدم ولائه لسيده ، وطمعه فى السلطنة ، إن الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذى أدلى بشهادته أمام محكمة التاريخ مبرئا «الأخ» فخر الدين ، بعد كل ما قدمناه لتفنيد ما جاء بصحيفة الدعوى المرفوعة ضده، هو الذى كتب وصيته هذه بخط يده ، إذ يقول : «وكتبت هذه الوصية ولم يطلع عليها أحد ، لئلا تضيق صدورهم ، وكتبتها فى مدة طويلة». والنويرى يؤكد ذلك عند تقديمه للوصية حين يقول : «وكان الملك الصالح فى مرض موته ، قد كتب إلى ولده الملك المعظم هذا كتابا أسند فيه الملك إليه ، واشتمل كتابه على جملة من الوصايا، وقد وقفت على الكتاب المذكور ، وهو بخط السلطان الملك الصالح بجملته»(١٥٢).

---

(١٥٢) النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٤٠ .

أما من يقصدهم السلطان الملك الصالح بقوله «لئلا تضيق صدورهم» فهم جملة من الأمراء سماهم ، وطلب من ولده إبعادهم عن مناصبهم وعدم الاعتماد عليهم ، لأنه لن يستطيع التعامل معهم، بعد أن كشف عن خبيئة نفوسهم وخبثهم وما تكنه صدورهم من السوء [١٥٣]، ويتبع كل واحد من هؤلاء بالقول بأن الأمير فخر الدين ، مقدم العسكر ، يعرف كل هذه الأمور عن هؤلاء جميعا ، وعلى المعظم أن يأخذ برأيه حيالهم .

أما قول الصالح « وكتبته (أي الوصية) فى مدة طويلة » فلابد أن تكون هذه المدة هى الواقعة بين احتلال الحملة الصليبية السابعة لدمياط فى السادس من يونيه ١٢٤٩م / صفر ٦٤٧هـ، وموته فى الثالث والعشرين من نوفمبر من العام نفسه (ليلة النصف من شعبان) ، وهى فترة تمتد إلى خمسة شهور ونصف تقريبا ، وهى الفترة التى مرض فيها مرض الموت كما يخبرنا ابن واصل وابن العبرى والنويرى وغيرهم ، والنويرى يذكر ذلك صراحة فى عبارته التى سقناها منذ قليل حين قال : «وكان الملك الصالح فى مرض موته ، قد كتب إلى ولده الملك المعظم ...» . وهذا يفسر لنا من ناحية أخرى استبقاء السلطان الملك الصالح لقائد جيشه إلى جواره ، بعد أن شعر بدنو أجله ، للإشراف على تنظيم معسكر المنصورة التى انتقل إليها السلطان من أشموم طناح ، وتقويتها وتحصينها ، ومباشرة إدارة السلطنة فى تلك الفترة

---

(١٥٣) جاء فى الوصية : «القَيْمُرية» ، الولد (يعنى تورانشاه) لايسمع كلام بعضهم فى بعض ، وناصر الدين عنده كذب وخبث ، وما باطنه جيد، وقد عرفت الأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) الرسل الذين مُسكوا من دمشق إلى حلب من عنده ، والحسام (يعنى حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى) يكون بمفرده لاحل ولاربط ... وناصر الدين أرجل لايخرج مع عسكر ، وسيف الدين القيمرى تعمل معه ما يُقَرِّر مع الأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) ، يكون مقدم العسكر فى دمشق، وابن يغمور (جمال الدين) مُشد (الناظر فى حسابات الدواوين) ، وناصر الدين على المظالم ، فابن يغمور يصلح يكون مُشِد ووالى وجابى الأموال، ولايصلح يكون مقدم عسكر ، ولايصلح لجندية ، ولاتؤمن له كل الأمن ، بل تمشى (هكذ) به الحال فى مكان مدة ، ثم ينقل إلى غيره، وهو بالكتاب أليق ، وكذلك قرائب فخر الدبن عثمان كلهم لايصلحوا لجندية . . . فالأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) يعرف ما جرى منه، فهو نحس مفسد مخسخس ، وقد عرف الأخ فخر الدين حاله وما جرى منه فى دمياط وغير دمياط ، فما يصلح لصالحة. متولى ديوان الأحباس (الأوقاف) اصرفه وولى (كذا) ابن النحوى ... وطرائق ابن الحباب غير صالحة ، والوكيل اصرفه »، إضافة إلى عدد من أهل الذمة العاملين فى ديوان الجيش ، يرد إليهم الصالح الكثير من الفساد ، وأناس غير هؤلاء وأولئك . راجع النويرى، نهاية الأرب جـ ٢٩ ص. ٣٥٠-٣٥١ .

العصيبة التى تمر بها البلاد، من مرض السلطان مرض الموت ، واحتلال الصليبيين لجزء من الديار المصرية ، ولسنا فى حاجة الآن إلى القول إن كل هذا يكشف عن مدى الثقة التى كان يتمتع بها «الأخ» فخر الدين عند السلطان ، كما أكدت على ذلك كل كلمات وصيته . ولعل الملك الصالح كان يوقن تماما أن منافسى وحساد فخر الدين سوف يسلقونه بأقلام وألسنة حداد، فقرن فى أول وصيته بين ما حدث فى دمياط ونزاهة قائد جيشه وبراءته من أى اتهام .

ولابد أن يكون السلطان قد سلم هذه الوصية لواحد من أقرب المحيطين به وهم ثلاثة : زوجه شجر الدر، ومقدم عسكره الأمير فخر الدين والطواشى جمال الدين محسن ، لتسليمها إلى ولده تورانشاه عند قدومه إلى مصر، ويرجح أنه أعطاها لزوجه شجر الدر باعتبارها أقدر الثلاثة على حفظها وتسليمها لخليفته على العرش، حيث كان الجميع من الأمراء ومماليك السلطان يجلونها ويعرفون لها قدرها ، وقد بدا ذلك واضحا فى الفترة التى أعقبت وفاة الملك الصالح ، ولم يكن أحد من هؤلاء جميعا يجرؤ على المساس بمقتنياتها [١٥٤]. وليس من المستبعد أيضا أن يكون الصالح قد أومأ إليها شفاهة باستدعاء ابنه تورانشاه من حصن كيفا، بعد أن أوصى به ، كما أخبرنا المقريزى، وبعد أن قلده رسميا فى الوصية التى لم يُطلع السلطان عليها أحدا منهم ، فقد جاء فيها بالحرف الواحد، : «يا ولدى قلدت إليك أمور المسلمين ، فافعل فيهم ما أمرك الله به ورسوله». ولم يكن من المعقول أن يسلم الصالح هذه الوصية إلى الطواشى جمال الدين محسن ، وهو لم يعرض له كثيرا فى وصيته كما فعل مع الأمير فخر الدين، ولا كانت منزلته تؤهله لثقة كبار الأمراء فيه . ولا كان من المعقول أيضا أن يودعها لدى «الأخ» فخر الدين، لعلمه أنه مقدم عسكره ، وأن الحرب بينه وبين الصليبيين دائرة ، وأنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ، وأنه لايأمن عليها من العبث بأيدى مماليكه بعد وفاته ، وكأن الصالح كان يقرأ فى صحف الغيب عندما استشعر ذلك ، فقد رأينا ما حل بدار

---

(١٥٤) تضمنت الوصية ما يفيد هذا الرأى، إذ يقول الملك الصالح : «يا ولدى الوصية بأم خليل (وهو اللقب الذى كانت تكتنى به شجر الدر) فلها علىّ من الحقوق والخدمة ما لا أقدر أصفه ، إرع (فى الأصل ارعى) جانبها واكرمها واحترمها وارفع منزلتها ، فهى عندى بمنزلة عظيمة ، وكنت طيب القلب بصحبتها ، آمنا على نفسى من جهتها ، فاجعلها لك مثل الوالدة، واجتهد فى اتصال الراحة إليها ... ولاتخرج عن رأيها وتدبيرها ». النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٤١-٣٤٢ .

الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من النهب والتخريب على أيدى مماليكه . لقد جاء هؤلاء إلى داره «فكسروا صناديقه ونهبوا أكثر ما فيها ، ونهبت أمواله وخيله ، وأخذ الجولانى (نسبة إلى الجولان فى سوريا) قدور حمامه ، والدمياطى أبواب داره»[١٥٥] وهكذا لم يكن آمن على وصيته من زوجه أم خليل شجر الدر .

ومهما يكن من أمر ، فالذى يعنينا فى المقام الأول ، أن هذه الوصية جاءت شهادة حق على أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر المصرى، فى عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، والدبلوماسى الماهر فى أيام أبيه الملك الكامل محمد ، قد أدى واجبه كاملا فى خدمة بنى أيوب ، وظل على ولائه لهم، واخلاصه فى عمله العسكرى، حتى آخر أيام عمره. وهى فى الوقت نفسه ، أعنى الوصية ، دليل بالغ الدلالة على أن الاتهامات التى سيقت ضده من ابن واصل ومن سار على نهجه من المؤرخين القدامى والمحدثين ليس لها من الصحة نصيب .

---

(١٥٥) النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٣٩ .



المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على الجزرى) :

  - الكامل فى التاريخ ، إثنى عشر جزءاً ، القاهرة ١٣٥٧هـ .

  - التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، تحقيق ونشر عبد القادر أحمد طليمات ، القاهرة ١٩٦٣ .

- إبن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبدالله) :

  كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع المعنون «الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ .

- إبن تغرى بردى (أبو المحاسن) :

  النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية فى اثنى عشر جزءاً ، القاهرة بدون تاريخ .

- إبن جبير (أبو المحاسن محمد بن أحمد) :

  الرحلة ، بيروت ١٩٧٩ .

- إبن شداد (القاضى بهاء الدين) :

  النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤ .

- إبن العبرى (جريجوريوس الملطى) :

  - تاريخ الزمان ، بيروت ١٩٩١ .

  - تاريخ مختصر الدول ، بيروت بدون تاريخ .

- إبن العديم (أبو القاسم عمر بن أحمد) :

  زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٩٥١ .

- إبن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) :

  شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، بيروت بدون تاريخ .

- ابن العميد (المكين جرجس) :

  أخبار الأيوبيين ، القاهرة ، بدون تاريخ .

- إبن نظيف الحموى (أبو الفضائل محمد بن على) :

التاريخ المنصورى، تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودو، دمشق ١٩٨٢ .

- إبن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، الأجزاء الثلاثة الأولى تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة بدون تاريخ ، الجزءان الرابع والخامس تحقيق حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ ، ١٩٧٧ ، شذرات من الجزء السادس ، تحقيق محمد مصطفى زيادة فى كتابه حملة لويس التاسع على مصر ، القاهرة ١٩٦١ .

- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل) :

- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، جزءان فى مجلد واحد، بيروت بدون تاريخ .

- تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين ، المعروف بـ «الذيل على الروضتين»، بيروت بدون تاريخ .

- أبو الفدا (الملك المؤيد اسماعيل) :

- المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة ١٣٢٥هـ .

- ألبرت الأيكسى :

نصوص مختارة من كتابه، ضمن كتاب «الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق»، اختيار قاسم عبده قاسم، القاهرة بدون تاريخ .

- الحنبلى (أحمد بن ابراهيم) :

شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، تحقيق مديحة الشرقاوى ، القاهرة ١٩٩٦ .

- القلقشندى (أبو العباس أحمد) :

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩٦٣ .

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) :

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جزءان ، القاهرة (بولاق) ١٢٧٠هـ .

- السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤-١٩٥٨ .

- النويرى (شهاب الدين أحمد بن على) :

نهاية الأرب فى فنون الأدب ، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية فى ٣١ جزءًا ، القاهرة ١٩٦٣-١٩٩٢ .

- بطرس توديبود :

تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ترجمة حسين عطية ، الاسكندرية ١٩٩٢ .

- جوانفيل :

القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٨ .

- دانتى أليجيرى :

الكوميديا الإلهية ، ترجمة حسن عثمان ، القاهرة بدون تاريخ .

- روبير الراهب ،

رواية روبير الراهب عن مجمع كليرمونت ، ترجمة قاسم عبده قاسم فى كتابه «الحروب الصليبية، نصوص ووثائق »، القاهرة بدون تاريخ .

- رايموندااجيل :

تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ترجمة حسين عطية ، الاسكندرية ١٩٩٢ .

- سبط بن الجوزى (شمس الدين يوسف بن قزاوغلى) :

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، المجلد الثامن فى جزءين ، الهند ١٩٥١ .

- فوشيه الشارترى ،

تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ترجمة قاسم عبده قاسم تحت عنوان «الوجود الصليبى فى الشرق العربى»، الكويت ١٩٩٣ .

- فيلهاردوان ،

من مذكرات فيلهاردوان ، ترجمة حسن حبشى، جدة ١٩٨٢ .

- كلارى (روبرت) ،

فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٤ .

- مؤرخ مجهول ،

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٥٨ .

- وليم الصورى ،

أعمال الفرنجة فيما وراء البحار، نقله إلى العربية فى أربعة أجزاء تحت عنوان «الحروب الصليبية»، حسن حبشى ، القاهرة ١٩٩١-١٩٩٥ .

- ياقوت الحموى ،

معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٥ .

- ANNA COMNENA , Alexiad , translated by E. R. A. Sewter, Penguinbook 1969 .

- ADRIANUS IV, pope, Treaty between Adrian IV and William I of Sicily 1165 .

- EUGENIUS III, pope, Letter to king Louis VII of France .

- EUSTATHIUS of THESSALONICA , The Capture of Thessalonica by the Latins.

- FREDERICK II, emperor, promise of Frederick II to Innocent III 1213 .

  - promise of Frederick II to resign Sicily after his coronation as emperor 1216 .

- GREGORY VII , pope, - to the princes wishing to reconquest Spain, 1073 .

  - to Solomon , King of Hangary 1074 .

  - Calls for Crusade 1074 .

- GREGORY VIII , pope- Sumons Christians to repentance and describs the crusade as a test imposed by God, 1187 .

  - accords the Church's protection to the Crusader Hinco of Zerotjn 1187 .

- GREGORY IX , pope, Excommunication of Frederick II, 1239 .

- INNOCENT III , pope, - begins the taxation of the church for the crusades 1199 .

  - Sermon on Consecration of a pope.

  - decision in regard to the disputed election .

  - the decision of the disputed election of Frederick II, Philip of Subia and Otto of Brunswick, 1201

- grants the title of king to the duke of Pohemia 1204 .

- Letter to the Faithful in the Province of Narbone , Arles, Embrum, Aix and Vinne 1208 .

- proclaims the fifth Crusade 1213 .

- Letter to Conrad , dean of Speyer 1213 .

- Letter to the abbot of Salin , the former abbot of Neuburg, the dean of Speyer and the provest of Augsburg, 1213 .

- Letter to Conrad bishop of Regensbug, 1213 .

- Letter to king Jogn of England accepting his feudal homage 1214 .

- JOHN of ENGLAND , Concession of the kingdom to the pope 1213 .

- KINNAMUS , Deeds of JOHN and MANUEL COMNENUS translated by ch . M. Brand, New York 1976 .

- LIUTPRAND , de legatione Constantinopalitana, translated by F. A. Wright, London 1930 .

- MATLLDA , Countess of Tuscany, gives all her lands to the Church 1102 .

- NICETAS CHONIATES , Annales, translated by H. Magoulias, Detruit 1984 .

- ODDO of DEUIL , De profectione Ludovici VII in Orientem , edited with an English translation by V. G. Berry, New York.

- OTTO of FREISING, The deeds of Frederick Barbarossa, translated by Mierow, Toronto 1966 .

- PASCAL II, pope, the Firist Privilige which he granted to Henry V, 1111

- PSELLUS, Chronographia , translated by E. A. Sewter, Penguinbook 1996 .

- TREATY of SAN GERMANO, 1230

- URBAN II, pope - to all the faithful in Flanders, 1095 .

- to his partisans in Bologna, 1096 .

- to the religious of the Congregation of Vallombrosa , 1096 .

ثانيا : المراجع

- Angold (M.) , The Byzantine Empire, London 1984 .

- Barlow (F.) , The feudal Kingdom of England 1042- 1216 , London 1974 .

- Barraclough (G.), The origins of Modern Germany, Oxford 1947 .

- Bettenson (H.) , Documents of the Christian church, London 1956 .

- Bendikz (B.) , The evolution of the Varangian reginment in the Byzantine Army" BZ. 62 (1969) pp. 20-24 ; The Varangian of Byzantium , aspect of Buzantine Military history, Cambridge 1977

وأشكر لتلميذى السيد طارق منصور تفضله بتنبيهى إلى الإطلاع على المقال والكتاب .

- Brand (CH.), Byzantium Confronts the West, Harvard university press, 1968 .

- Brook (CH.) , Europe in the central Middle Ages, 962-1154, London 1966 .

- Bryce (J.) , The holy Roman Empire , London 1950 .

- Cantor (N.) , The Medieval world 300-1300, London 1968 .

- Care (R.) & Coulson (H), A source book for Medieval economic history , New York 1965 .

- Davis (R H.) , A history of Medieval Europe, from Constantine to St. Lious, London 1957 .

- Dvornik (F.), Photian Schism , history and legend, Cambridge 1948 .

- Geanakopolos (D. J.), Byzantium , Church, Society and Civilzation, seen through Contemporary eyes, Chicago 1984 .

- Grousset (R.), Histoire des Croisades, et du Royame Frane de Jerusalem , 3 tomes, Paris 1943 - 1946

- Haskins (CH.), The Normans in European history, New York 1966 .

- Hinderson (E.F.), Select historical documents of the Middle Ages, London 1923 .

- Hodgett (G. A.) A Social and economic history of Medieval Europe , London 1972 .

- Kantrowicz (E.), Frederick the Second , London 1931.

- Magdalino (P.) , The phenomenon of Manuel I Comnenus *(in Tradition and trans-fromation in Medieval Byzantium, Variorum , Hampshire 1991)*.

- Nicol (B. M.) , The Byzantine view of Western Europe (in Greak, Raman and Byzantine Studies , VIII 1967), *republished in Byzantium : its ecclesiastical history and relations with the western world , Collected Studies, Variorum reprints, London 1972 .*

- Byzantium and the Papacy in the eleventh Century , (in Journal of ecclsiastical history XIII 1962), *republished in Variorum , London 1972 .*

- Ostrogorsky (G.), History of the Byzantine State, Oxford 1956 .

- The Oxford Dictionary of Byzantium , 3 vols. Oxford 1991 .

- Pierenne (H.), - A history of Europe, London 1961.

  - Economic and Social history of Medieval Europe, London 1972 .

- Pounds (N. J.) , An economic history of Medieval Europe, London 1974 .

- Riley- Smith, The Crusades, Idea and Reality, 1095-1274 , documents of Medieval history , London 1981 .

- Runciman (S.) , - A history of the Crusades, 3 vols. London 1965 .

  - The Eastern Schism, a study of the Papacy and the Eastern Churchs during the XI and XII centuries, Oxford 1956 .

- Scott (M.), Medieval Europe, London 1975

- Setton (K.) , A history of the Crusades, 6 vols philadelphia 1955-1989 .

- Thatcher (O.) & Mc Neal (E), A source book of Mediaeval history , new York .

- Thompson (J.), & Johnson (E.), An introduction to Medieval Europe , New York 1965.

- Tierney (B.), The Crisis of Church and State, 1050-1300, U. S. A 1964 .

- Tout (T. F.), The Empire and papacy , London 1924 .

- UILmann (W.), The growth of papcy government in the Middle Ages , London 1955

- Vasiliev (A.A.), A history of the Byzantine Empire, 2 vols. Madison & Milwaukee 1964 .

- Waley (D.), Later Medieval Europe from st. Louis to Luther , London 1976 .

- اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، من قطيعة فوشيوش حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ، القاهرة ١٩٧٠ .

- باركر (إرنست) ، الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٦٠ .

- بينز (نورمان) ، الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس، ومحمود زايد ، القاهرة ١٩٥٧ .

- جوزيف جاى ديس ، الزنديق الأعظم ، ترجمة أحمد نجيب هاشم ، القاهرة بدون تاريخ .

- جوزيف نسيم يوسف- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، القاهرة ١٩٦٧ .

- العدوان الصليبى على مصر، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة وفارسكور ، الاسكندرية ١٩٦٩ .

- نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ١٩٧١ .

- حامد زيان ، العلماء بين الحرب والسياسة فى العصر الأيوبى، أسرة شيخ الشيوخ ، القاهرة ١٩٧٩ .

- حسن عبد الوهاب ، هدنة القدس فى فتوى المؤرخ القاضى ابن أبى الدم الحموى ، دراسة تحليلية مقارنة (وقد تفضل الباحث بأطلاعى على مخطوط البحث قبل نشره ، فله منى كل الشكر والتقدير) .

- درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، القاهرة ١٩٧٩ .

- ديل (شارل) ، البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة بدون تاريخ .

- رأفت عبد الحميد، - الدولة والكنيسة ، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٨٢ - ١٩٨٤ .

- الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب، (مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثانى، القاهرة ١٩٨٣) ص٨٣-١٤٤ .

- السمو البابوى بين النظرية والتطبيق ، (مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثالث، القاهرة ١٩٨٥) ص١٥٨-٢٢٥ .

– بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، القاهر١٩٩٧ .

– رانسيمان (ستفن) ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٦١ .

– زابوروف (ميخائيل) ، الصليبيون فى الشرق ، موسكو ١٩٨٦ .

– ستانلى لين بول، صلاح الدين ترجمة فاروق سعد أبوجابر ، القاهرة ١٩٩٥ .

– سعيد عاشور ، – الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩ .

– الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى (المجلة التاريخية المصرية، المجلد الحادى عشر، سنة ١٩٦٣) .

– الحركة الصليبية ، جزءان ، القاهرة ١٩٨٣ .

– أوروبا العصور ، جزءان ، القاهرة ١٩٨٣ .

– السيد الباز العرينى، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٣ .

– الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، الأيوبيون ، بدون تاريخ .

– عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف ، القاهرة ١٩٧٢ .

– عفاف صبرة ، العلاقات بين الشرق والغرب ، علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠ ، القاهرة ١٩٨٣ .

– فيشر (هربرت) ، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العرينى ، جزءان ، القاهرة ١٩٦٦ .

– كرامب (ج.) ، جاكوب (إ.) تراث العصور الوسطى، جزءان ، ترجمة مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية تحت إشراف محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٥ .

– ماير (إ. هـ.) ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة عماد الدين غانم ، ليبيا ١٩٩٠ .

– محمد كامل ليلة ، النظم السياسية، القاهرة ١٩٦٣ .

– محمد محمد أمين ، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب– جامعة القاهرة .

– محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

– محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية الخامسة ، القاهرة ١٩٨٥ .

– هايد (ف.) تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا فى ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٨٥-١٩٩٤ .

– هسى (ج. م.) العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، القاهرة ١٩٨٤ .

as - Shaikh , Who paired the sword with the pen and the war with diplomacy. He was the counciller of king AL- Kamel , and the leader of the troops during the era of the king as- Salih Ayyub, and one of the knights who paved the way to the battle of AL- Mansura in 1250, which marked the beginning of the end of the whole movement of the Crusades , after the French king , Loius IX, was badly defeated by the Egyptian army and taken as a captive to the residence of Judge Ibn- Luqman .

I was then grieved to know that prince Fakhr ad- Din Ibn as - Shaikh was not given his due of gratitude for what he had done to protect and defend Egypt. Conversely , I found no judge in the court of history defending him against the false accusations that robbed him of his military honour. So , for one whole Year , I decided to stay constantly with prince Fakhr ad- Din, Share his grievances and try to defend him , hoping to succeed in presenting the objective correlative for his deeds in their relative context .

DR. RAAFAT ABDEL- HAMID

or mercenaries whom Byzantium brought to struggle under its leaders and be paid out of its treasur to fulfil its purposes of restoring the lands previously lost to the Seljuks after the Manzikert disaster in 1071 ? It was discovered that there was a wide gap between the aims of the Latins and those of the Byzantines, when they set out the war inspite of the fact that all the Crusaders, with the Papacy on top, were very much interested in gaining Constantinople, which fell in 1204, giving the Latin West world the chance to celebrate the downfall of an "apostate church and a rebellious nation" .

In the Islamic World , King AL- Kamel Mohamed , the Ayyubid Sultan in Egypt, was a very remarkable figure who attracted my attention by his courtesy, keenness and political decorum . He was identified with these qualities more than any other Islamic Leader at the time. However, I was shocked by the great bulk of mud - slinging that his contemporaries threw at him . They claimed that he had gone too far in negotiating peace with the Crusaders and thereby abandoning the Muslims'rights and their "Jihad cause" when he handed over Jerusalem to Emperor Frederick II. Reports then treated the subject mostly in silence of secrecy in order to avoid ambarrassment , although history should not be " courteaus". This encouraged me to read again the text in detail to delve deep into that Age of AL Kamil AL Ayyubid and the Germano- Norman Frederick II . I was fully immersed in the very special relations that stamped the deals and the acts of these two men who were really "Stupor mundi" at that time , both for their enhanced culture and wide knowledge in a world of fanatics.

Going through these three worlds, my cherished stop was Egypt; the heart of the Islamic world and the Continous Source of pain for the Crusaders who announced that Egypt was the "head of the Snake" that should be struck down to enable their existance in Syria to continue . I have selected one of Egypt's great leaders to write about; prince Fakhr ad- Din Ibn

en a back by its various incidents . Moreover, Since I started this research into the bifocal issues of the Middle Ages; the Latin and the Byzantine, I have found that it cannot be taken a step further without the Islamic world being considered . However the Crusades extending through the end of the eleventh century till the end of thirteenth century , represent the meeting point of these three Spheres with their different cultures and backgrounds.

This book does not tackle the war or even its facts, Causes and results, simbly because these matters have been previously dealt with by many researchers. The interest lies in the three above mentioned spheres in the main. From each realm a case has been chosen that could very well represents it, but extends and merge in the next only to end there . It widens to contain the other two worlds.

It was naturally convenient to consider the Latins first, as they motivated the idea od the crusades . I concentrated on the thoughts of the Papacy which triggered the war from the start in the age of Gregory VII, the "Holy Satan" and then through his successors till the end of the wars . Playing the role of an investigator I started posing questions like : was the Papacy, who invented the whole idea, eally pushing the Crusades to their success ? Or was it serious in spending all its resources to make these military expeditions fail ? Why was that and how ?

Then Comes the Byzantine world whose leaders and citizens were accused of being heretics, betrayig the crusaders , and turning their backs on them. Playing the role of an investigator again, I questioned the Byzantine emperors, historians and politican on the starting point with Constantinople's involvment in the wars !

Was it the massive armies , Kings, princes, and reckless people , or men escaping from debts and duties, brigands, thieves , sinful men , adulterers ,

Introduction

Throughout the Course of history , nothing has been given so much consideration, study, analysis and criticism as the period of the Crusades. This epoch was endowed with so many writings including the modern titles that fill both the Eastern and the Western libraries , and particularly the contem porary historic , Geographic and artistic resources.

This historic period , the Crusades, mainly involved three realms ; first the Latin West World , the innovator of these wars and the holder of its Cross. Second the Byzantine World , which has been and is still believed by many Western and Eastern Scholars to have directly responsible for provoking these wars, which is a falsity . However this bilief is not entirely true , as the Byzantine world was negatively affected much as the Islamic world was . Third , the Islamic world that bore the grief of the wars for two hundred years, a situation that was very much regreted by the impartial grandsons of the Crusaders who considered these wars to be a black spot and disgrace in the history of Catholic church .

It was natural then for the historians of those three worlds to record the facts and the incidents of the Crusades , each from his own point of view . The Latins were either justifiers, defenders , rejoicers, or mere narrators. The Byzanantines were resentful, dissatisfied or cautious. The Muslims were either poineers, urging inductive of "Jihad" or proud of victory , or a piercing eye. This wide variety of interprations produced a great heritage for which any modern scholar of the Crusede period is deeply indebted .

Like many other researchers , I was greatly enchanted by its glamorous and dim aspects. I then filtered my way into its winding paths only to be tak-

Cases From the

Crusades

DR. RAAFAT ABDEL-HAMID